١

من كتابه في
الحاسِد والمحسُود

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

١ - فصل
من صدر كتابه
في الحاسد والمحسود(١)

وهَبَ الله لك السلامة ، وأَدام لك الكرامة ، ورزقَكَ الاستقامة ، ورفع عنك النَّدامة .

كتبت إليّ - أَيَّدكَ الله - تسأَلني عن الحسد ما هو ؟ ومن أَين هو ؟ وما دليلُه وأَفعاله ؟ وكيف تُعرف أُموره وأَحواله(٢) ، وبِمَ يُعرف ظاهره ومكتومه ،وكيف يعلم مجهوله ومعلومه ، ولِمَ صارفي العلماء(٣) أَكثَرَ منه في الجهلاء ؟ ولِمَ كثُر في الأَقرباء وقلَّ في البعداء(٤) ؟ وكيف دبَّ في الصَّالحين أَكثَرَ منه في الفاسقين ؟ وكيف خُصَّ به الجيران مِنْ بَيْن جميع أَهل الأَوطان(٥) .

والحسد - أَبقاك الله - داءٌ يَنَهك الجسد ، ويُفسد الودّ(٦) ، علاجُه

(١) نشرت كاملة من قبل في مجموعة رسائل الجاحظ نشرة الساسي ١٣٢٤. وقد أشرت إليها بالرمز « مج » .

(٢) مج : « وكيف تفرقت » . وفي ب : « أموره أحواله » ،تحريف .

(٣) ب : « ولم صاروا العلماء » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) مج : « وقل منه في البعداء » .

(٥) مج : « من جميع الأوطان » .

(٦) م : « الرد » تحريف . وفي ط ، مج : « الأود » ، وهي بضم الواو جمع ود بالكسر وهو الحبيب ، مثل قدح وأقداح .

عَسِر[١]، وصاحبه ضجِر[٢]. وهو بابٌ غامضٌ وأمر متعذِّر، وما ظهر منه فلا يُداوَى، وما بطن منه فمُداويهِ فى عَناء. ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: «دبَّ إليكم داءُ الأُممِ[٣] من قبلِكم: الحَسَدُ والبغضاء». [وقال بعض الناس لجلسائه: أىُّ الناس أقلُّ غفلة؟ فقال بعضهم: صاحبُ ليلٍ، إنَّما همُّه أن يُصبح. فقال: إنه لكذا وليس كذا. وقال بعضهم: المسافر، إنَّما همُّه أن يقطع سفره. فقال: إنه لكذا وليس كذا. فقالوا له: فأَخبرنا بأَقلِّ النَّاس غفلة. فقال: الحاسدُ، إنما همُّه أن ينزِع الله منك النعمةَ التى أعطاكها، فلا يغفُل أبداً.

ويروى عن الحسن أنه قال: الحسد أسرعُ فى الدِّين من النار فى الحطب اليابس[٤]].

وما أُتِىَ المحسودُ من حاسده إلَّا من قبل فَضْل الله عنده ونعمه عليه[٥] قال الله عزّ وجلّ: ﴿ أَم يَحْسُدون النَّاسَ على ما آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحِكمَة وآتيناهُمْ مُلكاً عظيماً[٦] ﴾.

والحسد عَقِيدُ الكُفر، وحليفُ الباطل، وضدُّ الحقِّ، وحربُ البيان. فقد ذمَّ الله أهل الكتاب به فقال: ﴿ وَدَّ كثيرٌ من أهلِ الكتاب لو يَرُدُّونكم من بعدِ إيمانِكم كُفَّاراً حَسَداً من عِنْدِ أنفسهم[٧] ﴾.

---

(١) ب: «وعلاجه عسير» م «علاجه عسير»، وأثبتت ما فى ط، ومج.
(٢) م «ضجير»، تحريف.
(٣) داء الأمم، ساقطة من ب. والحديث رواه أحمد والترمذى. الجامع الصغير ١: ٥٦٣.
(٤) هذه التكملة من ط، مج.
(٥) مج: «من قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه».
(٦) الآية ٥٤ من سورة النساء.
(٧) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

منه تتولد العداوة (١) ، وهو سببُ كلِّ قطيعة ، ومُنتج (٢) كلِّ وحشة ، ومفرِّق كلِّ جماعة ، وقاطع كلِّ رحمٍ بين الأَقرباء (٣) ، ومُحدث التفرُّق بين القُرَناء ، ومُلْقح الشرِّ بين الخلطاء (٤) ، يكمُن في الصدر كمونَ النَّار في الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد بعدَ (٥) تراكُم الغموم على قلبه ، واستمكان (٦) الحزن في جوفه ، وكثرة مَضَضه ووَسواسِ ضميره ، وتنغُّص (٧) عمره وكدَرِ نفسه ونكد عيشه (٨) ، إلا استصغارُه (٩) نعمةَ الله عليه (١٠) ، وسخطُه على سيِّده بما أَفاد غيره (١١) . وتمنِّيه عليه أَن يرجع في هبته إيّاه ، وأَن لا يرزق أَحداً سواه ، لكان عندَ ذوى العقول مرحوماً (١٢) ، وكان لديهم (١٣) في القياس مظلوماً . [وقد قال بعضُ الأَعراب : ما رأَيتُ ظالماً أَشبه بمظلومٍ من الحاسد : نَفَسٌ دائم ، وقلبٌ هائم ، وحزنٌ لازم (١٤)]

---

(١) مج : « فنه » ، ب فقط : « يتولد » .
(٢) ب : « وسخ » بإهمال الحرف الثانى ، ولعلها « سنخ » بكسر السين ، بمعنى الأصل ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٣) ب ، ط : « من الأقرباء » .
(٤) ب ، ط : « بين الحلفاء » .
(٥) م : « غير »
(٦) ب ، ط : « واستكان » ، تحريف .
(٧) مج : « وتنغيص » .
(٨) مج : « ونكد لذاذة معاشه » .
(٩) م : « إلى » .
(١٠) ط ، م : « نعمة الله » فقط ، وفى مج : « لنعمة الله عنده » ، وأثبت ما فى ب .
(١١) مج : « بما أفاده الله عبده » .
(١٢) م ، ط : « مرجوماً » بالجيم . وفى هامش م : « لعله مرحوماً » .
(١٣) مج : « وكان عندهم » وكذا أثبتت بخط مخالف فوقها فى م .
(١٤) التكملة من ط ، مج .

والحاسد مخذول وموزور[١] ، والمحسود محبوب ومنصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مَغْشيٌّ ومَزُور[٢] .

والحسد – رحمك الله – أول خطيئة ظهرت فى السموات ، وأول معصية حدثَت فى الأَرض ، خُصَّ به أَفضلُ الملائكة فعصَى ربَّه ، وقايسه فى خلقه[٣] ، واستكبر عليه فقال : ﴿خَلَقْتَنِى من نارٍ وخَلَقْتَه مِنْ طِينٍ[٤]﴾ ، فلعنَه وجعله إبليساً ، وأَنزله من جِواره بعد كان أنيسًا ، وشوّه خلقه تشويهاً ، وموّه على نبيِّه[٥] تمويهاً نسِيَ به عزمَ ربِّه ،فواقع الخَطيئة ، فارتدع المحسود[٦] وتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد فى حسده[٧] فشَقِيَ وغَوى .

وأَما فى الأَرض فابنا آدم[٨] حيث قَتل[٩] أَحدُهما أَخاه ، فعصى ربَّه وأَثكل أَباه . وبالحسد طوّعت له نفسُه قتلَ أَخيه فقتلَه فأَصبح من الخاسرين .

لقد حمله الحسدُ على غاية القسوة[١٠] ، وبلغ [به[١١]] أَقصى حدود

---

(١) موزور ، من الوزر ، وهو الذنب والإثم ، ويقال مأزور ، أيضاً بالإبدال ، ومنه فى الحديث : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » . وفى مج : « ومأزور » على الإبدال .

(٢) مغشى : يغشاه الناس ويزورونه . م : « مغمور ومسرور » وبخط مخالف فوقها : « مغشى ومزور » كما فى مج . وفى ب : « مغشى ومسرور » .

(٣) مج وتعليقات م : « وقايسه بخلقه » .

(٤) من الآية ١٢ من الأعراف ، ٧٦ من سورة ص .

(٥) ب ، ط : «على مثله» ، م : « على تمثيله » ، مج : «على أنبيائه» ولعل وجهه ما أثبت .

(٦) ب : « فارتجع » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٧) مج وبخط مخالف فى م : « على حسده » .

(٨) ب فقط : « فأبناء آدم » ، تحريف .

(٩) ب ، ط : « حسد » موضع « حيث قتل » .

(١٠) ب ، ط : « فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة » .

(١١) التكملة من م ، مج .

العقوق ، فأنساه من رَحِمه جميعَ الحقوق[١] ، إذْ ألقى الحجر عليه شادخاً[٢] وأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيًّا أن يوبِّخه على المال فيقول[٣] : جَمَعه حراماً ومنعه أثَاماً[٤] . وألَّبَ[٥] عليه محاويجَ أقاربه فتركهم له خُصَماءَ[٦] ، وأعانهم فى الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر وقال له[٧] : لقد كفروا معروفَك ، وأظهروا فى الناس ذمَّك ، فليس[٨] أمثالهم يُوصلون ، فإنهم لا يَشْكرون . وإن وجد له[٩] خصماً أعانه عليه[١٠] ظلماً ، وإنْ كان ممن يعاشره فاستشارَهُ غَشَّه ، أو تَفَضَّل عليه بمعروفٍ كَفَره[١١] ، أو دعاه إلى نصرٍ خذله ، وإن حضَر[١٢] مَدْحَه ذَمَّه وإن سُئل عنه همزه ، وإن كانت[١٣] عنده شهادةٌ كتمها ، وإن كانت منه إليه زَلَّة[١٤] عظَّمها ، [وقال : إنَّه[١٥]] يحب أن يعاد ولا يعود ، ويُرى عليه العُقود[١٦] .

(١) ب ، ط : « من رحمته » ، وأثبت ما فى م ، وهذه العبارة ساقطة من مج .
(٢) الشدخ : الكسر والتهشيم . ماعدا مج : « تفادخا » ، والمعروف الفدخ ، فدخه يفدخه فدخاً : شدخه .
(٣) م ، مج : « وقال » .
(٤) الأثام ، كسحاب : الإثم والذنب . ماعدا مج : « أيتاماً » .
(٥) ألبهم تأليباً : جمعهم على عداوته . ماعدا مج : « وغلب » .
(٦) خصماء : جمع خصيم ، وهو المخاصم ، كالجليس بمعنى المجالس . ب ، ط : « خصماً » .
(٧) ب ، ط : « فقال » فقط .
(٨) ب ، ط : « ليس » فقط . م : « وليس » ، وأثبت ما فى مج .
(٩) ط ، ب : « لهم » ، صوابه فى م ، مج .
(١٠) م : عليهم » ، تحريف .
(١١) ب : « أو يفصل عليه معروف كفره » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٢) م ، مج : « أو حضر » .
(١٣) مج : « أو كانت » .
(١٤) الزلة : الخطيئة والسقطة . ب فقط : « ذلة » تحريف .
(١٥) التكملة من مج .
(١٦) هذا ما فى مج . وفى سائر النسخ : « القعود » . وكان العرب يقعدون الخزز لرؤسائهم وملوكهم . انظر ما سيأتى فى نهاية هذا الفصل ص ١٠ .

وإن كان المحسود عالماً قال : مبتدع ، ولرأيه مُتَّبِع[١] ، حاطبُ ليلٍ ومبتغى نَيْل[٢] ، لا يدرى[٣] ما حمل ، قد ترك العمل ، وأَقْبل على الحيل[٤] . قد أَقبل بوجوه النّاس إليه ، وما أَحْمقَهم إذ انثالوا عليه[٥] . فَقَبَّحه الله من عالمٍ ما أَعظم بليّته[٦] ، وأَقلَّ رِعَته[٧] ، وأَسوأَ طعمته[٨] .

وإن كان المحسود ذا دِينٍ قال : مُتَصنِّعٌ يغزو ليُوصَى إليه[٩] ، ويحجُّ ليثنَى بشيءٍ عليه[١٠] ، ويصوم لتُقبِل شهادته[١١] ، ويُظهِر النُّسك ليُودَع المالُ بيتَه ، ويقرأُ فى المسجد ليزوِّجه جارُه ابنتَه ، ويَحضُر الجنائز لتُعرفَ شُهرته .

وما لقيتَ[١٢] حاسداً قطُّ إلَّا تبيَّن لكَ[١٣] مكنونُه بتغيُّر لونه وتخوُّص عينه[١٤] وإخفاءِ سلامه ، والإقبالِ على غيرك والإعراض

---

(١) أى إنه يتبع غيره فى الرأى ، ليس بذى رأى . ب ، ط : « لرأيه » بسقوط الواو .

(٢) مج : « ومتبع نيل » .

(٣) م ، مج : « ما يدرى » .

(٤) ب ، ط : « فأقبل على الحيل » .

(٥) انثالوا عليه : انصبوا وتتابعوا . ب : « انتالوا » صوابه فى سائر النسخ .

(٦) ب : « بالتيه » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٧) الرعة ، كعدة : الورع والكف عن السوء والقبيح . م ، مج : « رعيته » وهى الاسم من الرعى ، كما فى اللسان (رعى ٤٢) .

(٨) الطعمة ، بالضم والكسر : وجه المكسب » .

(٩) ب ، ط : « يتصنع أن يوصى إليه » ، صوابه فى م ، مج .

(١٠) ب « ويحج لشىء عليه » م ، مج : « ليثنى عليه » ، وأثبت ما فى ط . وما بعده من الكلام إلى « بيته » ساقط من مج .

(١١) ب ، م : « ليقبل شهادته .

(١٢) م : « وما رأيت » .

(١٣) كلمة «لك» ساقطة من ط ، م وبدلها فى ب : « لى » .

(١٤) التخوص ، من الخوص ، وهو ضيق العين وغؤورها . والمعروف المخاوصة والتخاوص . م : « وتغوص » مج : « وتخويص » ، وأثبت ما فى ب ، ط .

عنك(١) ، والاستثقالِ لحديثك(٢) ، والخلاف لرأيك(٣) .

وكان عبد الله بن أُبيّ(٤) ، قبل نفاقه ، نسيجَ وحدِه(٥) لجودة رأْيه وبُعد همّته ، ونُبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسِّيادة ، وإذعانهم له بالرِّياسة . وما استوجَبَ ذلك إلّا بعدما استجمع له لُبُّه(٦) ، وتبيَّن لهم عقله ، وافتقدوا منه جهله(٧) ، ورأَوه لذلك أهلًا ، لمَّا أَطاق [له(٨)] حملًا. فلما بعث الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم وقدِمَ المدينة ،ورأى هو عزّ رسول الله صلى الله عليه وسلم(٩) شمَخ بأنفه(١٠) فهدم إسلامَه لحسده(١١) ، وأظهر نفاقه.وما صار منافقاً حتَّى كان حسوداً ، ولا صار حسوداً حتَّى صار حقوداً . فحُمقَ بعد اللُّبّ(١٢) ، وجَهِل بعد العَقْل ، وتبوَّأ النَّار بعد الجنَّة .

(١) مج : « والإعراض عنك والإقبال على غيرك » .
(٢) ب ، ط : « والاستقبال لحديثك » ، تحريف .
(٣) بعده في مج : ولذلك قال القائل :

طـــال على الحاســد أحـزانه ... فاصفـــر من كثرة أحـــزانه
دعــه فقـــد أشعلـت في جوفـه ... مـا هـــاج منه حر نيرانه
العيب أشهى عنـــده لــــذة ... من لــذة المــــال لخزانه
فـــارم عــلى غــاربه حبـــله ... تســـلم من كثرة بهتـــانه

وقد انفردت نسخة ط بهذا الإنشاد في نهاية هذا الفصل ، كما سيأتي .
(٤) عبد الله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين في أول الإسلام . وسلول جدته نسب إليها . وجده مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الحبلى بن غنم بن عوف بن الخزرج . وابنه عبد الله ابن عبد الله كان من فضلاء الصحابة بدرياً ، قتل يوم اليمامة . جمهرة أنساب العرب ٣٥٤-٣٥٥.
(٥) يقال هو نسيج وحده ، أي لا نظير له ، كما أن الثوب إذا كان كريماً لم ينسج على منواله غيره لدقته . ط : « يسبح وحده » وكذا في أصل م . وأثبت ما في ب ، ومج .
(٦) م : « له إليه » ، ط : « لهم لبه » ، وأثبت ما في ب ، مج .
(٧) ب : « وفقد بينهم جهله » ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ .
(٨) التكملة من م ، مج .
(٩) ب ، م ، ط : « ورأى غيره » وصححت في م : « ورأى عز رسول الله » ، وأثبت ما في مج .
(١٠) شمخ بأنفه : تكبر . ماعدا مج : « تشمخ بأنفه »، تحريف .
(١١) مج : « فحسده فهدم إسلامه » .
(١٢) اللب : العقل . ب فقط : « بعد الله » تحريف .

ولقد خطب النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : يا رسول الله لا تَلُمْه[١] ، فإنَّا كنا عقدْنا له الخرَز[٢] قَبل قدومك لنتوِّجَه .

ولو سَلَّم المخذول[٣] قلبَه من الحسد لكان من الإسْلام بمكان ، ومن السُّودد فى ارتفاع . فوضعه اللهُ لحسده ، وأظهَرَ نفاقه[٤] . [ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانُه فاصفرّ من كثرة أحزانه
دعْهُ فقد أشعلتَ فى جوفه ما هاجَ من حرِّ نيرانه
العيبُ أشهى عنده لذَّةً من لذَّة المال لخُزَّانه
فارمِ على غاربه حبلَه تَسلمْ من كثرة بهتانِه[٥]]

---

(١) ب فقط : « لا تكلمه » .

(٢) خرزات الملك : جواهر تاجه . ويقال : كان الملك إذا ملك عاما زيدت فى تاجه خرزة ليعلم عدد سنى ملكه .

(٣) يعنى عبد الله بن أبى ، خذله الله . ط ، ب : « للمخذول » . سلم قلبه من الحسد : وقاه إياه وبرأه منه .

(٤) مج : « بحسده وإظهار نفاقه » .

(٥) التكملة من ط . وقد وردت فى مج قبل هذا الموضع كما سبقت الإشارة إليه فى ص ٩ . وأثبتها أحمد تيمور بخطه فى هذا الموضع .

٢ — فصل
في حسد الجيران

وذلك أنَّ الجيران — يرحمك الله — طلائعُ عليك، وعيونهم نواظرُ إليك، فمتى[١] كنتَ بينهم مُعْدِماً[٢] فأيسرت، فبذلت وأعطيت، وكسوت وأطعمت، وكانوا في مثل حالك فاتّضعوا، وسُلبوا النعمة وأُلبِستَها [أنت[٣]]، فعظمت عليهم بليّة الحَسد، وصاروا[٤] منه في تنغيص آخر الأبد[٥]. ولولا أن المحسود بنصر الله إيّاه مستور، وهو بصنعه محجوب[٦] لم يأْت عليه يوم إلّا كان مقهوراً، ولم تأْت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصوراً. ولم يُمْسِ إلّا وماله مسلوب، ودمُه مسفوك، وعرضه بالضَّرب منهوك.

---

(١) ب ، مج : « فعسى » .
(٢) معدماً ، ساقطة من ب .
(٣) التكملة من مج .
(٤) ب فقط : « وساروا » .
(٥) م : « لآخر الأبد » .
(٦) ما عدا مج : « محجور » بالراء .

٣ – فصل منه

وأنا أقول حقاً(١) : ما خالط الحسد قلباً إلّا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تَسْجِينِهِ(٢) وكتمانه ، حتى يتمرّد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده(٣) ويستميله(٤) ، ويستنطقه لظهوره عليه(٥) فهو أغلب على صاحبه من السيّد على عبده ، ومن السُّلطان على رعيّته ، ومن الرّجل على زوجتِه ومن الآسر على أسيره(٦) .

وكان ابنُ الزُّبير بالصبر موصوفاً ، وبالدَّهاء معروفاً ، وبالعقل موسوماً ، وبالمداراةِ منهوماً(٧) ، فأظهر بلسانه حسداً كان أضبّ عليه(٨) أربعين سنةً لبني هاشم ، فما اتَّسع قلبه لكتمانه ، ولا صَبرَ على اكتتامه ، لمَّا طالت(٩) في قلبه طائلته(١٠) أظهره وأعلنه ، مع صبره على المكاره ، وحمله نفسَه على حتفها(١١) ، وقلة اكترائه والتفاته

(١) مج : « وأقول » .
(٢) التسجين : تفعيل من السجن ، أي الحبس ، والمراد الكتمان . وفي اللسان : « وسجن الهم يسجنه ، إذا لم يبثه » . وأنشد :
ولا تسجنن الهم إن لسجنــه عنـاء وحمله المهـارى النواجيـا
والكلمة محرفة في النسخ ، فهي في ب : « تسخينه » وسائر النسخ : « تشحينه » ، والوجه ما أثبت .
(٣) ب ، ط : « فليستعبده » . وفي هامش م : « فيستفيده » ، وما أثبت من مج .
(٤) ما عدا ط : « ويستعمله » .
(٥) ب م : « لقهوره عليه » ، مج : « لقهره عليه » ، وأثبت ما في ط وهامش م .
(٦) ب : « على الأسيرة » م : « أسيرته » ط : « الأسير » وأثبت ما في مج .
(٧) المنهوم بالشيء : المولع به . وفي الحديث : « منهومان لا يشبعان : منهوم بالمال ومنهوم بالعلم . ط فقط : « متهوماً » .
(٨) يقال أضب فلان على غل في قلبه ، أي أضمره وأخفاه . م ، ط : « واظب عليه » تحريف . والكلام بعده إلى « اكتتامه » ساقط من مج .
(٩) م : « لما طال » .
(١٠) ما عدا مج : « طيلة »
(١١) الحتف : الهلاك . ما عدا مج : « خسفها » .

لأحجار المجانيق التى[1] [كانت[2]] تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه[3] ما يلتفت إليها .

حُدِّثت بذلك عن علىّ بنُ مُسْهِر[4] عن الأعمش،عن صالح بن حَبَّاب[5] ، عن سعيد بن جُبَير قال : قُدتُ ابنَ عباس[6] حتّى أدخلتُه على ابن الزُّبيرِ ، قال : أنت الذى تؤنِّبنى ؟ قال : نعم ، لأنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس بمؤمن من بات شبعاناً[7] وجارُه طاوٍ[8] » . فقال له ابن الزُّبير : لمن قلت ذلك ؟ إنِّى[9] لأكتم بُغضَكم أهلَ البيت مُذْ[10] أربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنَّهما عَسيبا نخل ،ثم قال لابن الزبير : نعم فليبلغ ذاك منك ، ما عرفتُك .

ولقد أجلْتُ الرأى ظهراً لبطن وفكَّرت فى جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده ، وكانت وخْزَةٌ[11] فى قلبه فلم

---

(١) ب : « الذى » ، تحريف .

(٢) التكلة من مج .

(٣) ب ، م : « ثوبه » ، وأثبت ما فى ط ، مج . وهامش م .

(٤) بضم الميم وسكون المهملة وكسر الهاء ، كما فى التقريب . وهو أبو الحسن على بن مسهر القرشى الكوفى قاضى الموصل . ذكره ابن حيان فى الثقات وقال : مات سنة ١٨٩ . تهذيب التهذيب .

(٥) مج : « طلح بن حيان » . ولعله « صالح بن حبان » المترجم فى تهذيب التهذيب .

(٦) كان عبد الله بن عباس رضى الله عنه قد عمى فى آخر عمره ، كما عمى أبوه وجده . وقال له معاوية يوماً : ما لكم تصابون فى أبصاركم يا بنى هاشم ؟ فقال له : كما تصابون فى بصائركم يا بنى أمية ! نكت الهميان ١٨٠ – ١٨٢

(٧) كذا جاء مصروفاً منوناً ، وهذا بالنظر إلى أن مؤنثه شبعانة . وبالنظر إلى أن مؤنثه شبعى يمنع من الصرف ، وكلاهما مسموع . وفى مج : « شبعان » بالمنع من الصرف .

(٨) الطاوى : الجائع الخالى البطن ، كأنه طوى بطنه .

(٩) ب : « لأنى » .

(١٠) م : « منذ » .

(١١) الوخزة : الطعنة . ب ، م : « وخذة » بالذال ، تحريف ، وليس لوخذ مادة فى المعاجم المتداولة . وفى مج : « وخزة ثقيلة فلم يبدها له » .

يُبدِها . وفروعُ بنى هاشم حول الحرم باسقة ، وعروق دَوْحاتهم بين أطباقها راسية ، ومجالسُهم من أَعاليها عامرة[١] ، وبحورها بأَرزاق العبَاد[٢] زاخرة ، وأَنجمُهَا بالهدى زاهرة . فلمَّا خلت البطحاءُ من صناديدها استقبله بما أَكنَّ فى نفسه[٣] .

والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أَن يأْتِىَ الموتُ على رِمّته ، وما استقبلَ ابنَ عبّاسٍ بذلك إلَّا لمَّا رأَى عمرَ قدَّمه[٤] على أَهل القَدَم ، ونَظَر إليه وقد أَطاف به أَهل الحَرَم ، فأَوسعهم حُكْماً ، وثَقَبوا منه رأْياً وفهماً[٥] ، وأَشبعَهم[٦] علماً وحِلماً .

(١) مج : « غامرة » .
(٢) ب ، ط : « بأوراق العباد » م : « بأوراق العبادة » . والصواب من مج .
(٣) مج : « بما أكن فى نفسه » .
(٤) م ، ط : « لما رأى من تقدمه » .
(٥) ثقب رأيه ثقوباً : نفذ . وفى قول أبى حية النميرى :
ونشرت آيات عليه ولم أقــل   من العلم إلا بالذى أنا ثاقبــه
ط : « ونقبوا » . مج : « وتعصبوا » .
(٦) ب : « وأسبقهم » ط ، م : « وسبقهم » ، وأثبت ما فى مج .

٤ – فصل

وكيف يَصبر من استكنّ الحسدُ فى قلبه على أمانيه(١). ولقد كان إخوةُ يوسفَ حُلماء، وأَجلَّةً علماء، وَلَدَهُم الأنبياء،فلم يَغفلُوا عمَّا قَدَح فى قلوبهم من الحسد ليوسف، حتَّى أَعطَوْا أَبَاهم المواثيقَ المؤكَّدة، والعهودَ المقلَّدة(٢)، والأَيمانَ المغلَّظة، إنَّهم له لحافظون، وهو شقيقُهم وبَضعةٌ منهم. فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة(٣)، وأَلقَوْه فى غَيابة الجُبّ، وجاءُوا على قميصه بدمٍ كذب، فبظلمهم يوسفَ ظَلموا أَباهم، طمعاً أَنْ يخلوَ لهم وجهُ أَبيهم ويتفرّدوا بحبِّه(٤)، وظنُّوا أَنَّ الأَيَّام تُسْليه، وحبَّه لهم من بعد غمِّهِ(٥) يُلْهيه، فأَسالوا عَبْرتَه وأَحرقوا قلبه.

وكيف لا تقرُّ أَعين المحسودين(٦) بعد يوسف وقد ملَّكه الله خزائن الأَرض، بصبره على أَذى حُسَّاده ومقابلته(٧) إيّاهم بالعفو والمكافأَة، وحُسن العشرة(٨) والمواخاة، بعد إمكانه منهم(٩) لمَّا أَتوه ممتارين، ووفدوا عليه خائفين وهم له منكرون، فأَحسنَ رِفدهم، وأَكرمَ قِراهم(١٠)،

(١) ب: «أمانته» م: «إماتته» ط: «إمامته»، وأثبت ما فى مج.
(٢) يقال قلده الأمر: ألزمه إياه. ماعدا مج: «المقبلة».
(٣) والقوة، ساقطة من ط، م، مج.
(٤) م: «وينفردوا بحبه».
(٥) فى هامش م: «عن بعده عنه» مج: «من بعده عنه».
(٦) ب: «لا تفتر»، م: «وكيف تغتر»، وأثبت ما فى ط، مج. وفى ط، م: «الحاسدين».
(٧) مج: «ومقاصته». وكذلك هامش م.
(٨) ما عدا مج: «بحسن العشرة».
(٩) ب فقط: «منه» تحريف.
(١٠) ما عدا مج: «وكرم قراهم».

فأَقرُّوا له لمَّا عرفوه بالإذعان ، وسأَلوه بعد ذلك الغفران ، وخرُّوا له سُجَّداً لمَّا وردُوا عليه وفداً[١] .

فإذا أَحسستَ — رحمك الله — من صديقك بالحسَد فأَقلِلْ ما استطعت من مُخالطته ، فإنَّه أَعون الأَشياءِ لك[٢] على مسالمته . وحصِّن سرّك منه تسلم من شرِّه وعوائق ضُرِّه[٣] . وإيَّاك والرغبة فى مشاورته ، ولا يَغُرنَّك خُدعُ مَلَقِه ، وبيان ذَلَقِه[٤] ، فإنَّ ذلك من حبائل نفاقه .

فإن أَردتَ أَن تعرفَ آيةَ مِصداقه فأَدنِيَنْ[٥] إليه من يُهينُك عنده ، ويذمُّك بحضرته ، فإنَّه سَيَظْهَر[٦] من شأْنه لك ما أَنتَ به جاهلٌ ، ومن خلاف المودّة ما أَنت عنه غافل . وهو أَلحُّ[٧] فى حسده لك من الذُّباب ، وأَسرع فى تهريقك[٨] من السَّيل إلى الحَدُور[٩] .

---

(١) مج : « لما قدموا عليه وفداً » .

(٢) ب فقط : « فإنه أهون » تحريف . وكلمة « لك » من مج وهامش م .

(٣) ط فقط : « وبوائق ضره » .

(٤) الذلق : فصاحة اللسان . ما عدا مج : « زلقه » تحريف .

(٥) ب : « فدنين » تحريف ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى هامش م : « فدس » ، وهى مما جاءت به نسخة مج .

(٦) م فقط : « يظهر » وحورت فيها إلى « سيظهر » .

(٧) « ألح » بالحاء المهملة ، كما فى الدرة الفاخرة للأصبهانى ٣٦٩ . ونظيرها فيما أورده : ألح من الخنفساء ، ومن الكلب ، ومن الحمى . وفى مج : « ألج » بالجيم ، وهو المطابق لما فى جمهرة الأمثال للعسكرى ١٨٠ حيث أورد هذه الأمثال كلها بصورة « ألج » بالجيم . وكلاهما اقتصر فى التفسير على « ألح من كلب » واتفقا فى قولهما « لأنه يلح بالهرير على الناس » ، ولا ريب فى أخذ العسكرى المتوفى نحو سنة ٤٠٠ عن حمزة الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥١ . كما صرح بذلك العسكرى فى مقدمة كتابه ص ٦ . وهذا مما يؤيد رواية « ألح » بالمهملة ، إذ يقال ألح عليه ، ولا يقال ألج عليه .

(٨) ط ، مج : « تمزيقك » .

(٩) الحدور ، بالفتح : الموضع المنحدر . ب : « الحدود » ، تحريف .

وما أُحِبُّ أن تكون عن حاسدك غبيًّا، وعن وهمك[١] بما في ضميره نسِيًّا[٢]؛ إلَّا أن تكون للذلِّ محتملًا، وعلى الدناءة مشتملًا[٣]، ولأخلاق الكرام مجانباً، وعن محمود شِيَمهم ذاهباً، أو تكون بك إليه حاجة[٤] قد صيَّرَتْك[٥] لسهام الرُّماة هدفاً، وعرضَك لمن أرادك غَرَضاً[٦].

وقد قيل على وجه الدَّهر[٧]: «الحرّة تَجُوع ولا تأْكل بثدييها[٨]».

وربَّمَا كان الحسودُ[٩] للمصطنِع إليه المعروفَ أكفَرَ له وأشدَّ احتقاداً[١٠]، وأكثر تصغيراً له من أعدائه.

٥ — فصل منه [١١]

ومتى رأيت حاسداً يصوِّب لك رأياً إن كنت[١٢] مصيباً، أو يرشدك

(١) وهم إلى الشيء وفيه: ذهب وهمه إليه. مج: «فهمك».
(٢) ب: «بما في ضمير نسياً»، صوابه في سائر النسخ.
(٣) ب: «مستمثلا»، صوابه في سائر النسخ.
(٤) ما عدا مج: «أو تكون بك لحاجة».
(٥) ب: «صيرتها»، صوابه في سائر النسخ.
(٦) ما عدا مج: «لمن أبادك».
(٧) أي في قديم الزمان. ب: «الأرض»، م، ط: «العرض»، صوابهما في مج.
(٨) ب: «تأكل ثديها» وهي رواية صحيحة مثلها في المستقصى ٢: ٢٠: «ثدييها» بدون باء. قال الزمخشري: معناه جعل ثدييها، كقوله:
* يأكلن كل ليلة إكافا *
أي ثمن إكاف. والجعل، بالضم: أجر العامل ونحوه ويروى: «تجوع الحرة»، و «قد تجوع الحرة»: انظر الفاخر ١٠٩ والميداني ١١٠: وجمهرة العسكري ٢٦١، ٤٩٤.
(٩) ب، ط: «الحسد» مج: «الحاسد»، وأثبت ما في م.
(١٠) احتقد عليه: حقد. ط: «احتقاداً منه». و «منه» مقحمة. وفي مج: «وأشد اجتهاداً»، تحريف.
(١١) منه، ساقطة من ب.
(١٢) ب، ط، مج: «وإن» في هذا الموضع وتاليه، والصواب ما في م بدون واو.

إلى صواب إن كنت مخطئاً ، أو أفصح[(١)] لك بالخير فى غَيبتِهِ عنك[(١)] ، أو قصَّر من غِيبتِه لك[(٢)] .

فهو الكَلْب الكَلِب ، والنَّمر النَّمر[(٣)] والسُّمّ القِشب[(٤)] ، والفَحلُ القَطِم[(٥)] ، والسَّيل العَرِم[(٦)] . إن مَلَكَ قتل وسَبَى[(٧)] ، وإن مُلِكَ عَصَى وبَغَى . حياتُك موتُه ، وموتُك عِرْسُه وسروره[(٨)] . يصدِّق عليك كلُّ شاهدِ زُور ، ويكذِّب فيك[(٩)] كلَّ عدلٍ مرضىّ . لا يحبُّ من النَّاس إلَّا مَن يُبغضك ، ولا يُبغض إلَّا من يحبُّك . عدوُّك بطانةً وصديقُك عَلانيَة[(١٠)] .

وقلتَ : إنَّك ربَّما غَلِطت فى أَمرِه لما يَظهر لَك من برِّه . ولو كنت تعرف الجليل من الرأْى[(١١)] ، والدقيقَ من المعنى ، وكنتَ فى مذاهِبك فَطِناً نِقاباً[(١٢)] ، ولم تكُ فى عَيب مَن ظهر لك عَيبُه[(١٣)] مُرتاباً ،

---

(١) م : « أو أنصح لك بالخير فى غيبة لك » مج : « أونصح لك فى غيبه عنك » ، ب : « أو أفصح لك بالخير فى غيبه عنك » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٢) ب ، م : « من غيبه » ، وأثبت ما فى ط .

(٣) يقال نَمِر ينمر نَمراً ، إذا غضب وساء خلقه . ب : « والنمر والنمر » ، صوابه فى م ، ط . وفى مج : « والنمر الحرب » . وهو الذى قد كلب واشتد غضبه .

(٤) القشب : المخلوط .

(٥) القطم : الشديد الشهوة إلى الضراب .

(٦) العرم : السيل الذى لا يطاق .

(٧) وسبى ، ساقطة من ب .

(٨) ب فقط : « وسوره » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « عليك » .

(١٠) مج : « عدوك بطانته ، وصديقك علاوته » .

(١١) م فقط : « الكليل » وصححت فوقها بالجليل .

(١٢) النقاب ، بالكسر : العالم بالأشياء المبحث عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وفى قول أوس بن حجر :

نجيح جواد أخو مأقط نقاب يحدث بالغائب

ب ، ط : « نهايا » ، صوابه ، فى م ، مج .

(١٣) مج : « من أوضح لك عيبه » .

لاستغنيت بالرَّمز عن الإشارة ، وبالإشارة عن الكلام ، وبالسِّرّ عن الجهر ، وبالخفض عن الرفع[١] ، وبالاختصار[٢] عن التطويل ، وبالجُمَل عن التفصيل ، وأرحتنا من طلب التّحصيل[٣] ولكنى أخاف عليك أنَّ قلبك لصديقك غير مستقيم ، وأن ضمير قلبك له غير سليم[٤] ، وإن رفعت القذى عن لحيتِه[٥] ، وسوَّيت عليه ثوبَه فوق مركبه ، وقبّلتَ صبيَّه بحضرته ، ولبست له ثوبَ الاستكانة عند رؤيته ، واغتفرت له الزَّلّة[٦] ، واستحسنتَ كُلَّ ما يقبحُ من جهته[٧] ، وصدَّقتَه على كذبه ، وأعنتَه على فَجْرته . فما هذا العَنَاءُ[٨] ! كأنَّك لم تقرأ المعوِّذة ، ولم تسمع مخاطبته[٩] نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، فى التَّقدِمة إليه بالاستعاذة من شرِّ حاسدٍ إذا حسد .

أتطلب[١٠] وَيحك أثراً بعد عَين ، أَوْ عطراً بعد عَرُوس[١١] ، أَو تريد أَن تجتنِيَ عنباً من شوك ، أَوْ تلتمسَ حلبَ لبنٍ من حائل[١٢] .

---

(١) ماعدا مج : « وبالجهر عن الرفع » .

(٢) ب ، ط : « والاختصار » .

(٣) ب : « عن طلب التحصيل » .

(٤) ب : « أن قلبك لصديقك غير سليم له » . وفيه نقص وتحريف .

(٥) فى هامش م : « عن عينه » وليست بشىء . وقد تكون : « عن جبته » .

(٦) الزلة ، بفتح الزاى : السقطة والخطيئة . ب فقط : « الذلة » تحريف . وفى مج : « الزلة بعد زلته » .

(٧) مج : « من شيمته » .

(٨) ما عدا مج : « فما هذا الغباء » ، ولا يقولها الجاحظ . وفى مج : « فما هذا العناء ، وما هذا الداء العياء » .

(٩) ب ، : « ولم تسمع على مخاطبته » ، مج : « ولم تسمع مخاطبة الله تعالى لنبيه » .

(١٠) ب ، م : « تطلب » .

(١١) ب فقط : « وعطراً بعد عروس » وكذلك فيما بعده « وتريد أن تجتنى .. » .

(١٢) م : « وتلتمس » . والحائل : الناقة انقطع حملها سنة أو سنوات حتى تحمل . ب ، ط : « من جمل » ، صوابه فى م ، مج .

إنَّك إذن أعيا من باقل ، وأحمَقُ من الضبع ، وأغْفَل من هَرِم[١] .

إنْ كنتَ تجهَلُ بعد ماأعلمناك ،وتعوجُّ بعدما قوَّمناك ، وتَبَلَّدُ[٢] بعدما ثقَّفناك[٣] ، وتضلُّ إذْ هديناك ، وتنسَى إذْ ذكَّرناك[٤] ، فأَنت كمن أَضلَّه الله على علمٍ فبطَلَت عنده المواعظ ، وعمِيَ عن المنافع[٥] ؛ فختَم[٦] على سمعه وقلبه ،وجَعل على بصره غشاوة . فنَعُوذ[٧] بالله من الخذلان .

إنَّه لا يأْتيك ولكن يُناديك[٨] ولا يحاكيك ولكن يوازيك[٩] . أَحسنُ ما تكون عنده حالًا [أَقلُّ ما تكون مالًا ، وأَكثرَ ما تكون عيالًا ، وأَعظمَ[١٠]] ما تكون[١١] ضلالًا . وأَفرحُ[١٢] ما يكون بك أَقربَ ما تكون[١٣] بالمصيبة عهداً ، وأَبعدَ ما تكون من الناس حمداً[١٤] .

فإذا كان الأَمر على هذا فمجاورةُ الموتى ، ومخالطة الزَّمنَى ،

---

(١) الهرم : المسن الذى بلغ أقصى الكبر .
(٢) تبلد ، أى تتبلد ، بحذف إحدى التاءين . م فقط : « وتتبلد » .
(٣) ب فقط : « شففناك » تحريف .
(٤) مج وحواشى م : « لما ذكرناك » .
(٥) ب فقط : « وعز من المنافع » .
(٦) ب فقط : « وختم » .
(٧) ب فقط : « ونعوذ » .
(٨) مج : « ولكنه يناديك » .
(٩) ب : « يواذيك » تحريف ، وفى مج : « ولكنه يوازنك » .
(١٠) التكملة من مج .
(١١) ماعدا مج : « ما يكون » .
(١٢) ب فقط : « وأفرج » بالجيم ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٣) ماعدا مج : « ما يكون » ، تحريف .
(١٤) ماعدا مج : « وأبعد ما يكون » بالياء ، مع سقوط الكلمات بعدها .

والاجتنان بالجدران[١] ، ومَصْر المُصران[٢] ، وأكل القِرْدان[٣] ، أهون من معاشرته ، والاتّصال بحبله .

والغِلّ نتيج الحسد[٤] ، وهو رضيعُه[٥] ، وغصنٌ من أغصانه ، وعَون من أعوانه ، وشُعبةٌ من شُعَبه ، وفِعلٌ من أفعاله[٦] ، كما أنّه ليس فرعٌ إلّا له أصل ، ولا مولودٌ إلّا له مُولِد ، ولا نباتٌ إلّا من أرض ، ولا رضيعٌ إلّا من مُرضع[٧] ،وإن تغيّر اسمه ؛ فإنّه[٨] صفة من صفاته ، ونبت من نباته ، ونعتٌ من نعوته .

ورأيتَ الله جل جلاله ذكَر الجنَّةَ فى كتابه فحلّاها بأحسن حِلْية ، وزيّنها بأحسنِ زينة ، وجعلَها دارَ أوليائه ومَحلَّ أنبيائه ، ففيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر[٩] . فذكر فى كتابه ما منَّ به عليهم من السُّرور والكرامة عندما دَخلوها وبوّأها لهم فقال : ﴿ إن المتّقين فى جَنّاتٍ وعُيون . ادخُلوها بسَلامٍ آمِنينَ . ونَزَعْنا ما فى صُدورِهِمْ من غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقابلينَ . لا يَمسُّهُمْ فيها نَصَبٌ وما هُمْ مِنْها بمُخْرَجين[١٠] ﴾ .

---

(١) ب : « والأكسل بالجدران » م : « والكسل » وصححها أحمد تيمور بلفظ : « والاجتنان » ، موافقاً ما فى ط . والاجتنان : الاستتار . وفى مج : « والاكتنان بالجدران » وهما بمعنى .

(٢) مصر المصران : استخراج ما فيها . وفى مج : « ومص المصران » .

(٣) جمع قراد بالضم ، وهو دويبة تعض الإبل .

(٤) ب ، مج : « ينتج الحسد » .

(٥) هذا ما فى مج . وفى ب ، ط : « ورضيعه » فقط . وفى م : « ورضيع رضيعه » .

(٦) بعده فى مج : « وحدث من أحداثه » .

(٧) مج : « إلا له مرضع » .

(٨) ب فقط : « فهو » .

(٩) ب فقط : « على لب بشر » .

(١٠) الآيات ٤٥ — ٤٨ من سورة الحجر .

فما أنزلهم دارَ كرامته إلّا بعد ما نزع الغِلَّ والحسدَ من قلوبهم[١] ، فتهنّوا بالجنّة ، وقابلوا إخوانَهم على السُّرر ، وتلذَّذوا بالنظر فى مقابلة الوجوه لسلامة صدورهم، ونزع الغِلِّ من قلوبهم[٢] . ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجْه من قلوبهم ، لافتقدوا لذَاذة الجنَّة[٣] ، وتدابَرُوا وتقاطعوا وتحاسدوا ، وواقعوا الخطيئة[٤] ، ولَمسَّهم فيها النَّصَب ، وأُعقبوا منها الخروجَ ، لأنَّه عزّ وجلّ فضَّل بينهم فى المنازل ، ورفع درجاتِ بعضهم فوقَ بعض فى الكرامات[٥] ، وسَنَّى العطيات .

فلمَّا نزع الغِلَّ والحسَدَ[٦] من قلوبهم ظنَّ أَدناهم منزلةَ فيها[٧] ، وأَقربُهم بدخول الجنَّة عهداً ، أَنَّه أَفضلهم منزلةً ، وأَكرمُهم درجة ، وأَوسعُهم داراً بسلامة قلبه[٨] ، ونزع الغلِّ من صدره ، فقرَّت عَينُه وطاب أُكله . ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص[٩] فى النظر بالعيون[١٠] ، والاهتمام بالقلوب ، ولحدثت[١١] العيوبُ والذُّنوب .

وما أَرى السّلامةَ إلّا فى قطع الحاسد ، ولا السُّرورَ إلّا فى افتقاد

---

(١) بعده فى مج : « فبافتقاد الغل والحسد تهنوا بالجنة » .
(٢) مج : « بسلامة صدورهم ، ونزع الحسد والغل من صدورهم » .
(٣) م : « لذاذات الجنة » .
(٤) مج : « وأوقعوا الخطيئة » م : « وواقعوا الخطية » .
(٥) ب فقط : « فى الدرجات » .
(٦) ب ، مج : « الحسد والغل » .
(٧) م فقط : « فيهم » .
(٨) م : « لسلامة قلبه » .
(٩) ب ، ط : « التبغيض » .
(١٠) ب فقط : « بالعيوب » .
(١١) ب : « ولحدث لحيهم » م : « ولحدث فيهم » ط : « وحدثت فيهم » . وأثبت مافى مج .

وجهه ، ولا الرّاحةَ إلّا فى صَرْم مداراته[١] ، ولا الرِّبح إلّا فى ترك مصافاته[٢] .

فإذا فعلتَ ذلك فكل هنيًّا مريًّا[٣] ، [ونم رَضيًّا[٤]] ، وعش فى السُّرور مَليًّا[٥] .

ونحن نسأَل اللهَ الجليل أَن يُصفِّيَ كدرَ قلوبنا[٦] ، ويجنِّبنا وإياك [دناءة الأَخلاق ، ويرزقنا وإيّاك[٧]] حُسْن الأُلفة والاتِّفاق[٨] ، ويُحسِنَ[٩] توفيقك وتسديدك . والسَّلام .

---

(١) ب ، م : « مداواته » ، تحريف

(٢) ب ، م ، ط : « مكافأته » ، وأثبت ما فى مج وهامش م .

(٣) ب ، م : « فكل هنيئاً مريئاً » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج : « فكل هنيئاً واشربه مريئاً » .

(٤) هذه من مج .

(٥) ملياً ، أى زماناً طويلا . ب فقط : « مريئاً » ، تحريف .

(٦) ما عدا مج وأسفل م : « كدر صدورنا » .

(٧) التكملة من م ، مج .

(٨) ب ، ط ، : « سوء الألفة والاتفاق » .

(٩) ب ، م : « وحسن » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج : « أحسن الله » .

٢

من كتابه في

المعلّمين

١ — فصل

من صدر كتابه فى المعلمين (١)

أعانك الله على سَوْرة الغَضَب (٢) ، وعصَمكَ من سَرَف الهوى ، وصرف ما أَعارَكَ من القوّة إلى حبِّ الإنصاف ، ورجَّح (٣) فى قلبك إيثارَ الأَناة . فقد استعملتَ فى المعلِّمين نوك السُّفهاءِ (٤) ، وخَطَل الجُهَلاءِ ، ومُفاحَشَة الأَبذِياء ، ومُجانبة سُبل الحكماء ، وتهكُّم المقتدرين (٥) ، وأَمْنَ المغْتَرِّين . ومن تعرَّضَ للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجةَ بك إلى تكلُّف ما كُفِيت (٦) .

٢ — فصل منه

ولولا الكتابُ لاختلَّت أَخبار الماضين ، وانقطعت آثار الغائبين . وإنَّما اللسانُ للشاهد لك (٧) ، والقلمُ للغائبِ عنك ، وللماضى قبلَك والغابرِ بعدك (٨) . فصار نفعُه أَعمّ ، والدَّواوينُ إليه أَفْقر .

---

(١) لى بحث عنوانه (الجاحظ والمعلمون) فى مجلة الكتاب ، عدد أغسطس ١٩٤٦ .

(٢) سار يسور سوراً : ثار . ب : « صورة » تحريف . م : « ثورة » ، والوجه ما أثبت من ط . وأنشد فى اللسان (عفا ٣٠٦) :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وانظر لنسبة هذا البيت عيون الأخبار ٣ : ١١ / ٤ : ٧٧

(٣) ب : « ورهج » ، والصواب من ط ، م .

(٤) النوك ، بالضم والفتح : الحمق . ب ، م : « نوق » ، صوابه فى ط .

(٥) التهكم : التكبر ، والتبختر طرباً .

(٦) ب فقط : « ما كفيت منه » .

(٧) المراد بالشاهد : الحاضر .

(٨) المراد بالغابر هنا الباقى ، والغابر من الأضداد ، يقال للماضى وللباقى أيضاً . ب ، م : « والعابر » بالمهملة ، صوابه فى ط .

والمِلكُ المُقيمُ بالواسطة[١] لا يدرك مصالحَ أطرافه وسدَّ ثغوره ، وتقويمَ سُكَّان مملكته ، إلَّا بالكتاب .

ولولا الكتاب ما تمّ تدبير[٢] ، ولا استقامت الأُمور . [وقد[٣]] رأينا عمودَ صلاحِ الدِّين والدُّنيا إنَّما يعتدل فى نِصابه ، ويقوم على أَساسه بالكتاب والحساب[٤] .

وليس علينا لأَحدٍ فى ذلك من المنَّة بعد الله الذى اخترع ذلك لنا ودلَّنا عليه ، وأَخذ بنواصينا إليه ، ما للمعلمين الذين سخَّرهم لنا ، ووصل حاجتَهم إلى ما فى أَيدينا . وهؤلاء هم الذين هجوتَهم وشكوتَهم وحاججتَهم وفَحَشت عليهم ، وأَلزمت الأَكابرَ ذنبَ الأَصاغر ، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصِّرين ، ورثَيْتَ لآباء الصِّبيان مِنْ إبطاء المعلِّمين عن تحذيقهم[٥] ، ولم تَرْثِ للمعلِّمين مِن إبطاء الصِّبيان عمّا يراد بهم ، وبُعدِهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسُونه . والمعلِّمون أَشقى بالصِّبيان من رُعاة الضَّأْن ورُوَّاض المِهارة[٦] .

ولو نظرتَ من جهة النظر علمتَ أَنَّ النعمةَ فيهم عظيمةٌ سابغة ، والشكرَ عليها لازم واجب .

---

(١) أى حاضرة الملك ، وهى فى وسط البلاد غالباً .
(٢) م : « لم يتم » ط : « لما تم » .
(٣) التكملة من م ، ط .
(٤) ب ، ط : « فى الكتاب والحساب »، وأثبت ما فى م .
(٥) ط فقط : « عن إبطاء » تحريف . والتحذيق : إكساب المهارة والإتقان فى العلم والعمل وفى جميع النسخ : « تحديقهم » بالدال المهملة ، والوجه ما أثبت .
(٦) المهار والمهارة ، بكسر الميم فيهما : جمع مهر ، بالضم ، وهو ولد الرمكة والفرس .

٣ - فصـــل منه(١)

وأجمعوا على أنَّهم لم يَجدوا كلمةً أقلَّ حرفاً ولا أكثر رَيْعاً ، ولا أعمّ نفعاً ، ولا أحثَّ على بيان[٢] ، ولا أدعى إلى تبيُّن ، ولا أهجى لمن ترك التفهُّمَ وقصَّر في الإفهام ، من قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قِيمة كلِّ امرئٍ ما يحسن » .

وقد أحسَنَ من قال : « مُذاكرة الرِّجالَ تلقيحٌ لألبابها » .

وكرهت الحكماءُ الرؤساءُ ، أَصحابُ الاستنباط والتفكير[٣] ، جودةَ الحفظ[٤] ، لمكان الاتِّكال عليه[٥] ، وإغفال العقل من التمييز ، حتَّى قالوا : « الحِفْظ عِذْقُ الذِّهن » . ولأنَّ مستعمِل الحفظ لا يكون إلَّا مقلِّدا ، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين ، وعزّ الثقة .

والقضيَّة الصحيحة والحُكم المحدود : أنَّه متى أدام الحفظَ أضرَّ ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحِفْظ ، وإن كان الحفظُ[٦] أشرفَ منزلة منه .

ومتى أهملَ النظرَ لم تسرع إليه المعانى[٧] ، ومتى أهمل الحفظَ[٨]

---

(١) منه ، هنا ساقطة من ب .

(٢) الحث : الحض . ب فقط : « ولا أحس » ، تحريف .

(٣) م : « والتفكر » .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة « الحفظ » التالية ساقط من م .

(٥) ب : « لمكان اتكال عليه » .

(٦) ب ، م : « التحفظ » .

(٧) ب : « لم يسرع إليه المعانى » .

(٨) ب فقط : « التحفظ » .

لم تَعلَقْ بقلبه (١) ، وقلَّ مُكثُها فى صدره .

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط . والذى (٢) يُعالَجانِ به ويستعينان متَّفَقٌ عليه (٣) ، [ألَا (٤)] وهو فراغُ القلب للشىء ، والشَّهوةُ له ، وبهما يكون التمام ، وتظهر الفضيلة (٥) .

ولصاحب الحفظ (٦) سببٌ آخر يتَّفقان عليه ، وهو الموضعُ والوقت .

فأَمَّا الموضع فأَيَّهما يختاران (٧) إذا أَرادا (٨) ذلك الفَوْق (٩) دون السُّفل (١٠) .

وأَمَّا السَّاعات فالأَسحار دون سائر الأَوقات ، لأَنَّ ذلك الوقتَ قبلَ وقت الاشتغال ، وبِعَقِبِ تَمامِ الراحة والجَمام (١١) ، لأَنَّ للجَمام (١٢) مقداراً هو المصلحة ، كما أَنَّ للكدِّ مقداراً هو المصلحة .

٤ — فصل منه

ويُستدَلُّ أَيضاً بوصايا الملوك للمؤدِّبين فى أَبنائهم ، وفى تقويم

---

(١) فى جميع النسخ : « لم يعلق بقلبه » ، والضمير راجع إلى المعانى .
(٢) م ، ب « واللذين » ط : « واللذان » ، والوجه ، ما أثبت .
(٣) ب : « مشفق عليه متفق عليه » .
(٤) التكملة من ط .
(٥) ب فقط : « ويظهر الفضيلة » .
(٦) ب فقط : « التحفظ » .
(٧) م ، ط : « يختار » .
(٨) م : « أراد »
(٩) ب : « الغرف » ، م ، ط : « الفرق » ، وأرى الوجه فيما أثبت .
(١٠) ط فقط : « الشغل » . والسفل ، بضم السين وكسرها : مقابل الفوق .
(١١) الجمام كسحاب : الراحة . م ، ط : « والحمام » بالحاء المهملة ، تحريف . وفى جميع النسخ : « وتعقب تمام » ، وأثبت ما رأيته الصواب ، كما يصح أن تكون : « ويعقب » .
(١٢) م ، ط : « للحمام » ، تحريف

أحداثهم ، على أنَّهم قد[١] قلَّدوهم أُمورهم وضميرهم ببلوغ التَّمام[٢] في تأْديبهم . وما قلَّدوهم ذلك إلَّا بعد أن ارتفع إليهم في الحنوّ حالُهم[٣] في الأدب ، وبعد أن كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص .

وأنت – حفظك الله – لو استقصيت عددَ النحويِّين والعروضِيِّين والفَرضيِّين ، والحُسَّاب ، والخطَّاطين ، لوجدت أكثرَهم مُؤدِّبَ كبارٍ ومعلِّمَ صغار ، فكم تَظنُّ[٤] أنَّا وجدنا منهم ، من الرُّواة والقضاة والحكماء ، والوُلاة من المناكير والدُّهاة ، ومن الحُماة والكُفاة ، ومن القادة والذَّادة[٥] ، ومن الرُّؤساء والسَّادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأُدباء ، ومن أَصحاب الرسائل والخطابة ، والمذكورين بجميع أَصناف البلاغة ، ومن الفُرسان وأَصحاب الطعان ، ومن نديمٍ كريم ، وعالمٍ حكيم ، ومن مليحٍ ظريف ، ومن شابٍّ عفيف .

ولا تعجَلْ بالقضيَّة حتى تستوفيَ آخر الكتاب[٦] ، وتبلغَ أَقصى العذر ، فإنك إنْ كنت تعمّدت تذمَّمت[٧] ، وإن كنت جهلت تعلَّمت ، وما أَظن من أَحسن بك الظَّنَّ إلَّا وقد خالف الحزم .

٥ – فصـــل منه

قال المعلِّم : وجدْنا لكلِّ[٨] صنفٍ من جميعِ ما بالناس إلى تعلُّمه

---

(١) قد ، ساقطة من ب .
(٢) في جميع النسخ : « بلوغ » .
(٣) ب : « حالتهم » .
(٤) م : « فلم يظن » تحريف . ب : « فكم نظن » ، وأثبت ما في ط .
(٥) جمع ذائد ، وهو المدافع والرجل الحامى الحقيقة . م : « والزادة » تحريف .
(٦) م : « حتى تستو آخر الكتاب » ، تحريف .
(٧) تذمم : استنكف . يقال : لو لم أترك الكذب تأثماً لتركته تذمماً . ب : « ترمت » صوابه بالذال كما في ط ، م .
(٨) ب ، ط : « كل » ، والوجه ما أثبت من م .

حاجة ، معلمين[١] ، كمعلِّمي[٢] الكِتابِ والحساب ، والفَرائض والقرآن ، والنحو والعروض والأَشعار ، والأَخبار والآثار ، ووجدنا الأَوائل كانوا يتَّخذون لأَبنائهم من يعلِّمهم الكتابة[٣] والحساب ، ثم لَعِب الصَّوالجة ، والرَّمى فى التَّنْبُوك[٤] ، والمجثَّمة[٥] ، والطَّير الخاطف ، ورَمْى البنجكاز[٦] . وقبل ذلك الدَّبُّوق[٧] والنَّفخ فى السَّبَطانة[٨] . وبعد ذلك الفُروسيّة ، واللَّعب بالرِّماح والسُّيوف ، والمشاولة[٩] والمنازلة والمطاردة ، ثم النُّجوم واللُّحون ، والطبّ والهندسة ، وتعلُّم النَّرْد والشِّطْرَنج ، وضرب الدُّفوف وضرب الأَوتار ، والوقع والنَّفْخ فى أَصناف المزامير.

ويأْمرون بتعليم أَبناءِ الرعيّة الفِلاحةَ والنِّجارة[١٠] ، والبُنيانَ والصِّياغة والخياطة ، والسَّرد والصَّبْغ[١١] ، وأَنواع الحياكة . نَعَمْ حتَّى علَّموا البلابل وأَصناف الطَّير الأَلحانَ .

---

(١) ط : « المعلمين » .

(٢) ب فقط : « كعلم » .

(٣) الكتاب : الكتابة . م فقط : « الكتابة »

(٤) هي كذلك فى الفارسية. انظر استينجاس ٣٢٧ وقد فسرها بالقوس الخفيفة : Weak bow ولعل مايقابلها بالعربية « المقتدرة » . وفى المخصص ٦ : ٣٩ عن ثعلب : قوس مقتدرة : خفيفة متوسطة . ب : « التبنوك » صوابه فى م ، ط .

(٥) المجثمة : كل حيوان ينصب ويرمى ويقتل . وفى الحديث أنه نهى عن المصبورة والمجثمة

(٦) م : البنجكار » بالراء المهملة ، تحريف . وهى لفظة فارسية مكونة من كلمتين بنج بمعنى خمسة . وكاز بمعنى الغصن ولعلها خمس خشبات تنصب هدفاً .

(٧) فى القاموس والتاج أن الدبوق كتنور : لعبة يلعب بها الصبيان . ب : « الدبوب » وأثبت ما فى ط ، م .

(٨) السبطانة محركة ، كما فى القاموس : قناة جوفاء يرمى بها الطير . وفى اللسان : قناة جوفاء مضروبة بالعقب يرمى بها الطير ، وقيل يرمى فيها بسهام صغار ينفخ فيها نفخاً ، فلا تكاد تخطئ . وفى جميع الأصول : « الشيطار » ، صوابه ما أثبت .

(٩) يراد به حمل الأثقال ، من قولهم شاول الحجر : رفعه ، فانشال . والمشوال : حجر يشال . يقال شال به وأشاله وشاوله .

(١٠) ب ، ط : « والتجارة » ، والوجه ما أثبت من م .

(١١) السرد : الخرز فى الأديم ، وهو أيضاً نسج الدروع . ب : « والصبع » بالعين المهملة صوابه فى ط ، م .

وناساً[١] يعلّمون القرود والدِّبَبة والكلابَ والظِّباءَ المكّيَّة[٢] والبَبَّغاءَ ، والسَّقر[٣] وغراب البَيْن ، ويعلِّمون الإبلَ ، والخَيْلَ ، والبغالَ ، والحميرَ ، والفيلةَ ، أصنافَ المشى ، وأَجناس الحُضْر[٤] ، ويعلِّمون الشَّواهين والصُّقور والبوازى[٥] ، والفهود ، والكلاب ، وعَنَاقَ الأَرض ، الصَّيد .

ويعلِّمون الدَّوابَّ الطَّحنَ ، والبخاتىَّ الجمز[٦] حتَّى يَرُوضوا الهِملاج والمِعناق[٧] ، بالتخليع وغير التخليع[٨] ، وبالموضوع والأَوسط والمرفوع .

ووجدنا للأَشياء كلِّها معلمين .

وإنَّما قيل للإنسان العالَم الصَّغير ، سليل العالم الكبير[٩] ، لأَنَّ فى الإنسان من جميع طبائع[١٠] الحيوان أَشكالًا ، من خَتْل الذئب[١١]

---

(١) كذا بالنصب فى جميع النسخ ، بإضمار « وجدنا » . وانظر ما سبق فى أول هذا الفصل .

(٢) الذى ذكره الجاحظ فى الحيوان هو الغنم المكية. انظر ٢ : ١٧٩/٦ : ٣١٦ : ٧ : ١٠٤ ومثلها فى ذلك الغنم الحبشية . انظر الحيوان ٦ : ٣١٦ عند تفسير الجاحظ لقصيدة بشر بن المعتمر :

والدب والقـــرد إذا علما والفيـــل والكلبـــة واليعر

(٣) السقر : الصقر . وانظر لتعليمه ما جاء فى الحيوان ٤ : ٤٧ . ب : « والسقل » م ، ط : « والسعل » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) ط : « الخطو » .

(٥) البوازى : جمع البازى . وفى جميع النسخ : « البوازين ». وانظر لتعليم البوازى ماجاء فى الحيوان ٤ : ٤٧ .

(٦) الجمز : الوثب . م ، ط : « الهمز » تحريف .

(٧) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة . والمعناق : السريع ، أعنقت الدابة فهى معنق وعنيق ومعناق . فى الأصول : « والعناق » .

(٨) فى القاموس : المخلع الأليتين ، كمعظم : المنفكهما ، والتخليع مشيه ، أى مشى المخلع .

(٩) ب فقط : « وسليل العالم الكبير » . وما أثبت من م ، ط يطابق ما فى الحيوان ١ : ٢١٢.

(١٠) ب ، م : « طبايع » بالتسهيل .

(١١) الختل : الخداع . وختل الذئب الصيد : تخفى له. م ، ب : « حيل الذئب » . وفى الحيوان : « غدر الذئب » .

ورَوَغان الثعلب(١) ، ووثوب الأَسد ، وحِقْد البعير ، وهِداية القَطاة . وهذا كثير ، وهذا بابَةٌ(٢) .

ولأَنَّه يحكى كلَّ صوتٍ بفيه ، ويصوِّر كل صورةٍ بيده . ثم فضَّله الله تعالى بالمنطِق والرَّوِيّة(٣) وإمكان التصرف .

وعلى أَنا لا نعلم أَنَّ لأَحدٍ من جميع أَصناف المعلِّمين لجميع هذه الأَصناف — كفضيلة المعلِّمِ من الناس الأَحداثَ المنطقَ المنثور(٤) ، ككلام الاحتجاج والصِّفات ، والمناقلات من المسائل والجوابات فى جميع العلامات ، بين الموزون من القصائد(٥) والأَرجاز ، ومن المزدَوِج والأَسجاع(٦) ، مع الكِتابِ والحساب ، وما شاكل ذلك ووافَقَهُ واتَّصل به ، وذَهَب مذهبَه .

وقالوا : إنَّما اشْتُقَّ اسم المعلِّم من العِلْم ، واسم المؤدِّب من الأَدب . وقد علمنا أَنَّ العلم هو الأَصل ، والأَدب هو الفرع .

والأَدب إمّا خُلُق وإمَّا رواية ، وقد أَطلقوا له اسم المؤدِّب على العموم .

(١) ب : « وزوغان » تحريف ،وإنما يقال راغ الثعلب روغاناً .وفى أمثالهم : « أروغ من ثعلب » ، و « أروغ من ثعالة » . وانظر الدرة الفاخرة ٢٠٩ وجمهرة العسكرى ١ : ٥٠٠ والمستقصى ١ : ١٤٥ والميدانى ١ : ٢٩٠ . والروغان : المخادعة .

(٢) البابة : الوجه . والبابات : الوجوه ، وفى الأصول : « وهذا بابه ».

(٣) الروية : التفكر فى الأمر ، والتمهل فى الفكر . وفى جميع النسخ : « الرؤية » والوجه ما أثبت . وإلا فالرؤية مشتركة بين جميع ضروب الحيوان .

(٤) م ، ب : « الأحداث هى من المنطق المنثور » ، وعبارة « هى من » مقحمة لم ترد فى ط .

(٥) ب : « عن القصائد » ، صوابه فى م ، ط .

(٦) فى جميع النسخ : « من المزدوج » بدون واو . والمزدوج ضرب غير الرجز ، مثل له الجاحظ فى البيان ٢ : ١١٦ — ١١٧ . كما أورد نماذج للأسجاع فى ١ : ٢٨٤ — ٢٩٠ ، وفى السجع يغلب التزام التقفية . وفى الازدواج مراعاة للتزاوج فى المعانى ، وقد يصحب بالتزام القافية . وفى جميع النسخ : « والأسماع » والوجه ما أثبت .

والعلم أصلٌ لكلِّ خير ، وبه ينفصل الكرم من اللُّؤْم ، والحلال من الحرام . والفضلُ من الموازنةِ بين أَفضل الخيرين ، والمقابلة بين أَنقص الشرين .

فلم يَعْرِضوا لأَحدٍ من هذه الأَصناف التى[1] اتَّخذ النَّاس لها المعلِّمين من جميع أَنواع الحق والباطل ، والسَّرف والاقتصاد ، والجِدِّ والهزل ، إلَّا هؤلاءِ الذين لا يعلِّمون إلَّا الكتاب[2] والحسابَ ، والشِّعر ، والنحو ، والفرائض ، والعَروض . وما بالسماءِ[3] من نجوم الاهتداءِ والأَنواءِ والسُّعود ، وأَسماءِ الأَيّام والشُّهور ، والمناقلات[4] .

ويمنعهم العَرَامة[5] ، ويأْخذهم بالصَّلاة فى الجماعة ، ويُدَرِّسُهُم القرآنَ[6] ، ويهدِّن[7] أَلسنتهم برواية القصيد والأَرجاز ، ويُعاقب على التَّهاوُن ، ويضرب على الفِرار[8] ، ويأْخُذُهم بالمناقلة[9] ، والمناقلة [من[10]] أَسباب المنافسة .

لحقير[11] بخلاف هذه السِّيرة ، وبضدِّ هذه المعاملة .

---

(١) ب ، م : « الذى » ، صوابه فى ط .

(٢) الكتاب : الكتابة . ط فقط : « الكتابة » .

(٣) ب : « وما السماء » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) فى القاموس : «والمناقلة فى المنطق : أن تحدثه ويحدثك» . وفى أساس البلاغة : « وناقله الحديث ، إذا حدثته وحدثك . وناقل الشاعر الشاعر : ناقضه » .

(٥) العرامة ، بالمهملة : الشراسة والأذى . م : « الغرامة » . تحريف .

(٦) يقال درسته الكتاب درساً ، وأدرسته إدراساً ، ودرسته إياه تدريساً . وأصل الدرس التذليل ، يقال درست الكتاب أدرسه درساً ودراسة ، أى ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه .

(٧) يقال هدنوه بالقول حتى رضى وسكن . وتهدين المرأة ولدها : تسكينها له بكلام إذا أرادت إنامته . ط فقط : « ويهذبون ألسنتهم » .

(٨) ب فقط : « على الضرار » .

(٩) انظر ما سبق فى الحاشية الرابعة .

(١٠) تكملة يلتئم بها الكلام .

(١١) يبدو أن الكلام بترا . كما يبدو أن هذه الكلمة محرفة عن «لحقيق» . وهذا فى كله نطاق الدفاع عن المعلم .

٦ — فصـــل منه

وقد ذهب قومٌ إلى أنَّ الأدبَ حُرْف(١) ، وطلبَه شُؤم . وأنشد قول الشاعر :

ما ازددت فى أدبى حَرفاً أُسرُّ به إلّا تزيّدتُ حُرْفاً تحته شُوم(٢)
إن المقدَّم فى حِذقٍ بصنعتــه أَنَّى توجَّهَ فيها فهو محروم(٣)

ولم نر شاعراً نال بشعره الرَّغائب ، ولا أديباً بلغ بأَدبه المراتب ، ذَكَرَ يُمْن الأَدب ، ولا بركةَ قولِ الشعر(٤) . فإذا حُرم الواحدُ منهم ، والرجل الشاذُّ ذَكَرَ حُرْف الأَدب(٥) وشؤم الشعر . وإن كان عددُ من نال الرغائبَ أَكثرَ من عدد من أَخفق .

ومهما عَيَّرنا مَنْ كان فى هذه الصِّفة(٦) فإنا غير مُعايرين(٧) لأَبى يعقوب الخُرَيمى(٨) ؛ لأَنَّه نال بالشِّعر وأَدرك بالأَدب .

---

(١) الحرف ، بالضم : الحرمان ، من قولهم : رجل محارف ، أى منقوص الحظ لا ينمو له . ومثله « الحرفة » بالكسر : اسم كذلك ، يقال : أدركته حرفة الأدب . ط فقط : « خرق » ، وهو الحمق .

(٢) فى البيت مجانسة بين الحرف والحرف بالضم .

(٣) ب فقط : « فى حزق بصنعته » ، تحريف .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة « الشعر » التالية ساقط من م .

(٥) فى الأصول : « فإنما حرم» . والوجه ما أثبت. وفى ط فقط : « خرق الأدب » .

(٦) ط : « الصنعة » .والتعبير هنا بمعنى الموازنة.

(٧) المعايرة ، من قولهم : عاير بينهما : قدرهما ونظر ما بينهما . وفى الأصول : « غير عايرين » .

(٨) الخريمى بالراء المهملة : نسبة إلى خريم بن عامر المرى،وكان لأبى يعقوب اتصال به وبآله فنسب إليه . وفى جميع الأصول: « الخزيمى » ، تحريف . واسمه إسحاق بن حسان بن قوهى، وقد ذكره البغدادى فى التاريخ ٣٣٦٩ وقال: « أصله من خراسان من بلاد السغد » ، وقال : « ولهمدائح فى محمد بن منصور بن زياد،ويحيى بن خالد وغيرهما . وقال أبو حاتم السجستانى : الخريمى أشعر المولدين ، وروى عنه شيئاً يسيراً من شعره أبو عثمان الجاحظ ، وأحمد بن عبيد ابن ناصح » وانظر لخريم الناعم قاموس الزركلى وأمثال الميدانى ٢ : ٢٨١ . وكان إسحاق هذا من العميان روى له الجاحظ شعراً يذكرفيهعماه فى الحيوان ٣ : ١١٣ . وانظر نكت الهميان ٧١ وعيون الأخبار ٤ : ٥٧ .

وليس الذى يحمل[١] أكثر الناس على هذا القول إلّا وِجدانُ المعانى والألفاظ ، فإنهم يكرهون أن يُضيعوا باباً من إظهار الظَّرف وفَضْل اللسان[٢] وهم عليه قادرون .

٧ — فصل

وقد قالوا : الصبىُّ عن الصبى أفهَمُ ، وبه أشكل . وكذلك الغافل والغافل[٣] ، والأحمق والأحمق ، والغبىُّ والغبىّ ، والمرأةُ والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولو جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لجعلناهُ رَجُلًا[٤] ﴾ . لأَنَّ الناس عن النَّاس أفهم ، وإليهم[٥] أسكن . فممّا أعان الله تعالى به الصِّبيان ، أَنْ قرَّب طبائعَهم ومقاديرَ عقولهم من مقادير عقول المعلِّمين[٦] .

وسمع الحجَّاجُ — وهو يسيرُ — كلامَ امرأةٍ من دار قومٍ ، فيه تخليطٌ وهذَيان ، فقال : مجنونة ، أو ترقِّص صبياً !

ألا ترى أنَّ أبلغ الناس لساناً ، وأجودَهم بياناً وأدقَّهم فطنةً ، وأبعدَهم رويَّة[٧] ، لو ناطق طفلًا أو ناغَى صبيًّا ، لتوخَّى حكايةَ مقادير عقول الصِّبيان ، والشَّبَهَ لمخارج كلامهم ، وكان لا يجد بدًّا من أن ينصرف[٨] عن كلِّ ما فضَّله الله به بالمعرفة الشريفة ، والألفاظ الكريمة . وكذلك تكون المشاكلة[٩] بين المتَّفقِين[١٠] فى الصناعات .

(١) م : « وأليس » ، تحريف . ب ، م : « يجعل » ، صوابه فى ط .
(٢) م ، ط : « الشأن » .
(٣) م : « العاقل والعاقل »
(٤) الآية ٩ من سورة الأنعام .
(٥) ب ، م : « وإليه » تحريف .
(٦) ب ، ط : « العالمين » .
(٧) ب ، م : « رؤية » ، صوابه فى ط . وانظر ما سبق فى حواشى ص ٣٤ .
(٨) ب ، م : « يصرف » ، وأثبت ما فى ط .
(٩) ب ، م : « يكون مشاكلة » ، صوابه فى ط .
(١٠) م : « المتقين » ، صوابه فى ب ، ط .

٨ – فصل

فى رياضة الصبى

وأمَّا النَّحو فلا تشغل قلبَه[١] منه إلَّا بقدر ما يؤدِّيه إلى السلامة من فاحشِ اللَّحن ، ومن مقدارِ جهل العوامّ فى كتابٍ إن كتبه[٢] ، وشعرٍ إن أنشده ، وشيءٍ إن وصفَه . وما زاد على ذلك فهو مَشغلةٌ عمَّا هو أولى به ، ومُذهلٌ عمَّا هو أَردُّ عليه[٣] منه من رواية المثل والشاهد[٤] ، والخَبرِ الصادق ، والتعبيرِ البارع[٥] .

وإنَّما يرغب فى بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه ، مَنْ[٦] لا يحتاج إلى تعرُّف جسيمات الأُمور ، والاستنباط لغَوامض التدبُّر ، ولمصالح العباد والبلاد ، والعلمِ بالأَركان[٧] والقُطبِ الذى تدور عليه الرَّحى ؛ ومَن ليس له حظٌّ غيره ، ولا معاشَ سواه.

وعَويص النحو[٨] لا يجرِى فى المعاملات ولا يُضطَرُّ إليه شيء .

---

(١) م ، ب : « قلبهم » ، صوابه فى ط .
(٢) ط : « فى كتاب كتبه » .
(٣) أرد عليه : أنفع له . وهذا الأمر لا رادة له ، أى لا فائدة له .
(٤) هذا ما فى ط . وفى م ، ب : « المثل الشاهد » .
(٥) ب ، م : « والفقير البارع » ، صوابه فى ط .
(٦) م : « عمن » ، تحريف .
(٧) ب ، ط : « والعلم وبالأركان » ، صوابه فى م .
(٨) ب ، م : « وغويص النحو » ، صوابه فى ط .

فمن الرأى أن يُعتمد به[١] فى حساب العَقْد[٢] دون حساب الهِنْد ، ودون الهندسة[٣] وعَويص[٤] ما يدخل فى المساحة . وعليك فى ذلك بما يحتاج إليه كُفاة السُّلطان وكُتَّاب الدواوين .

وأنا أقول : إن البلوغ فى معرفة الحساب الذى يدور عليه العمل ، والتَّرقِّى فيه[٥] والسبب إليه ، أردُّ عليه من البلوغ فى صناعة المحرِّرين ورءُوس الخطَّاطين ؛ لأنَّ فى أدنى طبقات الخطِّ مع صحَّة الهجاءِ بلاغاً . وليس كذلك حالُ الحساب .

ثمّ خذه[٦] بتعريف حجج الكتَّاب وتخلُّصهم باللفظ السَّهل القريب المأْخذ إلى المعنى الغامض[٧] . وأَذِقْهُ حلاوة الاختصار ، وراحةَ الكفاية ، وحذِّره التكلُّف واستكراهَ العبارة[٨] ؛ فإنَّ أكرم ذلك كلِّه ما كان إفهاماً للسامع ، ولا يُحوِج إلى التأْويل والتعقُّب ، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصِّراً عنه ، ولا فاضلًا عليه .

فاختر من المعانى ما لم يكن مستوراً باللفظ المتَعقِّد[٩] ، مُغْرِقاً فى الإِكثار والتكلُّف[١٠] . فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع

---

(١) ب : « أن يصمد به » ، وأثبت ما فى م ، ط .

(٢) حساب العقد : ضرب منه يكون بأصابع اليدين . وفى الحديث أنه « عقد عقد تسعين» وقد ألفت فيه كتب وأراجيز . انظر الخزانة ٣ : ١٤٧ بولاق والحيوان ١ : ٣٣ والبيان ١ : ٧٦ وفتح البارى ١٣ : ٩٥ — ٩٦ والألف المختارة من صحيح البخارى ٨٩٦، ٩٢٥.

(٣) م : « ودون حساب الهندسة » .

(٤) ب ، م : « وغويص » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « والتوق » ط : « والتوفى » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ط فقط : « ثم خذ » .

(٧) ب : « المغامض » ، صوابه فى م ، ط .

(٨) ب : « واستكراثه العبارة » ، صوابه فى م ، ط .

(٩) ب ، ط : « المنعقد » ، وأثبت ما فى م .

(١٠) فى جميع الأصول : « مفرقاً » بالفاء ، والوجه ما أثبت .

بَرَاعة اللَّفظ وغموضِه على السامع بعد أَن يتَّسق له القول[١] ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة . فالمعنى بعدُ مقيمٌ على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً .

وشرُّ البلغاءِ من هيَّأَ رسم المعنى قبل أن يهيِّئَ[٢] المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشَغَفاً بذلك الاسم ، حتَّى صار يجُرُّ إليه المعنى جَرًّا ، ويُلزِقه به إلزاقاً . حتَّى كأَنَّ الله تعالى[٣] لم يخلق لذلك المعنى اسمًا غيره ، ومنعَه الإفصاحَ عنه إلَّا به .

والآفة الكبرى أَن يكون ردىءَ الطَّبع[٤] بطىءَ اللفظ ، كليلَ الحدَّ ، شديدَ العُجْب ، ويكونَ مع ذلك حريصاً على أَن يُعدَّ فى البلغاءِ ، شديدَ الكَلَف بانتحال اسم الأُدباء[٥] . فإذا كان كذلك خفِيَ عليه فرقُ ما بين إجابة الأَلفاظ واستكراهه لها .

وبالجملة[٦] إنَّ لكل معنًى شريفٍ أَو وضيعٍ ، هزلٍ أَو جدٍّ[٧] ، وَحزم أَو إضاعة[٨] ، ضرباً[٩] من اللفظ هو حقُّه وحظُّه ، ونصيبُه الذى لا ينبغى أَن يجاوزه أَو يقصِّر دونه[١٠] .

ومن قرأَ كتبَ البلغاءِ ، وتصفَّح دواوين الحكماءِ ، ليستفيد

(١) م : « يتسوله القول » ط : « يتبين له القول » . وأثبت ما فى ب .
(٢) ب فقط : « يهيا » .
(٣) ب ، م : « كأن الله مراده تعالى » !
(٤) ب : « ردى الطبع » بالتسهيل .
(٥) ط فقط : « الأدب » .
(٦) ب : « والجملة »
(٧) ط : « هزلا أو جداً » .
(٨) ب ، م : « أو حزم » ، ط : « وحزم أوضاعه » ، والوجه ما أثبت .
(٩) ط : « ضرب » ، تحريف .
(١٠) ب : « ويقصر دونه » .

المعانىَ ، فهو على سبيلِ صَواب . ومَن نظر فيها ليستفيد الأَلفاظ فهو على سبيل الخطأ . والخُسرانُ ها هنا فى وزن الرِّبح هناك ؛ لأَنَّ من كانت غايته انتزاعَ الأَلفاظ[١] حملَهُ الحرصُ عليها ، والاستهتارُ بها إلى أَنْ يستعملَها قبلَ وقتِها ، ويَضعَها فى غير مكانها . ولذلك قال بعض الشُّعراء[٢] لصاحبه : أَنا أَشعر منك ! قال صاحبه : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأَنِّى أَقول البيت وأَخاه ، وأَنت تقول البيتَ وابن عمِّه .

وإنَّما هى رياضة وسياسة[٣] ، والرفيق : مصلحٌ وآخَرُ مفسد[٤] .
ولا بدَّ من هِدانٍ وطبيعةٍ مناسبة[٥] .

وسماع الأَلفاظ ضارٌّ ونافع[٦] .

فالوجه النافع : أَن يَدور فى مسامعه ، ويغبَّ فى قلبه[٧] ، ويختمر[٨] فى صدره ، فإذا طال مكثُها تناكحت ثم تلاقحت فكانت[٩] نتيجتها أَكرمَ نتيجة ، وثمرتُها أَطيبَ ثَمَرة ؛ لأَنَّها حينئذ تخرج غير مُستَرَقةٍ ولا مختلَسة[١٠] ولا مغتصَبة ، ولا دالَّةٍ على فَقر ؛ إذْ لم يكن القصد إلى شيءٍ بعينه ، والاعتمادِ عليه دونَ غيره . وبَيْنَ الشىء إذا عشَّش فى

(١) ب : « أنواع » م : « انتواع » ، صوابهما فى ط .
(٢) هو عمر بن لجأ ، كما فى مقدمة الشعر والشعراء ٩٠ .
(٣) م ، ط : « وسياحة » .
(٤) ط ، ب : « والآخر مفسد » .
(٥) الهدان : المهادنة . م . ط : « هذان » مع سقوط واو « وطبيعة » من ط .
(٦) ب ، م : « ضارة ونافعة ».
(٧) يغب : يمكث ، ومنه قولهم : « رويد الشعر يغب » ، أى دعه يمكث يوماً أو يومين . م ، ط : « ويغيب فى قلبه » .
(٨) هذا الصواب من ب : وفى م ، ط : « ويخيم » .
(٩) ط : « وكانت » .
(١٠) هذا الصواب من م ، ط . وفى ب : « ولا محترسه » .

الصَّدر ثم باض ، ثم فَرَّخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرقٌ بيِّن .

ومتى اتَّكَلَ صاحبُ البلاغة على الهوينَى والوِكال ، وعلى السَّرِقة والاحتيال ، لم ينَلْ طائلًا ، وشقَّ عليه النزوع ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوءُ العادة .

والوجه الضارّ : أن يتحفَّظ ألفاظاً بعينها[(١)] من كتابٍ بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يريد[(٢)] أن يعدَّ لتلك الألفاظ قسمها من المعانى ، فهذا لا يكون إلا بخيلًا فقيراً ، وحائفاً[(٣)] سروقاً ، ولا يكون إلَّا مستكرِهاً لألفاظه ، متكلِّفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف منقطع النظام . فإذا مرَّ كلامُه بنقَّاد الألفاظ وجهابذة المعانى استخفُّوا عقله ، وبَهرَجُوا علمه .

ثم اعلم أنَّ الاستكراه فى كل شىءٍ سَمِج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو فى الطُّرَفِ أسمج ، وفى البلاغة أقبح . وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فِمِه[(٤)] ، مسرودة فى نفسه[(٥)] ، ولم تكن مخلَّدة فى كتبه .

وخير الكتب ما إذا أعدتَ النَّظر فيه زادَك فى حسنه ، وأوْقفكَ على حدِّه[(٦)] .

---

(١) تحفظ الكتاب : استظهره شيئاً بعد شىء . م ، ط : « أن يحفظ » .
(٢) م فقط : « أن يؤيد » .
(٣) من الحيف والجور . ب : « وحايفا » بالتسهيل .
(٤) ب : « من فهمه » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) مسرودة : منتظمة متتابعة . ب : « مسرورة » .
(٦) م : « أوقف » ب : « وأوقف » ، والوجه ما أثبت من ط .

٩ ــ فصــل

فى ذم اللواط

والذى يدلُّ على أنَّ هذه الشَّهوةَ معيبةٌ فى نفسها[١] ، قبيحة فى عينها ، أَن الله تعالى وعزّ لم يعوِّض فى الآخرة بشَهوةِ الوِلْدانِ من تَرَك لوجْهِه فى الدُّنيا شهوة الغِلْمان ، كما سقى فى الآخرة الخمرَ مَنْ تَرَكها له فى الدُّنيا ، ثمّ مَدحَ خمر الجنَّةِ بأَقصر الكلام ، فنَظَم به جميع المعانى المكروهةِ فى خَمْر الدنيا فقال: ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنْزَفُون[٢] ﴾ . كأَنه تبارك وتعالى قال : لا سُكر فيها ولا خُمار[٣] .

وفى اكتفاءِ الرِّجال بالرِّجال والنِّساء بالنِّساءِ انقطاعُ النَّسل ، وفى انقطاع النَّسل بُطلانُ جميعِ الدِّين والدنيا . وغِشيانُ الرَّجلِ الرجلَ والمرأَةِ المرأَةَ من المنكوسِ المعكوس[٤] ، ومن المُبدَل المقلوب ؛ لأَنَّ الله جلّ ذكره إنَّما خلق الذَّكرَ للأُنثى ، وجعل بينهما أَسباب التحابِّ وعلائق الشِّرْكةِ ، وعلل المشاكلة[٥] وجعل الذَّكر طِبْقاً للأُنثى ، وجعل الأُنْثى سكناً للرجل . فقلب هؤلاءِ الأَمرَ وعكَسُوه، واستقبلوا من اختار اللهُ لهم بالردِّ والزُّهدِ فيه .

---

(١) م ، ب : « معيبة نفسها » .
(٢) الآية ١٩ من سورة الواقعة .
(٣) الخمار ، بالضم : ما أصاب من ألم الخمر وصداعها وأذاها .
(٤) ب فقط : « من المنكوس والمعكوس » .
(٥) ب فقط : « المشاركة » .

١٠ – فصل

ومن المعلمين ثم مِن البلغاء المتأدِّبين[١] : عبد الله بن المقفَّع ، ويكنى أبا عَمرو ، وكان يتولَّى لآلِ الأهتم[٢] ، وكان مقدَّماً فى بلاغة اللسان والقلم والتَّرجمة ، واختراع المعانى وابتداع السِّيَر . وكان جواداً فارساً جميلًا ، وكان إذا شاءَ أن يقول الشعرَ قاله ، وكان يتعاطى الكلام . ولم يكن يُحسن منه لا قليلًا ولا كثيراً . وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أين غُرّ المغترُّ ووَثِق الواثق . وإذا أردت أن تعتبر ذلك ، إنْ كنتَ من خُلَّص المتكلِّمين ومن النَّظَّارين ، فاعتبر ذلك بأَنْ تنظرَ فى آخر رسالته (الهاشمية) ، فإنَّك تجدُه جيِّد الحكاية لدَعوى القوم ، رديَّ المدخل فى مواضع الطَّعن عليهم .

وقد يكون الرجُل يُحسن الصِّنف والصنفين من العلم ، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أنَّه لا يَحمل عقلَه على شيءٍ إلَّا نَفَذ به فيه[٣] ، كالذى اعترى الخليلَ بن أحمدَ بعد إحسانه فى النحو والعروض ، أن ادَّعى العلم بالكلام وبأوزان الأغانى[٤] ، فخرج من الجهل إلى مقدارٍ لا يبلغه أحدٌ إلَّا بخِذلان الله تعالى . فلا حرمنا الله تعالى عِصمتَه ، ولا ابتلانا بخِذلانه .

١٠م – فصل[٥]

وهذان الشاعران جاهليَّان[٦] ، بعيدان من التوليد ، وبنَجْوةٍ من التكليف .

---

(١) ب : « ثم البلغاء المتأدبين » ، بإسقاط « من» .
(٢) انظر طرفاً من أخبارهم فى الأغانى ١٣ : ٥٨ .
(٣) م : « إلا تعدته فيه » ، ط : « إلا بعد به فيه » . والوجه ما أثبت من ب .
(٤) م : « المغانى » .
(٥) لم ترد هذه الكلمة فى ب . والاختيار التالى مقتضب لايمت إلىماقبله ولا إلى مابعده بصلة.
(٦) ب : « جاهلان » ، تحريف .

١١ – فصـــل

ومن خصال العبادة وإن كانت كلُّها راجحة فليس فيها شيءٌ أَردّ في عاجل[١] ، ولا أَفضلَ في آجل من حُسْنِ الظنّ بالله تعالى وعزّ[٢] .

ثم اعلم أَنَّ أَعقلَ النَّاس السُّلطانُ ومَن احتاج إلى معاملته ، وعلى قدر الحاجة إليه ينفتح له باب الحيلة ، والاهتداءُ إلى مواضع الحجة . وما أَقربَ فضل الرَّاعى على الرعية من فضل السَّائس على الدابَّة . ولولا السُّلطانُ لأَكل النَّاسُ بعضُهم بعضاً ، كما أَنَّه لولا المُسِيم لوثَبَ السِّباعُ على السَّوامِ[٣] .

ودَعْني من تدريسه كتب أَبي حنيفة[٤] ، ودعني مِن قولهم : اصرفْه إلى الصَّيارفة ؛ فإنَّ صناعة الصَّرف تَجْمع[٥] مع الكتَاب والحساب المعرفةَ بأَصناف الأَموال ، ولا تجد بُدًّا[٦] من حِلَّة السُّلطان[٧] .

ودَعني مِن قول من يقول : قد كانت قريش تجّاراً ؛ فإن هذا بابٌ لا ينقاس ولا يطَّرد . ومَن قاس تُجّار الكَرْخ وباعَتَه ، وتجّار الأَهواز والبصرة ، على تُجّار قريش ، فقد أَخطأَ مواضع القياس ، وجَهِل أَقدارَ العلل .

---

(١) أرد ، أى أنفع .

(٢) وأعز ، ساقطة من م .

(٣) المسيم : الراعى ، أسامها إسامة : خلاها ترعى ، ومثله سامها سوماً ، والسوام : الإبل الراعية تسوم حيث شاءت ، وهو اسم جمع للسائم والسائمة ، وميمها مخففة،وضبطت فى طبعة القاموس بالتشديد خطأ . وفى ب ، م : « لأثب السباع » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « من تدرسه » ط : « من تدريس » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما أسلفت من حاشية على « ويدرسه القرآن » فى أواخر الفصل الخامس ص ٣٥ . والضمير عائد إلى الصبى .

(٥) ب ، م : « يجمع » ، صوابه فى ط .

(٦) ب فقط : « يدان بالياء » ، تحريف .

(٧) ب ، م : من جلة السلطان » بالجيم . والمراد أنها لها علاقة بالسلطان .

قريش[١] قومٌ لم يزل الله تعالى يقلِّبهم فى الأَرحام البريئة من الآفات[٢] ، وينقلهم من الأَصلاب السليمة من العاهات ، ويعبِّيهم لكل جسيمٍ[٣] ، ويربِّيهم لكل عظيم .

ولو علم هذا القائل ما كانت قريش عليه فى التِّجارة لعرَف اختلاف السُّبُل ، وتَفاوُتَ ما بين الطُّرق . ولو كانت علَّتهم فى ذلك كعلَّة تجَّار الأُبُلَّة[٤] ، ومحتكرى أَهل الحيرة ، لثلَمت دقَّة التجارة فى أَعْراضهم[٥] ولنَهَك سخف التربُّح[٦] من مروءَاتهم ، ولصغَّر ذلك من أَقدارهم فى صدور العرب ، ولوضع من علوّهم عند أَهل الشرف . وكيف وقد ارتحلت إِليهم الشُّعراء كما ارتحلت إِلى الملوك العظماء ، فأَسنَوْا لهم العطيَّة ، ولم يقصِّروا عن غاية ، فسقَوُا الحجيج وأَقاموا القِرى لزوّار الله تعالى ، وهم بِوادٍ غيرِ ذى زرع . فلو أَنَّه كان معهم من الفضل ما يَبْهَر العقول ، ومن المجدِ ما تَحْرَج فيه العيون[٧] ، لما أَصلح طبائعَهم الشىءُ الذى يفسد جميع الأُمة[٨] . ولقد أَورث ذلك صدورَهم من السَّعَة بقدر ما أَورث

---

(١) م فقط : « وقريش » .

(٢) ب ، م : « البرية » بالتسهيل .

(٣) عباه تعبية وتعبئة : هيأه وأصلحه . م ، ط : « ويبقيهم » . وأثبت ما فى ب .

(٤) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة ، وهى أقدم منها ، لأن البصرة مصرت فى أيام عمر ، وكانت الأبلة حينئذ مدينة فيها مسالح وقائد من قبل كسرى .

(٥) فى جميع الأصول : « أغراضهم » بالغين المعجمة ، وإنما يثلم العرض ، بالعين المهملة أى يطعن فيه ، وفى أساس البلاغة : « هذا مما يكلم الدين ويثلم اليقين » .

(٦) ب ، م : « التّربح » ط : « الربح » ، والوجه ما أثبت من الجمع بينهما . والتربح : طلب الربح والمكسب .

(٧) حرجت عينه حرجاً : حارت ، قال ذو الرمة :

تزداد للعين إبهاجاً إذا سفرت وتحرج العين فيها حين تنتقب

وقيل معناه أنها لا تنصرف ولا تطرف من شدة النظر . وفى جميع الأصول : « ما يخرج فيه العيون » وهو من ملح التصحيف .

(٨) ب ، م : « لما صلح » ، صوابه فى ط .

غيرهم من الضِّيق . ولو كانت سُبُلهم(١) عند الملوك إذا وفدوا عليهم ، أَوْ وَرَدوا(٢) بلادهم بالتجارات ،سُبُلَ(٣) غيرِهم من التُّجَّار لما أَوجَهُوهم وقرّبوهم(٤) ، ولَما أَقاموا لهم قِرى الملوك وحبَوْهم بكرامة الخاصّ .

وإذا كانت قريش حُمساً تَنَسَّكُ فى دينها ، وتتأَلَّه فى عبادتها(٥) وكان مانعاً لهم من الغارات والسِّباء ، ومن وطءِ النِّساء من جهة المَغنَم ، ولذلك لم يَئدوا البناتِ ولا ولدت منهم امرأةُ غيرهم من جهة السِّباء(٦) ، ولا زوّجوا أَحداً من العرب حتَّى يتحمّس ويدينَ بدينهم . ولذلك لمَّا صاروا إلى بناءِ الكعبة لم يُخرجوا فى بنائها من أَموالهم إلَّا مواريثَ آبائهم ونسائهم(٧) ، خوفاً من أَن يخالطه شيءٌ من حرام ، إذْ كانت(٨) أَرباح التجارات مَخُوفاً عليها ذلك . فلما كانوا بوادٍ غير ذى زرع ويحتاجون إلى الأَقوات(٩) ، وإقامة القِرَى ، لم يجدوا بدّاً من أَن يتكلَّفوا ما يُعيشهم ويصلح شأْنهم ، فأَخذوا الإِيلاف(١٠) ، ورحلوا إلى الملوك بالتِّجارات . فهذا هو السبب .

---

(١) ب : « سلبهم » . تحريف .

(٢) ب : « وأوردوا » .

(٣) ب ، م : « سبيل » .

(٤) وجهه السلطان توجيهاً ، وأوجهه إيجاهاً : شرفه ، وأوجهته : صادفته وجيهاً .

(٥) تتأله : تتنسك وتتعبد . ط : « وتناله فى عبادتها » ، تحريف .

(٦) ب ، م : « وغيرهم من جهة السباء » . والمراد لم يعتدوا على نساء غيرهم من القبائل الأخرى فيلدن لهم .

(٧) من أموالهم ، ساقطة من ب .

(٨) ب ، م : « إذا كانت » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٩) ب ، م : « إلى الأوقات » ، والصواب فى ط .

(١٠) الإيلاف : العهد والذمام والإجارة . وكان الإخوة الأربعة : هاشم ،وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، بنو عبد مناف ، يجيرونقريشاً بميرهم، وكانوا يسمون المجيرين . فأما هاشم فإنه أخذ حبلا من ملك الروم ، وأخذ نوفل حبلا من كسرى ، وأخذ عبد شمس حبلا من النجاشى ، وأخذ المطلب حبلا من ملوك حمير ، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم .

فانظر كم بين علّتهم وعلّةِ غيرهم ! فيسرُّك بعد هذا أن يتحوّل ابنُك في مسلاخ صالح الزَّرازريشي(١) ، أو في طباع ابن بادام(٢) ، أو في عقل ابن سامري(٣) .

فإنْ زعموا أنَّ أصحاب السلطان بِعَرَض مكروهٍ فليعلموا أنَّ كلَّ مسافرٍ فبعرَض مكروه(٤) ، وقد قال بعض الحكماءِ : « المسافرُ ومتاعُه على قَلَت إلا من حفظَ الله(٥) » ، يعني على هلاك .

وراكب البحر أشدُّ خطراً ، ومشترى طعام الأَهواز أشدُّ تهوُّراً(٦) ، ورافع الشِّراع بعَرَض هَلَكة . والمتعرِّض للمِلاحة(٧) والمعرِّض نفسَه للسِّباع أقلُّ شفقة(٨) . وسكان الجزائر والسواحل أَحقّ بالتعرُّض ، وأولى بالخوف . والمنهوم بالطعام الرديِّ(٩) ، والمدمنُ للشَّراب أشبه بأَصحاب التغْرير(١٠) ، والمتبارِي في ذلك والمتزيِّدُ منه أَحقُّ بتوقُّع الحِدثان وحوادث الأَزمان ، قد جرت عليه عادةُ الدهر(١١) وسِيرةُ الأَيام . وهذا كلُّه أَحقُّ بالاهتمام .

---

(١) ب : « الدزازريشي » ط : « الذرابرى » ، وأثبت ما في م . وأصل معنى المسلاخ الجلد ، والمراد أن يكون مثله .

(٢) ط ، ب : « ابن آدم » ، وأثبت ما في م . وبادام ، من الأعلام الفارسية ، ويقال أيضاً باذام . وانظر حواشي رسائل الجاحظ ٢ : ٢٩٢ .

(٣) ب ، ط : « وفي عقل » .

(٤) ط : « بعرض مكروه » .

(٥) الذي في البيان ٢ : ١٠٥ واللسان (قلت) : « وقال أعرابي : إن المسافر ومتاعه لعلى قلت إلا ما وقى الله » . وفي جميع الأصول : « على قلة » تحريف .

(٦) التهور : السقوط ، والمراد التعرض للخطر .

(٧) في جميع النسخ : « للملام » والوجه ما أثبت .

(٨) الشفقة : الخوف من وقوع مكروه . ولعله يعني أنهما أكثر أمناً من التاجر الذي يستعمل السفر .

(٩) ب ، م : « الردى » بالتسهيل .

(١٠) ب : « التعزير » . والتغرير : حمل النفس على الغزر ، وهو الخطر والهلكة .

(١١) سقطت كلمة « قد » من ط . وبدلها في ب : « حتى » .

وإن كنت إلى الإشفاق تذهب ، وإلى إعطاء الحزمِ أكثر من نصيبه ، وكيف دار الأَمر فإنَّ التاجر قد استشعر الذُّلَّ ، وتغَشَّى ثوب المَذَلَّة .

وصاحب السلطان قد تجاوز حدَّ العزِّ والهيبة . وإنما عيبُه سُكْر السُّلطان[١] ، وإفراط التعظيم . قد استَبطَن بالعزّ ، وظاهَرَ بالبِشْر واستحكمت تجربته ، وبعُدَت بصيرته حتَّى عرف مصلحة كلِّ مِصْر[٢] ، وإصلاح كلِّ فاسد ، وإقامةَ كلِّ معوجّ ، وعمارةَ كلِّ خرب .

ولا أعلم فى الأَرض أَعمّ إفلاساً ولا أَشدَّ نكبةً ، ولا أَكثر تحوُّلًا[٣] من يُسر إلى عسر ، ولا رأَينا الجَوائح[٤] إلى أَحدٍ أَهدى منها إلى أَموال الصَّيارفة . فكيف يُقاس شأْنُ قومٍ تعمُّهم المَعاطب[٥] بشأْن قوم أَهلُ السَّلامةِ فيهم أَكثر ، والنَّكَباتُ فيهم أَقلّ .

وبعد هذا فإنى أرى أَلَّا تستكرهه فتبغِّض إليه الأَدب ، ولا تهملّه فيعتادَ اللهو .

على أَنِّى لا أَعلم فى جميع الأَرض شيئاً أَجلبَ لجميع الفساد من قُرناءِ السَّوءِ ، والفراغِ الفاضل عن الجَمام[٦] .

---

(١) هو ما يسمونه المدح بما يشبه الذم . وسكر السلطان : نشوته والشعور بالزهو . وفى اللسان : « السكر ثلاثة : سكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر السلطان » . ط ، م : « شكر » بالشين المعجمة ، تحريف .

(٢) المصر : واحد الأمصار ، للمدينة الكبيرة . ط فقط : « كل مضر » ، تحريف .

(٣) ب : « تجولا » بالجيم .

(٤) الجوائح : جمع جائحة ، وهى الشدة والنازلة العظيمة التى تجتاح المال ، أى تذهب به وفى جميع النسخ : « الحوائج » ، صوابه ما أثبت .

(٥) المعاطب : المهالك ، واحدها معطب . ب ، م : « المعاطر » بالراء ، صوابه فى ط .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة . ط فقط : « الجهاد » محرف .

درِّسه العلمَ[١] ما كان فارغاً من أَشغال الرجال ، ومطالبِ ذَوِى الهِمَمَ . واحتلْ فى أَن تكون أَحبَّ إليه من أُمِّه . ولا تستطيع أَن يَمحضك المِقَةَ ، ويُصفِىَ لك المودَّة مع كراهته لما تحملُ إليه من ثِقَل التأْديب عند من لم يبلغ[٢] حالَ العارف بفضلِه[٣] .

فاستخرجْ مكنونَ محبَّته ببرِّ اللِّسان ، وبذْلِ المال . ولهذا مقدارٌ من جازَه أَفرط[٤] . والإِفراطُ سَرَف . ومن قصَّر عنه فرّط ، والمفرِّط مِضياع[٥] .

ولا تستكثرنَّ هذا كلَّه فإِنَّ بعضَ النِّعمة فيه تأْتى على أَضعاف النعامة[٦] ، والذى تحاول من صَلاح[٧] أَمر من تؤمِّل فيه أَن يقوم فى أَهلِكَ مَقامك ، وإِصلاح ما خلَّفتَ كقيامِك ، لحقيقٌ بالحَيطة عليه ، وبإِعطائهِ[٨] المجهود من نفسك .

وقال زكريا عليه السلام : ﴿ ربِّ لا تَذَرْنى فرداً وأَنتَ خيرُ الوَارِثين[٩] ﴾ . فَعَلِمَ الله تبارك وتعالى ، فوهب له غلاماً ، وقال الله

---

(١) انظر للتدريس مامضى فى حواشى ص ٣٥ . ط : « فى دراسة العلم » كأن الكلام متصل بما قبله . وهو تحريف .
(٢) ب ، م : « التأديب عنه من يبلغ » ، صوابه فى ط .
(٣) أى العارف بفضل التأديب . وفى جميع الأصول : « بفضل » .
(٤) جازه : تجاوزه . وفى جميع الأصول : « من حازه » بالحاء المهملة ، تحريف .
(٥) م : « مضاع » .
(٦) كذا فى جميع الأصول .
(٧) ط : « إصلاح » .
(٨) م ، ب : « وبإعطاء » .
(٩) الآية ٨٩ من سورة الأنبياء .

عزّ وجلّ : ﴿ وليس الذَّكَرُ كالأُنْثَى[١] ﴾ .

اعلم أَنَّه أَعطاك ولداً عَبْرَة عَيْنِ العدوّ[٢] ، وقُرَّةَ عينِ الصديق الولىّ. فاحمدِ الله وأَخلِصْ فى الدُّعاءِ ، وأَكْثِرْ من الخَيْر إِنْ شاءَ الله تعالى .

(١) الآية ٣٦ من سورة آل عمران .

(٢) العبرة ، بالفتح : الدمعة ، وفى أساس البلاغة : يقال أراه عبر عينيه ، وإنه لينظر إلى عبر عينيه ، أى ما يكرهه ويبكى منه . ومنه قوله يصف رجلا قبيحاً له امرأة حسناء :

إذا ابتز عن أوصاله الثوب عندها رأت عبر عينيها وما عنه مخنس

وفى جميع الأصول : « غيرة عين العدو » ، تحريف .

٣

من كتابه في

التَّربيع والتَّدوير

١ — فصـل

من كتاب التربيع والتدوير[١]

فانظر فى مسالمة النفوس[٢] مع تقارب منازلها ، ولم تجاذبت عند تقارب مراتبها ، ولم اختلفَ الكثير واتَّفق القليل ؟ ولم كانت الكثرة علةً للتخاذل ، والقلَّة سبباً للتناصر ؟ وما فرق ما بين المجاراة[٣] والتحاسد ، وبين المنافسة والتغالب ، فإنك متى عرفت ذلك استرحت منّا ورجَوْنا أن نستريحَ منك .

وكيف يعرف السَّببَ من يجهل المسبَّب ، وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل ، وكيف يعرف الحدود من لم يسمع الفصول . بل كيف يعرف الحجّة من الشُّبهة ، والغدر[٤] من الحيلة[٥] ، والواجبَ

---

(١) هذه الرسالة التى وجهها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب ، نشرها كاملة فان فلوتن فى ليدن سنة ١٩٠٣ . وتابعه محمدالساسى فنشرها فى مجموعة رسائل سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م. ثم السندوبى فى رسائل الجاحظ سنة ١٩٣٣ . ثم نشرها محققة شارل بلا فى دمشق سنة ١٩٥٥. وقد رمزت لنسخته بالرمز (ش) .

وقد أشار إليها الحصرى فى جمع الجواهر ٢٦٠ . حيث أورد فقرات من رسالة لأبى بكر الخوارزمى ، وجهها إلى بديع الزمان الهمذانى ، وقال الحصرى فى أعقابها : « وهى طويلة جداً مر له فيها إحسان كثير . وإنما احتذى فى أثرها مثال رسالة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب ، المعروفة برسالة الطول والعرض ، وتعرف برسالة التوسع (التربيع) والتدوير ، ورسالة المفاكهات . واتبع أيضاً طريق أبى الفضل بن العميد فى رسالة لابن سمكة النحوى».

ورسالة الخوارزمى نشرت كاملة فى مجموعة رسائله المطبوعة بالقاهرة سنة ١٧٢ . وفى ديباجتها : « وكتب بها إلى أبى الحسن البديهى الشاعر يعبث به » . والوجه ما ذكره الحصرى .

وقد عثرت على بعض ردود لأحمد بن عبد الوهاب فيما يتعلق بالرسالة ، وذلك فى الهوامل والشوامل لأبى حيان التوحيدى ومسكويه ، فى الصفحات ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ .

(٢) مج ، ش : « لم تسالمت النفوس » .

(٣) ب : « المجازات » م ، ط : « المجازاة » ، صوابها فى مج .

(٤) هذا ما فى ب ومج . وفى سائر النسخ : « والعذر » .

(٥) ب فقط : « من الجبلة » .

من الممكن، والغُفْلَ من الموسوم ، والمُحال من الصَّحيح ، والأَسرارَ من المجهول ومن كبار الدلائل الخفَّية[١] وما يُعلم مما لا يُعلم ، وما يُعلم باللفظ دون الإشارة مما لا يعلم إلَّا بالإشارة دون اللفظ ، وما يعلم معتمداً ولا يعلم مكيّفاً ولايعلم معتقداً[٢] . وما المستغلق الذى يجوز أَن يفارقه استغلاقه ، والمستبهمُ الذى لا يفارقه استبهامه ، ومن هو طائرٌ مع العوامّ حيث طارت ، وساقطٌ معها حيث سقطت ، مع الزِّراية والرَّغبة عنها[٣] . قد طَلَبها بفضل طلبه لنفسه[٤] ،وجرى معها بقدر مناسبتهاالقَدْره.

فاعرف الجنسَ من الصِّنف ، والقسم من النِّصف ، وفرقَ ما بين الذم واللَّوم ،وفصلَ ما بين الحمد والشكر ، وحدَّ الاختيار من الإمكان ، والاضطرار من الإيجاب . وسنعرِّفك من جملة ما ذكرنا باباً باباً أَنت إليه أَحوجُ ، وهو علينا أَرَدّ .

٢ — فصــل

وما فى الأَرض[٥] إقرارٌ أَثبتُ ، ودليلٌ أَوضحُ ، وشاهد أَصدق ، من شاهدى عليك على ما ادّعيتَ لنفسك من الرِّفعة مع ما ظهر من حسدك لأَهل الصَّنعة[٦] . وهل يكون كذلك[٧] إلَّا فاسدُ الحسّ ظاهرُ العُنود[٨] ، أَو جاهلٌ بالمحال .

(١) مج ، ش : « والأسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية » .

(٢) كذا فى ب ، م، ط . وفى مج :« وما يعلم معتقداً ولايعلم مكيناً ، مما ييعلم مكيناً ولايعلم معتقداً » . وفى ش : « وما يعلم معتقداً ولا يعلم يقيناً ولا يعلم معتقداً » .

(٣) ب ، م : « ورغبة عنها » .

(٤) مج : « قد ظلمها بفضل ظلمه لنفسه » .

(٥) مج ، ش : « وهل فى الأرض » .

(٦) مج ، ش : « لأهل الضعة » .

(٧) مج ، ش : « وهل تكون بعد ذلك » .

(٨) م : « العتود » بالتاء ، تحريف ، ط : « العناد » والعنود والعناد بمعنى ، وهما الميل عن الحق مع العلم به .

وبعد فأنت ـ أبقاك الله[١] ـ فى يدك قياسٌ لا يكسر[٢] ، وجَوابٌ لا ينقطع[٣] ، ولك حدٌّ لا يُفَلّ وغربٌ لا ينثَنِى[٤] ، وهو قياسك الذى إليه تنسب ، ومذهبك الذى إليه تذهب : أَنْ تقول[٥] : وما علىّ أَن يرانى الناس عريضاً وأكون فى حكمهم غليظاً وأَنا عِندَ الله[٦] تعالى طويلٌ جميل ، وفى الحقيقة مقدودٌ رشيق . وقد علموا ـ حفِظك الله ـ أَنَّ لك مع طول البادّ[٧] راكباً ، طُولَ الظَّهر جالساً[٨] ، ولكنْ بينهم فيك إذا قمتَ اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل .

ومن غريب ما أُعطيتَ ، ومِن بديع ما أُوتيتَ أَنَّا لم نر مقدوداً واسع الجُفرة غيرك[٩] ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك . فأَنت المديد وأَنت البسيط ، وأَنت الطويل وأَنت المتقارب .

فيا شعراً جمعَ الأَعاريض ، ويا شخصاً جمع الاستدارةَ والطُّول .

بل مايهمُّك[١٠] من أَقاويلهم ، ويتعاظمُك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أَنَّ استفاضَة عَرضِك قد أَدخلت

---

(١) مج : « وبعد أبقاك الله فأنت » .

(٢) مج ، ش : « لا ينكسر » .

(٣) م ، ط ، ب : « وجوار لا يقطع » ، صوابه فى مج ، ش .

(٤) ب : « لا بشىء » م: « لا شىء » تحريف . ط : « لا يشنى » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

(٥) هذا ما فى مج ، ش . وفى سائر النسخ : « أو تقول » .

(٦) ب ، م ، ط : « وأنا عبد الله » .

(٧) الباد : « باطن الفخذ » وما يلى السرج من فخذ الفارس . ب ، م ، ط : « البال » صوابه فى سائر النسخ . وفى م : « أن ذلك » ، تحريف .

(٨) كلمة « طول » الأخيرة من مج ، ش .

(٩) الجفرة ، بالضم : الجوف ، وجفرة كل شىء : وسطه ومعظمه . ط فقط : « أوسع الجفرة » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « بل ما يهما » ، صوابه فى سائر النسخ .

الضَّيم على ارتفاع سَمْكك(١) ، وأنَّ ما(٢) ذهب منك عرضاً قد استَغْرَق ما ذهبَ منك طولًا. ولئن(٣) اختلفوا في طولك لقد اتّفقُوا في عرضك(٤). وإن كانوا قد سلَّموا لك بالرَّغْم(٥) شطراً، فقد حَصَّلتَ(٦) ما سلَّموا وأنت على دعواك فيما لم يُسَلِّموا .

ولَعمري إنَّ العيون لتُخطئُ ، وإن الحواسّ لَتَكْذِب ، وما الحكمُ القاطعُ إلَّا للذِّهن ، وما الاستبانةُ الصَّحيحةُ إلَّا للعقل ؛ إذ كانَ زِماماً على الأعضاء(٧) ، وعِياراً على الحواسّ .

ومما يُثبت أيضاً أنَّ ظاهرَ عَرْضِك مانعٌ من إدراك حقيقة طولك قولُ(٨) أبي دُوَادٍ الإيادىِّ في إبلِه :

سَمِنَتْ فاستَحَشَّ أكرعُها لا الـ ـنَّيُّ نَىٌّ ولا السَّنامُ سَنامُ(٩)

ولو لم يكن فيك من العَجَب إلَّا أنَّك أوّلُ من عوّده الله تعالى بالصَّبْر(١٠) على خَطاءِ الحسّ(١١) وبالشُّكر على صواب الذهن ، لقد

(١) الضيم : الظلم وانتقاص الحق . ما عدا مج ، ش : « قد أدخلت الميم في ارتفاع سمكك » ، تحريف .

(٢) ب فقط : « وإنما » ، تحريف .

(٣) ما عدا مج ، ش : « وإن » .

(٤) ما عدا مج ، ش : « لقد اختلفوا » تحريف . ب : « على رضك » م ، ط : « على عرضك » ، وأثبت ما في مج ، ش .

(٥) ما عدا مج ، ش : « بالزعم » .

(٦) ب فقط : « فقد حصلك » تحريف .

(٧) ب فقط : « إذ كانا ذماما » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) ب ، م : « وقول » ، تحريف .

(٩) ديوان أبي دواد ٣٣٩ والأصمعيات ١٨٨ واللسان (حشش) . استحش : استدق . والني ، بالفتح : الشحم . ط : « لا النيء نيء » ، تحريف .

(١٠) ب ، م ، ط : « بالصد » ، صوابه في مج ، ش .

(١١) ب ، م : « على خطأ الحس » ، والخطاء والخطأ بمعنى ، وكثيراً ما يستعمل الجاحظ « الخطاء » بالمد . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٥٠٠ والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧ ورسائل الجاحظ : ١ : ٣٥٣ .

كنت فى طُولك غايةً للعالمين[١] ، وفى عرضك مناراً للْمِضلِّين .

وقد تظَلَّمَ[٢] المربوع مثلى من الطويل مثل عُمر ، ومن القصير مثل عَمرو[٣] إذ زعم[٤] أنه أفرط فى الرَّشاقة ونُسب إلى القضافة ، لأَنَّ إفراط عرضه غَمَرَ[٥] الاعتدالَ [من طوله ، وكلاهما يحتاج إلى الاعتذار ، ويفتقر إلى الاعتدال[٦]] .

والمربوع بحمد الله تعالى قد اعتدلت أَجزاؤه فى الحقيقة ، كما اعتدلَتْ فى المنظر[٧] ، فقد استغنى بعزِّ الحقيقة[٨] عن الاعتذار ، وبحكم الظاهر عن الاعتلال[٩] .

وقد سمِعنا من يذمُّ الطِّوال كما سمعنا من يُزرى على القصار ، ولم نَسْمَعْ أَحداً[١٠] ذمّ مربوعاً ولا أَزرى عليه ، ولا وقف عنده ولا شكَّ فيه . ومن[١١] يذمُّه إلَّا من ذمّ الاعتدال ، ومن يُزرى عليه إلَّا من أَزْرى على الاقتصاد ، ومن يَنصِب للصَّواب الظاهر[١٢] إلَّا المعاند ، ومن يُمارى فى العيانِ إلَّا الجاهل ؛ بل من يُزْرِى على أَحد بتفاقم التركيب[١٣] ،

---

(١) مج ، ش : « آية للسابلين » والمراد بالسابل هنا : السالك فى الطريق .
(٢) ما عدا مج ، ش : « وقد تكلم » ، تحريف .
(٣) مج ، ش : « من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد » .
(٤) مج ، ش : « إذ زعم أحمد » .
(٥) ب ، م : « عمر » بالعين المهملة ، تحريف .
(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من ب ، لكن فى ط : « ويفتقر إلى الاعتدال » .
(٧) ب فقط : « فى المنظرة » .
(٨) ب ، م : « بعد الحقيقة » ، ط : « بعدل الحقيقة » ، وأثبت ما فى مج ، ش .
(٩) الاعتلال : بيان العلة . ما عدا مج ، ش : « الاعتدال » .
(١٠) ب ، ط : « ولم يسمع أحد » م : « ولم بسمع أحداً » ، والوجه ما أثبت من مج ، ش
(١١) الكلام بعده إلى « أزرى على الاقتصاد ومن » ، ساقط من م .
(١٢) نصب له : عاداه وتجرد له . ط : « ومن يعيب الصواب الظاهر » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٣) تفاقم التركيب : أن يجرى على غير استواء ، وأصله من تفاقم الأمور وتراكبها .

وبسوءِ التنضيد(١) مع قول الله عز وجل : ﴿ ما تَرَى فى خَلْق الرَّحْمنِ مِنْ تفَاوُتٍ(٢) ﴾ .

وبعد فأَىٌّ قدٌّ أَردأُ(٣) ، وأَىُّ نظامٍ أَفسدُ من عَرْضٍ مجاوزٍ للقَدْر(٤) ، أَو طُولٍ مجاوزٍ للقصد . ومتى يَضرِبِ العَرْض بسهمه على قدر حقِّه ، ويأْخذِ الطُّول من نصيبه على مثل وزنِه ، خرجَ الجسم من التقدير ، وجاوزَ التعديل . فإذا خرج من التقدير تفاسد ، وإذا تفاسَد وجاوز التَّعديلَ تباين .

ولو جاز هذا الوصفُ ، وحَسُنَ هذا النَّعت(٥) ، كان لإبراهيم ابن السِّندىّ(٦) [من الفضيلة(٧)] ما ليس لأَحمد بن عبد الوهاب .

وهذا كله بعد أَن يصدِّقوك(٨) على ما ادّعيتَ لطولك فى الحقيقة ، واحتججتَ [به(٩)] لِعَرْضك فى الحكومة . كما أَنَّك بإعمالك لما يَنْفِيهِ

(١) ب فقط : « التنضديد » ، تحريف .
(٢) الآية ٣ من سورة الملك أو تبارك .
(٣) كلمة « فأى » ساقطة من ب.
(٤) ط فقط : « للقد » .

(٥) ب ، م : « حسن هذا النعت »بلا واو قبله . ط : « من حسن النعت هذا » .تحريف .
(٦) مج ، ش : « كان لقاسم التمار » . وإبراهيم بن السندى بن شاهك ، يروى عنه الجاحظ كثيراً . وأبوه السندى بن شاهك كان يلى الجسرين ببغداد للرشيد : انظر الجهشيارى ٢٣٦ – ٢٣٧ . وقد نعت الجاحظ إبراهيم هذا بأنه « مولى أمير المؤمنين » . الرسائل ٤٧ ساسى، وكذلك قاسم التمار ، كان من الرجال الذين يروى عنهم الجاحظ كثيراً . انظر فهارس الحيوان والبيان .

(٧) التكملة من مج ، ش .
(٨) ط فقط : « صدقوك » .
(٩) التكملة من مج ، ش .

العِيان[١] ، واستشهادك[٢] لما تنكره الأذهان[٣] ، معترضٌ[٤] للصِّدق من المتكرِّم ، ومتحكِّك بالْحِلم من المُتغافِل . وأيُّ صامت لا يُنطقه هذا المذهب ، وأيُّ ناطق لا يُغْرِيه هذا القول[٥] .

وإذا كان هذا ناقضاً لعزم المتسلِّم[٦] فما ظَنُّك بعادة المتكلِّف[٧] .

فأَنشُدُك اللهَ أن تغرىَ بك السُّفهاءَ ، وتنقض عزائم الحكماء[٨] .

وما أدرى — حفظك الله — بأَىِّ الأَمرين أنت أَعظم إثماً ، وفى أَيِّهما أَنت أَفحش ظلماً : أَبتعرُّضك للعوامّ ، أَمْ بإِفسادك حكم الخواصّ[٩] .

وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يَدْعوك إليه وأَشباهُك من القصار كثير ، ومَن ينصرك منهم غير قليل[١٠] .

٣ — فصــل

وقلتَ : ولولا فضيلة العَرْض على الطول لمَا وصف الله تعالى وعزَّ ، الجنَّةَ بالعَرْض دون الطُّول ، حيثُ يقول : ﴿ وجَنَّةٍ عَرْضُها كعرض السَّماءِ والأَرض[١١] ﴾ . فهذا برهانك الواضح[١٢] .

---

(١) ب : « يتقنه العيان » م ، ط : « تيقنه العيان » ، صوابه من مج ، ش .
(٢) ب ، م : « واستشهارك » ، صوابه فى ط ، مج ، ش .
(٣) ما عدا مج ، ش : « لما تذكره الأذهان » ، تحريف .
(٤) مج ، ش : « متعرض » ، والوجه ما فى سائر النسخ ، والمراد لا يمكن تصديقه .
(٥) ما عدا مج ، ش : « لا يغويه هذا القول » .
(٦) ب ، م : « قضاء لعزم » ط : « قضاء العزم » ، والوجه ما أثبت من مج ، ش .
(٧) مج ، ش : « بعداوة المتكلف » .
(٨) ش : « الحلماء » .
(٩) ما عدا مج ، ش : « بتعرضك للعوام أو بإفسادك حكم الخواص » .
(١٠) ما عدا مج ، ش : « غير دذليل » .
(١١) من الآية ٢١ من سورة الحديد ، وأولها : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » . وفى ب فقط : « عرضها السموات والأرض » وهى من الآية ١٣٣ من آل عمران ، وأولها : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » .
(١٢) مج ، ش : « فهذه براهينك الواضحة ، ودلائلك الظاهرة » .

ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم، ومن القناعة والإخلاص إلّا أنّك تَرَى[١] ما عند الله خيراً لك مما عند الناس، وأن الطُّول الخفيّ أحبُّ إليك من الطُّول الظاهر، لكانَ[٢] في ذلك ما يقضى لك بالإنصاف، ويحكُمُ لك بالتوفيق.

وأنا — أبقاك الله — أَعشَقُ إنصافك كما تُعْشَق المرأةُ الحسناء[٣]، وأتعلّم خضوعَك للحقّ كما أتعلم التفقّه في الدين[٤]. ولرُبّما ظننتُ أنّ جَورَك إنصافُ قومٍ آخرين، وأن تَعَقُّدك سَماحُ رجال منصفين[٥].

وما أَظنُّك صرتَ إلى معارضة الحجّة بالشبهة، ومقابلة الاختيار بالاضطرار، واليقينِ بالشّكِّ، واليقظة بالحُلْم إلّا لِلذى[٦] خُصِصتَ به من إيثار الحقّ، وأُلهمتَهُ من فضيلة الإنصاف، حتّى صرتَ أَحوجَ ما تكون إلى الإنكار أذعَنَ ما تكونُ بالإقرار؛ وأشدَّ ما تكون إلى الحيلة فقراً أشدَّ ما تكون للحجّة طلباً. غير أنّ ذلك بطَرْفٍ ساكن، وصوتٍ خاضع، وقلبٍ جامع، وجأْش رابطٍ[٧]، ونيّةٍ جَسُور، وإرادة تامّة، مع غفلةِ كريم، وفِطنة عليم. إن انقَطَع خصمُك تغافلت، وإن خَرِق[٨]

(١) ب، م: «أنك ترى» بإسقاط «إلا».

(٢) ب، م، ط: «لكن»، تحريف.

(٣) مج، ش: «أتعشق إنصافك كما أتعشق المرأة الحسناء».

(٤) ب فقط: «الفقه في الدين».

(٥) ب، م: «وأن يعقدك سماع رجال منصفين» ط: «وأنك يقنعك سماع رجال منصفين»، والوجه ما أثبت من مج، ش.

(٦) ب، م: «إلا الذى».

(٧) ب فقط: «راطب». والجأش: النفس أو القلب، والرابط: الثابت الذى لا يرتاع.

(٨) خرق يخرق خرقاً: حمق ولم يرفق. مج، ش: «وإن خرف»، تحريف.

تَرَفَّقت[١]، غير منخوبٍ ولا متشعِّب[٢]، ولا مَدخولٍ ولا مشترَك، ولا ناقص النَّفس، ولا واهن العَزْم، ولا حسودٍ ولا منافس، ولا مُغالبٍ ولا مُعاقِب[٣]. تَفُلُّ الحَزَّ[٤] وتُصيب المَفْصِل، وتقرِّب البعيدَ وتُظهِر الخفيّ، وتُميِّز الملتبس[٥] وتلخِّص المشكل، وتعطِي المعنى حقَّه من اللفظ كما تُعطِي اللفظَ حظَّه من المعنى[٦]. وتُحِبُّ المعنى إذا كان حيًّا يلوح، وظاهراً يَصيح[٧]، وتُبغضه مستهلَكاً بالتعقيد، ومستوراً بالتغريب[٨].

وتزعم أن شر الألفاظ ما غرَّق[٩] المعانيَ وأَخفاها، وسترها[١٠] وعمّاها، وإن راقت سَمع الغُمْر، واستمالت قلبَ الرِّيِّض[١١].

أَعجب الأَلفاظ عندك مارقَّ وعذُب، وخفَّ وسهُل، وكان موقوفاً على معناه، ومقصوراً عليه دون ما سواه. لا فاضلٌ ولا مقصِّر، ولا مشترَك ولا مستَغْلِق، قد جمع خِصال البلاغة[١٢]، واستوفى خلال المعرفة[١٣].

---

(١) ما عدا مج، ش: « توقفت »، تحريف.

(٢) مج، ش: « ولا متشغب » بالغين المعجمة.

(٣) ب، م: « ولا متغالب ولا معاقب »، ط: « ولا متغالب ولا متعاقب »، وصوابهما في مج، ش.

(٤) الحز: « أراد به موضع الحز، أي القطع. الفل: الكسر والضرب. ط: « يفل الحد »، مج، ش: « تقل الحز »، والوجه ما أثبت. وانظر البيان ١: ١٤٧. وقد ورد هذا الفعل « تفل » وما بعده من الأفعال في ب، م، ط بياء الغائب: والوجه أن تكون كلها بتاء الخطاب كما أثبت من مج، ش.

(٥) ب، فقط: « الملبس ».

(٦) مج، ش: « حقه من المعنى ».

(٧) م: « يصبح »، صوابه في سائر النسخ.

(٨) ب: « بالتعزيب » ط: « بالتقريب »، صوابه من سائر النسخ.

(٩) ط فقط: « ما أغرق ».

(١٠) ط فقط: « وأسرها ».

(١١) الريض: الذي بدئ في رياضته. وانظر البيان ١: ٢٠٣. ط: « المريض » تحريف.

(١٢) ما عدا مج، ش: « وقد جمع خصاؤك البلاغة »، والوجه ما أثبت منهما.

(١٣) ب فقط: « خلالك المعرفة ».

فإذا كان الكلامُ على هذه الصِّفة ، وأُلِّف على هذه الشَّريطة ، لم يكن اللفظ أَسرعَ إلى السَّمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقائل ، والمتعلِّم كالمعلِّم ، وخفت المؤْنة واستغنى عن الفِكرة ، وماتت الشُّبهةُ وظهرت الحُجَّة ، واستبدلوا بالخلاف وِفاقاً ، وبالمجاذبة موادعة ، وتهنَّئُوا بالعلم(١) ، وتقنَّعوا ببَرْدِ اليقين ، واطمأَنُّوا بثَلَج الصُّدور ، وبَانَ المنصِفُ من المعانِد ، وتميَّز الناقصُ من الوافر ، وذُلَّ الخطِلِ(٢) وعِزّ المحصِّل ، وبَدَتْ عَورةُ المُبْطل ، وظهرت براءة المُحِقّ .

وقلت : والنَّاس وإنْ قالوا فى الحَسَن : كأَنَّه طاقَةُ رَيحان ، أَو خُوط آس(٣) ؛ وكأَنَّه قَضِيب خَيزُران ، وكأَنَّه غُصْن بان ، وكأَنَّه رمحٌ رُدَينيٌّ ، وكأَنَّه صفيحةُ يَمانٍ(٤) ، وكأَنَّه سيفٌ هُندُوانىّ ، وكأَنَّه جانٌّ ، وكأَنَّه جَدْل عنان(٥) ؛ فقد قالوا : كأَنَّه المُشْترِى ، وكأَنَّ وجهَه دينارٌ هِرَقلىّ . وما هو إلَّا البحر ، وما هو إلَّا الغيث . وكأَنَّه الشمس ، وكأَنَّها دارة القمر(٦) ، وكأَنَّها الزُّهَرة ، وكأَنَّها دُرَّة ، وكأَنَّها غمامة ، وكأَنَّها مهاة(٧) .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « ورهبوا بالعلم » .

(٢) الخطل : العجل الأحمق . ب ، م : « ودل الحطل » بالدال المهملة ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) الخوط ، بالضم : الغصن الناعم ، أو الغصن لسنة . والآس : ضرب من الرياحين ، وخضرته دائمة أبداً ويسمو حتى يكون شجراً عظاماً ، الواحدة آسة .. مج ، ش ، : « وكأنه خوط بان » .

(٤) الصفيحة : وجه كل شىء عريض ، كوجه السيف أو اللوح أو الحجر . واليمانى : السيف المنسوب إلى اليمن . ب ،م، ط : « صحيفة يمان » تحريف . وفى مج ، ش : « صفيحة يمانية » .

(٥) يعنى ما جدل من الأعنة ، سماه بالمصدر . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ . ما عدا مج ، ش : « جدل عيان » تحريف .

(٦) ب ، م : « وكأنه دارة القمر » .

(٧) ط فقط : « وكأنه الزهرة » ، وكأنه غمامة ، وكأنه مهاة » .

وقد نراهم[١] وصفوا المستدير والعريضَ بأَكثرَ مِمَّا وصَفُوا القضيفَ الطَّويل[٢] .

وقلت : ووجدنا الأَفلاكَ وما فيها ، والأَرضَ وما عليها ، على التَّدوير دون التطويل ، كذلك[٣] الورَق والحَبُّ ، والثَّمَر والشجر .

وقلت : والرُّمح وإن طال[٤] فإن التَّدوير عليه أَغلب[٥] ؛ لأَنَّ التَّدوير قائم فيه مُوصَّلًا ومُفصَّلًا[٦] ، والطُّولَ لا يوجد فيه إلَّا مُوصَّلًا[٧] . وكذلك الإِنسان وجميع الحيوان .

وقلت : ولا يوجَد التربيع إلَّا فى المصنوع دون المخلوق ، وفيما أُكرِهَ على تركيبه دون ما خُلِّيَ وسَوْمَ طبيعته[٨] .

وعلى أَنَّ كل مُرَبَّع[٩] ففى جوفه مدوَّر ، فقد بان المدوَّر بفضله[١٠] ، وشارك المطوَّل فى حصّته .

ومن العجب أَنَّك تزعُم أَنَّكَ طويلٌ فى الحقيقة ثم تحتجُّ للعِرَض والاستدارة ، وقد أَضْربتَ عمَّا عند الله صفحاً[١١] ، ولَهِجتَ بما عِند النَّاس .

---

(١) ب فقط : « وقد نراه » .

(٢) القضافة : قلة اللحم ودقة العظم . م ، ط : « القضيب » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) ط فقط : « وكذلك » .

(٤) ما عدا مج ، ش : « والريح وإن طالت » ، تحريف .

(٥) ما عدا مج ، ش : « عليها أغلب » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « فيها » فى هذا الموضع وتاليه ، تحريف . وفى مج ، ش : « موصولا ومفصلا » .

(٧) مج ، ش : « إلا موصولا » .

(٨) سوم طبيعته ، بالفتح ، أى وفق طبيعته وهواها . ط فقط : « رسوم طبيعته » ، تحريف . وقد ضبطت « سوم » فى ش بضم السين وتشديد الواو المكسورة سهواً .

(٩) ما عدا مج ، ش : « كل مرتفع » ، تحريف .

(١٠) م فقط : « بفصله » بالصاد المهملة .

(١١) يقال ضرب عنه صفحاً ، إذا أعرض ، كأنه ولاه صفحة وجهه . ب : « وقد اضطربت » ، م ، ط : « وقد أضربت » ، صوابه فى مج ، ش .

فأَمّا حَوَر العين فقد انفردت بحسنه ، وذهبتَ ببهجته ومِلحه ، إلّا ما أَبانَك الله تعالى به من الشُّكْلة[١] فإنّها لا تكون في اللِّئام ، ولا تُفارِق الكرام[٢] .

وأَمّا سواد الناظر وحُسن المحَاجر ، وهَدَبُ الأَشفار[٣] ، ورقّة حواشى الأَجفان ، فعلى أَصلِ عُنصُرِك ومجارى أَعراقك[٤] .

وأَمّا إدراكك الشخصَ البَعيدَ ، وقراءتُك الكتابَ الدَّقيقَ ونَقْشَ الخاتَم قبل الطَّابَع ، وفهم المُشكِل قبل التأَمُّل ، مع وَهْن الكَبْرَة وتقادُم الميلاد ، ومع تخوُّن الأَيّام وتنقُّص الأَزمان ، فمن تُوتِيا الهند ، ولترك الجماع[٥] ، ومن الحِمْية الشَّديدة وطول استقبال الخُضْرة[٦] ، فأَنتَ يا عمٍّ حين تُصلِح ما أَفْسده الدهر ، وتسترجع ما أَخذَتْه الأَيَّام ، لكما قال الشاعر :

عجوزٌ تُرَجِّى أَنْ تكونَ فَتيَّةً وقد لحِبَ الجنبانِ[٧] واحدَوْدَبَ الظَّهْرُ
تدسُّ إلى العطَّار سِلعةَ أَهلِها ولن يُصلحَ العطَّارُ ما أَفسَدَ الدَّهرُ[٨]

(١) الشكلة ، بالضم : كهيئة الحمرة تكون فى بياض العين . ب ، م : « المشكلة » ط : « المشاكلة » ، صوابهما فى مج ، ش .

(٢) أنشد الجاحظ لهذا شاهداً فى التربيع والتدوير ٢٢ والحيوان ٣ : ٢٣٠ / ٥ : ٣٣٠ :
ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذلك عتاق الطير شكل عيونها

(٣) الهدب فى أشفار العين : طول الشعر النابت على حروفها .

(٤) ما عدا مج ، ش : « وجائز أعراقك » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « فن توتياء الهند وترك الجماع » .

(٦) م ، ط : « الحضرة » بالحاء المهملة ، تحريف .

(٧) نسبهما المبرد فى الكامل ١٧٦ إلى شيخ من الأعراب . وذكر أبو الحسن الأخفش فى حواشيه على الكامل بعدهما بيتين من القصيدة نسبا فى ديوان جران العود « إلى الرحال بن عزرة ابن المختار . وفى عيون الأخبار ٤ : ٤٤ : « كانت لرجل من الأعراب امرأة عجوزة ، وكانت تشترى العطر بالخبز ، فقال » . وأنشد البيتين . وانظر رسائل الجاحظ ٢ : ١٢٢ . والتمثيل والمحاضرة ٢١٩ . ط : « وقد يبس الجنبان » .

(٨) الكلام بعده إلى « مريضاً مونساً » ساقط من ب .

وكيف أَطمع(١) فى نزوعك(٢) عن اللَّجاج وقد مَنَعْتنيه قبله(٣) . وكيف أَرجو إقرارك جهراً وقد أَبيته سرًّا(٤) ، وكيف تجود(٥) به صحيحاً مطمعاً وقد بَخِلتَ به مريضاً مؤيساً .

وكيف يرجو خَيرك من رآك تُطاوِل أَبا جعفرٍ وتُحاسِنُه(٦) ، وتنافره وتراهنه ، ثمّ لاتفعلُ ذلك(٧) إلَّا فى المحافل العِظام ، وبحضرة كبار الحُكَّام ، ثم تستغرِبُ ضحِكاً من طمعِه فيك(٨) ، وتعجِّب الناس من مجاراته لك(٩) .

وأَشهد لك بعد هذا أَنك ستحاسِنُ(١٠) عَمْراً الجاحظ وتُعاقِله(١١) ، ثم تظارفُه وتُطاوِله(١٢) ، وتتغنَّى(١٣) مع مُخارق ، وتنكر فضل زَبْزَب(١٤) ، وتستجهل النَّظَّام ، وتستغبِى(١٥) قيس بن زهير ، وتستخفُّ

(١) م ، ط : « يطمع » .

(٢) م : « تروعك » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) كذا فى مج ، ش . وفى م : « وقد سعسه قبل المجاج » وفى ط : « وقد سقيته قبل المجاج » .

(٤) م ، ب : « وقد أتيته سراً » ، صوابه فى مج ، ش .

(٥) م فقط : « يجود » تحريف .

(٦) ب ، م : « وتحاشنه » ، وفى سائر النسخ : « تخاشنه » ، والوجه ما أثبت ، وهو مفاعلة من الحسن .

(٧) كلمة « ثم » من مج ، ش فقط . ب : « لا تعقل » م : « لا يعقل » ، صوابهما فى سائر النسخ .

(٨) ب فقط : « من طعمة فيك » .

(٩) ما عدا مج ، ش : « من محاولته لك » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « ستحاشن » ، وفى سائر النسخ : « ستخاشن » ، والوجه ما أثبت .

(١١) أراد تباريه فى العقل . ما عدا مج ، ش : « وتغافله » .

(١٢) مفاعلة من الظرف والطول . ماعدا مج ، ش : « ثم تطارقه » وفى م : « ثم تطارقه وتتطاوله » .

(١٣) مج ، ش : « وتغنى » .

(١٤) ذكره الجاحظ فى رسالة الجد والهزل ، مقروناً بالمهارة فى الشطرنج . رسائل الجاحظ ١ : ٢٦٦ . وفى مج ، ش : « فضل زرزور »

(١٥) ب ، م : « وتستغنى » ، صوابه فى سائر النسخ .

الأَحنف بن قيس[١] وتبارزُ عليّ بن أَبي طالب ، ثم تخرج من حدِّ الغَلَبة إلى حدِّ المراء[٢] ، ومن حد الأَحياء[٣] إلى حُدود الموْتَى .

هذا وليس لك مساعدٌ ، ولا معك شاهدٌ واحد ، ولا رأَيت أَحداً يقِفُ فى الحكم عليك[٤] ، أَوْ ينتظر تحقيقَ دعواك ؛ ولا رأَيتُ منكِراً يُخْليك من التأْنيب ، ولا مؤنِّباً يُخْليك من الوعيد ، ولا مُوعِداً يُخْليك مِن الإِيقاع ، ولا مُوقِعاً يَرْثى لك ، ولا شافعاً يشفع فيك .

يا عمِّ ، لِمَ تحمُلنا على الصِّدق ؟ ولِمَ تُجرِّعُنا مرارةَ الحق ؟ ولِمَ تُعرِّضنا لأَداء الواجب ؟ ولِمَ تَستكثر من الشُّهود عليك ؟ ولِمَ تَحمل الإِخوانَ على خلاف محبَّتهم فيك ؟

اجعلْ بدلَ ما تَجْنِي على نفسك أَن تجنِيَ على عدوِّك ، وبدلَما يَضطرُّ الناسَ أَن يصدِّقوا فيك أَن تَضطرَّهم إلى أَن يُمسكوا عنك .

ولا بدَّ — يرحَمُك اللهُ — لمن فاتَه الطُّول من أَن يُلقِيَ بيدِه[٥] ، إنَّما يقولُ[٦] خلافَ ما يجِدُهُ فى نفسه . فوالله إنك لجيِّدُ الهامة[٧] ، وفى ذلك خَلَفٌ لحُسْن القامة[٨] .

وإنَّكَ لحسَنُ الخطِّ ، وفى ذلك عوضٌ[٩] من حُسْن اللَّفظ . وإنَّك

---

(١) وكان الأحنف معروفاً بالحلم .
(٢) المراء والمماراة : المخالفة والجدال .
(٣) ب ، م : « العنك » ، ط : « الفتك » ، وأثبت ما فى مج ، ش .
(٤) ما عدا مج ، ش : « اتفق فى الحكم عليك » .
(٥) مج ، ش : « من أن يلقى بيده إلى التهلكة » .
(٦) مج ، ش : « أو أن يقول » .
(٧) ب فقط : « لجميد الهامة » ، تحريف .
(٨) مج ، ش : « خلف من حسن القامة » .
(٩) ب ، م : « وإنك لعوض » ، تحريف . ط : « وذلك عوض » . وأثبت ماقى مج ، وش .

لتَجِدُ مقالًا[١] ، وإنَّك لتُعدُّ خصالا . فقُلْ معروفاً فإنَّا من أعوانك ، واقتصِدْ فإنَّا من أنصارك . وهاتِ فإنَّك لو أَسرفْتَ لقلْنا قد اقتصدت ، ولو جُرْتَ لقلنا قد اهتديت[٢] ، ولكنك تجيءُ بشيءٍ ﴿ تَكاد السَّموات يتفطَّرْنَ منه وتَنْشَقُّ الأَرْض وتَخِرُّ الجبالُ هَدًّا[٣] ﴾ .

لو غششناك لساعدناك ، ولو نافقناك لأَغرَيْنَاك .

٣ – فصل

وقد كنتُ – أطال الله بقاءَكَ – فى الطُّول زاهداً ، وعن القصر راغباً[٤] ، وكنتُ أَمدح المربوعَ وأَحمد الاعتدال . ولا واللهِ لن يقوم خيرُ الاعتدالِ بشَرِّ قِصَر العُمْر ، ولا جمالُ المربوع بما يَفُوت من منفعةِ العلم .

فأَمَّا اليومَ فياليتَنى[٥] كنتُ أَقصَرَ منك وأَضْوَى ، وأَقل منك وأَقما[٦] .

وليس دُعائى لك بطول البقاءِ طلباً للزيادة[٧] ، لكن[٨] على جهة التعبُّد والاستكانة ، فإذا سمعتنى أَقول أَطال الله بَقاءَك فهذا المعنى أُريد ، وإذا رأَيتنى أَقول لا أَخلَى الله مكانَكَ فإلى هذا المعنى أَذهب .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وإنا لنجد مقالا » .
(٢) جار عن الطريق يجور ، إذا مال وضل . ب ، م : « حرت » بالحاء المهملة ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) الآية ٩٢ من سورة مريم .
(٤) ب ، م : « وعن القصور راغباً » .
(٥) ب ، م : « فبالشيء » ط : « بما فليتنى » ، صوابهما فى مج ، ش .
(٦) أقما : تسهيل أقمأ من القماءة ، وهى صغر الجسم . وكتبت فى م ، ط : « أقمى » ، وهو مذهب جائز فى الرسم . وفى مج ، ش : « وأوهى » .
(٧) م فقط : « للزيارة » . وكلمة « طلباً » ساقطة مما عدا مج ، ش .
(٨) ب : « لا لكن » م ، ط : « لكن » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

وقد زعموا ، جُعلت فِداءَك ، أنَّ كلَّ ما طال عمرُه من الحيوان زائدٌ فى شدَّة الأَركان ، وفى طُول العمر وصِحَّة الأَبدان ، كالوَرَشان والضِّباب وحُمُر الوَحْش ، وكلَحمِ النَّسر لمن أَكلَه ، ولحمِ الحيَّة لمن استحلَّه فإذا كان هذا حقًّا(١) وكان نافعاً ، وكنتَ له مستعملًا وفيه متقدِّماً ، وتراه رأْياً ، أَخذْنا منه بنصيب ، وتعلَّقنا منه بسبب .

وفيك أَمران غريبان ، وشاهدانِ بديعان : جواز الكَونِ والفسادِ عليك ، وتعاوُرُ النُّقصان والزِّيادة إيَّاك. وجوهرك فلكيٌّ وتركيبُك أَرْضيّ . فمنك طول البقاء ، ومَعَك دليلُ الفناء . وأَنت علَّةٌ للمتضادّ(٢) وسببٌ للمتنافى . وما ظَنُّك بخلْقٍ لا تضرُّه الإِحالة ، ولا يُفسِده التَّناقض .

٤ – فصل

جُعلتُ فداك ، قد شاهدتَ الإِنسَ منذ خلقوا ، ورأَيتَ الجنَّ قبل أَن يُحْجَبوا ، ووجدتَ الأَشياءَ بنفسك خالصةً وممزوجة ، وأَغفالًا وموسومةً(٣) ، وسالمةً ومدخولة ، فما يخفى(٤) عليك الحجَّةُ من الشُّبهة ، ولا السَّقَم من الصِّحة ، ولا المُمكنُ من الممتنِع ، ولا المستغلِقُ من المُبْهَم ، ولا النَّادرُ من البَديع ، ولا شِبْهُ الدَّليل من الدَّليل .

وعَرَفتَ علامةَ الثِّقة من علامة الرِّيبة ، حتَّى صارت الأَقسامُ عندك محصورةً ، والحدودُ محفوظة ، والطَّبقاتُ معلومة ، والدُّنيا بحذافيرها

(١) مج ، ش : « هذا الأمر حقاً » .
(٢) م فقط : « للمتضارب » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « وأغفالا موسومة »، تحريف . فإن الأغفال مالاسمة عليها ، والموسومة : ذوات السمات ، وهى العلامات .
(٤) ط فقط : « فما تخفى » بالتاء .

مصوّرة . ووجدت السبب كما وجدتَ المسبَّب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشاهدت العلل وهى تُولَد ، والأَسبابَ وهى تُصنَع ، فعرفتَ المصنوعَ من المخلوق ، والحقيقةَ من التَّمويه .

٥ — فصل

إنَّك[١] — جُعِلتُ فداكَ — كما أَنَّك لم تكن فكنت ، فكذا لا تكون[٢] بعد أَن كنتَ . وكما زدتَ فى الدَّهر الطويل فكذا تنقُص فى الدَّهر الطويل . وكلُّ طويل فهو قصير ، وكل متناهٍ فهو قليل . فإِيَّاك أَنْ تظنَّ أَنَّك قديمٌ فتكفُرَ ، وإِيَّاك أَن تنكر أَنَّك مُحْدَث فتشرِك ؛ فإِنَّ للشَّيطان فى مثلك أَطماعاً لا يصيبُها فى سِواك ، ويجد فيك عِللًا لا يجدُها فى غيرك[٣] .

٦ — فصل

وقد علمتَ أَنَّ الخبرَ إذا صحَّ أَصلُه وكان للنَّاسِ علَّةٌ فى نَشْءه ، كان فى الدلالة على الحقِّ كالعِيان ، وفى الشِّفاءِ[٤] كالسَّماع .

على أَنَّ الخبر لا يُعرفُ به تكيُّف الأُمور[٥] ولكن تُعرف به جُمَلُ الأَشياء ، إلَّا خَبَرَك فإِنَّك لا تحتاج إلى إشارة ولا إلى علَّة ، ولا إلى

(١) ما عدا مج ، ش : « أنا » ، تحريف .
(٢) ب فقط : « لا يكون » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « غليلا لا يجدها فى غيرك » ، تحريف .
(٤) ب : « فى الشفا » ط : « فى الشفاه » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٥) ب ، م : « فكيف »، صوابه فى ط ، مج ، ش وهامش م .

تفسير[١] حتَّى يقوم خَبرُك فى الشفاءِ[٢] وفى كيفية الشَّيءِ[٣] مقامَ العِيان .

وقد كنت أَتعجَّب من محمد بن عبد الملك[٤] وأَقول : ما يقولون فى رجلٍ لم يقل قطُّ بعد انقضاءِ خصومته وذَهابِ خَصْمه : لو كنتُ قلتُ كذا[٥] كان أَفضل ، أَو كنتُ لم أَقلْ كذا كان أَمثل ! فما بال عَفْوِه أَكثَرَ من جَهْدكم ، وبديهتِه أَبْعَدَ من أَقصى فكرتكم ؟ !

فلمَّا رأَيتُك علمتُ أَنَّك عذابٌ صبَّه الله تعالى على كلِّ رفيع ، ورحمةٌ أَنشأَها الله لكلِّ وضيع .

فخبِّرنى عَمّا جرى[٦] بينك وبين هِرْمِسَ فى طبيعة الفَلَك ، وعن سماعك مِن أَفلاطون ، ومادار بينك وبين أَرسطاطاليس[٧] ، وأَىَّ نوعٍ اعتقدتَ وأَىَّ شيءٍ اخترت ؟ فقد أَبتْ نفسى غَيْرك ، وأَبَتْ أَن تتشفَّى[٨] إلَّا بخبرك .

ولولا أَنِّى كلِفٌ برواية الأَقاويل ، ومُغرَمٌ بمعرفة الاختلاف وأَنِّى لا أَستجيزُ[٩] مسأَلتَك عن كلِّ شيءٍ ، وابتذالَك فى كلِّ أَمر ، لما سمعتُ من أَحدٍ سواك ، ولما انقطعتُ إلى أَحدٍ غيرِك .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « إلى نفس » .
(٢) ب : « فى الشفا » ، ط : « فى الشفاه » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٣) م فقط : « وفى كيفية إقامة الشيء » .
(٤) ما عدا مج ، ش : « من عبد الملك » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « لو قلت كذا » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « فخبرنى ما جرى » .
(٧) ب فقط : « أرسطوطيلس » .
(٨) ب : « وأنت أن تشتفى » م : « وآيت أن تشتفى »، صوابهما فى ط ، مج ، ش .
(٩) ب : « وأنى لأستجيز » ط : « وأنى أستجيز » ، صوابهما فى م ، مج ، ش .

اعلمْ ، جُعِلتُ فِداك ، أنّى لم أُرِد بمزاحك إلّا أنْ أُضحِكَ سِنَّك ، ولا كانت غايتى فيك إلّا لأَنْفُقَ عندك . وقد كنتُ خفتُ أن لا أكونَ وقفْت على حدِّهِ[١] ، وأشفقتُ من المجاوزة لقدره .

والمزاح بابٌ ليس المخوفُ فيه التقصير ، ولا يكون الخطأُ فيه من جهة النُّقصان . وهو بابٌ متى فتَحه فاتحٌ ، وطرَّق له مطرِّق[٢] ، ولم يملك مِن سدِّه [مِثْلَ[٣]] الذى يملك مِن فَتْحه ، ولم يَخرُج بقدرِ ما كان قدَّم من نفسه[٤] ، لأَنَّه بابٌ أَصلُ بنائِه على الخطأ ، ولا يخالطه من الأَخلاق إلَّا ما سَخُف . ومِنْ شأْنِه التزيد ، وأَن يكون صاحبُه قليل التحفُّظ .

ولم نَرَ شيئاً أَبعدَ من شيءٍ[٥] ولا أَطولَ له صُحبة[٦] ولاأَشدَّ خلافاً ولا أَكثر له خُلْطةً ، من الجِدِّ والمُزَاح ، والمناظرة [والمراء[٧]] .

فإن كنتُ لم أَقصِّر عن الغاية ، ولم أَتجاوزْ حدَّ النهاية فَبِمَا أَعرفُ من يُمْن مكالمتك ، وبَرَكة مُكاتَبتِك ، ومِنْ حسن تقويمك[٨] وجودة تثقيفك . وإنْ كنتُ أَخطأْتُ الطَّريق ، وجاوزتُ المقدار ، فما كان ذلك عن جهلٍ بفضلك ، ولا إنكارٍ لحقِّك ، ولكنَّ حدودَ الأَشياءِ إذا خفيتْ ، ومقاديرَها إذا أَشكلَتْ ، ولم يكنْ مع النَّاظر فيها مثلُ

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وقعت على حده » .
(٢) م : « أو طرق له مطرق » .
(٣) التكلة من مج ، ش .
(٤) مج ، ش : « فى نفسه » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « من شر » ، تحريف .
(٦) ما عدا مج ، ش : « ولا أبعد له صحبة » ، ولكن فى م : « صحة » .
(٧) التكلة من مج ، ش .
(٨) ب ، ط : « تقويتك » ، صوابه فى سائر النسخ .

تمامك ، ولا مع المتكلِّف لها(١) مثلُ كمالك ، دخَل عليه من الخَلَل بقدر عَجْزه ، وسَلِم منه بقدر نَفَاذِه . نَعَمْ ولو كان من العلماءِ الموصوفين ، ومن الأُدباءِ المذكورين .

و[من(٢)] المزاح – جعلت فداك – باب مَكْر وجنسُ خُدَع(٣) يتَّكل المرءُ(٤) فى إساءته إلى جليسه ، واستماعِه لصديقه على أن يقول «مَزَحْتُ» ، وعلى أن يقول عند المحاكمة : « عَبِثْت(٥) » ، وعلى أن يقول : مَن يغضَبُ من المُزاح إلَّا كزُّ الخلق ؟ ! ومن يَرغب عن المفاكَهة إلَّا ضيِّق العَطَن ؟ !

وبعد فمتى أَعدَّتِ النفسُ عذراً كانت إلى القبيح أَسرع ، ومتى لم تُعدَّه(٦) كانت عنه أَبطأَ .

ومن أَسباب الغلطِ فيه ومن دواعى الخطأ إليه أَن كثيراً ممن تُمازحه(٧) يضحك وإن كنت أَغضبتَه ، ولا يقطع مزاحكَ وإن كنت قد أَوجعته . فإنْ حَقَد ففى الحقد الدَّاء ، وإنْ عَجِلَ فذلك البلاء .

فإن قلت : فما أَدخلك فى شيءٍ هذه سَبيلُه(٨) ، وهكذا جوهرُه وطريقُه ؟ قلت : لأَنى حين أَمنتُ عقابَ الإساءة ، ووثقت بثوابِ

---

(١) ط فقط : « بها » .
(٢) التكملة من م ، مج ، ش .
(٣) ب : « باب مكدر جنس خدع » م ، ط : « نكد وجنس خدع » ، صوابهما فى مج ، ش .
(٤) ب فقط : « للمرء » ، تحريف .
(٥) مج ، ش : « لعبت » .
(٦) ماعدا مج ، ش : « ومتى لم تجده » .
(٧) ب : « يمازحه » ، تحريف .
(٨) السبيل : الطريق ، مذكر ويؤنث . وفى الكتاب العزيز : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة » . م فقط : « هذا سبيله » .

الإحسان ، وعلمتَ أنّك لا تقْضِى إلا على العَمْد(١) ، ولا تعذِّب(٢) إلى على القَصْد ، صار(٣) الأَمن سائقاً ، والأَملُ قائداً .

وأَىُّ عملٍ أَردُّ ، وأَىّ مَتْجرٍ أَربَحُ ممَّا جَمَع السلامةَ والغنيمة ، والأَمْنَ والمثوبة .

ولو كان هذا ذنباً كنت شريكى فيه ، ولو كان تقصيراً لكنتَ سببى إليه ، لأَنَّ دوام التَّغافُلِ شبيهٌ بالإهمال ، وتَرْكَ التعريف يورث الإغفال ، والعَفوَ الشائعَ والبِشْرَ الدَائمَ يُؤْمنان من المكافأَة(٤) ، ويَذْهَبان بالتحفُّظ ؛ ولذلك قال عُيينة بن حِصْنٍ لعثمانَ بنِ عفَّان : «عُمَر كان خيراً لى منك ، أَرْهبنى(٥) فاتَّقانى ، وأَعطانى فأَغنانى» .

فإن كنت اجترأْت عليك فلم أَجترىءْ(٦) عليك إلَّا بك(٧) ؛ وإن كنتُ أَخطأْتُ فلم أُخْطِىءْ عليك(٨) إلَّا لك ؛ لأَنَّ حُسْنَ الظنِّ بك والثِّقَةَ بِعفوِك(٩) سببٌ إلى قلة التحفُّظ(١٠) ، وداعيةٌ إلى ترك التحرزُ(١١) .

---

(١) م ، ط : « لا تقتص » ب : « لا تقض » صوابهما فى مج ، ش. وفى ط : « إلا على العهد » ، تحريف .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ولا تقرب » ، تحريف .

(٣) ب : « سار » ط : « ترى » ، صوابهما فى سائر النسخ .

(٤) ب : « المكافات » ، تحريف .

(٥) ب : « رهبى » م ، ط : « رهبنى » ، صوابهما فى مج ، ش . وفى المعارف لابن قتيبة ١٣٢ : « فإنه أعطانا فأغنانا ، وأخشانا فاتقانا » . وفى أسد الغابة ٢٠٥٥ فى ترجمة عينية : « وتزوج عثمان بن عفان ابنته ، فدخل عليه يوماً فأغلظ له ، فقال له عثمان : « لو كان عمر ما أقدمت عليه بهذا . فقال : إن عمر أعطانا فأغنانا ، وأخشانا فاتقانا » .

(٦) ب فقط : « فلم أجتر » .

(٧) ما عدا مج ، ش : « إلا به » .

(٨) عليك ، ليست فى مج ، ش . وفى م : « فلم أخط » وفى ط : « فلم أخطأ » وكلاهما صحيح . يقال خطىء يخطأ ، وأخطأ يخطىء ، ويسهل المضارع منهما فيجزم بحذف الألف أو الياء.

(٩) ب فقط : « والشفقة » ، تحريف .

(١٠) ط فقط : « قلة فى التحفظ » .

(١١) م ، ط : « التجوز » .

وبعدُ فمَنْ وَهَبَ الكبيرَ كيف يقِف عندَ الصغير[١] ، ومن لَمْ يزل يعفو عن العمد[٢] كيف يعاقب على السَّهو ؟ !

ولو كان عِظَمُ قَدْرى هو الذى عظَّم ذنبى لكان عِظَمُ قدرى هو الذى شَفَع لى . ولو استحقَقْتُ عقابَك بإقدامى عليك مع خوفِى لك[٣] لاستوجَبْتُ[٤] عفوَك عن إقدامى عليك بحسن ظنِّى بك[٥] .

على أنِّى متى أَوجبْتُ لك العفو فقد[٦] أَوجبتُ لك الفضل ، ومتى أَضَفْت إليك العِقابَ فقد وصفتُك بالإنصاف . ولا أَعلم حالَ الفَضْل إلَّا أَشرفَ من حال العدل ؛ والحالَ التى توجب لك الشُّكر إلَّا أَرفعَ من الحال التى توجب لك الصبر[٧] .

وإنْ كنتَ لا تَهَبُ عِقابى لحُرْمتى فهبْه لأَياديكَ عندى ؛ فإنَّ النِّعمة تشفع فى النِّعمة[٨] .

فإنْ لم تفعل ذلك للحُرمة فافعلْه لحُسْن الأُحدوثة[٩] ، وعُدْ إلى حُسن العادة . وإنْ لم تفعل ذلك لحُسن العادة فائت ما أَنتَ أَهلُه .

واعلم أَنِّى وإيَّاكَ متى تحاكَمْنا إلى كَرمِك قُضِىَ لى عليك ، ومتى ارتفَعْنا إلى عدلك حَسُن العفو عنِّى عندك .

---

(١) م : « يعف عن الصغير » ب ، ط : « يعف عند الصغير » ، صوابهما فى مج ، ش.
(٢) ب ، م : « ولمن لم يزل يعفو العمد » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) ش فقط : « منك » .
(٤) م : « لاستجبت » ، تحريف .
(٥) ما عدا م ، ط : « لحسن ظنى بك » .
(٦) التكملة من مج ، ش .
(٧) بعده فى بعض نسخ ش : « ولا الحال التى توجب لك الصبر إلا أرفع من الحال التى توجب العذر » .
(٨) ش فقط : « فى النقمة » .
(٩) م ، ط : « لحب الأحدوثة » .

وفَصْلُ[١] ما بيننا وبينَك ، وفَرْقُ ما بَيْنَ أقدارنا وقدرِك[٢] ، أَنَّا نُسيء وتَغفِر، ونُذنِب وتَستر ، ونعوَجُّ وتُقَوِّم ، ونَجهَلُ وتُعلِّم ؛ وأَنَّ عليك الإنعامَ وعلينا الشُّكر . ومن صِفاتك أَنْ تفعَلَ[٣] ومن صفاتنا أن نَصِفَ .

وإذا فعلتَ ما تقدر عليه من العقاب كنتَ كمن فعَلَ ما يقدر عليه من التعرُّض ، وصرتَ ترغب عن الشُّكر كما رغبنا عن السّلم[٤] ، وصار التعرُّض لعفوك بالأَمنِ باطلًا ، والتعرُّضُ لعقابك بالخوف حقًّا ، ورغِبتَ عن النُّبل والبهاء ، وعن السُّودُد والسَّنَاء ، وصرتَ كمن يَشفى غيظاً أَو يُداوِى حقداً ، أَو يظهرُ القُدرة أَو يحبُّ أَن يُذكَرَ بالصولة .

ولم نجدْهُم – أَبقاكَ الله – يَحمَدون القُدرة إلَّا عند استعمالها فى الخير ، ويذُمُّون العجزَ إلَّا لما يَفُوتُ به من إتيان الجميل .

وأَنَّى لك بالعقابِ وأَنت خيرٌ كلُّك ، ومن أَين اعترالك المَنْعُ وأَنت أَنهجْتُ الجُودَ لأَهله[٥] . وهل عندك[٦] إلا ما فى طبعك ، وكيف لك بخلاف عادتك ؟ فلمَ تَستكرِهُ نفسَك على المكافأَة وطباعُها الصَّفح[٧] ؟ ولمَ تكُدُّها بالمناقَشَة ومَذهبُها المسامحة[٨] ؟

---

(١) ب ، م : « وفضل » بالضاد المعجمة .
(٢) م ، ط : « قدرنا وقدرك » .
(٣) ب فقط : « تغفل » ، تحريف .
(٤) ش : « التسليم »
(٥) أراد بين طريقه ومنهاجه . والفعل بهذا المعنى لم يرد فى المعاجم المتداولة .
(٦) ما عدا مج ، ش : « وهل عنك » ، تحريف .
(٧) م : « وطباع الصفح » ، تحريف . وفى مج ، ش : « وطباعك الصفح » . وأثبت ما فى ب ، ط .
(٨) بالمناقشة ، من إحدى نسخ ش . وفى سائر النسخ : « المنافسة » . والمناقشة : استقصاء الحساب . ما عدا مج ، ش : « زومذهبها السماحة » .

سبحانَ مَنْ جَعل أَخلاقَك وَفْق أَعراقك ، وفِعلَكَ وَفْق عملك ، ومَنْ جَعَل ظنَّك أكثر من يقيننا[١] ، وفِراسَتَك أثقبَ من عِياننا[٢] ، وعَفْوَك أرجحَ من جُهْدنا ، وبَدَاهَتَك أجودَ من تفكُّرنا ، وفِعلَكَ أرفَعَ من وصفنا ، وغَيْبَتَك أهْيَبَ من حضور السَّادة[٣] ، وعَتْبَكَ[٤] أَشدَّ مِن عقاب الظَّلَمة .

وسُبحانَ من جعلك تعفو عن المتعمِّد ،وتَتجافَى عن عِقاب المُصِرّ[٥] ، وتَتغافُل عن المُناوِى[٦] وتصفح عن المتهاون[٧] حتَّى إذا صرت إلى من ذنبه نسيانٌ[٨] وتوبتُه إخلاص ، وهَفْوتُه بِكرٌ ، وشفاعته الحُرْمَة[٩] ومن لا يعرِفُ الشُّكرَ إلَّا لك ، والإنعام إلَّا منك ، ولا العلمَ[١٠] إلَّا من تأْديبك ، ولا الأَخلاقَ إلَّا من تقويمك ، ولا يقصِّر[١١] فى بعض طاعتك إلَّا لما رأَى من احتمالك ، ولا نَسِيَ بعضَ ما يجبُ لك إلَّا لما داخَله من تعظيمك ــ صِرْتَ تتوعَّده بالصَّرْمِ[١٢] وهو دليلُ كلِّ بليَّة ، وتستعمل الإعراضَ وهو قائدُ كلِّ هَلَكة .

وقد علمتَ أَنَّ عتابك أَشدُّ من الصَّريمة ، وأَنَّ تأْنيبك أَغلَظُ من

---

(١) ش : « أقوى من يقيننا » .
(٢) أثقب : أضوأ وأنفذ . وهذا ما فى م ، وفى سائر النسخ : « أقوى من عياننا » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « الشاكة » . والسادة : جمع سيد .
(٤) ما عدا مج ، ش : « وعينك » ، تحريف .
(٥) ط فقط : « عذاب المصر » .
(٦) من المناوأة ، وهى المعاداة . م ، ط : « المنادى » تحريف .مج ، ش : « المبادى » ، وأثبت ما فى ب .
(٧) م ، ب : « التهادن » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٨) ما عدا مج ، ش : « شيان » .
(٩) م ، ط : « وشفعته الحرمة » مج ، ش : « وشفيعه حرمة » ، وأثبت ما فى ب .
(١٠) ب : « والعلم » بإسقاط « لا » .
(١١) مج ، ش : « ومن لا يقصر » .
(١٢) ما عدا مج ، ش : « صرت تتعود » . ط فقط : « بالصد » .

العقوبة ، وأَنَّ مَنْعَك إذا مَنعتَ فى وزن إعطائكَ إذا أَعطيت ، وأَنَّ عِقابَك على حسَب ثَوَابك ، وأَنَّ جزعى من حرمانك فى وَزْنِ سُرورى بفوائدك ، وأَنّ شَيْنَ غضبِك كزَيْنِ رضاك(١) ، وأَنَّ موت ذكرى بانقطاع سببى منك كحياةِ ذِكرى مع اتِّصال سببى بك .

وما[لى(٢)] اليوم عملٌ أَنا إليه أَسكَنُ ، ولا شفيعٌ أَنا به أَوْثَقُ ، مِنْ شدَّة جزعى من عتبك ، وإفراط هَلَعى من خَوْفك . ولستَ مِمَّن إذا جادَ بالصَّفح ومَنَّ بالعفو لم يكن لصاحبِه منهُ إلَّا السَّلامة والنَّجاةُ من الهَلَكَة . بل تَشْفَعُ ذلك بالمراتب الرَّفيعة ، والعطايا الجزيلة ، والعزِّ فى العشيرة ، والهيبة فى الخاصَّة والعامَّة ، مَعَ طِيب الذِّكر وشَرَف العُقْب(٣) ، ومحَبَّةِ الناس(٤) .

وأَما ذِكرىَ القَدَّ والخَرْط ، والطُّولَ والعَرْض ، وما بيننا وبينك فى ذلك(٥) من التنازع ، والتَّشاجُر والتنافر(٦) ، فإنَّ الكلام قد يكون فى لفظِ الجدِّ وهو مِزاح(٧) .

ولو استعمل الناس الدَّماثةَ فى كلِّ حال ، والجِدَّ فى كلِّ مقال ، وتركوا التسمُّح والتَّسهيل وعَقَدوا فى كلِّ دقيق وجليل(٨) ، لكان

---

(١) الزين : الحسن . ما عدا مج ، ش : « كذم رضاك » .
(٢) التكملة من ط ، مج ، ش .
(٣) العقب ، بالضم : العاقبة . وفى كتاب الله : « هو خير ثواباً وخير عقباً » .
(٤) مج ، ش : « ومحبة النفس » .
(٥) ب ، م : « وبيننا وبينك فى ذلك » بسقوط « ما » .
(٦) مج ، ش : « والتحاكم والتنافر »
(٧) مج ، ش : « فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد » .
(٨) مج ، ش : « وعقدوا أعناقهم فى كل دقيق وجليل » .

الشرّ صُراحاً خيراً لهم ، والباطلُ محضاً أَرَدَّ عليهم . ولكنْ لكلٍّ شيءٍ قَدْر ، ولكلٍّ حالٍ شِكْل . فالضَّحِك فى موضعه كالبُكاء فى موضعه ، والتبسُّم فى موضِعِه كالقُطوب فى موضعه . وكذلك المنْعُ والبَذْل ، والعقاب والعَفْو ، وجميعُ القبض والبسط .

فإنْ ذَممنا المِزاح ففيه لعمرى ما يُذَمُّ ، وإنْ حمِدناه ففيه ما يُحمد. وفَصْل[١] ما بينه وبين الجدِّ أَنَّ الخطأً إلى المزاح أَسرع ، وحالَه بحال السُّخف أَشبه. فأَمَّا أَن يُذَمَّ حتَّى يكون كالظُّلم ، ويُنْفَى[٢] حتَّى يصير كالغَدْرِ فَلاَ[٣] ؛ لأَنَّ المِزاح مما يكون مرّةً حسناً ومرّةً قبيحاً . فإذا صِرْنا إلى الجِدِّ[٤] ، ورغِبْنا عن الهَزْل وتركنا المزاح ، وجلسنا للحُكْم[٥] ، فقد أَغناك الله تعالى عن الحُجَّة ، كما سلَّمك من الشبهة ، ولم نكلِّفْك الاحتجاجَ كما نرغب بك عن الاعتلال[٦] ، فأَصبحتَ لا محتجًّا ولا مَحجوجاً ، ولا غُفْلا ولا موسوماً ، ولا مَلُوماً ولا معذوراً[٧] ، ولا فيك اختلاف ولا بك حاجةٌ إلى الائتلاف .

وليس مع العِيان وَحْشة ، ولا مع الضَّرورة وَجْمَة[٨] ، ولا دون اليقين وقفة .

(١) ب فقط : « وفضل » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « ويبقى » .
(٣) ب ، م : « كلا » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٤) مج ، ش : « فإذا ملنا إلى الجد » .
(٥) مج ، ش : « للحكمة » .
(٦) مج ، ش : « ولم يكلفك الاحتجاج كما رغب بك عن الاعتدال » .
(٧) ب : « وملوماً » بإسقاط « لا » . وفى م : « ولا ملوماً ولا معذولا » .
(٨) الوجمة من الوجوم ، وهو السكوت على غيظ أوهم أو كآبة .ب فقط : « وجهة » .

وهل فى تمامكَ ريب [١] حتَّى يُعالج بالحجّة ؟ وهل يَرُدُّ فضلك جاحدٌ [٢] حتَّى يُثْبَتَ بالبيِّنة [٣] .

وهل لك خَصْمٌ فى العلم أَو نِدٌّ فى الفَهْم [٤] ، أَو مُجَارٍ فى الحِلْم ، أَو ضدٌّ فى العزم [٥] ؟

وهل يَبلُغك الحَسَد أَو تضرُّك العَيْن [٦] ، أَو تَسْمو إليك المُنَى أَو يطمعُ فيك طامع [٧] ، أَو يتعاطَى شَأْوَكَ باغ ؟

وهل غايةُ الجميلِ إلَّا وصْفُك ، وهل زَيْنُ البليغ إلَّا مدحُك ، وهل يأْمُل الشريف [٨] إلَّا اصطناعَك ؟ وهل يقدِّر الملهوفُ إلَّا غياثك [٩] ؟ وهل للطُّلَّابِ غايةٌ سِواك ؟ وهل للغَوانى مَثَلٌ غيرك ؟ وهل للماتِح [١٠] رجَزٌ إلَّا فيك ، وهل يَحدُو الحادِى إلَّا بك [١١] ؟

ولولا أَنْ يأْخذ الواصف لك بنصيبه منك ،وبحصَّته من الصِّدق [١٢] ،

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وهل فيك ريب » .
(٢) ب : « ماد » ، م ، ط : « حاد » ، صوابهما فى مج ، ش .
(٣) ب ، م : « حتى تثبت بالصيغة » ط : « حتى تثبت بالصبغة » صوابهما فى مج ، ش .
(٤) ما عدا مج ، ش : « أو يد فى الفهم » تحريف . والند ، بالكسر : النظير والمثيل .
(٥) المجارى : الشبيه ، وأصله من يجرى مع غيره . ما عدا مج ، ش : « أو مجاز » تحريف .
(٦) مج ، ش : « وهل يتبلغك الحسد » . ب ، م : « أو يضرك العين » .
(٧) ما عدا مج ، ش : « طاغ » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « يؤمل » .
(٩) مج ، ش : « وهل يرجو الملهوف إلا غياثك » .
(١٠) كانوا يرجزون عند المتح ، وهو الاستقاء من أعلى البئر . ماعدا مج ، ش : « وهل للمادح » ، تحريف .
(١١) ش : « أوهل » ، مج ش : « إلا بذكرك » .
(١٢) ش : « من الصدق فيك » .

وبسهمه من الشكر[١] لك، لكانَ الإطنابُ عندهم فى وصفك لَغْواً، ولكان تكلُّفه فَضْلًا .

ومَنْ هذا الذى يَضَعُه[٢] أن يكون دونك ، أو يُهجَى بالتَّسليم[٣] ، ولم نَعُدَّ[٤] إقرارَه إحساناً ، وخُضوعَه إنصافاً ؟

وهل تقع الأبصار إلَّا عليك ، وهل تُصْرَفُ الإشارة إلَّا إليك[٥] ؟

وأىُّ أمرِك ليس بغايةٍ ، وأىُّ شىءٍ منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شىءٌ يَفُوق شيئاً أو يفوقُه شىءٌ ؟ أو يقال : لو لم يكن كذا لكان [أحسن[٦]] ، أو لو كان كذا لكان أتَمَّ ؟

وأين الحُسْنُ الخالصُ والجمالُ الفائق ، والمِلْح المحْضُ والحلاوةُ التى لا تستحيل ، والتَّمام الذى لا يُحيل[٧] ، إلَّا فيك ، أو عندك ، أو لكَ أو معك ؟

لا بل أينَ الحُسن المُصْمَتُ والجمالُ المفْرد ، والقَدُّ العجيب ، والمِلْح المنثور والفضل المشهور ، إلَّا لك وفيك ؟

وهل على ظهرها جميلٌ حسيبٌ أو عالم أديب[٨] إلَّا وظلُّك أكبر

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وشيمته من الشكر » .
(٢) ط : « نصفه » .
(٣) ب : « أوتهجى بالتسليم » ، تحريف صوابه فى م ، ط . وفى مج ، ش : « ويمتحن بالتسليم لك » .
(٤) ما عدا مج : « أو تعد » .
(٥) ب ، م : « وهى تعرف الإشارة إلا إليك » ، وأثبت ما فى ط . على أن هذه الفقرة بتمامها لم ترد فى نسخ التربيع والتدوير .
(٦) التكملة من مج ، ش .
(٧) ط فقط : « لا يحل » .
(٨) مج : « أو عالم أديب » ب ، ط ، م : « وعالم أديب » ، وأثبت ما فى ش . والأريب : العاقل ذو الدهاء .

من شَخْصه ، وظنُّك أكثرُ مِنْ علمه ، واسمُك أفضلُ من معناه ، وحُلْمُك أثبت من نَجْواه ؟

ولربَّما رأيتُ الرجلَ حسناً جميلًا ، وحُلواً مليحاً ، وعتيقاً رشيقاً ، وفخْماً نبيلًا[١] ، ثم لا يكون موزونَ الأعضاءِ ولا معتدلَ الأجزاء .

وقد تكون[٢] أيضاً الأقدارُ مُتساويةً غير متقاربة ولا متفاوتة[٣] ويكون قصداً ، ومقداراً عَدْلًا ، وإنْ كانت هناك دقائقُ خفيَّةٌ لا يراها الغبيّ[٤] ، ولطائفُ غامضةٌ لا يعرفها إلَّا الذكيّ .

فأمَّا الوزن المتحقَّق[٥] ، والتَّعديل الصحيح ، والتركيب الذى لا يفضحه التفرُّس ، ولا يحصُره التعنُّت[٦] ، ولا يتعلَّل جادِبُه[٧] ، ولا يطمَعُ فى التمويه ناعته[٨] ، فهو الذى خُصِصْتَ به دون الأَنَام ، ودامَ لك على الأيَّام .

وكذا الحُسْن إذا كان حرًّا مُرسَلًا ، وعَتيقاً مُطْلقاً[٩] ، لا يتحكَّم

---

(١) الفخم : العظيم القدر . وفى حديث أبى هالة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان «فخماً مفخماً » ، أى عظيماً معظماً فى الصدور والعيون . ما عدا مج ، ش : « وفخيماً نبيلا » ، ولم تعرف المعاجم الفخيم .

(٢) ب فقط : « وقد يكون » .

(٣) التكملة من مج ، ش .

(٤) مج ، ش : « إلا الألمعى » .

(٥) ب : « التحقيق » م : « التحقق » مج ، ش : « المحقق » ، وأثبت ما فى ط .

(٦) ما عدا مج ، ش : « التغيب » .

(٧) الجادب : العائب . قال ذو الرمة :

فيالك من خـد أسيل ومنطق رخيم ومن خلق تعلل جادبه

يقول : لا يجد فيه مقالا ولا عيباً يعيبه به ، فيتعلل بالباطل وبالشىء يقوله وليس بعيب . ما عدا مج : « جاذبه » بالذال المعجمة ، تحريف .

(٨) ما عدا مج ، ش : « غايته » ، تحريف .

(٩) بفقط : « وعتقاً مطلقاً » ، تحريف .

عليه الدَّهر(١) ، ولا يُذْبِلُه الزمان(٢) ، ولا يحتاج إلى تعليق التَّمائم ، ولا إلى الصَّون والكِنِّ ، ولا إلى المِنْقاش والكُحْل(٣) .

ولو لم يكنْ لحُسْنِ وجهك إلَّا أَنه قد سُهِّل فى العيون تسهيلًا ، وحُبِّب إلى القلوب تحبيباً ، وقُرِّب إلى النفوس تقريباً ، حتَّى امتزج بالأَرواح وخالَط الدِّماء ، وجرى فى العُروق وتمشَّى فى العَظْم بحيث لا يبلغه السَّمَر ولا الوهم(٤) ، ولا السُّرور الشديد ، ولا الشَّراب الرقيق ، لكان فى ذلك المزيَّةُ الظاهرةُ ، والفضيلة البيِّنة .

ولو لم يكن لك إلَّا أَنَّنا لا نستطيع أَن نقول فى الجملة ، وعند الوصف والمِدْحة : لهو أَحسَنُ من القمر(٥) ، وأَضوأُ من الشمس ، وأَبْهَى من الغَيْث ، وأَحسن من يَوْمِ الحِلْية(٦) ؛ وأَنَّا لا نستطيع أَن نقول فى التَّفاريق : كأَنَّ عُنقَه إبريقُ فِضَّة ، وكأَنَّ قدمَه لسانُ حيَّة ، وكأَنَّ وجهه ماويّة(٧) ، وكأَن بَطْنَه قُبْطيَّة(٨) ، وكأَنَّ ساقه بَرْديَّة(٩) ، وكأَنَّ لسانَه وَرَقة ، وكأَن أَنْفَه حدُّ سيف ، وكأَنَّ حاجِبَه خُطَّ بقلَم(١٠) ، وكأَنَّ لونَه الذَّهب ، وكأَنَّ عوارِضَه البَرَد ، وكأَنَّ فاه خاتَم ، وكأَنَّ

---

(١) ما عدا مج ، ش : « الذهن » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ولا يديله الزمان » .

(٣) المنقاش : آلة النقش ، والمراد به ما ينتف به الشعر ، مج ، ش : « المناقيش » .

(٤) مج ، ش : « السم ولا الوهم » . والسمر : الحكايات التى يسمر بها ليلا .

(٥) ط ، مج ، ش : « هو أحسن من القمر » .

(٦) يوم الحلية : يوم الزينة فى الأعياد ونحوها . مج ، ش : « يوم الحلبة » بالباء الموحدة .

(٧) الماوية : المرآة . مج ، ش : « وكأن عينه » .

(٨) القبطية ، بالضم : ثياب من كتان مصر بيض رقاق . ط : « قنطية » تحريف .

(٩) البردية ، بالفتح : واحدة البردى ، وهو نبت مائى معروف يضرب به المثل فى فى الغضاضة واللين .

(١٠) ب ، م : « تعلم » تحريف . فى ط : « قلم » وأثبت ما فى مج ، ش .

جبينَه هِلال . ولهو أَطْهَر من الماء ، وأَرقُّ طباعاً من الهَوَاء ، ولهو أَمضَى من السَّيل، وأَهدى من النَّجم — لكان فى ذلك البرهانُ النيِّرُ ، والدليل البيِّن .

وكيف لا تكون كذلك وأَنتَ الغايةُ فى كلِّ فضل ،والمَثَلُ فى كُلّ شَكْل . وأَمّا قول الشاعر[1] :

يَزيدك وجهُــه حُسنــاً إذا مازِدتَــه نَظَــرا

وقول الدِّمشقيِّين : ما تـأَمّلْنا قطُّ تـأْليف مسجدنا ، وتركيبَ مِحرابنا وقُبَّة مُصَلَّانا إِلَّا أَثار لنا التـأَمُّلُ ، واستخرج لنا التفرُّس ، غرائبَ حسنٍ لم نَعرِفْها[2] ، وعجائبَ صنعةٍ لم نقِفْ عليها . وما ندرى أَجَوَاهِر مقطَّعاته أَكرمُ فى الجواهر ، أَم تنضيد أَجزائه فى تنضيد الأَجزاءِ[3] ؟ فإِنَّ ذلك معنًى مسروقٌ منّى فى وصفك ، ومأْخوذٌ من كتبى فى مدحك .

والجملةُ التى تنفى الجِدالَ ، وتَقطَعُ القِيلَ والقال ، أَنِّى لم أَرِكَ قطُّ إِلَّا ذكرتُ الجَنَّة ، ولا رأَيتُ أَجملَ الناس فى عَقِب رؤيتك ! إِلَّا ذكرتُ النار !

ولا تَعجَبْ أَيُّها السامعُ واعلم أَنِّى مقصِّر . وإِذا رأَيتَه علمتَ أَنِّى مقصِّر . وإِذا رأَيتَه علمت أَنِّى فيما يجب له مفرِّط .

هو رجلٌ طينتُه حُرَّة ، وعِرقُه كريم ، ومَغرِسُه طيِّب ، ومَنشؤه

---

(١) هو أبو نواس . ديوانه ١٢٥ ودلائل الإعجاز ١٩٤ ومعاهد التنصيص ١ : ٢٨ وديوان المعانى ١ : ٣٣١ .

(٢) ط فقط : « التغرس بين غرائب حسن لم نعرفها » ، تحريف .

(٣) ب فقط : « تنضيض » ، محرفة . وفى ش : « فى تنضيدات الأجزاء » وفى مج : « أم جواهر تنضيدات أجزائه فى تنضيدات الأجزاء » .

محمود ، غُذِىَ فى النَّعمة(١) ، وعاش فى الغبطة ، وأَرْهَفَه التَّأْديب ، ولطَّفه طول التفكير(٢) ، وخامَرهُ الأَدب ، وجرى فيه ماءُ الحياء . فأَفعالُه كأَخلاقه ، وأَخلاقُه كأَعراقه ، وعادتُه كطبيعته ، وآخِرهُ كأَوّله ، تحكى اختياراتُه التَّوفيقَ ، ومذاهبُه التَّسديدَ . لا يَعرِف التكلُّف ، ويرغَب عن التجوُّز(٣) ، وينبُل عن ترك الإنصاف(٤) . لا تمتنِع عليه معرفة المُبْهَم(٥) ، ولا يُلَحَّجُ باستبانة المُشْكل(٦) ، ولا يعرِف الشكَّ إلَّا فى غيره ، ولا العِىَّ(٧) إلَّا سماعاً .

فمن يطمع فى عَيْبِك(٨) ، بل من يطمع فى قدرك . وكيف وقد أَصبحتَ وما على ظهرها خَوْدٌ(٩) إلَّا تعثُر باسمك(١٠) ، ولا قَينةٌ إلا وهى تَغَنَّى بمدْحِك(١١) ، ولا فتاةٌ إلَّا تشكو تباريحَ حبِّك(١٢) ، ولا محجوبةٌ

---

(١) ب فقط : « علذى » ، تحريف. مج ، ش : « بالنعمة » .
(٢) مج : « وألطفه طول التفكر » ش . : « وألطفه طول الفكرة » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « التجرد » .
(٤) كلمة « ترك » من مج ، ش فقط ، وفى ب : « عن الأوصاف » . م ، ط : « عن الإنصاف » .
(٥) ب ، م : « لا يمتنع عليه معروفه المبهم » صوابه فى سائر النسخ .
(٦) يقال لحج عليه الخبر تلحيجاً ، إذا خلطه عليه وأظهر غير مافى نفسه .ب ، م ، ط : « ينجح باستبانته المشكل » ، تحريف . وفى مج « ولا يلتحج باستبانة المشكل ».
(٧) ما عدا مج ، ش : « ولا ألغى » بالغين المعجمة ، تحريف .
(٨) ما عدا مج ، ش : « فى عينك » ، بالنون .
(٩) الخود ، بفتح الخاء : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . ب ، م : « جود » ، ط : « جواد » ، صوابهما فى مج ، ش .
(١٠) مج ، ش : « إلا وهى تعثر باسمك » ، أراد يعتريها الاضطراب لتقع فى العثار .
(١١) ما عدا مج ، ش : « إلا وهى تبغى » ، وفى ط أيضاً : « تمدحك » .
(١٢) ب : « إلا وتشكو » م: « ولا فتاة تشكو إلا تباريح حبك » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج ، ش : « إلا وهى تشكو تباريح حبك » .

إلَّا وهى تَنْقُب الخروقَ لمرِّك [1] ، ولا عجوزٌ إلَّا وهى تدعو لك ، ولا غَيورٌ إلَّا وقد شقِىَ بك [2] .

فكم من كبد حَرَّى [3] مُنْضَجة ، ومَصدوعةٍ مفرَّثة [4] ، وكم حشاً [5] خافقٍ وقلبٍ هائم ، وكم عينٍ ساهرةٍ [6] وأُخرى جامِدة [7] وأُخرى باكية ؟ وكم عَبْرَى مولَّهة وفتاةٍ معذَّبة ، قد أَقرحَ قلبَها الحُزْن ، وأَجمَدَ عينَها الكمَد ، واستبدلت بالحَلْى العُطلة [8] وبالأُنْسِ الوَحْشة ، وبالتكحيل المرَه [9] ، فأَصبحتْ والهة مبهوتة [10] ، وهائمة مجهودة ، بعدَ ظَرْف ناصع [11] ، وسِنٍّ ضاحك ؛ وبعد أن كانت ناراً تتوقَّد وشُعلةً تتوهَّج .

وليس حُسنُك — أَبقاكَ الله — الحُسْنَ الذى تبقى معه تَوْبة ، أَو تَصِحُّ معه عقيدة [12] ، أَو يَدُومُ معه عهد [13] ، أَو يثبت معه عَزْم ،

---

(١) ط فقط : « تثقب » بالثاء المثلثة .

(٢) ب ، ط : « شفى » بالفاء ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) ب ، م : « حسوى » ، والصواب فى سائر النسخ .

(٤) مفرثة : مفتتة . ب : « ومعربة » م : « ومعرية » ط : « ومعذبة » ، صوابها فى مج ، ش .

(٥) ش فقط : « وكم من حشا خافق » .

(٦) ش فقط : « وكم من عين ساهرة » .

(٧) الجامدة : التى لا تدمع . مج فقط : « جاهدة » .

(٨) كذا فى جميع النسخ . وفى المعاجم أن « العطلة » بالضم : اسم للتعطل ، وهو خلو المرأة من الحلى ، وخلو العامل من العمل .

(٩) المره : خلو العين من الكحل ، أو فسادها لتركه . والنعت أمره ومرهاء .

(١٠) المبهوت : المتحير ، والذى اعترته الدهشة .

(١١) الناصع : الخالص الظاهر . فى الأصول : « طرف » بالمهملة ، صوابه بالظاء المعجمة.

(١٢) ب ، م : « أو يصح معه عقدة » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١٣) ب ، م : « عهدة » .

أَو يُمهِلُ صاحبه للتثبُّت(١) ، أَو يتَّسع للتحيُّر(٢) ، أَو يُنهنِهُهُ زَجْر(٣) ، أَو يفيده خوفٌ(٤) . هو ــ أَبقاك الله ــ شيءٌ يَنْقُضُ العادة(٥) ، ويَفسخ المُنَّة ، ويُعجِل عن الرويَّة(٦) ، ويطوِّح بالعَزَاء(٧) ، ويُنْسَى معه العواقب .

ولو أَدركك(٨) عمر بن الخطاب لصَنَع بك أَعظَمَ(٩) ممَّا صنع بنصر ابن الحجَّاج(١٠) ، ولرَكِبَك بأَعظمَ ممَّا ركب جَعْدَةَ السُّلَمى(١١) . بلْ لدعاه الشُّغْل بك إلى ترك التَّشاغُل بهما ، والغيظُ عليكَ إلى الرَّحمة لهما .

---

(١) مج ، ش : « التثبت » .
(٢) ب ، م : « أو تتسع » .
(٣) نهنهه عن الأمر فتنهنه : كفه وزجره فكف ، وأصلها نههه ، بالتضعيف ، فأبدلت الهاء الثانية نوناً . ما عدا مج ، ش : « أو ينهيه » ، تحريف .
(٤) ب : « خوفاً » ، تحريف . ومج ، ش : « أو يهذبه خوف » .
(٥) ط فقط : « ينقص العادة » ، تحريف .
(٦) المنة ، بالضم : القوة . روى فى الأمر تروية : نظر وفكر ، والاسم الروية . ب ، م : « عن الرؤية » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٧) مج ، ش : « ويطرح » ب فقط : « بالعرى » .
(٨) ب ، م : « أدرك » .
(٩) ط فقط : « أحسن »، ووجهها « أخشن » .
(١٠) ط فقط : « حجاج » . وهو نصر بن الحجاج بن علاط السلمى . وكان قد عشقته فريعة بنت همام ، أم الحجاج بن يوسف ، وهى إذ ذاك تحت المغيرة بن شعبة ، فمر عمر ابن الخطاب ذات ليلة فسمعها تقول :

ألا سبيل إلى خمر فأشربها أو لا سبيل إلى نصر بن حجاج

فسير عمر نصراً إلى البصرة ، فنزل على مجاشع بن مسعود فعشق امرأته شميلة وعشقته ، وعرف مجاشع ذلك فأخرجه من منزله ، فنزل على بعض السلميين فرض من حبها مرضاً شديداً فتمثل به أهل البصرة فقالوا : « أدنف من المتمنى » . كما قيل « أصب من المتمنية » ، وهى فريعة بنت همام . جمهرة الأمثال ١ : ٥٨٨ والميدانى ١ : ٣٧٩ والمستقصى ١١٩ .
(١١) أدرك جعدة هذا زمان الجاهلية ، وكان غزلا صاحب نساء يحدثهن ويمازحهن ، فكن يجتمعن عنده ، فيأخذ المرأة فيعقلها ثم يأمرها بأن تمشى ، فتعثر فتقع فتتكشف ، فيتضاحكن من ذلك ، فنفاه عمر من المدينة إلى عمان . الإصابة ١٢٨٥ .

فمن كان عيب حُسْنِه[١] الإفراطَ ، [والطعنُ[٢]] عليه من جهة الزِّيادة ، كيف يرومُه عاقلٌ أَو يَنْتَقِصُه عالِم .

وما نَدْرِى[٣] فى أَىِّ الحالين أَنت أَجمل ، وفى أَىِّ المنزلتين أَنتَ أَكمَل ، إذا فرّقناك أَو إذا جمعناك[٤] ، وإذا ذكرنا كلَّكَ[٥] أَمْ إذا تأَمّلنا بعضَك ؟

فأَمَّا كفُّك فهى التى لم تُخلَقْ إلَّا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يَحسُنُ بحُسْنِها كلُّ ما اتَّصل بها ، ويختال بها كلُّ ما صار فيها[٦] .

وكما أَصبَحْنا وما ندرى : آلكأْسُ التى[٧] فى يدك أَجملُ أَمِ القلمُ ، أَم الرُّمح الذى تحمله أَم المِخْصَرة ، أَم العِنانُ الذى تمسكه ، أَم السَّوطُ الذى تعلِّقه ؟

وكما أَصبَحْنا وما ندرى أَىُّ الأُمور المتَّصلةِ برأْسك أَحسنُ ، أَم أَيُّها أَجمل وأَشكل : آللِّمَّةُ أَم مَخَطُّ اللِّحية[٨] ، أَم الإكليلُ أَم العِصابة ، أَم العِمامةُ أَم القِناعُ أَم القَلَنْسُوة ؟

وأَمَّا قدمُك فهى التى يَعلَمُ الجاهلُ كما يعلم العالمُ ، ويعلم البعيد

(١) ب ، م : « حسبه » بالباء .
(٢) التكملة من مج ، ش .
(٣) ب ، م : « وما يدرى » .
(٤) هذا ما فى مج . وفى ب ، م ط : « وإذا جمعناك » . والذى فى ش : « إذا فرقناك أم إذا تأملنا بعضك » . بهذا النقص .
(٥) م ، ط : « ذكرناك كلك » . وبعده فى مج : « أو إذا تأملنا بعضك » .
(٦) ب ، م : « ويحتال » بالمهملة ، صوابه فى سائر النسخ . وفى ب ، م : « كل من صارفيها » ، تحريف .
(٧) م ، ط : « الذى » ، صوابه فى ب فإن الكأس مؤنثة . وفى مج ، ش : « الكأس فى يدك » .
(٨) مخط اللحية : خطوطها وهيئة خرطها . م ، ط : « محط اللحية » ، تحريف .

الأَقصى، كما يعلم القريب الأَدنى، أَنَّها[١] لم تُخْلَق إلَّا لمنبرٍ عظيم، أَو ركابِ طِرْفٍ كريم.

وأَمَّا فُوك[٢] فهو الذى لا ندرى: أَىُّ الذى تتفوَّهُ[٣] به أَحسن، وأَىُّ الذى يبدو منه أَجمل[٤]: الحديث أَم الشعر، أَم الاحتجاج، أَم الأَمر والنهى، أَم التعليم والوصف؟

وعلى أَنَّنا لا ندرى أَىُّ أَلسنتِكَ أَبلَغُ، وأَىُّ بَيانِكَ أَشفى: أَقلمك أَبلغ أَم [خطُّك، أَم[٥]] لفظُكَ؟ أَم إشارتُك أَم عَقْدك[٦]؟ وأَنت فى ذلك فوقهم - والحمدُ لله - وواحدُهم. وأُعيذك بالله تعالى[٧].

وقد علِمْنا أَنَّ القَمَر، وهو[٨] الذى يُضرَب به الأَمثالُ، ويُشَبَّه به أَهلُ الجمالِ، يبدو مع ذلك ضئيلًا ونِضواً، ويظهر معوجًّا شخْتاً[٩]؛ وأَنت أَبداً قمرٌ بدر، وفَخمٌ غَمْر[١٠].

ثمّ مع ذلك يَحترق فى السِّرار[١١]، ويُتشاءَمُ به فى المحَاق، ويكون نحساً كما يكون سَعداً، ويكون ضَرًّا كما يكون نَفْعاً، ويَقرِض

(١) ب، م: «إلا بها»، صوابها فى سائر النسخ.
(٢) ما عدا مج، ش: «قولك».
(٣) ب فقط: «تثقوه»، تحريف.
(٤) ط: «تبدأ به» ب: «نبدو به» م: «تبدو به» صوابه فى مج، ش.
(٥) التكملة من مج، ش.
(٦) العقد: ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال له حساب اليد أيضاً. وفى الحديث أنه: «عقد عقد تسعين». وقد ألفت فيه كتب وأراجيز. انظر الخزانة ٣: ١٤٧ والحيوان ١: ٣٣ والبيان ١: ٧٦.
(٧) بعده فى مج، ش: «وأنت تجوز الغاية وتفوق النهاية».
(٨) وهو، ساقطة من ب، وبدلها فى مج، ش: «هو» بدون واو.
(٩) ويظهر، ساقطة من ب، م. والشخت: الدقيق الضئيل.
(١٠) ش: «وبحر غمر». ط: «وفخم ذمر»: والذمر، بالكسر: الشجاع، والظريف اللبيب المعوان. وأما الغمر، بالفتح، فهو الواسع الخلق الكثير المعروف.
(١١) السرار، بكسر السين وفتحها: آخر ليلة فى الشهر، وفيها يستسر القمر.

الكَتَّان ، ويُشحِبُ الأَلوان(١) ، ويخمّ فيه اللَّحم(٢) . وأَنت دائمُ اليُمْن ، ظاهرُ السَّعادة ، ثابتُ الكمال ، شائعُ النَّفع ، تكسُو مَنْ أَعراهُ ، وتُكنّ من أَشحبه(٣) .

وعلى أَنَّه مَحَقَ حُسْنَه المحاق(٤) ، وشانَهُ الكَلَف ، وليس بذى توقُّدٍ واشتعالٍ ، ولا خالصٍ ولا مُتلألِئ ، ويَعْلُوه بَرَد(٥) ويكسِفه ظِلّ(٦) ، ثم لا يُعتبر ذلك إلَّا عند كمالِهِ ، وليلةَ فَخْرِه واحتفاله .

وكثيراً ما يَعترِيه الصُّفار(٧) من بُخَار البحار . وأَنتَ ظاهر التَّمام ، دائمُ الكَمال ، سليمُ الجَوْهَر ، كَريم العُنصُر ، نارىُّ التوقُّد ، هوائىُّ الذِّهن(٨) برِىُّ اللَّون(٩) ، رُوحانىُّ البدن .

وإن احتجُّوا عليك له بالجَزْر والمدِّ ، احتججتَ عليهم بالحلم والعلم ، وبأَنَّ طاعتك اختيارٌ ، وطاعته طباع واضطرار(١٠) ، وبأَنَّ له سِيرةً

---

(١) لم أجد فى المعاجم إلا ؛ « شحب » اللازم . والشحوب : تغير اللون ، والهزال .

(٢) خم يخم بكسر عين المضارع وفتحها ، خماً وخموماً : أنتن . ط ، م : « ويختر » ، ووجه هذه « يخنز » بالنون والزاى ، خنز اللحم أيضاً : فسد وأنتن .

(٣) ما عدا مج ، ش : « شحبة » .

(٤) المحاق بفتح الميم وضمها : ليال ثلاث فى آخر الشهر . ب ، م : « المحوق » ، تحريف .

(٥) ش فقط : « يعلوه الغيم » .

(٦) ب ، م : « وتكسفه ظل » . وفى مج ، ش : « ويكسوه ظل الأرض » . والكسوف والخسوف مشتركان بين الشمس والقمر ، وإن كان الخسوف فى القمر أكثر والكسوف فى الشمس أغلب .

(٧) الصفار : بالضم : صفرة تعلو اللون والبشرة . اللسان (صفر ١٣٤) .

(٨) ما عدا مج ، ش : « هوائى الدهر » .

(٩) برى : مسهل برىء ، وبراءة اللون : صفاؤه ونقاؤه . مج ، ش : « درى اللون »

(١٠) الطباع ، ككتاب ، والطبع والطبيعة ، كلها بمعنى السجية يجبل عليها الإنسان وغيره ط فقط : « طبع » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣١ / ٤ : ٤٥٢ / ٥ : ٤٨ ورسائل الجاحظ ١ : ١٠٤ ، ١١٢ .

قد قُصِرَ عليها ، ومَنازِلَ لا يُجاوزها ، ولا يُمكنه البَدَوات[١] ، وليس فى قُواهُ فضلٌ للتصرُّف[٢] .

على أَنَّ ضِياءَه مستعارٌ من الشَّمس ، وضِياؤك عاريَّةٌ عند جميع الخلْق[٣] . وكم بين المُعِير والمُستعير ، والمتبيِّن والمتحيِّر ، وبين العالِم ومالا خيرَ فيه .

تُعِير نَسِيمَ الهواءِ طِيباً[٤] ، وتُرابَ الأَرضِ عَبَقاً .

إنْ تفتَّيتَ فالرَّشاقة والمِلْح[٥] ، وإنْ تنسَّكتَ فالرَّهبانية والإخلاص[٦] ، وإن ترزَّنت فثَهْلانُ ذُو الهضَبات ما يتحلحل[٧] .

وطِباعُك[٨] ـ جُعِلتُ فِداك ـ طِباعُ الخَمْر ، إلَّا أَنَّك حَلالٌ كلُّك . وجَوهرُك جوهرُ الذَّهب إلَّا أَنَّك رُوحٌ كما أَنت . وقد حَويتَ خِصال الياقوت إلَّا ما زادك الله ، وأَخذْتَ خِصال المُشترِى[٩] إلَّا ما فضَّلك الله به ، وجمعتَ خِلال الدُّرِّ إلَّا ما خُصِصتَ به دونه . فلك من كلِّ

---

(١) البدوات : جمع بداة ، كما يقال قطاة وقطوات . والبدوات : الآراء تظهر للمرء فيختار بعضاً ويسقط بعضاً . ط فقط : « البدار » . مج ، ش : « لا تمكنه » بالتاء .

(٢) ما عدا مج ، ش : « وليس فى قوله » ، تحريف . وفى ط أيضاً : « فضل للتعرف » .

(٣) أى يستعيره جميع الخلق ، لا ضياء لهم إلا منه .

(٤) ب ، م : « يعير » ، ط : « يعيره » ، وفيها جميعاً : « الهوى » ، والوجه ما أثبت . والذى فى مج ، ش : « فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبقاً » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « إن هبت » ، وفى ط فقط أيضاً : « فللرشاقة » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « وإن تمكنت » .

(٧) ب : « يتحلل » ط : « يتخلخل » ، صوابه فى سائر النسخ . يتحلحل : يتحرك ويبرح مكانه . وهو ناظر إلى قول الفرزدق فى ديوانه ٧١٧ :

فادفع بكفك إن أردت بناءنا ثهلان ذا الهضبات ، هل يتحلحل

(٨) يعنى طبعك ، انظر ما سبق فى حواشى ص ٩١ .

(٩) يسميه المنجمون السعد الأكبر ، لأنه فوق الزهرة فى السعادة . وأضافوا إليه الخيرات الكثيرة والسعادة العظيمة . عجائب المخلوقات ٢٥ .

شىءٍ[١] صَفوتُه وشَرَفُه ، ولُبابُه وبهاؤه . وهل يَضِيرُ القَمرَ[٢] نُباحُ الكلب[٣] ، وهل يُزعزِعُ النَّخلةَ سُقوطُ البعوضة ؟ !

فأَمَّا القول فى المِزاح فقد بقِىَ أَكثرُه ومَضَى أقلُّه .

وقد ذهَبَ النَّاسُ فى المِزاح فى مذاهبَ متضادَّة ، وسَلَكوا منه فى طرقٍ مختلفة ، فزعَم بعضُهم أَنَّ جميع المزاح خيرٌ من جميع الجِدِّ ، وزَعم آخرون أَنَّ الخير والشَّرَّ عليهما مقسومانِ ، وأَنَّ الحمدَ والذمَّ بينهما نِصفان[٤] .

وسنأْتِى على جُملِ هذه الأَقاويل ، ثم نذكر جملةَ ما نقول إنْ شاءَ الله .

فأَمَّا المُحامِى عن الهَزْل والمفضِّلُ للمَزْح فإنَّه قال :

أَوَّل ما أَذكرُ من خِصال الهَزْل ، ومن فضائل المَزْح ، أَنَّه دليلٌ على حُسنِ الحالِ وفراغِ البال ، وأَنَّ الجِدَّ لا يكون إلَّا من فضل الحاجة ، والمَزْحَ لا يكون إلَّا من فَضْلِ الغِنَى ، وأَنَّ الجِدَّ نَصَبٌ[٥] ، والْمَزحَ جَمَامٌ[٦] ، والجِدَّ مَبْغَضَةٌ والْمَزْحَ محبَّة . وصاحبُ الجِدِّ[٧] فى بلاءٍ ما كان فيه ، وصاحب المزح فى رخاءٍ إلى أَنْ يَخرُجَ منه .

---

(١) ب فقد : « فى كل شىء » .
(٢) ب : « يغير القمر » م : « يغير القهر » ط : « يغير الفهد » صوابه فى مج ، ش والحيوان ١ : ١٣ .
(٣) مج ، ش والحيوان : « نباح الكلاب » .
(٤) م فقط : « نصفا » .
(٥) ب : « وأن الغضب جد » م ، ط : « وأن النصب جد » ، صوابهما فى مج ، ش.
(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .
(٧) ب ، م : « صاحب الجد » ، بدون واو .

والجِدُّ مؤلم وربَّما عرَّضك لأَشدَّ منه ، والمَزْح مُلِذٌّ(١) وربّما عرّضك لأَلذَّ منه . فقد شاركَه فى التَّعريض للخير والشَّرِّ ، وبايَنَه بتعجيل الخَيْر دون الشَّرّ .

وإنما تشاغَلَ الناس ليَفرُغوا(٢) ، وجَدُّوا ليَهْزِلوا ، كما تذَلَّلوا ليعزُّوا ، وكدُّوا ليستريحوا ، وإنْ كان المِزاح إنَّما صار معيباً ، والهزلُ مذموماً ، لأَنَّ صاحبَه لا يكون إلَّا معرَّضاً لمجاوزة الحَدَّ ، ومُخاطراً بمودّة الصَّديق .

فالجِدُّ داعيةٌ إلى الإفراط ، كما أَنَّ المزاح داعيةٌ إلى مجاوزة القدر والتجاوز للجدِّ(٣) قاطع(٤) بين الفريقين فى جميع النوعين .

فقد ساواه المزح فيما هو له(٥) وبايَنَه فيما ليس له . وإن كان المزْح إنَّما صار قبيحاً لأَنَّ الذى يكون بعده جِدّ، [ولم يَصِر الجدُّ قبيحاً لأَن الذى يكون بعده مَزْح(٦)] ، وكان(٧) الجِدُّ فى هذا الوزن أقبح ، وكان المزح(٨) على هذا التقدير أَحسن، لأَنَّ ما جعل الشىء قبيحاً أَقبحُ من الشَّىءِ ، كما أَنَّ ما جعل الشَّىءَ حسناً أَحْسَنُ من الشىءِ .

فأَمَّا الذى عَدَل بينهما فإنَّه زعمَ أَنَّ المِزاحَ فى موضعه ، كالجدِّ فى موضعه ، كما أَنَّ المنْع فى حقِّهِ كالبذْل فى حقِّه .

(١) ط فقط : « مله » .
(٢) ط فقط : « ليفزعوا »
(٣) ب ، م : « والتجاوز ولجد » ط : « والتجاوز لجد »، صوابهما فى مج ، ش .
(٤) ما عدا مج ، ش : « قالع » .
(٥) ب فقط : « فيما له » .
(٦) ما بين المعقفين ساقط من ب . وفى مج ، ش : « لأن الذى بعده المزح » .
(٧) ب ، م ، ط : « كان » بدون واو .
(٨) ما عدا مج ، ش : « وكان الوزن » ، تحريف .

قال[١] : ولكلِّ شيءٍ موضعٌ ، وليس شيءٌ يصلُح فى كلِّ موضع . وقد قَسَّم الله تعالى الخِيَرة[٢] على المَعْدَلة ، وأجرى جميعَ الأُمور إلى غاية المصْلَحة ، وقسَّط أجزاءَ المثُوبة على العزيمةِ والرُّخصة[٣] ، وعلى الإعلانِ والتَّقيَّة ، وأَمَر بالمداراة كما أَمر بالمباداة[٤] ، وجوَّز المعاريضَ كما أَمَر بالإفصاح ، وسوَّغ المُباحَ كما شدَّد أَمرَ المفْروض[٥] ، وجعل المُباحَ جَماماً للقلوب[٦] ، وراحةً للأَبدان ، وعَوناً على معاودة الأَعمال ، فصار الإطلاقُ كالحَظْر ، والصَّبْرُ كالشُّكر .

فليس للإنسان من الخِيَرَة فى الذِّكر شيءٌ إلَّا وله فى النِّسيان مثلُه ، ولا فى الفِطنةِ شيءٌ إلَّا وله فى الغَفْلة مثله ، ولا فى السَّرَّاءِ إلَّا وله فى الضَّرَّاءِ مثلُه .

ولو لم يرزُقِ الله تعالى العبادَ إلَّا بالصَّواب مَحْضاً ، وبالصِّدق بَحْتاً[٧] ، وبمُرِّ الحقِّ صفحاً[٨] ، لهلَكت العوامُّ ، ولانتقض[٩] أَمرُ الخاصّ .

---

(١) مج فقط : « فقال » .
(٢) مج فقط : « الخير » . والخيرة : الاختيار .
(٣) ط فقط : « وعلى الرخصة » .
(٤) المباداة : المجاهرة . ط فقط : « بالمبادأة » بالهمزة ، تحريف .
(٥) مج ، ش : « فى المفروض » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « وجعل الحمام » ، تحريف . والجمام ، كسحاب : الراحة . ب : « حماماً » م : « حمام » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٧) مج ، ش : « وبالصدق صرفا » .
(٨) الصفح : البسط .
(٩) انتقض : انتكث . ب ، م : « ولا ينقض » ط : « ولم ينقض » ، ووجههما ما أثبت . وفى مج ، ش : « وانتقض » .

ولو ذكَر الإنسانُ كلَّ ما أُنسِيَه[١] لشَقِيَ ، ولَوْ جَدَّ فى كلِّ شىء لانتكث[٢] .

وقد يكون الذِّكر إلى الهَلَكة سُلَّما كما يكون النِّسْيانُ للسَّلامة سبباً . وسبيلُ المزاح والجِدِّ كسبيل المَنْع والبذل . وعلى ذلك يجرى جميعُ القَبْض والبسط .

فهذا وما قبله جُمَلُ أقاويلِ القوم .

ونحنُ نعوذ بالله أن نجعل المزاح فى الجملة كالجدِّ فى الجملة ، بل نزعُم أنَّ بعض الْمَزحِ خيرٌ مِن بعضِ الجِدِّ ، وعامَّة الجِدِّ خيرٌ من عامَّة الهزل . والحقُّ أن يُنضَح[٣] عن بعض المزْح ، ويُحتجّ لجمهور الجِدِّ[٤] . وكيف لنا بذمِّ[٥] جميعِ المزْح مع ما نحن ذاكرون .

وقد مَزَح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم[٦] . ولا يقال : كان فيه مُزاح ، ولا يقال مَزَّاح[٧] . وكذا الأئمَّة ومن تبذَّل[٨] فى بعض الحالاتِ من أهل الحِلْم والوقار .

وقال عمر رضوان الله تعالى عليه : « إنَّا إذا خَلَوْنا كُنَّا كأَحَدِكم » .

وقد كان عُمرُ عبوساً قطوباً .

---

(١) ط فقط : « أتيته » ، تحريف .
(٢) ما عدا مج ، ش : « مما لا تنكث » ، تحريف .
(٣) النضح : الدفاع والذب بالحجة . م : « ينضج » ط : « ينصح » ، محرفتان .
(٤) ط : « ويجنح » .
(٥) ط : « وكيف يتم لنا بذم » م : « وكيف لنا بم » ، صوابهما فى سائر النسخ .
(٦) بعده فى ب ، ط : « وعلى آله » .
(٧) ط فقط : « مزح » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « ومن تبدل لى » ، صوابه فى ط . وفى مج ، ش : « ومن هزل » .

وكان زيادٌ مع كُلوحِهِ وقُطوبِهِ(١) ، يمازِح أهلَه فى الخَلَا كما يَجِدُّ فى الملَا .

وكان الحجّاج مع عُتوِّه وطُغيانه ، وتمرُّدِه وشدَّة سلطانه ، يُمازِح أزواجَه ويرقِّص صِبيانِه . وقال له قائل(٢) : أيمازحَ الأميرُ أهلَه ؟ قال : «والله إنْ تَرَوْنى(٣) إلَّا شيطاناً ؟ والله لربَّما رأيتُنِى وإنِّى لأُقبِّل رِجْلَ إحداهنّ ! » .

فقد ذكرنا خَير العالَمين، وجِلَّةً من خيار المسلمين، وجبّاراً عَنيداً، وكافراً لعيناً .

وبعدُ فمن حرَّم المِزاحَ وهو شُعبةٌ من شعب السُّهولة ، وفَرْعٌ من فروعِ الطَّلاقة . وقد أتانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفيَّة السَّمْحة ، ولم يَأْتِنا بالانقباضِ والقَسْوة ، وأمرنا بإفشاءِ السلام ، والبِشْرِ عند الملاقاة ، وأمَرَنَا بالتوادُدِ(٤) والتَّصافح والتَّهادى .

٧ — فصل

قد اعتذرنا(٥) فى مَعصيتك والخلافِ على محبَّتك مرَّةً بالمزاح ، ومرّة بالنِّسيان ، ومرّةً بالاتكال على عَفْوِك وعلى ما هو أوَلَى بك .

---

(١) الكلوح : التكشر وبدو الأسنان فى العبوس . والقطوب : تزوى ما بين العينين عند العبوس . ب ، م : « وكان زياد معه كلوحة وقطوبة » ، ط : « وكان معه زيادة كلوحة وقطوبة » ، صوابهما فى مج ، ش .

(٢) ب : « قايد » م ، ط : « قائد » ، صوابهما فى مج ،ش . والقائل هذا هو عنبسة ابن سعيد ، كما سيأتى فى الفصل الرابع من كتاب النساء .

(٣) كذا فى جميع النسخ بحذف إحدى النونين ، وهو جائز فى العربية . وفى المغنى فى باب النون : « ونحو تأمرونى يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة . وقد قرىء بهن فى السبعة . وعلى الأخيرة قيل النون الباقية نون الرفع ، وقيل نون الوقاية . وهو الصحيح » .

(٤) كذا بالفك فى جميع النسخ ، و فى مج فقط : « بالتزاور » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « قد اعتدنا » .

والجملةُ(١) أنَّا لو تعمدنا ثم أَصرَرْنا ثم أنكَرْنَا ، لكان فى فَضْلك ما يتغمَّدنا(٢) ، وفى كَرَمك ما يُوجِب التَّغافُلَ عنَّا(٣) . فكيف وإنَّما سَهَوْنا ثمّ تذكَّرنا ، واعتذرنا ثمّ أَطنبنا .

فإنْ تقبل(٤) ، فحظَّكَ أَصبْتَ ، ولنفسك نَظَرت . وإنْ لم تَقبلْ فاجهَدْ جَهْدَك(٥) ، ولا أَبقَى اللهُ عليك إنْ أَبقيتَ ، ولا عفا عنك إنْ عفوتَ . وأَقول كما قال أخو بنى مِنْقر(٦) :

فما بُقْيَا علىَّ تركتُمـــانى ولكنْ خِفْتُما صَرَدَ النِّبالِ(٧)

واللهِ لَئِن رميتَنى ببَجِيلةَ لأَرمينَّك بكِنانة ، ولئنْ نهضْتَ بصالح بن علىٍّ لأَنهضنَّ بإسماعيل بن علىّ(٨) ، ولئن صُلْتَ علىّ بسليمان بن وهب(٩) لأَدمغنَّك بالحَسنِ بنِ وهب ، ولئن تِهْتَ(١٠) علىّ بمنادمة جعفر الخياط(١١)

---

(١) مج ، ش : « وفى الجملة » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ما يتغمده » .

(٣) ما عدا مج ش : « التغافل عنه » .

(٤) ب ، م : « فلم تقبل » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) مج ، ش : « فاجهد جهدك ثم اجهد جهدك » .

(٦) هو اللعين المنقرى . الحيوان ١ : ٢٥٦ واللسان (صرد ٢٣٦ ، بقى ٨٦) .

(٧) البيت من أبيات يخاطب بها جريراً والفرزدق . والصرد : الإصابة ، والخطأ ، فهو من الأضداد . فعلى الأول يراد : خفتما أن تصيب نبالى ، وعلى الثانى يراد : خفتما أن تخطىء نبالكما . والبقيا : الاسم من قولهم : أبقيت على فلان ، : إذا أرعيت عليه ورحمته .

(٨) مج ، ش : « بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن على . وإسماعيل هو ابن على بن عبد الله ابن العباس . وهو عم السفاح والمنصور . ولى لأبى جعفر فارس والبصرة . المعارف ١٦٣ والطبرى ٨ : ٨٥ .

(٩) ابن وهب ساقطة من ب .

(١٠) ب ، م : « بهت » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١١) هو جعفر بن دينار الخياط ، أحد قواد المأمون والمعتصم والمستعين والواثق والمتوكل . وجهه المأمون سنة ٢١٥ إلى صاحب حصن سنان فى حرب الروم . كما وجهه المعتصم سنة ٢٢٢ إلى الأفشين مدداً له . الطبرى ٨ : ٦٢٣ و ٩ : ٢٩ .

لأتيهن(١) عليك بحِسْبة(٢) وهب الدَّلَّال(٣) .

وأنا أرى لك أَنْ تقبل العافية ، وترغب إلى الله تعالى فى السّلامة . واحذَر البَغْيَ فإنَّ مصرَعَه وخيم ، واتَّقِ الظُّلم فإنَّ مَرعاهُ وبيل .

وإياك أَنْ تتعرَّض لجريرٍ إذا هجا ، وللفَرزدقِ إذا فَخَر ، ولهرْثَمَةَ إذا دبرَّ (٤) ، ولقَيْس بنُ زُهيرٍ إذا مكر(٥) ، وللأَغلب إذا كرّ(٦) ، ولطاهرٍ إذا صال(٧) . ومَن عَرَفَ قدْرَه عَرَفَ قدرَ خَصمِه ، ومن جَهِلَ نَفْسَه لم يعرِفْ قدرَ غيره .

وعليك بالجادَّة ودع البُنَيَّات(٨) فإنَّ ذلك أَمثلُ لك .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « لأبهتن » .

(٢) ب : « بجبسة » . تحريف ما أثبت من م ، ط . والحسبة : الاكتفاء ، والمراد بكفايته لى . وفى مج مع تصحيح : « بمجالسة » ، وفى ش : « بجسة » .

(٣) فى البيان ٤ : ١٣ من يدعى وهبا المحتسب .

(٤) هرثمة بن أعين : قائد عباسى ، ولاه الرشيد مصر ثم أفريقية ، ثم عقد له على خراسان ثم قاد الجيوش المأمون أيام الفتنة ، ثم حبسه حتى مات سنة ٢٠٠ . النجوم الزاهرة والطبرى فى حوادث سنة ٢٠٠ .

(٥) قيس بن زهير سيد بنى عبس ، وكان يقال فيه « أدهى من قيس بن زهير » . جمهرة العسكرى ١ : ٥٤٧ والميدانى ١ : ٢٥٠ والمستقصى ١ : ١٢١ .

(٦) الأغلب بن جشم بن سعد بن عجل بن لجيم ، العجلى ، وهو أحد المعمرين ، عمر فى الجاهلية عمراً طويلا ، وأدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه وهاجر ، ثم كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبى وقاص ، فنزلها واستشهد فى وقعة بنهاوند ، فقبره هناك فى قبور الشهداء . وانظر أخباره فى الأغانى ١٨ : ١٦٤ - ١٦٧٩ والشعراء ٥٩٥ .

(٧) طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن حمزة الرستمى ، من ولد رستم بن دستان وهم موالى خزاعة فى الإسلام وإليهم ينتمون ، وقد ندبه المأمون للقاء على بن عيسى بن ماهان قائد الأمين ، فهزم جيشه وفض جموعه سنة ١٩٥ فحينئذ سلم على المأمون بإمرة المؤمنين ، وسمى طاهر ذا اليمينين ، لأن المأمون كتب إليه لما فرغ من أمر المخلوع : يا أبا الطيب ، يمينك يمين أمير المؤمنين ، وشمالك يمين فبايع بيمينك يمين أمير المؤمنين . التنبيه والإشراف ٣٠٠ - ٣٠١ وثمار القلوب ٢٩١ .

(٨) البنيات : جمع بنية ، تصغير ابنة . وبنيات الطريق ، هى الصعاب والمعاسف . يقال للرجل فى الوعظ : الزم الجادة ودع بنيات الطريق . وقال محمود الوراق :

تنكب بنيات الطريق وجورها ... فإنك فى الدنيا غريب مسافر

ثمار القلوب ٢٧٨ . وفى اللسان (بنى ٩٨) أن بنيات الطريق هى الطرق الصغار تتشعب من الجادة ، وتسمى أيضاً الترهات .

وأنت — والله يا أخى — تعلمُ عِلم الاضطرار وعلمَ الاختيار وعلم الأَخبار، أَنِّى [١] أَظهرُ منك حرباً، وأَلطف كيداً، وأَكثر علماً، وأَوْزَن حِلماً، وأَخفُّ روحاً، وأَكرمُ عيناً، وأَقلُّ غَثًّا [٢] وأَحسَنُ قدًّا وأَبعدُ غَورا، وأَجْمَلُ وجهاً، وأَنصع ظرفاً [٣]. وأَكثر مِلْحاً [٤]، وأَنطَقُ لساناً وأَحسَنُ بياناً، وأَجهر جَهارةً، وأَحسن شارة [٥].

وأَنت رجلٌ تشدو من العلم، وتَنتِف من الأَخبار [٦]، وتموِّه نفسَك [٧]، وتُعِزُّ مِن قَدْرِك، وتتهيَّأُ بالثِّياب، وتتنبَّل بالمراكب، وتتحبَّب بحُسْن اللقاء [٨]، ليس عندك إلَّا ذاك. فلِمَ تُزاحِمُ البحرَ بالجداول [٩]، والأَجسامَ بالأَعراض، وما لا يتناهى بالجزءِ الذى لا يتجزَّأُ.

فأَمَّا البادُّ والقامة [١٠]، فمن يَعدِلُ بين القَناةِ والكُرَة، ومن يميِّل بينَ النخلة والدَّقَل [١١]، وبين رَحَى الطحَّان وبين سيفٍ يمان. وإنما يكون التَّمييل [١٢] بين أَتمِّ الخيرين وأَنقَصِ الشرَّين، وبين المتقاربين

---

(١) ب، م: « أى »، صوابه فى سائر النسخ.
(٢) الغث: الردىء من كل شىء. ب: « غشا » ش: « عيبا »، وأثبت ما فى سائر النسخ.
(٣) الناصع: الخالص الواضح. ط فقط: « طرفا ».
(٤) الملح، بالكسر: الحسن. يقال ملح يملح ملوحة وملاحة وملحاً، أى حسن.
(٥) الشارة: الحسن والهيئة واللباس. ط، مج، ش: « إشارة ».
(٦) النتف: الانتزاع. ويقال رجل نتفة، بضم ففتح، ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصيه.
(٧) أصل التمويه الطلاء بالذهب أو بالفضة.
(٨) ما عدا مج، ش: « لحسن اللقا ».
(٩) ما عدا مج: « البحر بالجداول ». والجدول بفتح الجيم وكسرها: النهر الصغير،
(١٠) الباد: أصل الفخذ. ب، م: « فامك الباد والعامة » ط: « فإنك الباد والعامة » صوابهما فى مج، ش.
(١١) ماعدا ب: « يمثل ». والتمثيل بين الشيئين: الموازنة بينهما. وانظر الحيوان ٢: ٩٨، ١٥١ واللسان (ميل ١٦٠). ب، م: « النحلة »، صوابه فى سائر النسخ. والدقل: ضرب من النخل ردىء التمر. ب، م: « والدكل » ط: « والدكلى »، صوابهما فى مج، ش.
(١٢) فى جميع النسخ: « التمثيل »، والوجه ما أثبت.

دونَ المتفاوِتين . فأمَّا الخَلُّ والعَسَل ، والحَصاةُ والجَبَل ، والسّمُّ والغِذاءُ ، والفقرُ والغنى[(١)] ، فهذا مما لا يَخْطأُ فيه الذِّهن[(٢)] ولا يَكذِب فيه الحِسّ .

والخطأُ ثلاث : خطأُ الحِسّ ، وخطأُ الوَهْم ، وخطأُ الرأى . كل ذلك سبيله التنبيه والتذكير[(٣)] ، والتقويم والتأْنيب[(٤)] .

والعَمْد نوعٌ واحد ، وسبيلُه القَمْعُ والحَظْر ، والضَّرب والقتل . وأوّلُ ذلك أنْ يهجره صاحبُ الحكمة[(٥)] ، ولا يُطمعه فى وعظٍ ولا مجالسة .

وقد رأيتَ مَن يعاند الحقَّ إذا كانت المعرفة عِياناً . وأنت لا ترضى بجحد العِيان[(٦)] حتَّى تدعوَ إليه ، ولا ترضى بالدُّعاءِ إليه حتَّى تعاديَ فيه ، ولا ترضى بالعداوة حتَّى يكون لك فى ذلك الرياسة[(٧)] ، ولا ترضَى بالرِّياسة دون السَّابقة[(٨)] ، ولا بالطَّارف دون التَّالد ، ولا بالتَّالد دون الأَعراقِ التى تسرى ، والمواليد التى تَنْمِى . ولا ترضى بأَن يكون أَوَّلًا حتى تكون آخِراً[(٩)] ، ولا بالمداراة دون المباداة[(١٠)] ،

---

(١) ب فقط : « والغنا » .

(٢) هذا ما فى ب . يقال خطئ يخطأ خطأ ، من باب فرح . م ، ط : « يخطى » مسهل أخطأ يخطئ . وفى مج ، ش : « يخطئ » .

(٣) م فقط : « التثنية » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « والتأنيث » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) ش فقط : « أن يهرجه صاحب الحكمة » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « بحجة العيان » .

(٧) مج ، ش : « لك فيه الرياسة » ، وأثبت ما فى م ، ب . وفى ط : « لك الرسالة » وهذه محرفة .

(٨) كلمة « دون » ساقطة من ط . والسابقة : السبق والتقدم .

(٩) ب : « ولا يرضى بأن يكون أولا حتى يكون آخراً » . ومثله فى م مع البدء بقوله : « ولا يرضى » . مج ، ش ، ط : « ولا ترضى بأن تكون أولا حتى تكون آخراً » . ولعل الوجه ما أثبت .

(١٠) المباداة : المجاهرة كما سبق فى

ولا بالجِدال دون القتال. وحتّى ترى أَنَّ التقيَّة حرامٌ[١] وأَنَّ التقصير كُفر.

وحتّى لو كنت إمامَ الرافضة لقُتِلتَ فى طرفةٍ[٢] ولو قُتلتَ فى طرفة[٣] لهلكت الأُمّة، لأَنَّك رجلٌ لا عَقِبَ لك. والإمامةُ[٤] لا تصلح اليوم[٥] فى الإِخْوة، ولو صلحت فى الإِخوة[٦] كانت تصلُح فى ابن العمّ، ثمّ دنت من الأَرحام شيئاً[٧] فصارت لا تصلُح إلّا فى الولد. وفى هذا القياسِ أَنّها بعد أَعوامٍ لا تَصلحُ[٨] إلّا ببقاءِ الإمام نفسه إلى آخر الأَبد. وهذا هو علّة أَصحاب التناسخ[٩]. وأَنت رافضىٌّ ولم يكن هذا عندك.

فأَهدِ إلىّ الآن من خالص التُّوتيا[١٠] كما أَهديت إليك بابَ التناسُخ.

وأَنت ترى القَتْل فى حقِّ المعاندة شهادةً، وترى أَنَّ مُباينةَ

---

(١) التقية: أن يظهر أمراً وباطنه بخلاف الظاهر، يفعل ذلك اتقاء.

(٢) ب: «لو قلت فى طرفة»، م: «لو قلت فى طرفة»، ط: «وكنت فى طرف»، والصواب من مج، ش. والمراد طرفة عين.

(٣) التكملة من مج، ش.

(٤) ب: «والإماة» م: «والإماءة»، والصواب فى سائر النسخ.

(٥) التكملة من مج، ش.

(٦) مج، ش: «ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك».

(٧) ب، م فقط: «لا يصلح»، تحريف.

(٨) مج، ش: «المناسخة».

(٩) ب، م: «فاهد الأن الأن من خالبن التوتيا» ط: «فاهد الآن من لبن التوتيا» صوابهما فى مج، ش. وفى اللسان: «التوتياء معروف حجر يكتحل به». وهو باللاتينية: (Tutia) وبالإنجليزية: (Tuty). وقد عرفها الطبيب محمد شرف بأنها أوكسيد الزنك غير النقى». قال داود: «وأصل التوتيا إما معدنى يوجد فوق الأقليميا ... وإما مصنوع من الأقليميا المسحوقة».

المنصِفين فى تعظيم العُنود سعادة [١] ، وأَنَّ الرياسة فى دَفع الحقائق مَرْتبة ، وأَنَّ الإقرار بما يظهر لِلعيون ضَعَة [٢] ، وأَنَّ الشُّهرة [٣] بالمغالبة رِفعة .

أَظهرُ القوم عندك حجّةً أَرفَعُهم صوتاً ،[وأَخلقُهُم [٤]] للتَّوبة أَصلبُهم وجهاً ، وأَحسنهم تَقيَّةً أَقلُّهم تَحَرُّجاً [٥] ، وأَحسَنُهم إنصافاً أَشدُّهم شَغَباً .

تَعشَق المتهوِّر [٦] ، وتَكْلَفُ بالجَموح ، وتُصافِى الوَقَاح . والأَديبُ عندك مَن يعيب أَحاديثَ الجلساء ، واعترَض [٧] على نوادر الإخوان ، وغَمزَ فى قفا النَّديم [٨] ، ونَصَبَ للعالِم ، وأَبغَضَ العاقل [٩] ، واستثقل الظَّريف ، وحَسَدَ على كلِّ نعمة ، وأَنكَر كلَّ حقيقة .

جُعِلتُ فداك . إنَّما أُخرجُك من شىءٍ إلى شىءٍ [١٠] ، وأُوردُ عليك البابَ بعد الباب ،[لأَنَّ [١١]]من شأْن النَّاس مَلالةَ الكثير ، واستثقالَ الطَّويل وإنْ كثُرَتْ محاسنُه وجَمَّت فوائده . وإنَّما أَردتُ أَن يكون استطرافك للآتى [١٢] قبلَ أَن ينقضِىَ استطرافُكَ للماضى ؛ ولأَنَّك متى

---

(١) العنود ، بالضم : الميل والجور عن القصد . ما عدا مج ، ش : « العمود » .
(٢) ماعدا مج ، ش : « بما يظهر العيون » وفى م أيضاً : « صفة » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « الشهوة » ، تحريف .
(٤) التكملة من مج ، ش .
(٥) ما عدا مج ، ش : « وأحسنهم بغية أقلهم خرجا » ، تحريف .
(٦) مج : « المتهود » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « وأعرض » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٨) كناية عن الغيبة . والغمز : العيب .
(٩) ب ، م : « للعاقل » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٠) م ، ط : « من موسى إلى شىء » ، تحريف .
(١١) التكملة من مج ، ش .
(١٢) مج ، ش : « للتالى » .

كنت للشيء متوقِّعاً ، وله منتظراً[(١)] ، كان أحظى[(٢)] لما يَرِدُ عليك ، وأشهَى لما يُهدَى إليك . وكلُّ منتظرٍ معظَّم ، وكلُّ مأمولٍ مكرّم .

كلُّ ذلك[(٣)] رغبةً فى الفائدة ، وصَبابةً بالعلم ، وكَلَفاً بالاقتباس ، وشُحًّا على نصيبى منك ، وضَنًّا بما أُؤَمِّلُه عندك ، ومداراةً لطِباعِك ، واستزادةً من نشاطك . ولأنَّك على كلِّ حالٍ بَشَر ، ولأنَّك مُتناهى القوّة مدبّر .

٨ - فصــل

والعقلُ - حفظك الله - أطولُ رقدة من العين[(٤)] ، وأحوج إلى الشَّحذ من السَّيف[(٥)] ، وأفقَر إلى التَّعاهُد ، وأسرعُ إلى التغيُّر ، وأدواؤُه أقتَل ، وأطبَّاؤه أقلّ . فمن تداركَه قبل التَّفاقُم أدرك أكثر حاجتِه ، ومن رامَه بعد التَّفاقُم لم يدركْ[(٦)] شيئاً من حاجته .

ومن أكبر أسبابِ العلم كثرةُ الخواطر ، ثُمّ معرفةُ وجوهِ المطالب . [ثمّ[(٧)]]فى الخواطر الغثُّ والسَّمين ، والفاسدُ والصَّحيح ، والمسرعُ إليك والبطيءُ عَنك ، والدَّقيق الذى لا يكاد يُفهَم ، والجليل الذى لا يَلْقى الفَهم . ثم هى على طبقاتها فى التقديم والتأخير ، وعلى منازلها فى التَّبايُن [والتَّمييز[(٨)]] .

(١) مج ، ش : « منتظراً وله متوقعاً » .
(٢) م فقط : « أخطأ » ، محرف .
(٣) ط : « وذلك » .
(٤) ب فقط : « رفدة من العين » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « من الشيب » ، تحريف .
(٦) ب ، م : « ولم يدرك » . والواو مقحمة .
(٧) التكملة من مج ، ش .
(٨) التكملة من مج ، ش .

وللمَطالب طُرق ، ولدَرْك الحقائق أبواب ؛ فمَنْ أخطأها وانتَظَر[١] كان أسوأ حالًا ممّن لم يخطئها ولم يَنتظِر[٢] . وعلى قَدْر صحّة العقل يصحُّ الخاطر ، وعلى قدر التفرُّغِ يكون التنبُّه .

هذا[٣] جِماعُ هذا الكتابِ وجمهرتُه ، وأقسامُه وجملته .

ثُمّ مِن أنفع أسبابه الحِفْظُ لما قد حُصِّل ، والتقييد لما وَرَد ، والانتظار لما لم يرد[٤] ، وأنْ لا تُخْلِيَ نفسَك من الفِكرَة إلّا بقَدْر جَمَام الطَّبيعة ، وأنْ تعلم أنَّ مكان الدَّرس من الحِفْظ كمكان الحِفْظ من العلم ، وأنْ تعرفَ فصْلَ[٥] ما بين طَلبِ العلم للمنافَسَةِ والشُّهرة[٦] ، وبين طلبِه للرَّغبة والرَّهبة ، وتَعلَمَ أنَّ العلم لا يجود بمكنونه ، ولا يسمح بسرِّه ومخزونه ، إلّا لمن رغِبَ فيه لكرم عُنصُرِه ، وفَضَّله لحقيقةِ جوهره ، ورَفَعه عن التكسُّب ، وصانَهُ عن التبذُّل . وأنّه لا يُعطيك خالصَ الحِكمة حتّى تُعطِيَهُ خالص المحبّة . كان يُقال : « مَنْ شابَ شِيبَ له[٧] » .

وخَصْلةٌ ينبغى أن تعرفَها وتقفَ عندها[٨] ، وهو أن تبدأ من العلم

---

(١) ما عدا مج ، ش : « ونظر » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « ولم ينظر » .
(٣) مج ، ش : « هذه » . وجماع كل شيء : مجتمع أصله ، والجامع للأشياء الشامل ما فيها
(٤) ب : « وانتظار كما لم يرد » ، صوابه فى م ، ط . وفى مج ، ش : « والانتظار لما يرد » .
(٥) الفصل : الفرق . ما عدا مج ، ش : « فضل » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « للمناسبة والشهوة » . وفى مج ، ش : « للمنافسة والشهوة » والوجه ما أثبت .
(٧) الشوب : الخلط .
(٨) م : « وخصلة ينبغى أن يعرفها ويقف عندها وهو أن يبدأ من العلم بالمهم ويختار » .. إلخ ، تحريف . وفى مج ، ش : « وخصلة ينبغى أن تعرفها وتصطنعها وتتذكرها وتقف عندها » .

بالمهمِّ ، وتختار من صنوفه ما أنت أَنْشَطُ له [١] ، والطَّبيعةُ به أَعْنَى ؛ فإنَّ القَبولَ [٢] على قَدْرِ النَّشاط ، والبلوغَ فيه على قدر العناية .

ثُمّ من أفضل أسبابه تخليصُ أخلاقه [٣] ، وتمييزُ أجناسه ، والمعرفةُ بأقداره ، حتَّى تُعطَى كلّ معنى حقَّه من التقريب والرِّفعة [٤] ، وقِسطَه من الإبعاد والضَّعَة ، حتَّى لا تتشاغلَ [٥] إلَّا بالسَّمين الثمين ، وبالخطير النَّفيس ، ولا تُلقِيَ إلَّا الغَثَّ الخسيس ، والحقير السخيف . فإنَّك متى كنتَ كذلك لم تعتبِرْ فَضْلَ [٦] ما بين النَّظَرين ، ولا صَرْفَ ما بين النَّعْلين [٧] .

الكَيْسُ كلُّ الكَيس ، والحِذْقُ كلُّ الحذق : أَنْ لا تَعْجَلَ ولا تبطِئَ ، وأَنْ تَعلمَ أَنَّ السُّرعة غير العَجَلة ، وأنَّ الأَنَاةَ خِلافُ الإبطاء . وأَنْ تكون على يقينٍ من دَرْك الحقِّ إذا وَفَّيته شرطه [٨] ، وعلى ثقةٍ من ثَوَاب النَّظر إذا أَعطيتَه حقَّه .

هذا [٩] جملةُ ما للعُذر في هذه المسألة ، وجملةُ الحُجَّة فيما قدَّمنا من الافتنان والإطالة . فإنْ كُنَّا أَصبْنا فالصَّوابَ أردنا ، وإنْ كنَّا أخطأْنا فما ذاك عن فسادٍ من الضمير ، ولا قِلَّة احتفالٍ بالتقصير . ولعلّ طبيعةً

---

(١) ما عدا مج ، ش : « ما أنت أبسط له » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « فإن القول » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « تلخيص » . والتلخيص : التبيين والشرح .
(٤) ما عدا مج ، ش : « حتى يعطى كل معنى حقه من التقرب والرفعة » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « حتى لا يتشاغل » .
(٦) ش : « لم تميز فصل » ، مج : « لم تميز فضل » .
(٧) ط ، مج ، ش : « ولا فرق ما بين النعتين » . والصرف : الزيادة والفضل .
(٨) ب فقط : « أوفيته » .
(٩) مج ، ش : « هذه » .

خانت ، أَو لعلّ عادةً جذبَت[١] ، أَو لعلّ سهواً اعترض ، أَو لعلّ شُغلًا مَنَع .

خفِّض عليك أَيُّها السامع ، فإِنَّ الخطأَ كثير عامّ[٢] ، وغالبٌ مُسْتَوْلٍ ، والصَّوابَ قليلٌ خاصّ ، ومقموع مُسْتخفٍ .

فوجِّهِ اللائمةَ إِلى أَهلها ، وأَلْزِمْها مَنْ هو أَحقُّ بها ، فإِنَّهم كثير ومكانهم مشهور[٣] .

اعجبْ من الصَّواب لا تعجَبْ من الخطأ . اعجبْ من أَنَّ العجبَ قد ذهب . اعجبْ ممن تعجَّبَ وفيه العَجَب أَعجب . وكيف التعجُّبُ والأُمور كلُّها عَجَب[٤] ؟!

كنت[٥] أَتعجَّبُ من كلِّ فعل خرج من العادة ، فلمَّا[٦] خرجت الأَفعالُ بأَسرها من العادة صارت[٧] بأَسرها عجباً ، فبدخولِ كلِّها فى باب العَجَب خرجَتْ بأَجملها من باب العَجَب .

وقد ذكر[٨] الله تعالى ذكرُه التعجُّبَ فى كتابه جلَّ جلاله . وقد تعجَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آلِه فى زمانِه ، وفى الناس

---

(١) مج ، ش : « أو لعل علة حدثت » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « كبير عام » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « ومكانك مشهور » .
(٤) هذه الفقرة كلها ليست فى مج ، ش . وهى نص ما فى م ، ط . لكن فى ب : « أعجب الصواب لا تعجب وفيه العجب أعجب . وكيف التعجب والأمور كلها عجب » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « كيف » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « كما » .
(٧) من العادة ، ساقطة من ط . وفى ب ، م : « سارت » ، وفى ط : « وسارت » ، تحريف .
(٨) ماعدا مج ، ش : « وقد ذكرنا » ، تحريف .

يومئذ النَّاقصُ والوافر ، والمشُوب والخالص ، والمستقيم والمعوَجّ . وقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ قَوْلُهم[١] ﴾ ، وقال له[٢] : ﴿ بَلْ عجِبْتَ ويَسْخَرُون[٣] ﴾ .

واعلمْ أنَّه لم يبقَ من المتعجِّب الفاتك[٤] إلَّا نصيبُ اللِّسان ، ولا من المستمِع الفاتك[٥] إلَّا حِصَّة السَّمع . فأَمَّا القلوب فخاوية قاسية ، وراكدةٌ خامدة ، لا تَسمع داعياً ولا تُجيب سائلًا ، قد أغفلها سوءُ العادة[٦] ، واستولَى عليها سُلطان السَّكرة[٧] .

فدعْ عنكَ ما لست مِثلَه[٨] ، فإنَّ فيما أُورده عليك شغلًا شاغلًا[٩] ، وهمًّا داخلًا .

اعلمْ أنَّ الله تعالى قد مسخَ الدنيا بحذافيرها ، وسَلَخَها من جميع معانيها . ولو مَسَخها كما مسخ بعض المشركين قِرَدةً ، أو كما مسخ بعض الأُمَم خنازيرَ ، لكان قد بقَّى بعضَ أُمورها ، وحبس عليها بعضَ أَعراضها ، كبقيَّة ما مع القرد في ظاهِرِه[١٠] من شَبَه الآدمىّ ، وبقيَّةِ ما مع الخنزير

---

(١) الآية ٥ من سورة الرعد .

(٢) له ، ساقطة من مج ، ش ، ط .

(٣) الآية ١٢ من سورة الصافات .

(٤) الفاتك : كل من يهجم على الأمور العظام غير مبال بما يفعل ، وأصل الفتك القتل مجاهرة . ما عدا مج ، ش : « القائل » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « القائل » .

(٦) أغفلها : جعلها غافلة .

(٧) السكرة : حالة بين العقل وعدمه ، وغلبة اللذة على الشباب . ما عدا مج ، ش « السكر » .

(٨) مج ، ش : « ما لست منه » .

(٩) ما عدا مج ، ، ش : « وعليك شغلا شاغلا » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « فى ظاهرة » ، تحريف .

فى باطنِه من شبه البشرىّ [١] . لكنّه جل ذكره مسخَ الدُّنيا مسخاً متتبّعاً ، ومُستقصًى مستفرَغاً ، فَبَيْنَ حَالَيْها [٢] جميعُ التضادّ ، وبين مَعنَيَيْها [٣] غايةُ الخلاف .

فالصوابُ اليومَ غريب ، وصاحبُه مجهول . والعجب ممن [٤] يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ، فإنْ صرتَ عليه عوناً مع الزّمان قتلتَه ، وإن أمسكت عنه فقد وفّرته [٥] .

ولسنا نُريد منك النُّصرة ولا المعونة ، ولا التأنيسَ ولا التعزية [٦] . وكيف أطلب منك ما قد انقطع سبَبُه ، واجتُثَّ أصلُه . وقد كان يقال : « مَنْ طلب عيباً وجدَه » .

هذا فى الدهر الصَّالح دون الفاسد . فإنْ أنصفْتَ فقد أغْرَبت ، وإنْ جُرتَ فلم تَعْدُ ما عليه الزّمان .

وهَبَ الله لنا ولك الإنصاف ، وأعاذنا وإيَّاك من الظُّلم . والحمد لله كما هو أهلُه ، ولا حولَ ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم [٧] .

وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى أنبيائه عامة ، وسلَّمَ .

---

(١) م ، ط : « البشر » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « حاليهما » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « معنييهما » .
(٤) ما عدا مج ، ش : « من » .
(٥) مج ، ش : « رفدته » .
(٦) م : « ولا التأنيث ولا التغرية » ، تحريف .
(٧) العلى العظيم ، من ب فقط . وبدل هذا فى كل من مج ، ش : « وهو حسبنا ونعم الوكيل والمعين » ، كما أن عبارة الصلاة والتسليم التالية ليست فيهما .

٤

من رسالة في

مَدْح النَّبيذ وصِفَةِ أصْحابه

إلى الحسن بن وهب

فصــل
من صدر رسالته إلى الحسن بن وهب(١)
فى مـدح النبيذ وصفة أصحـابه

أَنا ــ أَبقاك الله ــ الطالبُ المشغول ، والقائل المعذور ، فإِنْ رأَيتَ خطأً فلا تنكر فإِنِّى بصَددِه وبعَرَضٍ منه ، بل فى الحال التى تُوجبه(٢) ، والسَّببِ الذى يؤدِّى إليه . وإِنْ سمعتَ تسديداً فهو الغريب الذى لا نجده(٣) . اللهم إِلَّا أَن يكون من بركة مكاتبتك ، ويُمن مطالبتك . ولأَنَّ ذكرك يَشْحَذ الذِّهن ، ويصوِّرك فى الوهم ، ويَجلُو العقل ؛ وتأْميلك ينفِى الشُّغل .

ولا يُعجبنى ما رأَيتُ من قلَّة إطنابك(٤) فى هذا النَّبيذ ، وقلَّة تلهِّيك بهذا الشرابِ وأَنت تجد من فَضْل القول وحُسْن الوصف مالا يُصاب عند خطيبٍ ، ولا يُوجَدُ عند بليغ . وأَنت ولو مَشَيتَ الخُيَلاءَ ، وحَقَّرت العظماءَ ، وأَرغَبْتَ الشعراءَ ، وأَعطيتَ الخطباءَ ، لِيكونَ القولُ منهم موصولًا غير مقطوع ، ومبسوطاً غير مقصور ، لكنتَ بعدُ مقصِّراً فى أَمره ، مفرِّطاً فى واجِب حقِّه . فلا تأْديبَ اللهِ قَبِلتَ ، ولا قولَ الناصح سَمِعت .

---

(١) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين، كاتب شاعر ، كان معاصراً لأبى تمام والبحترى ،ومحمد بن عبد الملك الزيات . وقد رثاه البحترى بعد وفاته ، فوات الوفيات ١ : ٢٦٧-٢٦٩ . وفى سنة ٢٢٩ يذكر الطبرى أن الخليفة الواثق ألزمه فيمن ألزمهم من الكتاب أن يؤدى أربعة عشر ألف دينار ، كما ألزم أخاه سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أن يؤدى أربعمائة ألف دينار .

(٢) ب : « يوجبه » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) ط : « لا تجده » بالتاء .

(٤) الإطناب : المبالغة فى المدح أو الذم . والمطنب : المداح لكل أحد . ب : « أظنائك » تحريف ، وفيها أيضاً : « ولم يعجبنى » .

قال الله تبارك وتعالى[١] : ﴿وأَمَّا بِنِعْمَةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ[٢]﴾. وقال الأَوَّل : « استدِمِ النِّعمة بإِظهارها ، واستَزِدْ الواهبَ بإِدامة شكره[٣] ».

بل كيف أَنِستَ بالجلساءِ[٤] ، وأَرسلتَ إِلى الأَطبَّاء ولم يكن فى قربك [منه[٥]] ما يغنيك ، وفى النظر إِليه ما يَشفيك ؟ ولِمَ ملكتَ نفسَك دون أَن تهذِىَ[٦] ، ولم رأَيت الوقارَ مُروءَةً قبل أَن تستخِفّ[٧] ولم كان الهذيانُ هو الهذيان ، والسُّخف هو المروءة ، والتَّناقض هو الصِّحّة وإِلَّا بأَىّ شيءٍ خُصصتَ[٨] ، وبأَىٍّ معنًى أُتيتَ ، [٩] ولِمَ لمْ تخلع فيه العِذار ، ولم تخرج فيه عَنْ كل مقدار[١٠] .

وأَىُّ شيءٍ أَجْرَبَ جِلدَك وأَماتَ حالك ، وأَضعف مَسرَّتك[١١] ، وأَوحش منك رفيقَك ، إِلَّا العقوبةُ المَحْضة ، وإِلَّا الغضبُ والعقاب ، وحرمك الثَّوابَ إِلَّا التهاونُ فى أَمره ، وقلَّةُ الرِّعاية لحقِّه .

وكيف صارت أَمراضى أَمراضَ الأَغنياءِ وأَمراضُك أَمراضَ الفقراءِ إِلَّا لمعرفتى بفضله ، واستخفافِكَ بقَدْره . أَلا تَرَى أَنِّى مُنقرِسٌ مفلوج ، وأَنت أَجْرَبُ مَبْسور[١٢] .

---

(١) بدله فى ط : « سمعت قول الله تبارك وتعالى » بتكرار «سمعت» .
(٢) الآية ١١ من سورة الضحى.
(٣) ط : «المواهب بإدامة شكرها» .
(٤) ب ، م : «أيست بالجلساء» ، تحريف .
(٥) التكلة من م .
(٦) ب ، م : « أن تهدى » بالدال المهملة .
(٧) ب : « تستخفى » .
(٨) ب ، م : « خصصته » .
(٩) ب ، م : « أتيته ».
(١٠) ب ، م : « من كل مقدار » .
(١١) ب ، م : « وضعف مسرتك » .
(١٢) المبسور : من به البواسير . والباسور : علة تحدث فى المقعدة . وفى جميع النسخ : « مستور » ، ولا وجه له .

فإنْ تُبْتَ فما أَقرب الفَرَج ، وأَسرعَ الإجابة . وسنفرُغ لك إنْ شاءَ الله قريباً ، وتفلح سريعاً .

وإنْ أَصررْتَ وتتايعت وتماديتُ[1] أَتاك والله من سَفِلة الأَدواء ، وزُوِىَ عنك من عِلْية الأَمراض ، ما يضعُك موضعاً لا ارتفاعَ معه ، ويُلزِق بعَقِبك عاراً لا زوالَ له. ثم تُتبِعُ أَشياخك السُّبَّة، وتُتبِعُهم المَذَمّة .

عَلِمَ اللهُ أَنَّه استظْرَفَك واستملحك ، واستَحْسَن قَدَّك ، واسترجح عَقْلَك ، وأَحسَنَ بك ظنًّا ، ورآك[2] لنفسِهِ أَهْلًا ، ولاتِّخاذه موضعاً ، وللأُنس به مكاناً ، وأَنت لاهٍ عنه زارٍ عليه ، متهاونٌ به ، قد أَقبَلْتَ على ديوانك تُشغَل بملازمته ، وتَدعُ ما يجب عليك من صِفاته ، والدُّعاءِ إلى تعظيمه . بلْ هل كنتَ من شِيعته والذابِّين عن دَوْلته ، والمعروفين بالانقطاع إليه ، والانبتات فى حبله[3] ، إلَّا أن يكون عندك التقصيرُ لحقِّه ، والتَّهاونُ بـأَمرِهِ اللازِم ، ونَهْيُ الناس عنه .

ولو خرجتَ إلى هذا لخرجتَ من جميع الأَخلاق المحمودة ، والأَفعال المرضية . وأَحسَب أَنَّك لا تعظِّمه ولا ترقُّ له . ولو لم تتعصَّب إلَّا لجماله وحسنه ، ولو لم تُحافظ على نقائه وعِتْقه لكان ذلك واجباً ، وأَمراً معروفاً . فكيف مع المناسبةِ التى بينكما ، والشَّكلِ الذى يجمعكما . فإنْ كان بعضُك لا يصون بعضاً وأَنت لا تعظِّم شقيقاً ، فأَنت والله من حِفْظِ العشيرة أَبْعَدُ ، ولمعرفة الصَّديقِ أَنكر .

ولقد نعيت إلىّ لُبّك ، وأَثكَلْتَنى حِفاظَك[4] ، وأَفسدت عندى كلَّ

---

(١) التتايع : التهافت فى الشر ، والوقوع فيه . ب ، م : « تتابعت » ، صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « وزادك » ، صوابه فى ط .

(٣) الانبتات : الانقطاع . والمراد به الملازمة وتوثق الصلة .

(٤) أثكله الأمر : جعله يفقده ، يقال أثكلها الله ولدها ، وأثكله الله أمه ، إذا أصابهما بفقدهما . ب : « أتكلتنى » صوابه فى ط ، م .

صحيح . وقد كان يقال : « لا يزال النَّاس بخيرٍ ما تعجَّبُوا من العَجَب ».
قال الشاعر[١] :

وهُلك الفتى أَنْ لا يَرَاحَ إلى النَّدَى وأَن لا يرى شيئاً عجيباً فيَعْجَبا

قال بكر بن عبد الله المُزَنيّ[٢] : « كنا نتعجَّب من دهرٍ لا يتعجَّب أَهلُه من العجب فقد صرنا فى دهرٍ لا يَستحسِنُ أَهله الحَسَن . ومَن لا يستحسِن الحَسَن لم يستقبح القبيح » .

وقال بعضهم : « العَجب تَركُ التعجُّب من العَجَب » .

ولم أَقُلْ ذلك إلَّا لأَن تكون به ضنيناً[٣] ، وبما يجب له عارفاً . ولكنَّك لم توفِّر حقَّه ولم توفِ نصيبه[٤] .

فإن قلت : ومَنْ يقضِى واجبَ حقِّه ، ويَنتهِضُ بجميع شكره ؟ قلنا : فهل أَعذَرْتَ فى الاجتهاد حتَّى لا يُذمَّ إلَّا تعجُّبُك ، وهل استغرقْتَ الاعتذارَ حتَّى لا تعابَ إلَّا بما زاد على قوّتك . ولولا أَنك عين الجَوَاد[٥] لم نطلبْهُ منك . ولولا ظَنُّك[٦] لم نَحْمَدْك عليه . ولولا معرفتُك

(١) هو حارثة بن بدر الغدانى ، كما فى الحيوان ٣ : ٨٠ والبيان ٣ : ٢١٩ والأغانى ٢١ : ٣١ وأمالى المرتضى ١ : ٣٨٨ ويقال إن حارثة قد تمثل به . ونسب فى معجم البلدان ٢ : ٢٥٤ إلى عمرو بن النعمان البياضى . وانظر أمالى الزجاجى ٣٠ .

(٢) بكر بن عبد الله المزنى : نسبة إلى مزينة ، أبو عبد الله البصرى ، ثقة ثبت . مات سنة ست ومائة . تقريب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ . وفى جميع النسخ : « المرى » ، صوابه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ٥٠٨ - ٧ : ٢٠٢ ، ٢٥٤ . ولبكر هذا أقوال مأثورة فى مواضع كثيرة من البيان والتبيين . وكان من النساك والزهاد من أهل البيان .

(٣) ب : « ظنينا » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ط : « ولم تعرف نصيبه » .

(٥) عين الجواد ، أى نفسه ، والمراد الجواد الكامل ، الجامع لأسباب السخاء ، وفى الحماسة ١٦٩١ بشرح المرزوقى ، قول عبد العزيز بن زرارة الكلابى :

فإلا أكن عين الجواد فإننى على الزاد فى الظلماء غير شتيم
وإلا أكن عين الشجاع فإننى أرد سنان الرمح غير سليم

ب : « عين الجوار » ط : « عين الجود » . والضمير فى « لم نطلبه » عائد إلى النبيذ المفهوم من الكلام .

(٦) م : « ضنك » .

بفَضْله لم نعجب من تقصيرك فى حقِّه ، ولولا أَنَّ الخطأَ فيك أَقبح ، والقبيحَ منك أَسمج ، وهو فيك أَبْيَنُ والنَّاسُ به أَكلف(١) ، والعيونُ إِليه أَسرع — لكان كتابُنا كتابَ مُطالبة ، ولم يكن كتاب معاتبة ، ولشَغَلنا الحِلمُ لك عن الحلم عليك ، والقولُ لك عن القول فيك .

وقد كنتُ أَهابك بفضلِ هيبتى لك ، وأَجترئُ عليك بفَضْل بَسْطِك لى ، فمنعنى حِرصُ الممنوع ، وخوفُ المشْفق ، وأَمْن الواثق ، وقناعة الراضى .

وبعد فمن طَلب مالا يُجاد به ، وسَأَل مالا يُوهَب مثلُه ممَّن يجود بكلِّ ثمين ، ويَهَبُ كلَّ خطير ، فواجبٌ أَن يكون من الردِّ مشفِقاً ، وبالنُّجح مُوقِناً .

وإِن كان ، أَبقاك الله(٢) ، أَهلًا لأَن يُمنَع ، وكنتَ حفظك الله أَهلًا أَن تَبذُل ، وجب أَن تكون(٣) باذلًا مانعاً ، وساكناً مطمئنًّا ، إِلَّا أَن يكون الحرب سِلماً سِجالًا ، والحالاتُ دُوَلا .

ولهذه الخصالِ ما وقع الطَّلَب ، وشاع الطمع .

فإِنْ منعتَ فعذرك مبسوطٌ عندَ من عرف قدره(٤) ، وإِنْ بذَلتَ فلم تَعْدُ الذى أَنت أَهلُه عند من عرف قَدْرَك ، إِلَّا أَنَّه لا يجودُ بمثله إِلَّا غنىٌّ عند جميع الناس ، أَو عاقلٌ فوق جميع الناس .

وكيف لا أَطلُبُ طلبَ الجرىءِ المتهوِّر ، وأُمسك إِمساكَ الهائب

---

(١) م ، ط : « فيه أكلف » .
(٢) فى جميع النسخ : « أبقاه الله » ، والوجه ما أثبت .
(٣) ب ، ط : « يكون » .
(٤) ط : « قدرك » . والمراد قدر النبيذ .

الموقِّر. وليس في الأَرض خَلْقٌ يُغتَفَر [١] في وصفه المحالُ ولا يُستحسَنُ الهذَيانُ سواه ؟ !

على أَنَّ مِن الهذيان ما يكون مفهوماً، ومن المحال ما يكون مسموعاً [٢].

فمن جهِلَ ذلك ولم يعرفْه، وقصَّر ولم يبلغْه [٣]، فلْيسمعْ كلامَ اللَّهْفان والثَّكلان، والغَضْبانِ والغَيْران، ومرقِّصةِ الصِّبيان، والمُنْعِظِ [٤] إذا دنا منه الحَلَق.

حتَّى إذا استوهَبَك لم تهبْ له منه [٥] حتَّى تقفَ وقفة، وتُطرِقَ ساعة [٦]، ثم تستحسن وتستشير، ثم تشفِّع [٧] على مُستوهِبه، وتُعجِّبَ من شارِبِه، ثم تُطيلَ الكتاب بالامتنان، وتُسطِّر فيه بتعظيم الإنعام مع ذكر مناقبه، ونَشْر محاسنه [٨] بقدر الطاقة. وإنْ لم تبلغ الغاية فاعرِفْ وزْنَه، واشهدْ بطيبه، وأَرِّخْ ساعته [٩]، واشهَرْ في النَّاس يومَه [١٠].

وما ظنُّك بشيءٍ لا تقدر أَن تشرد في ذكره [١١] وتفرِّطَ في مدحه،

---

(١) ب، م : «يفتقر».
(٢) ما يكون، ساقطة من ب، م.
(٣) ب فقط : «فلم يبلغه».
(٤) ب : «المنفظ» م : «والمنفط» ط : «والمتعظ» صوابهما ما أثبت. والحلق : الذى فسد عضوه فانعكس ميل شهوته. وهو من ألفاظ المولدين. وانظر شفاء الغليل ص ٧٠ والحيوان ١ : ٢٢٥ — ٣ : ١٦٦. وفى جميع النسخ : «والحلق»، والواو مقحمة.
(٥) ب، م : «وحتى واتاك أن يهب لى منه» وليس له وجه. وأثبت ما فى ط.
(٦) ط : «وتطرقه ساعة».
(٧) فى جميع النسخ : «تشفع».
(٨) ب، م : «وبشر محاسنه».
(٩) فى جميع النسخ : «وأرح» بالحاء المهملة.
(١٠) فى جميع النسخ : «وأشهد» بالدال.
(١١) الشرود : الذهاب والهرب. م، ط : «تسرد فى ذكره».

وتقصيرك واضح فى لونه[١] ،مكتوب فى طعمه[٢] ، موجودٌ فى رائحته[٣] ، إذْ كان كلُّ ممدوح يقصُر عن مدحه وقدره ، ويَصغُر فى جنبه .

ولو لم يُستدَلّ على سعادة جَدِّك ، وإقبالِ أَمرك ، وأَنَّ لك زِىَّ صِدْقٍفى[٤] المعلوم ،وحَظًّا[٥]فى الرِّزق المقسوم ، وأَنَّك ممن تبقى نِعمُه ، ويدومُ شكره ، ويَفهم النِّعمة ويَرُبُّها[٦] ، ويدْرأُ عنها ويَستديمُها[٧] ، إلَّا أَنَّه وقع فى قَسْمك ، وكان فى نصيبك — لكان ذلك أَعظمَ البرهان ، وأوضحَ الدلالة .

بل لا نقول : إنَّه وقع اتفاقاً وغَرْساً نادراً ، حتَّى يكون التَّوفيق هو الذى قصد به ، والصُّنعُ هو الذى دلَّ عليه .

ولو لم تملكْ غيره لكنتَ غنيًّا ، ولو ملكت كلَّ شيءٍ سواهُ لكنت فقيراً . وكيف لا يكون كذلك وهو مُستراحُ قلبِكَ ، ومَجالُ عَقلك ، ومرتَعُ عينك[٨] ، وموضعُ أُنسك ، ومُستنبَط لذَّتك ، وينبوعُ سرورك ، ومِصباحُك فى الظَّلام ، وشِعارك من جميع الأَقسام .

وكيف وقد جمع أُهبة الجَلال ، ورشاقة الخِلال ، ووقار البَهاءِ ،

---

(١) فى الأصول : « فى كونه » .

(٢) ب : « مكثور فى طعمه » م : « مكثوب فى طعمه » ط : « مكتوباً فى طعمه » ، ولعل الوجه ما أثبت .

(٣) ط فقط : « موجوداً » بالنصب .

(٤) ب ، م : « ذى صدق » ، تحريف . والزى : اللباس والهيئة والمنظر ، وأصله زوى ، تقول منه زييته ، والقياس زويته .

(٥) ب : « وخطا » م : « وخطأ » ، صوابهما فى ط .

(٦) رب النعمة : حفظها ورعاها . وفى الحديث : « لك نعمة تربها » . ط فقط : « تربيها »

(٧) ب ، م : « ويذرعنها » ، صوابه فى ط .

(٨) يرتع : يلهو ويلعب وينعم . وفى الأصول : « ومربع عينك » ، والوجه ما أثبت. ومنه قول المتنبى :

حشاى على جمر ذكى من الهوى وعيناى فى روض من الحسن ترتع

وشَرَف الخير [١] ، وعزّ المجاهَرَة [٢] ولذّة الاختلاس ، وحلاوةَ الدَّبيب [٣] .

وسأَصف لك شَرَفَ [٤] النبيذِ فى نفسه ،وفضيلتَه على غيره ، ثم أَصِفُ فَضْل شرابك على سائر الأَشربة ، كما أَصِفُ فضلَ النَّبيذ على سائر الأَنبذة ؛ لأَنَّ النبيذ إذا تمشَّى فى عظامك ، والتبسَ بأَجزائك ، ودبّ فى جَنَانك ، مَنَحكَ صِدقَ الحسِّ ، وفَراغَ النفس ، وجعلَكَ رخىّ البال ، خلىّ الذَّرع [٥] ، قليل الشَّواغل ، قريرَ العين ، واسعَ الصَّدر ، فَسيح الهِمم [٦] حسنَ الظنّ . ثم سَدَّ عليك أَبوابَ التُّهم ، وحسّن دونَك الظَّنّ وَخواطر الفهم [٧] ، وكفاك مَئُونة الحِراسة ، وأَلمَ الشَّفقة ، وخَوف الحَدثَان ، وذُلّ الطمع وكَدَّ الطلب [٨] ، وكلَّ ما اعترضَ على السُّرور وأَفسَدَ اللَّذَّة ، وقاسَمَ الشهوة ، وأَخلَّ بالنعمة [٩] .

وهو الذى يردُّ الشُّيوخ فى طبائع الشُّبّان ، ويَرُدُّ الشُّبّانَ فى نَشاط الصِّبيان ، وليس يخاف شاربُه [١٠] إلَّا مجاوزةَ السُّرور إلى الأَشر ، ومجاوزةَ الأَشَر إلى البطر .

---

(١) م فقط : « الخيل » ، تحريف .
(٢) ط فقط : « المجاهدة » ، والوجه فى ب ، م .
(٣) أصل الدبيب المشى على هينة ، واستعمل مع الاختلاس فى معانى التوصل إلى المعشوق فى خفية . وفى جميع الأصول : « الزبيب » .
(٤) ب : « شرب » ، تحريف .
(٥) الذرع : الطاقة والوسع . م : « على الذراع » تحريف ، وفى ب : «خالى الذرع» ، وأثبت ما فى ط .
(٦) ب ، م : « الهم » .
(٧) ب ، م : « الظن خواطر الفقه » .
(٨) م : « وكد الطلب » .
(٩) ب ، م : « واختل بالنعمة » .
(١٠) ب : « نجاة شاربه » م : « نجات شاربه » ، صوابهما فى ط .

ولو لم يكن من أَياديه ومِنَنِهِ ، ومن جميل آلائه ونِعَمِه [١] ، إلَّا أنَّك ما دُمتَ تمزُجه بُروحك ، وتُزاوِج بينه وبين دَمِكَ فقد أعفاك من الجد ونَصبِه ، وحبَّب إليك المزاحَ والفكاهة ، وبغَّض إليك الاستقصاءَ والمحاولة ، وأَزال عنك تعقُّد الحِشْمة وكدَّ المروءة ، وصار يومُه جمالًا لأَيَّام الفكرة ، وتسهيلًا لمعاودة الرَّوِيّة [٢] ، لكان فى ذلك ما يوجب الشُّكر ، ويُطيب الذكر [٣] . مع أَنَّ جميع ما وصفناه وأَخبرنا به عنه يقوم بـأَيسر الجرم [٤] ، وأَقلّ الثمن .

ثم يعطيك فى السَّفَر ما يُعطيك فى الحضَر ، وسواءٌ عليك البساتينُ والجِنَان [٥] . ويَصلحُ بالليل كما يصلُح بالنهار ، ويَطيب فى الصَّحو كما يطيب فى الدَّجْن ، وَيَلَذُّ فى الصيف كما يَلَذُّ فى الشتاء ، ويجرى مع كلِّ حالٍ . وكلُّ شىءٍ سواهُ فإنَّما يصلُح فى بعض الأَحوال .

ويدفع مَضَرّة الخُمار ، كما يَجلب منفعةَ السُّرور .

إن كنتَ جذلًا [كان [٦]] بارًّا بك ، وإن كنت ذا همٍّ نفاهُ عنك .

وما الغيثُ فى الحرث بـأَنفَعَ منه فى البَدَن ، وما الرِّيش السُّخَام [٧] بـأَدفأَ منه للمقرور [٨] .

---

(١) ب ، م : « بلائه ونعمه » .

(٢) الروية : التفكر فى مهل . ب ، م : « الرؤية » .

(٣) م ، ط : « ويطنب الذكر » . والإطناب : الإطالة .

(٤) الجرم ، بالفتح : الكسب .

(٥) البستان : جنينة فيها نخيل متفرقة ، معرب . والجنة : الحديقة ذات النخل والشجر .

(٦) التكملة من ط . والجذل : الفرح .

(٧) السخام ، كغراب : اللين الحسن ، أو ما كان ليناً تحت الريش الأعلى . وفى جميع الأصول : « السجام » ، صوابه ما أثبت .

(٨) المقرور : الذى أصابه البرد . م : « بأذنى منه » تحريف .

ويُستمرأ به الغِذاءُ(١) ويدفع به ثِقَل الماء ، ويُعالَج به الأدواء ، ويحمرُّ به الوجنتان ، ويُعدَل به قضاءُ الدَّين .

إن انفردتَ به ألهاك ، وإن نادمت به سوّاك .

ثم هو أصنع للسُّرور من زلزل(٢) ، وأشدُّ إطراباً من مُخارِق(٣) ، وقدر احتياجهما إليه كقدر استغنائه عنهما ؛ لأنَّه أصل اللذات وهى فرعُه ، وأوّل السرور ونتاجُه .

ولله درُّ أوّلٍ من عمِله وصنعَه(٤) ، وسَقيًا لمن استنبطه وأظهره . ماذا دبَّر ؟ وعلى أىّ شيءٍ دَلّ ؟ وبأىٍّ معنًى أنعم ؟ وأىَّ دفينٍ أثار ؟ وأىّ كنزٍ استخرج .

ومِن استغناء النَّبيذ بنفسه ، وقلَّة احتياجه إلى غيره ، أنَّ جميع ما سواه من الشراب يُصلحه الثَّلج ، ولا يَطيبُ إلَّا به .

وأوّلُ ما يُثْنَى عليه به ، ويُذكَر منه(٥) ، أنَّه كريم الجوهر ، شريفُ النَّفس ، رفيع القدر ، بعيد الهَمّ . وكذلك طبيعته المعروفة(٦) وسجيَّته الموصوفة . وأنَّه(٧) يسرُّ النفوس ويحبِّب إليها الجُود ، ويزيِّنُ لها الإحسان ، ويرغِّبُها فى التوسُّع ، ويُورِثُها الغنى ، ويَنفِى عنها الفقر ،

---

(١) م : « ويستمرى » بالتسهيل .

(٢) زلزل ، بفتح الزاءين : مغن ضارب بالعود يضرب به المثل ، وإليه تضاف بركة زلزل ببغداد ، تعلم على إبراهيم الموصلى ، وله أخبار مع هارون الرشيد مذكورة فى الأغانى .

(٣) مخارق : أحد كبار المغنين فى الدولة العباسية ، غنى لهارون والمأمون والأمين والمعتصم والواثق . وأخباره مسهبة فى الأغانى .

(٤) ب : « أول من صنعه » ، فقط .

(٥) م ، ط : « ماتثنى عليه به » وفى ط أيضاً : « ونذكر منه » .

(٦) طبيعته ، ساقطة من ب ، م .

(٧) ب ، م : « وأن » .

ويملؤها عزًّا ، ويَعِدُها خيراً ، ويحسِّنُ المسارّة (١) ، ويصيرَ به النَّبتُ خِصْباً والجنابُ مَرِيعاً (٢) ، ومأْهولًا مُعْشباً .

وليس شيءٌ من المأْكول والمشروب أَجمعَ للظُّرفاء ، ولا أَشدَّ تـأَلُّفاً للأُدباءِ ، ولا أَجلبَ للمؤْنِسين ، ولا أَدعى إلى خلافِ المُمْتِعِينَ (٣) ، ولا أَجدرَ أَن يُستدامَ به حديثُهم ويُخرجَ مكنونهم ، ويطولَ به مجلسُهم ، مِنـه .

وإنَّ كلَّ شرابٍ وإن كان حلَا ورَقّ (٤) ، وصفا ودَقَّ ، وطابَ وعذُب ، وبرد ونقخ (٥) ، فإنَّ استطابتك لأَوّلِ جُرعةٍ منه أَكثر (٦) ، ويكون من طبائعك أَوقَع . ثم لا يزال فى نقصانٍ إلى أَن يعود مكروهاً وبليّة (٧) ، إلا النبيذ ، فإنَّ القدحَ الثانىَ أَسهلُ من الأَوّل ، والثالث أَيْسَرَ (٨) ، والرابع أَلذُّ ، والخامس أَسلس ، والسادس أَطرب ، إلى أَن يُسْلِمَكَ (٩) إلى النَّوم الذى هو حياتك ، أَو أَحد أَقواتك (١٠) . ولا خير فيه إذا كان إسكاره تغلُّباً ، وأَخْذُه بالرأْس تعسُّفاً ، حتَّى يُميت الحسَّ

---

(١) م فقط : « السارة » .

(٢) المريع : المخصب ، يقال مكان مرع ومريع : خصيب مرع ناجع . قال الأعشى :

سلس مقلــده أسيــــل خــده مرع جنــــابه

ب ، م : « مربعان » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصول : « الممتنعين » ، ولا وجه له .

(٤) ط ، م : « وإن حلا ورق » .

(٥) النقاخ : الماء العذب البارد الذى ينقخ العطش ، أى يكسره ببرده . وفى جميع الأصول : « ونفح » ، والوجه ما أثبت .

(٦) م : « الأول جرعه منها » . وفى ب ، م . « كثر » ، وفى ط : « لأول جرعة منها كثير » . والوجه ما أثبت .

(٧) ب فقط : « وبرية » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « أسر » .

(٩) فى جميع الأصول : « يسلسك » ، ولا وجه له .

(١٠) ب : « وأحد أقواتك » .

بحدَّته ، ويَصْرعَ الشارب بسَوْرته (١) ، ويورث البُهْرَ بكِظَّته ، ولا يَسرِى فى العُروق لغِلَظه (٢) ، ولا يجرى فى البدن لرُكوده ، ولا يدخل فى العُمْق ولا يدخُل الصَّميم .

ولا والله حتَّى يغازل العقلَ ويعارضَه ، ويدغدغه ويُخادعَه (٣) ، فيسرَّه ثمّ يهزَّه (٤) ، فإذا امتلأ سروراً وعاد مَلِكاً محبوراً ، خاتله السُّكر وراوَغَه ، وداراه وما كَرَه ، وهازَلَه وغانَجَه . وليس كما يغتصب السَّكَر (٥) ، ويعتسف الداذىّ (٦) ، ويفترس الزَّبيب ؛ ولكن بالتفتير والغَمْز ، والحيلة والخَتْل (٧) ، وتحبيب النوم ، وتزيين الصَّمت .

وهذه صفةُ شرابك إلَّا مالا نُحيط به (٨) ، ونعوته تتبدَّلُ (٩) إلَّا ما يقبح منها الجهل به .

وخيرُ الأَشربة ما جمع المحمودَ من خصالها وخصالِ غيرها . وشرابك هذا قد أَخذ من الخمر دبيبهَا فى المفاصل (١٠) ، وتمشِّيَها فى العِظام ولونَها الغريب ؛ وأَخذَ بَرْدَ الماءِ ورقَّة الهواءَ ، وحركةَ النار ، وحُمرةَ

---

(١) ب ، م : « ويسرع » بالسين ، تحريف . وسورة الشراب : تناوله للرأس ووثوبه فيه .
(٢) ط : « لغلظته » .
(٣) الدغدغة : حركة فى نحو الإبط أو البطن أو الأخمص يحدث عنه انفعال .
(٤) م : « ويسره ثم يهمزه » .
(٥) السكر ، بالتحريك : الخمر نفسها .
(٦) الداذى : شراب يتخذ من نبت له عنقود مستطيل ، وحبه كحب الشعير ، طيب الرائحة جيد الإسكار . قال :

شربنا من الداذى حتى كأننا ملوك لنا بر العراقين والبحر

(٧) فى جميع النسخ : «والحيل» ، والوجه ما أثبت .
(٨) ب ، م : « إلا مالا يحيط به » .
(٩) ب ، م : « وبعث بتبدل » ، ط : « ونعوته بتبدل » ، والوجه ما أثبت .
(١٠) م ، ط : « زينتها فى المفاصل » ، صوابه فى ب . وفى ب أيضاً : « فقد أخذ » .

خدِّك إذا خَجِلت ، وصفرةَ لونِك إذا فَزِعْتَ ،وبياض عارضَيْك إذا ضحِكت [١] .

وحسبي بصفاتك عوضاً من كلِّ حَسَن ، وخلفاً من كلِّ صالح . ولا تعجبْ أنْ كانت نهايةَ الهمّة وغايةَ المُنْية ؛ فإنَّ حُسْنَ الوجوهِ إذا وافق حُسْنَ القوام وشدَّةَ العقل ، وجودةَ الرأى ، وكثرة الفَضْل [٢] وسَعَة الخُلُق ، والمغْرِسَ الطيّبَ والنصابَ الكريم ، والظَّرف الناصع [٣] ، واللِّسان الفَخْم [٤] والمخرجَ السَّهلَ والحديث المُونِق ، مع الإشارة الحَسَنة والنُّبل فى الجِلْسة ، والحركة الرّشيقة واللَّهجة الفصيحة ، والتمهُّل فى المحَاوَرَة [٥] والهَزّ عند المناقلة [٦] ، والبَديهِ البديع والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظِ المحذوف ، والإيجاز يَوْم الإيجاز والإطناب يَوْم الإطناب [٧] ، يَفُلُّ الحَزّ [٨] ويُصيب المفصِل ، ويبلغ بالعفو ما يقصّر عَنْهُ الجَهْدُ ، كان أَكثَرَ لتضاعف الحُسْن ،وأَحقَّ بالكمال . والحمد لله .

وإنَّ التاج بهىٌّ [٩] وهو فى رأسِ الملوك أَبهى ، والياقوتَ الكريم حَسَنٌ وهو فى جِيد المرأَةِ الحسناء أَحسن ، والشِّعْر الفاخر حسَنٌ وهو من فى

(١) العارض : جانب الوجه ، وصفحة الخد ؛ وهما عارضان . ط : « وبياض عارضك » بالإفراد .

(٢) فى جميع الأصول : « الفعل » .

(٣) م ، ط : « والطرف الناصع » صوابه فى ب . وانظر ما سبق فى ص ١٠٠ .

(٤) ط فقط : « المعجم » .

(٥) فى جميع النسخ : « المجاوزة » والوجه ما أثبت .

(٦) المناقلة : مراجعة الكلام فى صخب وتنازع . والهذ : سرعة فى الكلام والقراءة . وفى جميع الأصول : « والهز » بالزاى ، تحريف .

(٧) المراد باليوم هنا الوقت . ب : « يؤم » بالهمز فى هذا الموضع وسابقه ، تحريف .

(٨) يفل : يكسر ويضرب . ب ، م : « يقل » بالقاف ، تحريف .

(٩) ب ، م : « التاج بهى » .

الأَعرابِّى أَحسن . فإنْ كان من قولِ المنشد وقريضِه ، ومن نَحْتِه وتحبيره، فقد بلغَ الغاية وأَقام النهاية .

وهذا الشرابُ حسَنٌ وهو عندك أَحسَن ، والهديَّة منه شريفةٌ وهى منكَ أَشرف .

وإن كنتَ قدَّرتَ أَنِّى إنَّما طلبته منك لأَشربَه أَو لأَسقيَه ، أَو لأَهَبَه ، أَو لأَتحسَّاه فى الخَلا ، أَو أُديرَهُ فى الملا [١] أَو لأَنافس فيه الأَكْفاءَ ، واجترَّ زيادة الخُلَطاءِ [٢] ، أَو لأَبتذِلَه لعيون النُّدَماءِ ، أَو أَعرِّضه لنوائب الأَصدقاءِ فقد أَسأْت بى الظنَّ ، وذهبت من الإِساءَة بى فى كلِّ فنّ [٣] ، وقصّرت به فهو أَشدُّ عليك ، ووَضعْتَ منه [٤] فهو أَضرُّ بك .

وإنْ ظننت أَنِّى إنما أُريده لأُطرف به معشوقةً [٥] ، أَو لأَستميل به هَوَى ملِك ، أَو لأَغسل به أَوضار الأَفئدة [٦] ، أَو أَداوِىَ [٧] به خطايا الأَشربة ، أَو لأَجلوَ به الأَبصار العليلةَ ، وأُصلحَ به الأَبدان الفاسدة ، أَو لأَتطوّع به على شاعر مُفْلق [٨] أَو خطيب مِصْقَع ، أَو أَديب مُدقِع ، ليَفْتِق لهم المعانىَ [٩] ، وليخرج المذاهب ، ولِمَا فى جانبهم من

(١) ب فقط : « أو أدير فى الملا » . والملا : المتسع من الأرض .

(٢) الاجترار : الاجتذاب والاجتلاب . ب ، م : « واختر » ط : « وأختبر » والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ١٣ ورسائل الجاحظ ١ : ١٠٢ . والخلطاء : جمع خليط ، وهو الصاحب ، والجار المصافى . ب ، م : « الخطا » ط : « الخطأ » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « غن » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « ووصفت منه » .

(٥) الإطراف : الإتحاف ، أطرفه بالشىء : أتحفه به . ب ، م : « لأظرف » صوابه بالطاء المهملة كما فى ط .

(٦) الوضر : الدرن والوسخ ، جمعه أوضار . ط : « وضر الأفئدة » .

(٧) م ، ط : « أو أودى » ، صوابه فى ب .

(٨) المفلق : الذى يأتى بما يعجب من الشعر . م : « مغلق » ، تحريف .

(٩) فى جميع الأصول : « ليفيق » ، والوجه ما أثبت .

الأَجْر ، وفى أَعناقهم من الشكر[١] ، ولينفُضوا[٢] ما قالت الشعراءُ فى الحمد ، وليرتجعوا ما شاع لهم من الذِّكر[٣] ؛ فإِنِّى أَريد أَنْ أَضعَ من قَدْرها ، وأَن أَكسر من بالها[٤] ، فقد تاهت وتِيهَ بها . أَو لأَن أَتفاءَل برؤْيته[٥] وأَتبرَّك بمكانه ، وآنَس بقُربه ، أَو لأَشفى به الظماءَ[٦] ، أَو أَجعله إِكسير أَصحابِ الكيمياءِ[٧] ، أَو لأَنْ أَذْكُرَك كلَّما رأَيتُه ، وأُداعبك كلَّما قابلته[٨] أَو لأَجتلب به اليُسْرَ[٩] وأَنْفِىَ العسر . ولأَنَّه والفَقْرَ لا يجتمعان فى دار ، ولا يُقيمان فى رَبْع . وَلأَتعرّف[١٠] به حُسْنَ اختيارك ، وأَتذكَّر به جَودة اجتبائك[١١] . أَو لأَن أَستدلَّ به على خالص حُبِّك ، وعلى معرفتك بفضلى ، وقيامِك بواجب حقِّى ـ فقد أَحسنتَ بِىَ الظنّ ، وذكرت من الإِحسان فى كلِّ فن . بل هو الذى أَصونُه صيانةَ الأَعراض ، وأَغار عليه[١٢] غَيْرةَ الأَزواج .

(١) فى جميع الأصول : « وفى أعنائهم من الشكر » ، والصواب ما أثبت .
(٢) النفض : الاستقصاء . ب : « ولينغضوا » ط : « ولينقضوا » ، صوابهما فى م.
(٣) ط : « وليرتجفوا مما شاع لهم من الذكر » ، تحريف .
(٤) البال : القلب ، والنفس ، والخاطر ، والأمل .
(٥) ب ، م : « إلى رؤيته » .
(٦) الظماء : مصدر ظمىء يظمأ ظمأ وظماء وظماءة . ب : « الظمأ » ط : « الظمآن » .
(٧) الإكسير : مادة مركبة كان القدماء يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب ، وشراب فى زعمهم يطيل الحياة ، معرب . ويسمى أيضاً حجر الفلاسفة . انظر استينجاس ٨٩ .
(٨) ب ، م : « وأعبك كلما قابلته » ، صوابه فى ط .
(٩) ب : « أو لأحتلب » بالحاء المهملة . وفى م : « البشرى » موضع « اليسر » .
(١٠) ب فقط : « أو لأتعرف » .
(١١) الاجتباء ، بالجيم : الاختيار والاصطفاء . وفى الكتاب العزيز : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، « شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » ، « ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » . وفى جميع الأصول : « احتبائك » بالحاء المهملة ، تحريف .
(١٢) غار يغار غيرة : ثارت نفسه لإبدائها زينتها ومحاسنها لغيره ، أو لانصرافها عنه إلى آخر . م فقط : « وأغير » ، تحريف .

واعلمْ أنَّك إن أكثرت لى منه خرجتُ إلى الفساد ، وإن أقللتَ أقسمت على الاقتصاد،

وأنا رجلٌ من بنى كنانة ، وللخلافة قرابة ،ولى فيها شُفعة[١] ، وهم بَعْدُ[٢] جنسٌ وعَصَبة ، فأَقلُّ ما أَصنعُ إنْ أكثرتَ لى منه أَنأَطلُب المُلْك ، وأَقلُّ مايصنعون بى أَن أُنْفَى من الأَرض . فإنْ أَقللتَ فإنَّك الولدُ الناصح ، وإنْ أكثرتَ فإنَّك الغاشُّ الكاشح . والسلام .

---

(١) ب : « وفيها شفعة » .
(٢) ب : « أبعد » ، تحريف .

٥

من كتابه في

طبقات المغنين

فصــــــل
من صدر كتابه فى طبقات المغنين

ثمّ إنَّا وجَدْنا الفلاسفةَ المتقدِّمين فى الحكمة ، المحيطين بالأُمور معرفةً ، ذكَروا أَنَّ أُصولَ الآدابِ التى منها يتفرَّعُ العلمُ لذَوِى الأَلباب أَربعة :

فمنها النُّجومُ وبروجُها ، وحسابُها الذى يعرف به(١) الأَوقاتُ والأَزمنة ، وعليها مِزاج الطَّبائعِ وأَيّامِ السَّنَة .

ومنها الهندسةُ وما اتَّصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، وما أَشبه ذلك .

ومنها الكِيمياءُ والطِّبُّ اللَّذان بهما صلاحُ المعاش وقِوامُ الأَبدان ، وعِلاجُ الأَسقام ، وما يتشعَّب من ذلك .

ومنها اللُّحونُ ومعرفة أَجزائها وقَسْمها ،ومَقاطعها ومخارجها ووزنها ، حتَّى يستوىَ على الإِيقاع ويدخلَ فى الوتَر وغير ذلك ممَّا اقتصرنا من ذكره على أَسمائه وجُمَله ، اجتناباً للتَّطويل ، وتوخِّياً للاختصار . وقَصْدنا للأَمر الذى إِليه انتهينا ، وإِيَّاه أَردنا . والله الموفق وهو المستعان .

ولم يزَلْ أَهلُ كلِّ علمٍ فيما خلا من الأَزمنة يركبون مِنهاجَه ، ويسلكون طريقَه ، ويَعرِفون غامضَه ، ويسهِّلون سبيلَ المعرفة بدلائله ، خلَا الغِناءَ ، فإِنَّهم لم يكونوا عَرَفُوا عِلله وأَسبابَه ووزنَه وتصاريفه ، وكان علمُهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسيَّة والهندية(٢)

(١) ب ، م : « بها » ، صوابه فى ط .
(٢) ب فقط : « والفهلندية » .

إلى أن نظر الخليل البَصريُّ فى الشِّعرِ ووزنِه ، ومخارجِ ألفاظه ، وميَّزَ ما قالت العرب منه ، وجمعه وألَّفه ، ووضع فيه الكتابَ الذى سمَّاه العَروض ، وذلك أنَّه عرضَ جميعَ ما رُوِى من الشِّعر وما كان به عالماً ، على الأُصول التى رسَمَها ، والعِلَل التى بيَّنها ، فلم يجد أحداً من العرب خرجَ مِنها ، ولا قصَّر دُونَها . فلمَّا أحكمَ وبلغ منه ما بلَغ ، أخذَ فى تفسير النَّغَم واللُّحون ، فاستدرك منه شيئاً ، ورَسَم له رسماً احتذَى عليه مَن خلفه ، واستتمَّه من عُنِىَ به[(١)] .

وكان إسحاقُ بن إبراهيم الموصلىُّ أوّلَ مَن حذا حَذْوَه ، وامتثلَ هَدْيه ، واجتمعت له فى ذلك آلاتٌ لم تجتمعْ للخليل بن أحمد قبله[(٢)] ، منها معرفتُه بالغناء ، وكثرةُ استماعه إيَّاه وعلمُه بحَسَنِه من قبيحه ، وصحيحِه مِن سقيمه .

ومنها حِذقُه بالضَّرب والإيقاع ، وعلمُه بوزنها . وألَّف فى ذلك كُتباً مُعجبة ، وسهُلَ له فيها ما كان مُستصعباً على غيره ، فصنع الغناءَ بعلمٍ فاضل ، وحِذْق راجح ، ووَزْنٍ صحيح ، وعلى أصلٍ مستحكمٍ له دلائلُ صحيحة واضحة ، وشواهدُ عادلة[(٣)] . ولم نر أحداً وَجَد سبيلًا إلى الطَّعن عليه والعيب له .

وصنع كثيرٌ من أهل زمانه أغانىّ كثيرة بهاجسِ طبْعِهم[(٤)] والاتِّباع لمن سَبَقَهم ، فبعضٌ أصاب وجْهَ صَوابِه[(٥)] ، وبعضٌ أخطأَ ، وبعضٌ قصَّر فى بعضٍ وأحسَنَ فى بعض .

(١) ط : « واستمد من عنى به » .
(٢) ب ، م : « قبلها » صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « وشواهده عادلة » .
(٤) ب فقط : « بها حبس طبعهم » .
(٥) ب ، م : « وجهل صوابه » .

ووجدنا لكلِّ دهرٍ دَولةً للمغنِّين يَحملون الغناءَ عنهم ، ويُطارِحون به فِتيانَ زمانهم ، وجوارىَ عصرِهم . وكان يكون فى كلِّ وقتٍ من الأَوقات قومٌ يتنادمون ، ويَستحسنون الغناءَ ، ويميِّزون رديَّه من جيِّده ، وصوابَه من خطائه [١] ، ويجمعون إلى ذلك محاسنَ كثيرةً فى آدابهم وأَخلاقهم ، ورُوَائهم وهيئاتهم [٢] ، فلم نجدْ هذه الطبقةَ ذُكِرُوا . ووَجَدْنا ذكر الغناءِ وأَهلِه باقياً .

وخُصصنا فى أَيَّامنا وزمانِنا بِفتْيةٍ أَشراف [٣] ، وخُلَّانٍ نِظاف ، انتظم لهم من آلات الفُتوَّة وأَسباب المروءة ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدوماً مِن سواهم ، فحملَنى الكَلَفُ والمودّة لهم [٤] والسُّرور بتخليد فخرهم [٥] وتشييد ذكرهم والحرصُ على تقويم أَوَدِ ذِى الأَوَدِ منهم حتَّى يلحق بأَهل الكمال فى صناعته ، والفضلِ فى معرفته ، على تمييز طبقة طبقة منهم ، وتسميةِ أَهل كلِّ طبقةٍ بأَوصافهم ، وآلاتهم وأَدواتهم ، والمذاهب التى نَسبوا إليها أَنفسَهم ، واحتملَهم إخوانُهم عليها . وخلطنا جدًّا بهَزْل ، ومزجنا تقريعاً بتعريض [٦] ، ولم نُرِدْ بأَحدٍ ممَّن سمَّينا سُوءًا ، ولا تعمَّدنا نقداً [٧] ولا تجاوزنا حَدًّا .

ولو استعملنا غير الصِّدق لفضَّلنا قوماً وحابَيْنا آخَرين . ولم نفعَلْ

---

(١) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . ط : « خطئه » . والجاحظ يميل إلى استعمال الممدود .

(٢) م : « ورواتهم » ب : « ومروءاتهم » ، والوجه ما أثبت من ط . والرواء : المنظر ، والمنظر الحسن .

(٣) م : « بقتنة » .

(٤) لهم ، ساقطة من ب .

(٥) م ، ب : « بتجلية فخرهم » .

(٦) التقريع : التأنيب والتعنيف . ب : « تفريعاً » بالفاء ، م ، ط « تعريفاً » ، صوابها ماأثبت . والتعريض : الذم الذى لايصرح به .

(٧) ب ، م : « صحا »

ذلك ، تجنُّباً للحيف[١] ، وقصداً للإنصاف[٢] . وقد نعلم أنَّ كثيراً منهم سيُبالغ فى الذمّ ، ويحتفل فى الشتم[٣] ، ويذهب فى ذلك غير مذهبنا .

وما أَيسرَ ذلك فيما يجبُ من حُقوق الفِتيان وتفكيههم ، والله حسيبُ من ظلم ، عليه نتوكل وبه نستعين ، وهو ربُّ العرش العظيم .

ولم نَقصِدْ فى وصف مَنْ وصفْنا من الطبقات التى صنَّفنا منهم ، إلّا لمن أَدْركْنا من أَهل زماننا ممَّن حصل بمدينة السلام ، إذْ مَن خرج عنها ونزع إلى الفتوّة بعد التَّوبة ، وإلى أَخلاق الحَدَاثة بعد الْحُنْكة[٤] ، وذلك فى سنة خمس عشرة ومائتين[٥] . فرحم الله امرأً أَحسنَ فى ذلك أَمرنا[٦] ، وحذَا فيه حَذْونا ، ولم يَعجَل إلى ذمِّنا ، ودعَا بالمغفرة والرحمة لنا .

وقد تركْنا فى كلِّ بابٍ من الأَبواب التى صنَّفنا فى كتابنا ، فُرَجاً[٧] لزيادةٍ إن زادت ، ولاحقةٍ إنْ لحقت ، أَوْ نابتةٍ إن نبتتْ . ومَنْ عسَى أَن ينتقل به الحِذْقُ من مرتبته إلى ما هو أَعلى منها ، أَو يعجزُ به القصور عمَّا هو عليه منها إلى[٨] ما هو دونَها ، إلى مكانه الذى إليه نَقَلَهُ ارتفاعُ درجةٍ أَو انحطاطُها ، ومَنْ لعلَّنا نصير إلى ذكره ممن

---

(١) م ، ط : « تحببا » .
(٢) ط : « بل قصداً للإنصاف » .
(٣) ط : « ويحتمل فى الشتم » .
(٤) الحنكة والحنك ، بضم الحاء فيهما : التجربة والبصر بالأمور .
(٥) هذا تسجيل للسنة التى تم فيها أو بعدها تأليف هذه الرسالة .
(٦) ب : « من أحسن فى ذلك أمرنا » .
(٧) الفرج : جمع فرجة ، والمراد الفراغ الذى يكتب فيه . ب فقط : « فرحاً » بالحاء المهملة ، تحريف .
(٨) إلى ، ساقطة من ب .

عَزَب عنَّا ذِكره ، وأُنسِينا اسمَه ، ولم يُحِطْ علمُنا به ، فنصيِّره فى موضعه ، ونُلحِقُه بأَصحابه .

وليس لأَحدٍ أَن يثبت شيئاً من هذه الأَصناف إلَّا بعلمنا[١] ، ولا يستبدَّ بأَمرٍ فيه دوننا . ويُوردُ ذلك علينا فنمتحنُه[٢] ، ونُعرِّفه[٣] بما عنده ، ويصير إلى ترتيبه فى المرتبة التى يستحقُّها ، والطَّبقة التى يحتملها .

فلما استتبَّ لنا الفراغُ مما أَردنا من ذلك خَطَر ببالنا كثرةُ العيّابين من الجُهّال بربِّ العالمين، فلم نأْمَنْ أَن يُسرعوا[٤] بسَفهِ رأْيهم وخِفَّة أَحلامهم إلى نقْضِ كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، وإزالته عن أَماكنه التى عليها رسَمْنا ، وأَن يقول كلُّ امرئٍ منهم فى ذلك على حاله ، وبِقدر هواه[٥] ورأْيه ، وموافقته ومخالفته ، والميلِ فى ذلك إلى بعض ، والذمِّ لطبقة والحمدِ لأُخرى ، فيهجِّنوا كتابنا ، ويُلحقوا بنا ما ليس من شَأْننا .

وأَحببنا أَن نأْخذَ فى ذلك بالحزم ، وأَن نحتاط فيه لأَنفسنا ومَن ضمّه كتابُنا ، ونُبادر إلى تفريق نسخٍ[٦] منها وتصييرها فى أَيدى الثِّقات والمستبصرين ، الذين[٧] كانوا فى هذا الشأْن ، ثم ختموا ذلك

---

(١) ط : « بعلمها » ، تحريف .

(٢) فى جميع الأصول : « فيمتحنه » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى جميع الأصول : « ويعرفه » بالياء .

(٤) ب فقط : « فلم نأمن من أن يسرع » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) فى جميع النسخ : « ولقدر هواه » .

(٦) فى جميع النسخ : « نسخة » .

(٧) الذين ، ساقطة من ب ، م .

بالعُزْلة والتّوبة منه ، كصالح بن أبى صالح ، وكأحمد بن سلّام ، وصالح مولى رشيدة[(١)] .

ففعلنا ذلك وصيّرناه أمانة فى أعناقهم ، ونسخةً باقية فى أيديهم ، ووثِقْنا بهم أُمناءَ ومُستوْدَعين[(٢)] وحَفَظةً غيرَ مضيِّعين ولا متَّهَمين . وعلمْنا أنَّهم لا يَدعُون صيانةَ ما استُودِعوا ، وحِفْظَ ما عليه ائتُمِنوا.

فإن شِيبَ[(٣)] به شوبٌ يُخالفه ، وأُضيف إليه[(٤)] مالا يلائمه ، رجعنا[(٥)] إلى النُّسخة المنصوبة ، والأُصول المخلَّدة عند ذوى الأَمانةِ والثِّقة ، واقتصرْنا عليها ، واستعلينا بها على المبطلين[(٦)] ، ودفعنا بها[(٧)] إدغال المُدْغلين ، وتحريف المحرِّفين ، وتزيُّد المتزيِّدين ، إن شاءَ الله .

ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم .

---

(١) لم أجد ترجمة لأحد هؤلاء الثلاثة ، ولم يرد لهم ذكر فيما سبق من مكتبة الجاحظ .
(٢) ب ، م : « وأمنا ومستودعين » ، صوابه فى ط .
(٣) ط : « إذا شيب » م : « فإن شئت » ، صوابهما فى ب .
(٤) إليه ، ساقطة من ب ، م .
(٥) فى جميع النسخ : « وجعلنا » .
(٦) ب ، م : « به على المبطلين » .
(٧) ب ، م : « به » .

٦

من كتابه في

النساء

١ – فصـــل

من صدر كتابه فى النساء

إنَّا لمَّا ذكرنا فى كتابنا هذا الحبّ الذى هو أَصلُ الهوى ، والهوى الذى يتفرَّع منه العِشق، والعِشْقَ الذى يهيم له الإنسانُ على وجهه أَو يموتُ كمداً على فِراشه . وأَوّل ذلك إدخالُ الضَّيم على مروءته ، واستشعارُ الذِّلَّة لمن أَطاف بعشيقته .

ولم نُطنِب مع ذلك فى ذكر ما يتشعَّب من أَصل الحبِّ من الرَّحمة والرِّقَّة ، [وحبِّ الأَموال النَّفيسة والمراتبِ الرفيعة(١)] ، وحبِّ الرعيّة للأَئمة ، وحبِّ المُصطَنَع لصاحب الصَّنيعة ، مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ، ومع تفاوُتِ طبقاته فى العواقب ، احتجْنا إلى الاعتذار من ذكر العِشقِ المعروف بالصَّبابة ، والمخالفة على قوَّة العزيمة ، لنجْعلَ(٢) ذلك القدرَ جُنَّةً دون من حاولَ(٣) الطَّعن على هذا الكتاب ، وسَخَّف الرأْى الذى دعا إلى تأْليفه ، والإشادة بذكره(٤) . إذا كانت الدُّنيا لا تنفكُّ من حاسدٍ باغٍ ، ومن قائلٍ متكلف ، ومن سامعٍ طاعن ، ومن مُنافسٍ مقصِّر . كما أَنَّها لا تنفكُّ من ذى سلامةٍ متسلِّم ، ومن عالم متعلِّم ، ومن عظيم الخَطَر حسن المحضر ، شديدِ المحاماة على حقوق الأُدباءِ ، قليل التسرُّع إلى أَعراض العلماء .

وإنما العشقُ اسمٌ لِمَا فَضَل عن المقدار الذى اسمُه حبٌّ . وليس

---

(١) التكملة من م ، ط .

(٢) ب ، م : « ليجعل » .

(٣) ب ، م : « ما حاول » .

(٤) ب ، م : « والإشارة بذكره » ، صوابه فى ط .

كلُّ حبٍّ يسمَّى عشقاً ، وإنما العشق اسمٌ للفاضل عن ذلك المقدار ، كما أَنَّ السَّرف اسمٌ لما زاد على المقدار الذى يُسمَّى جُوداً ، والبُخلَ اسمٌ لما نقص عن المقدار الذى يسمَّى اقتصاداً ، والجبنَ اسمٌ لما قَصَّر عن المقدار الذى يسمَّى شجاعة .

وهذا القول ظاهرٌ على أَلسنة الأُدباء ، مُستعمَلٌ فى بيان الحكماء . وقد قال عُروة بن الزبير :(١) « والله إنى لأَعشَق الشَّرف كما تُعْشق المرأَةُ الحسناءُ » .

وذكر بعضُ الناس رجلًا كان مُدقِعاً محروماً ، ومنحوس الحظِّ ممنوعاً ؛ فقال : ما رأَيت أَحداً عَشِق الرِّزق عِشْقَه ، ولا أَبغضَه الرزقُ بُغضَه !

فذكر الأَوّلُ عِشقَ الشَّرف ، وليس الشَّرف بامرأَة ، وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسمٌ جامعٌ لجميع الحاجات .

وقد يستعمل الناس الكناية(٢) ، وربَّما وضعوا الكلمة بدل الكلمة ، يريدون أَن يَظهرَ المعنى(٣) بأَلين اللفظ ، إما تَنْوِيهاً وإمَّا تفضيلًا(٤) ، كما سمَّوا المعزول عن ولايته مَصروفاً ، والمنهزم عن عدوِّه مُنْحازاً . نَعَمْ ، حتَّى سمَّى بعضُهم البخيل مقتصداً ومصلحاً(٥) ، وسُمِّى عامل الخراج المتعدِّى بحقِّ السلطان مستَقْصِياً(٦) .

---

(١) م : « وقال عروة » فقط .
(٢) ط : « الكتابة » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) م فقط : « يظهروا المعنى » .
(٤) فى جميع الأصول : « إما تنوها وإما تفصلا » ، والوجه ما أثبت . والتنويه : الإظهار والإشادة والتعريف .
(٥) م : « أو مصلحاً » .
(٦) فى جميع الأصول : « مستعصياً » بالعين ، والوجه ما أثبت . والاستقصاء : بلوغ الغاية القصوى .

ولما رأينا الحُبَّ من أكبر أسباب جِماع الخير ، ورأينا البُغض من أكبر أسباب الشر ، أَحْبَبْنَا[(١)] أن نذكر أبواب السَّبب الجالب [للخير ، ليفرق بينه وبين أبواب السبب الجالب[(٢)]] للشر حتَّى نذكر أُصولهما وعِلَلَهما الداعيةَ إليهما ، والموجبة لكونهما .

فتأمَّلْنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نَعِيمِها وأكملَ لذَّاتها ، ظفرَ المحبّ بحبيبه ، والعاشقِ بطِلْبَتِه[(٣)] ، ووجدنا شِقوَة الطالب المُكْدِي وغَمَّه ، فى وزن سعادةِ الطالب المُنْجِحِ وسرورِه ، ووجَدْنا العشق كلَّما كان أرسخ ، وصاحبُه به أكلف ، فإنَّ موقع لذَّة الظفر منه أرسخ ، وسُرورَه بذلك أبهج .

فإنْ زعم زاعمٌ أنَّ موقعَ لذَّة الظَّفر بعدوِّه المُرصِد أحسنُ من موقع لذَّة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته[(٤)] .

قلنا : إنَّا قد رأينا الكرام والحلماء ، وأهل السُّودد والعظماء ، ربَّما[(٥)] جادوا بفضلهم من لذَّة شفاءِ الغَيْظ ، ويعدُّون ذلك زيادةً فى نُبْل النفس ، وبُعد الهمّة والْقدْر . ويُجودون بالنَّفيس من الصامت والناطق ، وبالثَّمين من العُروض[(٦)] . وربَّما خرجَ من جميع ماله ، وآثَرَ طِيبَ الذِّكر على الغِنى واليُسْر . ولم نرَ نفْس العاشق تسخُو بمعشوقه ، ويجود بشقيقة نفسه[(٧)] لوالدٍ ولا لولد بارٍّ ، ولا لذى نعمةٍ سابغة[(٨)] يخاف سَلْبَها ، وصَرْف إحسانِه عنه بسببها .

(١) ط : « أجتنبنا » ، صوابه فى ب ، م .
(٢) ما بين المعقفين ساقط من ب .
(٣) الطلب والطلبة ، بكسر الطاء فيهما : ما يطلبه العاشق ويهواه ، الأخيرة عن اللحيانى . وفى جميع النسخ : « بطليبه » .
(٤) ب : « لعشيقته » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) ب : « وربما » ، صوابه فى م ، ط .
(٦) العروض : الأمتعة ، سوى الدراهم والدنانير فإنها عين ، واحدها عرض ، بالفتح .
(٧) ب : « لشقيقة نفسه » ، تحريف ب : « بعشيقة نفسه » ، وأثبت ما فى ط .
(٨) السابغة : الكاملة الوافية . ب فقط : « السابعة » بالعين المهملة ، تحريف .

ولم نر الرِّجال يَهَبُون للرِّجال إلَّا مالا بالَ به[١] ، فى جَنْب ما يهبون للنِّساء . حتَّى كأَنَّ العِطر والصِّبغ[٢] ، والخِضاب والكحل ، والنَّتف والقصّ ، والتحذيف والحلْق ، وتجويدَ الثِّياب وتنظيفها ، والقيامَ عليها وتعهُّدها ، مِمَّا لم[٣] يتكلَّفوه إلَّا لهنّ ، ولم يتقدَّموا فيه إلَّا من أَجلهنّ ، وحتَّى كأَنَّ الحِيطانَ الرَّفيعة ، والأَبوابَ الوثيقةَ ، والسُّتور الكثيفة[٤] ، والخِصْيان والظُّؤورة ، والحُشوة والحواضِنَ لم تُتَّخذْ[٥] إلَّا للصَّون لهنّ ، والاحتفاظ بما يجب من حفظ النِّعمة فيهنّ .

٢ — فصل منه

وبابٌ آخر : وهو أَنَّا لم نجدْ أَحداً مِن الناس[٦] عشِق والدَيه ولا وَلَده ، ولا من عَشِق مراكبَه ومنزِله ، كما رأَيناهم يموتون من عِشق النِّساء الحرام. قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ من النِّساءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّة والْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والْحَرْثِ[٧] ﴾ . فقد ذكر[٨] تبارك وتعالى جملةَ أَصنافِ ما خوَّلهم من كرامته ، ومَنَّ عليهم من نعمته ، ولم نَرَ النَّاسَ[٩] وَجَدُوا بشيءٍ من هذه الأَصناف وَجْدَهم بالنِّساءِ . ولقد قدَّم ذكرهنّ فى هذه الآية على قدر تقدُّمهنّ فى قلوبهم .

(١) ب ، م : « يتهبون » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابه فى ط : والاتهاب : قبول الهبة ، ولا وجه له هنا . وفى ب ، م أيضاً : « إلا بما لا بال له » ، صوابه فى ط .
(٢) ب : « والصبع » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) ب ، م : « ما لم » ، صوابه فى ط .
(٤) الستور : جمع ستر ، بالكسر . ب فقط : « والسطور » ، تحريف .
(٥) ب ، م : « لم يتخذ » ، ط : « لم يتخذن » ، والوجه ما أثبت .
(٦) كلمة « الناس » ساقطة من ب ، م ثابتة فى ط .
(٧) الآية ١٤ من سورة آل عمران .
(٨) ب : « فقد دل » ، صوابه فى م ، ط .
(٩) ب : « ولم ير الناس » ، وأثبت ما فى م ، ط .

فإن قال قائل : فقد نجدُ الرجلَ الحليمَ ، والشَّيخَ الرّكينَ، يسمع الصَّوت المُطرِبَ من المغنِّى المصيبِ، فينقلُه ذلك إلى طَبْع الصِّبيان ، وإلى أفعال المجانينِ ، فيشقُّ جيبَه ، وينقُض حُبْوَتَه ، ويفدِّى غيرَه [١] ، ويَرقُص كما يرقُص الحدَثُ الغرير ، والشابُّ السَّفيه . ولم نجد أحداً فعلَ ذلك عند رؤية معشوقِه .

قلنا : أَمَّا واحدةً فإنَّه لم يكن ليدعَ التَّشاغُلَ بشمِّها وبرَشْفِها ، واحتضانِها ، وتقبيلِ قدمَيْها ، والمواضع التى وطِئَتْ عليها [٢] ، ويتشاغلَ بالرَّقص المباين لها ، والصُّراخِ الشاغلِ عنها . فأَمَّا حلُّ الحُبْوة ، والشَّدُّ حُضْراً عند رؤية الحبيبة [٣] فإنَّ هذا مما لا يحتاج إلى ذكره [٤] ، لوجودِه وكثرة استعمالهم له ، فكيف وهو إن خَلا بمعشوقه لا يظنّ [٥] أنَّ لذَّة الغِناء تشغله [٦] بمقدار العُشْر من لذته ، بل ربَّما لم يخطر له ذلك الغناءُ على بال .

وعلى أَنَّ ذلك الطرب مجتازٌ غير لابث [٧] ، وظاعنٌ غير مقيم ؛ ولذَّة المتعاشقين راكدة أَبداً [٨] مقيمة غير ظاعنة .

وعلى أَنَّ الغِناءَ الحسَنَ من الوَجْهِ الحسن والبَدَنِ الحسن ، أَحسن ،

---

(١) ب : « ويغذى » م : « ويقدى » ، صوابهما فى ط .
(٢) فى جميع النسخ : « عليه » تحريف .
(٣) الحضر ، بالضم : أصله عدو الفرس . ب : « والشد خسراً » م : « والشد خصراً » . وفى ط : « والصراخ عند رؤية الحبيبة » ، صوابه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « مالا يحتاج إلى ذكره » .
(٥) ب ، م : « فكيف وإن هو خلا بمعشوقه فظن » ، صوابه فى ط .
(٦) ب : « يشغل » م : « تشغل » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٧) ب : « ثابت » .
(٨) ب ، م : « راكدة لا بد » .

والغناء[١] الشهيّ من الوجه الشَّهيِّ والبدنِ الشهيِّ أشهى . وكذلك الصوت النَّاعم الرَّخيم من الجارية النَّاعمة الرَّخيمة .

وكم بين أن يُفَدَّى إذا شاع فيكَ الطَّربُ مملوكُك ، وبين أن يفدَّى أَمَتُك[٢] ؟

وكم بينَ أن يُسمَعُ الغناءُ من فم تشتهى أن تُقبِّله[٣] ، وبين فم تشتهى أنْ تصرِفَ وجهَك عنه .

وعلى أنَّ الرجالَ دخلاءُ على النِّساءِ فى الغناءِ ، كما رأينا رجالًا ينوحون ، فصارُوا دخلاءَ على النوائح .

وبعدُ ، فأيُّما أحسنُ وأملَحُ[٤] ، وأشهى وأغنج ، أنْ يغنِّيَك فحلٌ ملتفُّ اللِّحية ، كَثُّ العارضَينِ ، أو شيخٌ منخلع الأَسنان ، مغضَّن الوجه ، ثم يغنِّيَك إذا هو تغنَّى بشعرِ ورقاءَ بنِ زُهيرٍ :

رأيتُ زهيراً تحتَ كلكلِ خالدٍ   فأَقبلتُ أَسعَى كالعَجُول أُبادِرُ[٥]

أَم تغنِّيك جاريةٌ كأَنَّها طاقةُ نَرْجس ، أو كأَنَّها ياسَمِينةٌ ، أو كأَنَّها خُرِطت من ياقوتةٍ ، أو من فِضّةٍ مجلوَّة[٦] ، بشِعرِ عُكَّاشة بن مِحْصَن[٧] :

(١) ب : والغنى » تحريف ما فى م ، ط .
(٢) كذا وردت « يفدى » بالياء فى جميع النسخ ، ولها وجهها .
(٣) ب ، م : « يشتهى أن بقبله » صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « وبعد فإنما » ، صوابه فى ط .
(٥) كنايات الجرجانى ٣٥ . وانظر للشعر ومقتل زهير بن جذيمة العبسى ، الأغانى . ١٠ : ١١ — ١٥ .
(٦) انظر نحو هذا الكلام لثمامة بن أشرس مع المأمون فى زهر الآداب ٦٠٩
(٧) كذا . وعكاشة بن محصن صحابى لم يؤثر عنه شعر . انظر الإصابة ٥٦٢٦ . وإنما الشعر لعكاشة بن عبد الصمد العمى البصرى ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الهاشمية . وأخوه أبو العذافر العمى شاعر أيضاً . وبنو العم : قوم نزلوا ببنى تميم بالبصرة أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم ، فقال لهم الناس : أنتم وإن لم تكونوا من العرب ، إخواننا وبنو العم ، فعرفوا بذلك فصاروا فى جملة العرب .

من كفٍّ جاريةٍ كأَنَّ بَنانَهـــا مِنْ فضَّة قد طُرِّفَت عُنَّابا[(١)]
وكأَنَّ يُمناها إِذا نطقت بـــه أَلقَتْ على يَدِها الشِّمالِ حسابا[(٢)]

٣ – فصـــل منـــه

فأَمَّا الغِناءُ المُطرب فى الشِّعر الغزِل فإِنَّما ذلك من حقوق النِّساءِ . وإِنَّما ينبغى أَن تغنّى[(٣)] بأَشعار الغزل والتشبيب[(٤)] ، والعِشق ، والصَّبابة بالنساءِ اللواتى فيهنَّ نطقَت تلك الأَشعار ، وبهنّ شبَّب الرِّجال ، ومن أَجلهنّ تكلَّفوا القول فى النَّسيب[(٥)] .

وبعدُ ، فكلُّ شىءٍ وطِبْقُه ، وشِكْله ولِفْقُه ، حتَّى تخرج الأُمورُ موزونة معدَّلةً ، ومتساوية مُخْلصَة[(٦)] .

= وفى النقائض ٣٦٠ أن بنى العم ، هم مرة بن مالك بن حنظلة . والبيتان بدون نسبة فى الأمالى ١ : ٣٢٠ وحماسة ابن الشجرى ٢٦٠ ونسبا فى الأغانى ٣ : ٧٣ وسمط اللآلىء ٥٢٦، وزهر الآداب ٦٠٩ ونهاية الأرب ٥ : ١١٤ إلى عكاشة العمى . ونسبا فى العقد ٦ : ٧٤ إلى عكاشة بن الحصين خطأ . وقبلهما فى سمط اللآلى :

هبوا فقد عذب النسيم وطابا والدهر يذهب بالنعيم ذهابا
حثوا على حسن الصبوح فقد نضا نور الصباح من الدجى جلبابا

وقبلهما فى الأغانى ثلاثة أبيات هى والبيتان خمسة ، فى صوت من المائة المختارة :

ياليلة جمعت لنا الأحبابا لوشئت دام لناالنعيم وطابا
بتنا نسقاها شمولا قرقفا تدع الصحيح بعقله مرتابا
حمراء مثل دم الغزال وتارة عند المزاج تخالها زريابا

(١) يقال طرفت الجارية بنانها ، إذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء . وهذا البيت ساقط من م .

(٢) فى الأمالى وابن الشجرى : « نطقت بها » . وفى نهاية الأرب : : « نطقت به » كما هنا . وفى العقد والزهر : « إذا ضربت بها » . وفى ب ، م : « على يده الشمال » صوابه فى ط وحماسة ابن الشجرى . وفى جميع النسخ : « حبابا » وصوابه فى جميع المراجع . وفى الأمالى والعقد ونهاية الأرب : « تلقى على يدها الشمال » ،وفى زهر الآداب : « تلقى على الكف الشمال».

(٣) ب فقط : « نغنى » .

(٤) ب ، م : « والشبيب » ، صوابه فى ط .

(٥) ط : « فى التشبيب » .

(٦) ب : « متساوية مخلصة » .

ولو أَنَّ رجلًا من أَدمثِ الناس وأَشدِّهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسَبَة لنفسه(١) ، ثم جَلس مع امرأَةٍ لا تُزَنُّ بمنطق(٢) ، ولا تعرف بحسنِ حديث(٣) ، ثم كان يعشقها ، لتَناتَجَ بينهما من الأَحاديث ، ولَتلاقَحَ بينهما(٤) من المعانى والأَلفاظ ، ما كان لا يجرى بين دَغْفَل ابن حنظلة(٥) ، وبين ابن لسان الحُمَّرة(٦) . وإنَّما هذا على قدر(٧) تمكُّن الغَزَل فى الرَّجُل .

٤ — فصــل منــه

والمرأَة أَيضاً أَرفعُ حالًا من الرَّجل فى أُمور . منها : أَنَّها التى تُخْطَب وتُراد ، وتُعشق وتُطلب ، وهى التى تُفَدَّى وتُحْمَى . قال عَنْبسة بن سعيد(٨) للحجَّاج بن يوسف : أَيفدِّى الأَميرُ أَهلَه ؟ . . قال : والله إن تعدُّونى إلَّا شيطاناً ، والله لربَّما رأَيتُنى أُقبِّل رِجْلَ إحداهنّ !

---

(١) م : « لكلامه ومحاسنه » فقط . وفى جميع النسخ : « محاسنه » بالنون ، والوجه ما أثبت .

(٢) زنه بالخير أو بالمال ، أو بالعلم زنا ، وأزنه إزنانا : ظنه به . ب ، م : « لا يزن بمنطق » .

(٣) ب ، م : « ولا يعرف بحسن حديث » .

(٤) ب : « والتلاقح بينهما » . والذى فى ط : « ما كان الناتج بينهما من الأحاديث والمتلاقح بينهما من المعانى والألفاظ إلا ما كان يجرى بين دغفل بن حنظلة » .

(٥) ودغفل هذا هو دغفل بن حنظلة بن زيد الشيبانى الذهلى النسابة الخطيب . أدرك الرسول الكريم ولم يسمع منه . غرق فى يوم دولاب فى قتال الخوارج سنة ٧٠ . الإصابة ٢٣٩٥ وابن النديم ١٣١ والمعارف ٢٣٢ والاشتقاق ٢١١ وتاريخ الإسلام للذهبى ٢ : ٢٨٧ . وانظر أخباره وأقواله فى البيان والتبيين .

(٦) فى جميع النسخ : « وبين بشار بن الحمرة » ، والوجه ما أثبت . وابن لسان الحمرة هذا هو عبيد الله بن الحصين ، أو ورقاء بن الأشعر ، كما فى القاموس والمعارف ٢٣٣ . وهو أعرابى من بنى تيم الله بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه ، قال ابن قتيبة : « وكان أنسب العرب وأعظمهم بصراً » . دخل الكوفة وعليها المغيرة بن شعبة ، فسأله المغيرة عن طبائع قبائل من العرب ، وعن خلق النساء ، فأجاب أجوبة ممتعة ، سردها أبو الفرج فى الأغانى ١٤ : ١٣٨ .

(٧) ب : « على قدر » ، صوابه فى م ، ط .

(٨) هو عنبسة بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، كان من جلساء الحجاج ، كما فى الاشتقاق ٧٩ وجمهرة ابن حزم ٨١

٥ — فصـــل منـــه

وإنَّمَا يملك المولى مِن عبدِه بدنَه ، فأَمَّا قلبُه فليس له عليه سلطان .

والسُّلطانُ نفسه وإن ملك رقابَ الأُمّة(١) ، فالناس يختلفون فى جهة الطَّاعة ، فمنهم من يطيع بالرَّغْبة ، ومنهم من يُطيع بالرَّهبة ، ومنهم مَن يطيع بالمحبَّة ، ومنهم من يُطيع بالدِّيانة .

وهذه الأَصناف ، وإن كان أَفضلَها طاعةُ الديانة فإنَّ تلك المحبَّة ما لم يمازجْها هوًى لم تَقْوَ(٢) على صاحبها قوَّة العِشْق . وفى الأَثر المستفيض والمثلِ السائر : « إن الهَوَى يُعمِى ويُصمّ » ؛ فالعِشْق يَقتُل .

٦ — فصـــل منـــه

ومَّما يُستدلُّ به على تعظيم شأْن النِّساءِ أَنَّ الرجل يُستحلَفُ بالله الذى لا شئَ أَعظمُ منه ، وبالمشْيِ إلى بيتِ الله ، وبصَدقةِ ماله ، وعتق رَقيقهِ . فيسهُل ذلك عليه(٣) ، ولا يأْنفُ منه . فإن استُحْلِفَ بطلاقِ امرأَته تربَّد وجهُه(٤) ، وطار الغضبُ فى دِماغه ، ويمتنع(٥) ويَعصِى ، ويغضَب ويأْبى ، وإن كان المُحْلِف سلطاناً مَهيباً ، ولو لم يكن يحبُّها(٦) ، ولا يستكثر منها ، وكانت نفسُها قبيحة المنظر ، دقيقةَ الحسب ، خفيفةَ الصَّداق ، قليلة النَّسب .

ليس ذلك إلَّا لما قد عظَّم الله من شأْن الزَّوجات فى صدور الأَزواج(٧) .

---

(١) رقاب ، ساقطة من ب .

(٢) فى جميع الأصول : « لم يقو » ، ومرجع الضمير إلى المحبة .

(٣) م : « فيسهل عليه ذلك » .

(٤) تربد : احمر حمرة فيها سواد عند الغضب . ب : « تزبد » م : « يزيد » ، صوابهما فى ط .

(٥) فى جميع الأصول : « ويمنع » .

(٦) ب : « ولم يكن محبها » .

(٧) ب : « الرجال » .

٧ ــ فصل منه فى ذكر الولد

وبابٌ آخر : وهو أَنَّا لو خَيَّرنا رجلًا بين الفَقْر[١] أَيَّامَ حياتِه ، وبين أَنْ يكون ممتَّعاً بالباهِ أَيَّام حياته ، لاختار الفقرَ الدَّائم مع التمتُّع الدائم .

وليس شيءٌ ممَّا يُحدث الله لعباده من أَصْنافِ نِعمِه وضرُوبِ فوائده ، أَبقى ذكراً ، ولا أَجلَّ خطراً[٢] من أَن يكون للرجل ابنٌ يكون ولىَّ بناتِه ، وساتِرَ عورةِ حُرَمه ، وقاضىَ دَيْنِه ، ومُحيىَ ذِكرِه ، مخلصاً فى الدُّعاءِ له بعد موته ، وقائماً بعده فى كلِّ ما خلَّفه مقامَ نفسه .

فمنْ أَقلُّ أَسفاً على ما فارق ، مِمَّن خلَّف كافياً مجرَّباً ، وحائطاً من وراءِ المال مُوفَّراً ، ومن وراءِ الحرم حامياً ، ولسلفِه فى النَّاس مُحَبِّباً . وقال رجلٌ لعبد الملك بن مروان ، وقد ذُكِرَ ولدٌ له[٣] : « أَراكَ الله فى بنيك ما أَرَى أَباك فيك ، وأَرَى بنيك فيك ما أَراك فى أَبيك ! » .

ونظر شيخٌ وهو عند المهلَّب إلى بنيه قد أَقبلوا فقال : « آنَس الله بكم لاحِقَكم ، فوالله إنْ لم تكونوا أَسباط نُبُوَّة[٤] إنَّكم أَسباط مَلْحمة » .

وليستِ النِّعْمة فى الولدَ المحيي[٥] ، والخلف الكافى ، بصغيرةٍ .

---

(١) ب : « الفقراء » ، تحريف .

(٢) ط : « ولا أجمل خطراً » .

(٣) ب : « ولسفه ذكر ولد له » بهذا النقص والتحريف . والإكمال والتصحيح من م ، ط ، مع زيادتى لكلمة « وقد » . وفى البيان ٢ : ١٤٥ : « وقال مدينى لعبد الملك بن مروان ودخل عليه بنوه » . على أن الخبر قد روى فى مجالس ثعلب ٢٢٧ فى قصة دخول الوفود إلى الوليد بن يزيد حين بايع لابنيه الحكم وعثمان .

(٤) ب فقط : « بنوة » بتقديم الباء .

(٥) ب ، م : « المحوى » صوابه فى ط . والمراد المحيي لذكر والده .

٨ — فصــل منــه

وباب آخر : وهو أنَّ الله تعالى خلق من المرأة ولداً من غير ذكر ، ولم يخلُق من الرّجل ولداً من غير أُنثى . فخصَّ بالآيةِ العجيبة والبرهان المنيرِ المرأة دون الرّجُل ، كما خلق المسيحَ فى بطن مريمَ من غير ذكر .

٩ — فصل منه فى ذكر القرابات

وأمَّا أنا فإنِّى أقول : إنَّ تباغض الأَقرباء عارضٌ دخيل ، وتحابَّهُم واطدٌ أَصيل ، والسَّلامة من ذلك أَعمّ ، والتَّناصر أَظهر ، والتَّصادق فى المودَّة أَكثر . فلذلك القبيلةُ تنزِلُ معاً وترحلُ معاً ، وتُحارب من ناوأَها معاً ، إلَّا الشاذَّ النادر ، كخروج غنىٍّ وباهلة من غطفان ، وكنزول عبسٍ فى بنى عامر ، وما أَشبه ذلك[(١)] . وإلَّا فإنَّ القرابة يدٌ واحدة على من ناوأَهم[(٢)] ، وسيفٌ واحد على من عاداهم[(٣)] ، وما صلاحُ شأْنِ العشائر إلَّا بتقارب سادَتهم فى القدْر ، وإنْ تفاوتوا[(٤)] فى الرِّياسة والفضل ، كما قال[(٥)] فى الأَثر المستفيض : « لا يزال النَّاسُ بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقارَبُوا هلكوا » .

وحالُ العامَّة فى ذلك كحال الخاصَّة .

١٠ — فصــل منــه

وقضيَّةٌ واجبة : أَنَّ الناس لا يُصلحهم إلَّا رئيسٌ واحد ، يجمع شَمْلَهم ، ويكفيهم ويحميهم مِن عدوّهم ، ويَمنع قويَّهم من ضعيفهم .

---

(١) ذلك ، من ط فقط .
(٢) م : « ناوى لهم » ، تحريف .
(٣) م : « من عادلهم » ، تحريف .
(٤) م ، ب : « وإن يتفاوتوا » .
(٥) كذا . والوجه « قيل » .

وقليلٌ له نظام ، أقوى من كثيرٍ نَشَرٍ [١] لا نظام لهم ، ولا رئيسَ عليهم . إذْ قد علم الله [٢] أنَّ صلاحَ عامَّة البهائم فى أن يجعل لكلِّ جنسٍ [٣] منها فحلًا يُورِدها الماءَ ويُصدِرها ، وتتبعُه إلى الكلأ ، كالعَيْر فى العانة [٤] ، والفحل من الإبل فى الهجمة [٥] ، وكذلك النَّحلُ العَسَّالة [٦] ، والكراكىّ [٧] ، وما يحمى الفرسُ الحِصانُ الحُجورَ فى المُروج [٨] ، فجعل منها رءُوساً متبوعة ، وأذناباً تابعة .

ولو لم يُقِمِ اللهُ للنَّاسِ الوزَعَة من السُّلطان ، والحُماةَ من المُلوكِ وأهلِ الحِياطة عليهم من الأئمة ـ لعادوا نَشَراً [٩] لا نظامَ لهم ، ومُستكلِبينَ لا زاجر لهم ، ولكان مَن عَزَّ بَزّ [١٠] ، ومَنْ قدر قهر ، ولمَا زال اليُسر راكداً ، والهَرْج ظاهراً ، حتَّى يكون التغابُنُ والبَوَار [١١] ، وحتَّى تنطمسَ

---

(١) النشر ، بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس . وهذه الكلمة ساقطة من ط .

(٢) ط : « الله سبحانه وتعالى » .

(٣) ب : « فى كل جنس » .

(٤) العانة : القطيع من حمر الوحش . وانظر لعير العانة الحيوان ١ : ١١٠ ، ١٩٥ / ٧ : ١٤١ . وفى جميع النسخ : « الغابة » ، صوابه ما أثبت .

(٥) فى الأصول : « والفحل فى الإبل » . وفى ط أيضاً : « والهجمة » ، والوجه ما أثبت .

(٦) انظر الحيوان ١ : ١٩ / ٣ : ٣٢٩ / ٥ : ٤١٧ .

(٧) الحيوان ٣ : ٣٢٨ ، ٤٠٦ / ٥ : ٤١٩ .

(٨) الحجور : جمع حجر ، بالكسر ، الفرس الأنثى . ويقال فى جمعه أحجار وحجورة أيضاً . وانظر الحيوان ٧ : ١٤١ .

(٩) انظر للنشر ما سبق قريباً فى هذه الصفحة . ب : « نشزا » ط : « نثرا » ، صوابهما فى م .

(١٠) ب : « من عز يزل غيره » ، صوابه فى م ، ط . وانظر جمهرة العسكرى ٢ : ٢٨٨ والفاخر ٨٩ والميدانى ٢ : ٢٣٥ والمستقصى ٢ : ٣٥٧ واللسان (بزز) . ومعناه من غلب سلب . قاله جابر بن رألان السنبسى لما أقرع النعمان يوم بؤسه بينه وبين صاحبيه ، فقرعهما فخلى سبيله .

(١١) التغابن : أن يغبن القوم بعضهم بعضاً . ب : « التغانى » ، صوابه فى م ، ط .

منهم الآثار [١] ؛ ولكانت الأنعام طعاماً للسِّباع ، وكانت عاجزة عن حماية أنفُسها ، جاهلةً بكثير من مصالح شأنها .

فوصَلَ الله تعالى عجزَها بقوَّةِ مَن أحوجَه إلى الاستمتاع بها ، ووَصَلَ جهلها بمعرفةِ مَنْ عرف كيف وجهُ الحيلة فى صَوْنها والدِّفاعِ عنها .

وكذلك فرض على الأئمّة أنْ يحوطوا الدَّهْماءَ [٢] بالحِراسةِ لها ، والذِّيادِ عنها [٣] ، وبِرَدِّ قويِّها عن ضعيفِها [٤] ،وجاهِلِها عن عالمِها ، وظالمِها عن مظلومها ، وسفيهِها عن حليمها .

فلولا السَّائس ضاع المَسُوس ، ولولا قُوَّةُ الراعى لهلكت الرَّعيَّة [٥] .

١١ ــ فصــل منــه

وانفرادُ السيِّد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة . وبالسَّلامة من تنازع الرؤساءِ تجتمع الكلمة ، وتكون الأُلفة ، ويصلُحُ شأْنُ الجماعة . وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء ، وانقطعت الأهواء [٦] .

١٢ ــ فصــل منــه

ولسنا نقول ولا يقول أحدٌ ممن يعقل : إنَّ النِّساءَ فوق الرِّجال ، أو دونهم بطبقةٍ أو طبقتين ، أو بأكثر [٧] ، ولكنَّا رأينا ناساً يُزْرُون عليهنَّ أشدَّ الزِّراية ، ويحتقرونهنَّ أشدَّ الاحتقار ، ويَبْخسونهنّ أكثرَ حقوقهنّ .

(١) ب ، م : « ينطمس » ، وفى ب : « منه الآثار » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) ب : « أن يحيط الدهماء » ط : « أن يحوطوها » م : « أن يحوط الدهماء » ، والوجه ما أثبت .
(٣) فى الأصول : « والذيادة عنها » ، صوابه ما أثبت . والذياد والذود : الدفاع .
(٤) ب : « وترد » ، م ، ط : « ويرد » ، والوجه ما أثبت .
(٥) ب : « هلكت الرعية » .
(٦) ب ، م : « وانقطع الأهواء » .
(٧) ب ، م : « إلا بأكثر » ، صوابه فى ط .

وإنَّ من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفيرَ حقوق الاباء والأَعمام إلَّا بأَن ينكر حقوق الأُمَّهات والأَخوال ، فلذلك ذكرنا جملةَ ما للنِّساءِ من المحاسن .

ولولا أنَّ ناساً يفخرون بالجَلد وقُوَّة المُنَّة ، وانصرافِ النَّفس عن حبِّ النِّساءِ ، حتَّى جعَلُوا شدَّة حُبِّ الرَّجلِ لأَمَتِه ، وزَوجتِه وولدِه ، دليلًا على الضَّعف ، وباباً من الخوَر ، لما تكلَّفنا كثيراً مما شرطناه فى هذا الكتاب .

١٣ – فصل منه

كما نحبُّ أن يخرجَ هذا الكتابُ تامًّا ، ويكونَ للأَشكالِ الدَّاخلةِ فيه جامعاً ، وهو القول فيما للذُّكور والإِناث فى عامَّة أَصناف الحيوان ، وما أَمكن من ذلك ، حتَّى يحصَّل ما لكلّ جنسٍ منها(١) من الخِصال المحمودة والمذمومة . ثم يُجمعَ بين المحاسن منها والمسَاوى ، حتَّى يستبينَ لقارئ الكتاب نقصانُ المفضولِ من رجحان الفاضل ، بما جَاءَ فى ذلك من الكتابِ النَّاطق ، والخبرِ الصَّادق ، والشَّاهد العَدْل ، والمثل السائر . حتَّى يكون الكتاب عربيًّا أَعرابيًّا ، وسُنِّيًّا جماعيًّا ، وحتى يُجتَنَبَ(٢) فيه العويصُ والطُّرُق المتوعِّرة ، والأَلفاظُ المستنكرة ،وتلزيقُ المتكلِّفين(٣) ، وتلفيق أَصحاب الأَهواء من المتكلمين ، حتَّى نظرنا(٤) لمن لا يعلمُ مقاديرَ ما استخزَنها اللهُ من المنافع ، وغشَّاها من البرهانات(٥) ، وأَلزمَها من الدَّلالة عليه ، وأَنطقها به من الحُجَّة له .

---

(١) منها ، ساقطة من م ، ط .
(٢) ب : « وحتى يجبب » صوابه فى م ، ط .
(٣) فى اللسان : « الملزق – بتشديد الزاى – : الشىء ليس بالمحكم » .
(٤) ب ، م : « نظر » ، ط : « نظرا » ، والوجه ما أثبت .
(٥) ط فقط : « البراهين » .

فمنع من ذلك فرْط الكبْرَة[١] ، وإفراط العِلَّة ، وضعفُ المُنَّة ، وانحلال القوَّة .

فلما[٢] وافق هذا الكتابُ منَّا هذه الحال ، وألفى[٣] قلوبَنا على هذه الأشغال ، اجتنبْنا أن نقصِد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجُل والمرأة .

فلمَّا اعتزمنا على ما ابتدأْنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثرُ عددها ، وتبعُد غايتها ، فرأينا ، والله الموفِّقُ ، أنْ نقتصرَ منه[٤] على ما لا يبلغُ بالمستمع إلى السّآمة ، وبالمألوف إلى مجاوَزَة القدْر .

وليس ينبغى لكتُب الآداب والرِّياضَات أن يحمل أصحابُها على الجِدِّ الصِّرف ، وعلى العَقْل المحض ، وعلى الحقِّ المُرّ ، وعلى المعانى الصَّعبة ، التى تَستكِدُّ النُّفوسَ ، وتَستفرِغُ المجهود .

وللصبر غايةٌ ، وللاحتمال نهاية .

ولا بأْسَ بأن يكون الكتاب موشَّحاً ببعض الهزل . وعلى أنَّ الكتاب إذا كثُر هَزْله سَخُف ، كما أنَّه إذا كثر جِدُّه ثَقُل .

ولا بدَّ للكتاب من أن يكون فيه بعضُ ما ينشِّط القارئَ ، ويَنْفِى النُّعاسَ عن المستمِع . فمن وجد فى كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ، فليَعْلم أنَّ قصدنا فى ذلك إنَّما كان على جهة الاستدعاءِ لقلبه ، والاستمالةِ لسمعِه وبَصَره . واللهَ تعالى نسأَل التوفيق .

---

(١) فى جميع الأصول : « الكبوة » ، وجهه ما أثبت .
(٢) ب ، م : « فما » .
(٣) فى جميع الأصول : « وألقى » بالقاف .
(٤) ب : « أن أقتصر منه » .

١٤ — فصل منه فى ذكر العشق

ورجلان من الناس لا يَعْشقانِ عِشْق الأَعراب :

أَحدهما الفقير الْمُدقِع ، فإِنَّ قلبه يُشْغَلُ عن التوغُّل فيه وبلوغ أَقصاه .

والملكُ الضَّخمُ الشَّأْن ، لأَنَّ فى الرِّياسة الكبرى ، وفى جوازِ الأَمر ونَفاذِ النَّهى ، وفى مِلْك رقابِ الأُمم ، ما يَشغَلُ شَطْرَ قُوى العقل عن التوغُّل فى الحب ، والاحتراقِ فى العشق .

١٥ — فصل منه

كثيراً ما يعترى العُشَّاقَ والمحبِّينَ غير المُحْترِقين(١) ، كالرّجل تكون له(٢) جاريةٌ وقد حَلَّت من قلبه مَحَلاًّ ، وتمكَّنتْ منه تمكُّناً ، ولا يجتثُّ أَصلَ ذلك الحبِّ الغضْبةُ تعرِض ، وكثرةُ التأَذِّى بالخلافِ يكون منها ، فيَجدُ(٣) الفترة عنها [فى(٤)]بعضِ هذه الحالات التى تعرِض ، فيُظنُّ أَنَّه قد سلا ، أَو يُظنُّ أَنَّه فى عَزَائِهِ عنها(٥) على فقدها مُحتمِلًا ، فيبيعها(٦) إن كانت أَمة ، أَو يطلِّقها(٧) إن كانت زوجة ، فلا يَنْشَب ذلك الغضبُ أَنْ يزول ، وذلك الأَذى أَنْ يُنسَى ، فتتَحرَّكُ له الدفائن(٨) ، ويُثْمِر ذلك الغرْس ، فيُتبعُها قلبه ، فإِمَّا أَنْ يسترجعَ

---

(١) ب : « المحترفين » بالفاء .
(٢) ب ، م : « لا يجتنب » ، صوابه فى ط .
(٣) ط فقط : « فيوجد » .
(٤) ليست فى الأصول .
(٥) ط : « فتظن » و « أو تظن أنه » ، صوابه فى ب ، م . والعزاء : الصبر . ب : « فى غراية عنها » م ، ط : « فى عزاية عنها » ، والوجه ما أثبت .
(٦) م ، ط : « مبيعها » ، صوابه فى ب .
(٧) م ، ط : « أو طلاقها » .
(٨) ب : « فيتحرك له الدفائن » .

الأَمَةَ من مُبتاعها ، بأَضعافِ ثمنها ، أَو يسترجع الزوجة بعد أَن نُكِحَتْ . فإِنْ تصبَّرَ وأَمكنه الصَّبر لم يزَلْ معذَّباً ، وإِنْ أَطاع هواه واحتمل المكروه فهذا هو العَقَابيل والنُّكْس (١) .

فليحذَر الحازمُ الفَتْرةَ فى حبِّ حبيبه ، والغَضْبة التى تُنْسِيه عواقبَ أَمْرِه .

١٦ — فصل منه

قال إبراهيم بن السِّنْدىّ (٢) : حدَّثنى عبد الملك بن صالح (٣) قال : بينا عيسى بن موسى (٤) قد خَلَا بنفسه (٥) ، وهو قد كان استكثر من النِّساءِ حتَّى انقطع ، إذ مَرَّت بهِ جاريةٌ (٦) كأَنَّها جانٌّ ، وكأَنَّها جَدْل عِنان (٧) ، وكأَنَّها جُمَّارة ، وكأَنَّها قَضِيبُ فِضَّة ، فتحرَّكَتْ نفسُه ، وخاف أَن تَخذُلَه قُوّته ، ثم طمِع فى القوّةِ (٨) لطُول التَّرْك ، واجتماعِ الماءِ ، فلمّا صَرعَها ، وجلس منها ذلك المجلس خطر على باله لو عَجَزَ كَيْف يكون حاله (٩) ؟ فلما فكَّر فَتَر ، فأَقبلَ كالمخاطب لنفسه فقال : إنَّكِ لتجلسينى هذا المجلسَ ، وتحملينى على هذا المركَب ، ثم

---

(١) العقابيل : بقايا العلة والعشق والمرض ، الواحد عقبول وعقبولة . والنكس ، بالضم : عود المرض بعد النقه . وفى الأصول : « العقاقيل » ولا وجه له .

(٢) إبراهيم بن السندى ، سبقت ترجمته فى ص ٦٠ . ب : « بن السدى » م ، ط : « بن السبيدى » ، صوابهما ما أثبت .

(٣) انظر البيان والتبيين ١ : ٣٣٤ .

(٤) هو عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس ، أحد ولاة العباسيين وقوادهم . وأبوه موسى هو أخو السفاح والمنصور . انظر المعارف ١٦٥ .

(٥) ب ، م : « قد خلى بنفسه » تحريف .

(٦) ب : « إذ مرت جارية » .

(٧) أى عنان مجدول . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ .

(٨) ط : « فى لقوة » .

(٩) ب : « عن عجز كيف يكون حاله » ، تحريف .

تَخذُلِينى هذا الخِذلان(١) وتُغَشِّينى مثلَ هذا الذُّلّ ، ولولا حَيرة الخجَل(٢) لم أَستعمل مالَا يقتل ! وذلك أنّه حين رأى أنّ أبلغ الحيل فى توهيمها أن العجز لم يكن من قبله أن يقولَ لها : تَعَرَّضين لى وأنت تَفِلةٌ ، ثم لا تُرْخِينَ بادَّيْك(٣) ، ولا تَستهدِفينَ لسيِّدك ، ولا تُعينين على نَفْسِك ، حتّى كأنّكِ عند عبدٍ يُشْبِهُك ، أو سُوقةٍ لا يقدر إلّا على مِثلك(٤) . أمَا لو كُنتِ(٥) من بنات ملوك العَجَم لأَلفاكِ سيِّدُكِ على أجودِ صنعة ، وعلى أحسَنِ طاعة ، إذْ كلُّ رجلٍ ينبسِط للتمتُّع مع التَّفَل(٦) .

١٧ — فصل منه

ولم أَسمعْ ولم أَقرأْ فى الأَحاديث المولَّدة ، فى شأْن العُشّاق ، وما صَنَع العشقُ فى القلوب والأَكبادِ والأَحشاءِ ، والزَّفراتِ والحنين ، وفى التَّدلِيهِ والتَّوْلِيهِ(٧) ، متى تستعر الدَّمعَة(٨) ، ومتى يُورث العَيْنَ الجُمودُ(٩) .

---

(١) ب ، م : « لتجلسنى » و « وتحملنى » ، و « تخذلنى » ، والصواب فى ط . واجتماع نون الرفع مع نون الوقاية يجوز فيه حذف أحدهما أو إبقاؤهما معاً مع الفك ، ومع الإدغام ، كما فى المغنى ٣٨٠ . قال : « ونحو تأمرونّى يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة » .

(٢) ب ، م : « خيرة الخجل » بالخاء المعجمة ، تحريف .

(٣) البادان : باطنا الفخذين ، وما بين الرجلين ، ومنه قول الدهناء بنت مسحل : « إنى لأرخى لك بادى » . اللسان (بدد ٤٦) . ب : « لا ترحين » بالحاء المهملة ، ط ، م : « لا ترجين » ، والصواب ما أثبت . وفى ط أيضاً « بادئك » ، صوابه فى ب ، م .

(٤) ب : « على ملكك » م : « على ملك » ، صوابهما فى ط .

(٥) لو ، ساقطة من ب ، م .

(٦) ب : « يبسط » م : « تنبسط » ، صوابهما فى ط . وفى ب أيضاً : « مع الثقل » . وفى ط : « للمتمتع » ، تحريفان .

(٧) دلهه الحب تدليهاً : حيره وأدهشه ، فهو مدله . وكذا وله توليها : حيره وأذهب عقله . وفى م ، ط : « التدلية والتولية » ، صوابهما فى ب .

(٨) فى جميع الأصول : « ومتى » ، والوجه حذف الواو . وفى ب فقط : « الدمع » ، تحريف .

(٩) جمود العين : قلة دمعها . ب ، م : « متى يورب » ، والوجه ما أثبت . وفى ط : « ومتى يعترى » .

١٨ — فصل منه

ونحن وإنْ رأينا أَنَّ فَضْلَ الرَّجلِ على المرأة ، فى جملة القول فى الرِّجال والنساءِ ، أَكثرَ وأَظهر ، فليس ينبغى لنا أَن نقصِّر فى حقوق المرأة . وليس ينبغى لمن عظَّم حقوق الآباءِ أَن يصغِّر حقوق الأُمَّهات ، وكذلك الإِخوة والأَخوات ، والبَنُونَ والبنات . وأَنا وإن كنتُ أَرى أَنَّ حقَّ هذا أَعظم فإِنَّ هذه أَرحم .

١٩ — فصل من احتجاجه للإماء(١)

قال بعضُ من احتجَّ للعلة التى من أَجلها صار أَكثر الإِماءِ أَحظَى عند الرِّجال من أَكثَرِ المهيرات(٢) : أَنَّ الرجل قبل أَن يَملِكَ الأَمَة قد تأَمَّلَ كلَّ شىءٍ منها وعَرَفه ، ما خلا حُظْوة الخَلْوة ، فأَقدمَ(٣) على ابتياعها بعد وقُوعها بالموافقة . والحُرَّةُ إِنَّما يُستشار فى جَمَالها النِّسَاء ، والنِّساء لا يُبْصِرن من جمالِ النساءِ وحاجاتِ الرِّجال وموافَقَتِهِنَّ قليلًا ولا كثيراً . والرِّجالُ بالنِّساءِ أَبصر . وإِنَّما تَعرِف المرأَةُ من المرأَة ظاهرَ الصِّفة ، وأَمَّا(٤) الخصائصُ التى تقع بموافقة الرِّجال فإِنَّها لا تعرف ذلك .

وقد تُحْسِن المرأَةُ أَن تقول : كأَنَّ أَنفَها السَّيف ، وكأَنَّ عَينَها عينُ غَزَال ، وكأَنَّ عُنُقَها إِبريقُ فضة ، وكأَنَّ ساقَها جُمَّارة(٥) ، وكأَنَّ شَعْرها

---

(١) م فقط : « فى الإماء » .

(٢) المهيرة : التى تعطى المهر من الحرائر .

(٣) ب فقط : « فأقبل » .

(٤) ب : « فأما » .

(٥) ب فقط : « وكأنها » . والجمار : شحم النخل ، تشبه به الساق فى اللين والبياض . وفى الحديث : « كأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه كأنها جمارة » .

العناقيد ، وكان أَطرافَها المدارَى[(١)] ، وما أَشبه ذلك :

وهناك[(٢)] أَسبابٌ أُخَرُ بها يكون الحبُّ والبغض .

٢٠ — فصل منه

وقد علم الشاعرُ وعَرَف الواصفُ ، أَنَّ الجارية الفائقة الحسنِ أَحسَنُ من الظَّبية ، وأَحسَنُ من البقَرة ، وأَحسَنُ من كلِّ شيءٍ تشبَّه به ، ولكنَّهم إذا أَرادوا القولَ شبَّهوها بأَحسنِ ما يجدون .

ويقول بعضُهم : كأَنَّها الشمس ، وكأَنَّها القمر ! والشَّمسُ وإن كانت بهيَّةً فإنَّما هى شىءٌ واحد ، وفى وجه الجاريةِ الحسناءِ وخَلْقها ضروبٌ من الحسن الغريب والتركيب العجيب .

ومَنْ يشكُّ أَنَّ عينَ المرأَةِ الحسناءِ أَحسَنُ من عين البقرة ، وأَنَّ جِيدَها أَحسنُ من جِيد الظبية ، والأَمر[(٣)] فيما بينَهما متفاوِت ، ولكنَّهم لو لم يفعلوا هذا وشِبْهَه لم تَظهر بلاغتُهم وفِطْنتُهم .

٢١ — فصل منه

ورأَيتُ أَكثرَ النَّاس من البُصَراء بجواهرِ النساءِ[(٤)] ، الذين هم جَهابذةُ هذا الأَمر ، يقدِّمون المجدُولة[(٥)] ، والمجدُولة من النساءِ تكون فى منزلةٍ بين السَّمينة والممشوقة .

ولا بدَّ من جَودة القَدِّ ، وحُسْن الخَرْط ، واعتدالِ المَنكبين ،

(١) أطرافها ، أى أطراف أصابعها . والمدارى بكسر الراء وفتحها : جمع مدرى ومدراة ، وهى شيء يعمل من حديد أو خشب على هيئة سن من أسنان المشط . تشبه به فى الدقة .

(٢) ب : « هناك » بدون واو .

(٣) الواو ساقطة من ب .

(٤) ب : « لجواهر النساء » .

(٥) ب ، م : « المجذولة » . فى هذا الموضع وتاليه ، تصحيف .

واستواءِ الظَّهر ، ولا بدَّ من أَن تكون كاسيةَ العِظام ، بين الممتلئة والقَضِيفة .

وإنَّما يريدون بقولهم : مجدُولة[١] ، جودةَ العَصَب ، وقِلَّة الاسترخاءِ، وأَن تكون سليمةً من الزَّوائد والفُضول .

وكذلك قالوا : خُمصانة وسَيْفانة[٢] ، وكأَنَّها جانٌّ ، وكأَنَّها جَدْل عِنان[٣] ، وكأَنَّها قضيبُ خَيزُران .

والتثنِّي في مَشْيها أَحسَنُ ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضَّخمةَ والسَّمينةَ ، وذاتَ الفضول والزَّوائد .

على أَنَّ النَّحافة في المجدُولة[٤] أَعمّ ، وهي بهذا المعنى أَعرف[٥] ، تُحبَّبُ على السِّمان الضخام[٦] ، وعلى الممشوقات والقِضاف[٧] ، كما يحَبَّب هذه الأَصناف على المجدُولات[٨] .

ووصفوا المجدُولة بالكلام[٩] المنثور فقالوا : « أَعلاها قَضيب ، وأَسْفَلُها كثيب » .

---

(١) ب ، م : « مجذولة » ، تصحيف ما في ط .
(٢) الخمصانة ، بفتح الخاء وضمها : الضامرة البطن . والسيفانة : الطويلة المشوقة الضيامرة . ب : « خصمانه » ، صوابه في م ، ط . وفي ط : « سيقانة » ، صوابه بالفاء كما في ب ، م .
(٣) انظر الحاشية ٧ من ص ١٥٥ .
(٤) ب ، م : « المجذولة » في هذا الموضع وتاليه ، والصواب في ط .
(٥) بعدها في جميع النسخ : « ولم أر المجدولة أعم وهي بهذا المعنى أعرف » ، وهو تكرار لما سبق .
(٦) ب ، م : « تجيب على أصحاب السمان الضخام » ، وأثبت ما في ط .
(٧) القضيفة : الدقيقة النحيفة لا عن هزال . ب ، م : « أصحاب المشوقات والقضاف » .
(٨) ب : « كما يجيب » ، وأثبت ما في م ، ط . وفي ب ، م أيضاً : « أصناف المجذولات » ، صوابه في ط .
(٩) ب : « المجزولة » م : « المجذولة » ، صوابه في ط .

٧

من رسالة فى

مَناقب التُّرك وعامَّة جُند الخِلافة

فصل من صدر رسالته إلى الفتح بن خاقان [١]
فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة [٢]

وفّقك الله لرُشدك[٣] ، وأعان على شكرك[٤] ، وأصلحك وأصلح على يديك ، وجعلنا وإيّاك ممن يقول بالحقّ ويعملُ به ، ويُؤْثره ، ويحتمل ما فيه مما قد يصدُّ عنه[٥] ، ولا يكون حظُّه منه[٦] الوصفَ له ، والمعرفةَ به ، دون الحثِّ عليه ، والانقطاعِ إليه ، وكَشْفِ القناع فيه[٧] ، وإيصاله إلى أهله ، والصَّبرِ على المحافظةِ فى أنْ لا يصلَ إلى غيرهم ، والتَّثبُّتِ فى تحقيقه لديهم ؛ فإنَّ الله تعالى لم يُعلِّم النَّاسَ ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين ، وإنَّما علَّمهم ليعملوا[٨] ، وبيَّن لهم ليَتَّقوا[٩] التورُّطَ فى وسَط الخَوْف ، والوقوعَ فى المضارّ ، والتوسُّط فى المهالك . فلذلك طلبَ الناس التبيُّن[١٠] .

(١) الفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسى . وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء . وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها : كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ .

وهو غير الفتح بن محمد عبيد الله بن خاقان ، صاحب قلائد العقيان . انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ — ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) نشرت كاملة فى ليدن ١٩٠٣ م بعناية فان فلوتن ، كما نشرها الساسى فى مجموع رسائله سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م كما نشرت فى رسائل الجاحظ بتحقيق سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م . وقد رمزت للأولى هنا بالرمز (ن) وللثانية بالرمز (مج) .

(٣) فى جميع الأصول : « وأرشدك » ، وأثبت ما فى مج والرسائل ١ : ٥ هارون .

(٤) ط ، م : « وأعانك على شكره » .

(٥) ب : « يصدر عنه » ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى مج والرسائل : « مما قد يصده عنه »

(٦) منه ، ساقطة من الأصول ، ثابتة فى مج والرسائل .

(٧) مج فقط : « عنه » .

(٨) ب ، ط : « ليعلموا » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٩) ب : « ليتقنوا » صوابه فى م ، ط والرسائل . وبعد هذه الكلمة فى مج فقط : « والخوف الوقوع فى المضار ، والتورط فى المهالك ، طلب الناس التبين » .

(١٠) م ، ط فقط : « التبيين » .

ولحبِّ السَّلامة من الهَلَكة ، والرَّغبة فى المَنفعة احتملوا(١) ثِقَل التعلم ، وتعجَّلُوا مكروه ثِقَل المعاناة(٢) .

ولقلَّة العاملين وكثرة الواصِفين قال الأوَّلون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين .

وإنَّما كثُرت الصِّفاتُ وقلَّت الموصوفاتُ لأنَّ ثواب العمل مؤجَّل ، واحتمالَ ما فيه معجّل .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شغَفِك(٣) بطاعة إمامك ، واحتجاجك لتدبير خليفتك ، وإشفاقِك من كلِّ خَللٍ يدخله وإنْ دقَّ ، ونالَ سُلطانَه(٤) وإنْ صغر ، ومن كلِّ أَمرٍ خالَفَ هواه وإنْ خفىَ مكانه ، وجانَب رضاه وإنْ قلَّ ضرره . ومن تخوُّفك(٥) أن يجدَ(٦) المتأوِّل إليه متطرَّقاً ، والعدوُّ عليه متعلِّقاً ؛ فإن السُّلطان لا ينفكُّ من متأوِّلٍ ناقمٍ ، ومن محكومٍ عليه ساخط ، ومن معزول(٧) عن الحكم زارٍ ، ومن متعطِّل متصفِّح ، ومن مُعجَبٍ برأيه ، ذى خَطَلٍ فى بيانِه ، مُولعٍ بتهجين الصَّواب ، وبالاعتراض على التَّدبير ، حتَّى كأنَّه رائدٌ لجميع الأُمة ، ووكيلٌ لسكَّان جميع المملكة ؛ يضَعُ نفسَه فى مواضع الرُّقباءِ ، وفى مواضع التصفُّح على الخلفاءِ والوُزراءِ . لا يَعْذِرُ وإنْ كانَ مَجازُ العُذْر ظاهراً ، ولا يقف فيما يكون للشَّكِّ محتمِلا ، ولا يصدِّق بأنَّ الشاهدَ

(١) ب فقط : « احتمل » .
(٢) مج والرسائل : « مكروه المعاناة » .
(٣) ب فقط : « شغلك » .
(٤) ط فقط : « ونول سلطانه » .
(٥) ب ، م : « وإن تخونك » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٦) فى جميع الأصول : « أن تجد » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٧) مج والرسائل : « معدول » بالدال ، وله وجهه .

يرى ما لا يرى الغائب ، وأنّه لا يَعرف مَصادر الرّأى من لم يَشْهَد موارِدَه ، ومُسْتَدْبَرَه من لم يَعرِفْ مُستقبلَه .

ومن محرومٍ قد أَضْعَفه الحِرمان ، ومن لئيم قد أَفسَدُهُ الإحسان ، ومن مستبطىءٍ قد أَخَذَ أَضعافَ حقِّه ، وهو لجهله بقَدْره ، ولضِيق ذَرْعِه ، وقلَّةِ شُكره ، يظنُّ أَنَّ الذى بَقِيَ له أكثر ، ولحقِّهِ أَوْجَب .

ومن مستزيدٍ لو ارتجَعَ السُّلطانُ سالفَ أَياديه البيضِ عنده ، ونِعمتَه السَّالفة عليه ، لكان[(١)] لذلك أَهلًا ، وله مستحقًّا . قد غرَّه الأَمل[(٢)] ، وأَبطَرُه دَوامُ الكِفاية ، وأَفسده طولُ الفراغ .

ومِن صاحبِ فتْنة[(٣)] خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة نَعَّاق فى الهَرْج ، قد أَقصاه عِزُّ السُّلطان[(٤)] ، وأَقام صَغْوَه ثِقافُ الأَدب[(٥)] ، وأَذلَّه الحُكْم بالحقِّ[(٦)] ، فهو مَغِيظٌ لا يجد غير التشنيع[(٧)] ، ولا يتشفَّى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلَّا إلى الأَمانىّ[(٨)] ، ولا يأْنس إلَّا بكلِّ مُرجِفٍ كذَّاب ، ومُفتونٍ مُرْتاب ، وخارصٍ لا خير فيه ، وخالفٍ لا غَنَاءَ عنده ، يُريد أَن يسوَّى بالكُفاة ، ويُرفَع فوق الحُماة ، لأَمْرٍ ما سَلَفَ[(٩)] له ، ولإحسانٍ كانَ من غيره[(١٠)] ، وليس ممن يربُّ قديمَ مجد[(١١)] ، ولا يحفل

---

(١) ب ، م : « ولكان » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٢) ب ، مج ورسائل الجاحظ : « الإملاء » .
(٣) ط : « للفتنة » .
(٤) وكذا فى مج . وفى رسائل الجاحظ : « قد أقصاه السلطان » .
(٥) الصغو ، بالكسر والفتح : الميل . وفى جميع النسخ : « صغره » ، صوابه فى مج .
(٦) ب ، م : « الحلم بالحق » وفى ط « الجهل بالحق » ، صوابهما فى مج ورسائل الجاحظ .
(٧) ب : « التشييع » ، صوابه فى م ، ط ، مج ورسائل الجاحظ .
(٨) ب : « إلا بالأمانى » .
(٩) ب : « لايسلف له » م ، ط : « لا أب سلف له » ، صوابهما فى رسائل الجاحظ . وفى مج : « لأمر سلف له .
(١٠) ط فقط : « وإحسان كان من غيره » .
(١١) ط : « يربه قديم مجد » . مج ورسائل الجاحظ : « يرب قديماًبحديث » .

بُدروس شرف[١] ، ولا يَفْصِل بين ثواب[المحتسبين ، وبين الحفظ لأَبناء[٢]] المُحْسنين .

وكيف يعرف فَرقَ ما بين حَقِّ الذِّمام[٣] وثَوابِ الكِفاية مَنْ لا يعرف طبقاتِ الحقِّ فى مراتبه ، ولا يَفْصِلُ بين طبقات الباطل[٤] فى منازله .

ثم اعلمْ[٥] بعد ذلك أَنَّك بنفسك بدأْتَ فى تعظيم إمامك ، والحفظِ لمناقب أَنْصار خليفتك[٦] ، وإيَّاها حُطْتَ بحياطتك[٧] لأَشياعِه ، واحتجاجك لأَوليائه ، ونعم العون أَنت ، إن شاءَ الله ، على ملازمةِ الطَّاعة ، والمُوازرة على الخير[٨] ، والكفايةِ لأَهل الحقِّ .

وقد استدللْتُ بالذى أَرى من شدة عِنايتك[٩] وفَرط اكتراثك ، وتفقُّدِك لأَجناس الأَعداءِ[١٠] ، وبحثك عن مناقب الأَولياءِ – على أَنَّ ما ظَهَر من نُصحِك أَمَمٌ فى جَنْب ما بَطَنَ من إخلاصك[١١] . فأَمتع

(١) ط : « ولا يحفل به رءوس شرفا » صوابه فى سائر النسخ .
(٢) التكملة من مج والرسائل .
(٣) الذمام ، بكسر الذال : الحق والحرمة ، وكل حرمة تلزمك إذا ضيعتها المذمة . ب : « فوق ما بين حق الزمام » ، تحريف .
(٤) ب فقط : « المبطل » ، تحريف .
(٥) مج والرسائل : « ثم أعلمتنى » .
(٦) ب : « والحفظ بمناقب أبصار لخليفتك » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٧) فى الأصول : « لحياطتك » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .
(٨) ب فقط : « والموازنة » ، تحريف .
(٩) من ، ساقطة من ب ، م . وكلمة « شدة » من مج والرسائل .
(١٠) فى الأصول : « ولفقدك » ، صوابه فى مج والرسائل . وفى مج والرسائل : « لأخابير الأعداء » . والأخابير : جمع جمع لخبر ، كما فى اللسان .
(١١) الأمم : اليسير . وأنشد ياقوت فى معجم البلدان :

تسألنى برامتين سلجمـــا يا هنــد لو سألت شيئاً أمما
جاء به الكرى أو تيمما

الله بك خليفتَه ، ومَنَحنا وإيَّاك محبَّتَه ، وأَعاذنا وإيَّاك من قَول الزُّور ، والتقرُّب بالباطل ، إنَّه حميدٌ مَجيد ، فعَّالٌ لما يريد .

وذكرتَ أنَّك جالستَ أخلاطاً من جُنْد الخلافة ، وجماعاتٍ من أَبناءِ الدَّعوة ، وشيوخاً من جِلَّة الشِّيعة[(١)] ، وكُهولًا من أَبناءِ رجال الدولة ، المنسوبين إلى الطاعة والمُناصحة ، ومحبَّة الدَّيْنُونة[(٢)] دون محبَّة الرَّغبة والرهبة ، وأنَّ رجُلًا من عُرْض تلك الجماعة[(٣)] ارتجل الكلام ارتجالَ مستبدٍّ ، وتفرَّد به تفرُّدَ مُعجَب ، وأنَّه تعسَّف المعانىَ وتهجَّم على الألفاظ[(٤)] فزعم أنَّ جند الخلافة اليومَ على خمسة أقسام : خُراسانىٌّ ، وتُركىٌّ ، ومَولىً ، وعربىٌّ ، وبَنَوىٌّ[(٥)] ، وأنَّه أكثَرَ حمدَ الله وشُكره على إحسانه ومِنَّته ، وعلى جميع أيادِيه ، وسبوغ نِعَمه[(٦)] ، وعلى شُمول عافيته ، وجزيل مواهبه ، حين ألَّف على الطاعة هذه

---

(١) الجلة : جمع جليل ، وهو ذو الخطر والشأن . وفى الأصول : « من جملة الشيعة » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٢) الدينونة : الطاعة ، من الدين بالكسر . وهذا ما فى م . وفى ب : « ومحبة الدنيوية » ، وفى ط والرسائل : « والمحبة الدينية » . وفى مج : « والمناصحة الدينية . والدينونة لم ترد فى المعاجم المتداولة . وفى اللسان (كون) : « قال الفراء : العرب تقول فى ذوات الياء مما يشبه زغت وسرت : طرت طيرورة ، وحدت حيدودة ، فيما لا يحصى من هذا الضرب .

فأما ذوات الواو مثل قلت ورضت فإنهم لا يقولون ذلك . وقد أتى عنهم فى أربعة أحرف ، منها الكينونة من كنت ، والديمومة من دمت ، والهيعوعة من الهواع ، والسيدودة من سدت » .

(٣) ب ، م : « الجملة » ، وأثبت ما فى ط ومج والرسائل . وبعده فيهما : « ومن حاشية تلك الجلة » .

(٤) فى جميع الأصول : « وتهكم » بالكاف ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) البنوى : نسبة إلى واحد الأبناء . ويقال أيضاً « أبناوى » نسبة إلى الجمع ، وهم قوم أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن حين جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديروها ، وتزوجوا فى العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . اللسان (بنو) والتنبيه والإشراف ٤٢١ . ويبدو أن جميع الذين اجتذبتهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء . وفى جميع الأصول : « وبنوفى » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٦) مج والرسائل : « وسابغ نعمه » .

القلوبَ المختلفة ، والأَجناسَ المتباينة ، والأَهواءَ المتفرقة ، وأَنَّكَ اعترضت على هذا المتكلِّم المستبدِّ ، وعلى هذا القائل المتكلِّفِ الذى قسَّم هذه الأَقسام ، وخالفَ بين هذه الأَركان ، وفضَّل بين أنسابهم . وأَنَّك أَنكرت ذلك عليه أَشدَّ الإِنكار ، وقذعته أَشدَّ القذْع .

وزعمت أَنَّهم لم يخرجوا من الاتِّفاق ، أَوْ مِن شيءٍ يَقرُب من الاتِّفاق[١] ، وأَنَّك نَفَيْتَ[٢] التباعُدَ فى النَّسَب ، والتَّبايُنَ فى السَّبب .

وقلتَ : بل أَزْعُمُ أَنَّ الخراسانىَّ والتُّركىَّ أَخَوانِ ، وأَن الحيِّز واحد ، وأَنَّ حُكْمَ ذلك الشَّرق[٣] ، والقضيَّة على ذلك الصُّقْع[٤] متَّفِق غير مختلف ، وَمتقاربٌ غيرُ متفاوت ، وأَنَّ الأَعراقَ فى الأَصل إن لا تكن[٥] كانت راسخة ، فقد كانت متشابهة ، وحُدود البلاد المشتملةِ عليهم إن لا تكن[٦] متساويةً فإِنَّها متناسِبة ، وكلُّهم خُراسانىٌّ فى الجملة ، وإن تميَّزُوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعضِ الوجُوه .

وزعمتَ أَنَّ اختلاف التركىِّ والخُراسانِّى ليس كاختلاف ما بين الرُّومىِّ والصَّقْلبىّ ، والزِّنجِّى والحبشىّ ، فضلًا على ما هو[٧] أَبعدُ جوهراً ، وأَشدُّ خلافاً ، بل كاختلاف ما بين المَدَرىِّ والوَبَرىِّ ، والبدَوىِّ والحَضَرىّ ، والسُّهلىِّ والجَبَلىّ ، وكاختلاف ما بين مَن نزل البُطونَ وبين

---

(١) أو من شيء يقرب من الاتفاق ، ساقط من م ، ط وإن كان قد ورد بهامش م بخط مخالف .

(٢) مج والرسائل : « وأنك أنكرت » .

(٣) ب فقط : « الشرف » بالفاء ، صوابه فى سائر النسخ .

(٤) ط : « والقضاء » بدل « القضية » . وفى م : « ذلك الصنع » ، تحريف .

(٥) ط : « إذا لم تكن » مج : « إن لم تكن راسخة » .

(٦) مج : « إن لم تكن » .

(٧) مج والرسائل : فضلا عما هو .

من نزل النجود(١) ، وبين من نزل الأغوار(٢) .

وزعمتَ أنَّ هؤلاءِ وإن اختلفوا فى بعض اللُّغة ، وفارقَ بعضُهم بعضاً فى بعض الصُّورة(٣) ، فقد نجد أنَّ عُلْيا تَميمٍ(٤) ، وسُفلَى قَيْس ، وعَجُز هَوازن(٥) ،وفصحاءِ الحجاز ، خلافُ لغةِ حِمْيَر(٦) وسكَّانِ مَخاليف اليمن ، وكذلك الصُّورة والصُّورة ، والشَّمائل والشَّمائل ، والأَخلاق والأَخلاق . وكلُّهم مع ذلك عربيٌّ خالصٌ غير مَشُوب ، ولا مُعَلْهَج ولا مذرّع(٧) ولا مزلَّج(٨) . ولم يختلفوا كاختلاف ما بين

(١) النجود : جمع نجد ، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع واستوى ، والجمع أنجد ، وأنجاد ، ونجاد ، ونجود ، ونجد . ب ، ط : « البحور » تحريف ، صوابه فى م مع أثر تصحيح ، وكذا فى مج والرسائل .

(٢) الأغوار : جمع غور ، وهو ما انخفض من الأرض . ب : « الأهواز » م : « الأغوال » ، صوابهما فى ط ، مج والرسائل .

(٣) ب : « وقارب بعضهم بعضاً وبعض للصورة » ،صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل ، لكن فى ط : « وبعض الصورة » تحريف .

(٤) مج والرسائل : « فقد تخالفت عليا تميم » . وعليا تميم ، أو عالية تميم هم بنو عمرو بن تميم ، وهم بنو الهجيم والعنبر ومازن ، كما فى اللسان (علا ٣٢٦) . وفى الصاحبى ٢٨ والمزهر ١ : ٢١١ : « أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم » . وفى البرهان للزركشى : ٢٨٣ : « وأما سفلى تميم فبنو دارم » . وهم بنو دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم .

(٥) فى الصاحبى ٢٨ والمزهر ١ : ٢١٠ : « العجز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف » . وفى اللسان : « عجز هوازن : بنو نصر بن معاوية ، وبنو جشم بن بكر ، كأنه آخرهم » . ويبدو أن الوصف بالعليا والسفلى راجع إلى الموقع الإقليمى . فعليا تميم : من يسكنون العالية ، وهى ما ولى الحجاز وتهامة . وسفلاهم : من يسكنون السافلة ، وهى ما ولى العراق . وتميم كلها مشهود لها بالفصاحة .

(٦) مج والرسائل : « وهى فى أكثرها على خلاف لغة حمير » .

(٧) المعلهج : الهجين ، وهو العربى المولود من أمة . والمذرع : الذى أمه عربية وأبوه عربى . وأنشد :

إذا باهلى عنده حنظلية   لها ولد منه فذاك المذرع

وفى جميع النسخ : « ولا مربوع » ، صوابه فى مج والرسائل وهامش م .

(٨) المزلج : الدعى ، والملزق بالقوم وليس منهم ، كأنهم يزلجونه عن أنسابهم لعدم أصالته . ب فقط : « مزنج » ، صوابه فى م ، ط ومج والرسائل .

قَحَطانَ وعَدْنان ، مِنْ قِبَلِ ما طبع اللهُ عليه تلك التُّربةَ من خصائص الغرائز ، وما قَسَم لأَهلِ كلِّ جزيرةٍ من الشَّكل والصُّورة ، ومن الأَخلاق واللغة .

فإنْ قلتَ : وكيف صار أَولادُهما جميعاً عَرَباً ، مع اختلاف الأُبوَّة ؟

قلنا : إنَّ الجزيرة لمَّا كانت واحدةً فاستوَوْا[1] فى التُّربة وفى اللُّغة ، وفى الشَّمائل والهمّة ، وفى الأَنَف والحميَّة ، وفى الأَخلاق [والسجيَّة[2]] ، فسبكوا سبكاً واحداً ، تشابهت الأَجزاءُ وتناسبت الأَخلاط[3] ، حتى صار ذلك أَشدَّ تشابهاً فى باب الأَعمِّ والأَخصّ ، وفى باب الوفاق والمباينة[4] من بعضِ الأَرحام ، وجرى عليهم حُكم الاتِّفاق فى الحسَب[5] ، وصارت هذه الأَسبابُ وِلادةً أُخرى حتَّى تناكَحُوا عليها ، وتصاهَروا من أَجْلها . وامتنعت عَدنانُ قاطبةً من مناكحة بنى إسحاق ، وهو أَخو إسماعيل ، وجادُوا[6] بذلك فى جميع الدَّهر لبنى قحطان[7] .

فنى إجماع الفريقين على التَّناكُح والتَّصاهُر ، ومنعِهما ذلك جميعَ الأُمَم ، ككسرى[8] فمن دونه ، دليل على أَنَّ النَّسبَ[9] عندهم متَّفق ، وأَنَّ هذه المعانىَ قد قامت عندهم مقامَ الولادةِ والأَرحامِ الماسَّة .

---

(١) ط فقط : « استووا » بدون فاء .
(٢) التكملة من مج والرسائل .
(٣) ب ، م : « وتباينت الأخلاط » ، ط : « وتباينت الأخلاق » ، صوابهما فى مج والرسائل .
(٤) فى الأصول : « وفى باب الوفاق وفى البنية » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٥) فى الأصول : « وفى الحسب » ، والوجه حذف الواو كما فى مج والرسائل .
(٦) جادوا ، أى سمحوا . وفى الأصول : « وجازوا » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٧) فى الأصول : « وكبنى قحطان » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .
(٨) ب فقط : « كسرى » .
(٩) ب ، م : « دليل على النسب » ، تحريف .

وزعمت أَنَّه أَراد الفُرقة والتَّحْزِيب [١] ، وأَنك أَردت الأُلفة والتقريب [٢] .

ثم زعمت أَيضاً أَن البَنَوىَّ [٣] خُراسانىٌّ ، وأَنَّ نسب الأَبناءِ نسب آبائهم ، وأَنَّ حُسْنَ صنيعِ الآباء ، وقديمَ فَعالِ الأَجداد ، هو حَسَبُ الأَبناءِ ، وأَنَّ الموالىَ بالعرب أَشبَهُ ، وإِليهمْ أَقرب ، وبِهِمْ أَمَسُّ ؛ لأَنَّ السُّنَّة [٤] قد نقلت الموالىَ إِلى العرب فى كثيرٍ من المعانى ، لأَنهم عربٌ فى المدَّعَى ، وفى العاقِلة ، وفى الوراثة [٥] . وهذا تأْويل قوله [٦] : « مَولَى القومِ منهم [٧] » . و « الولاءُ لُحمةٌ كلُحْمة النَّسَب [٨] » .

ثم زعمتَ أَنَّ الأَتراكَ قد شاركوا القومَ فى هذا النَّسب ، وصاروا من العرب بهذا السَّبب ، مع الذى بانُوا به من الخلال ، وحُبُوا به من شرَف الخصال .

على أَنَّ ولاءَ الأَتراك لِلُبابِ قريش ، ولِمُصَاصِ عبدِ مناف ، [وهم [٩]] فى سرِّ هاشم ، وهاشمٌ مَوضِعَ العِذار من خَدِّ الفرس ، ومحلَّ العِقْد

---

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً وفرقاً . ب : « والتخريب » م : « والتخويف » ط : « والتحزب » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٢) ط فقط : « والتقرب » .

(٣) فى الأصول : « البنونى » صوابه فى مج والرسائل . وانظر ما سبق فى صفحة ١٦٧ .

(٤) ب ، م : « الشبه » ط : « النسبة » صوابهما مج والرسائل .

(٥) فى الأصول : « الراية » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٦) مج : « قوله عليه الصلاة والسلام » .

(٧) ويروى : « من أنفسهم » . الجامع الصغير ٩١٢٤ . وأخرجه البخارى عن أنس .

(٨) أخرجه الطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى ، والحاكم والبيهقى عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٩) التكملة من رسائل الجاحظ .

من لَبَّة الكَعَاب[١] . وهو[٢] الجوهر المكنونُ ، والذَّهَب المصفَّى ، وموضع المُحَّة من البيضة[٣] ، والعَين فى الرأس[٤] ، والرُّوح من البدن . وهُم الأَنْف المقدَّم ، والسَّنام الأَكْوَم ، والطِّينة البيضاء ، والدُّرَّة الزهراءُ ، والرَّوضة الخضراء ، والذَّهبُ الأَحمر .

فقد شاركوا العرَب فى أنسابهم ، وفَضَلوهم بهذا الفضْل الخاصِّ الذى لا يبلُغه فضْلٌ وإنْ بَرَع ، بل لا يَعْشُره شَرفٌ وإنْ عَظُم ، ولا مجدٌ وإنْ قَدُم .

فزعمتَ أنَّ أنساب الجميع متقاربةٌ غيرُ متباعدة ، وعلى حسَب ذلك التَّقارُبِ تكون الموازرة والمكانَفة[٥] ، والطاعةُ والمُناصَحة ، والمحبَّةُ للخلفاءِ والأَئمة .

وذكرتَ أنَّه ذكرَ جُملًا من مفاخر هذه الأَجناس ، وجمهرةً من مناقبِ هذه الأَصناف ، وأَنَّه جمعَ ذلك وفَصَّله ، وأَجمَلَه وفسَّره ، وأَنَّه أَلغَى ذِكر الأَتراك فلم يعرِضْ لهم[٦] ، وأَضرَبَ عنهم صفحاً فلم يُخبِرْ عنهم ، كما أَخبَرَ عن[٧] حُجَّة كلِّ جيل ، وعن بُرهانِ كلِّ صنف . فذكَر أَنَّ الخراسانىّ يقول : نحنُ النُّقباءُ ، وأَبناءُ النُّقباءِ ، ونحن النُّجباءُ وأَبناءُ النُّجباءِ ، ومِنَّا الدعاة قبل أَن تظهر نقابة[٨] ، أَو تُعرفَ

(١) فى رسائل الجاحظ : « الكاعب » ، وهما سواء . يقال جارية كعاب ومكعب ، وكاعب : نهد ثديها . واللبة بالفتح ، واللبب بالتحريك : موضع القلادة من الصدر .
(٢) وهو ، ليست فى رسائل الجاحظ . كما أن وجهها « وهم » .
(٣) محة البيضة ومحها : ما فى جوفها من صفرة . ب فقط : « المخة » تحريف .
(٤) مج فقط : « من الرأس » .
(٥) المكانفة ، بالنون : المعاونة ، ومثلها المكاتفة ، بالتاء ، كما فى المعجم الوسيط . ب ، م : « والمكايفة » . صوابها فى ط ومج . وفى رسائل الجاحظ : « والمكاتفة » بالتاء .
(٦) ط فقط : « بهم » .
(٧) ط فقط : « خبر » .
(٨) النقيب : العريف على القوم المقدم عليهم ، الذى يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم . والنقابة بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم .

نَجابة ، وقبل المغالبة والمبادأة[١] ، وقبل كَشف القِناع وزوال التَقيَّة .

وبنا زالَ مُلْك أعدائنا عن مُستَقرِّه ، وثبَت مُلْك أوليائنا فى نصابه ، وبَيْنَ ذلك ما قُتِلْنا وشُرِّدْنا ، ونُهِكْنا ضَرباً وطَلبا ، وبُضِعْنا بالسُّيوفِ الحداد ، وعُذِّبنا بألوان العذاب .

وبنا شَفَى الله تعالى الصُّدور ، وأُدرِكَ الثَّأْر ، ومنَّا الاثنَى عَشَر النُّقَباءُ ، والسَّبعون النُّجَباءُ . ونحن الخَنْدقية وأبناءُ الخَنْدقيَّة[٢] ، ونحن الكفِّيّة وأبناءُ الكفِّيَّة[٣] ، ومنَّا المُستجيبة ، ومن[٤] بهرج النيمية ، ومنا نيم خزان[٥] ، وأصحاب الْجَوْزَبَيْن[٦] ، ومنا الزَّغَنْدِيَّة[٧] ، والآزاذمَرديَّة[٨] .

ونحنُ فتحنا البلادَ ، وقَتَلنا العدوَّ بكلِّ واد ، ونحن أَصلُ هذه الدَّولة ، ومَنبِت هذه الشَّجرَة ، وأَصحابُ هذه الدَّعوة ، ومِنْ عِندِنا هبَّت هذه الرِّيح .

والأَنصارُ أَنصارانِ : الأَوس والخزرج ، نصروا النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أَوّلِ الزَّمان ، وأَهل خُراسانَ نصروا ورثَتَه فى آخر الزمان ، غَذَانا بذلك آباؤنا ، وغَزَوْنا به أَبناءَنا ، وصار لنا نسباً لا نُعَرف إلّا به ، وديناً لا نُوالِى إلّا عليه .

---

(١) فى الرسائل : « والمباراة » وبالراء .

(٢) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتى فى أول ص١٧٦ .

(٣) ط فقط : « الكتفية وأبناء الكتفية » .

(٤) م ، ط : « ومنا » وفى ط والرسائل بعده : « بهرج التيمية » وفى مج : « يمرج التيمية » .

(٥) ط فقط : « تيم خزان » .

(٦) ب ، م : « الجوزتين » . وفى ط : « الحوزتين » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٧) زغند ، فى الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشى . وسيأتى فى ص ١٧٩ : « ولنا الأصوات التى تسقط الحبالى » .

(٨) الآزاذ مردية : اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال الدكتور كراوس فى مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ . ب : « والآذاذمردية » م: « والأزادردية » ط : « والأمزامردية » ، صوابه فى مج والرسائل .

ثمّ نحنُ على وتيرةٍ واحدة ، ومنهاجٍ غير مشترك ، نُعرف بالشِّيعة ، ونَدِين بالطَّاعة ، ونُقتَلُ فيها ، ونَموت عليها . سِيانا موصوفٌ ، ولِباسنا معروف ، ونحن أَصحاب الرَّايات السُّود ، والروايات الصحيحة(١) ، والأَحاديثِ المأْثورة ، والذين يَهدِمون مُدُن الجبابرة ، وينتزعون المُلْك من أَيدِى الظَّلمة . وفينا تقدَّم الخبر ، وصَحَّ الأَثر . وجاء(٢) فى الحديث صفةُ الذين يفتحون عَمُّورِيَّة(٣) ، ويظهرون عليها(٤) ، ويقتلون مقاتليها(٥) ، ويَسْبُون ذراريَّها ، حيث قالوا فى نعتهم : «شُعورهم شعورُ النِّسَاء ، وثيابهم ثياب الرُّهبان » . فصدَّق الفعلُ القولَ ، وحقَّق الخَبرَ العِيان .

ونحن الذين ذكرَنا ، وذَكر بلاءَنا(٦) إمامُ الأَئمَّة ، وأَبو الخلائف العشرة(٧) محمد بن على ، حين أَراد توجيه الدُّعاة إلى الآفاق ، وتفريقَ شِيعته فى البُلدان :

---

(١) فى الأصول : « فى الروايات الصحيحة » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٢) ب ، ط : « جاء » بدون واو .

(٣) عمورية ، بتشديد الميم المضمومة والياء : بلدة فى الروم فتحها المعتصم العباسى سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة مذكورة فى كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٤) عليها ، ساقطة من م .

(٥) كذا فى مج والرسائل وم . وفى ب : « مقاتلها » وفى ط : « مقاتلتها » .

(٦) ب ، م : « بلاد ناء » ، صوابه فى ط .

(٧) يعنى خلفاء العباسيين العشرة الذين أدرك الجاحظ آخرهم ، وهو الخليفة المتوكل . وهم على الولاء : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، ثم المهدى ، والهادى ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم الذى كان يسمى « الخليفة المثمن » ، لأنه الثامن من خلفاء بنى العباس ، أو لأنه مات عن ثمانية بنين وثمانى بنات ، وخلف فى بيت المال ثمانية آلاف ألف دينار ، وثمانية آلاف ألف درهم ، كما ذكر المسعودى فى التنبيه والإشراف ٣٠٧ . ثم تاسعهم الخليفة الواثق ، والعاشر الخليفة المتوكل المقتول بالجعفرية من سر من رأى سنة ٢٤٧ .

وقد توالى بعد هؤلاء الخلائف العشرة من العباسيين ٢٦ خليفة كان آخرهم المستعصم بالله الذى قتله هولاكو ملك التتر حين استولى على بغداد سنة ٦٥٦ .

«أمّا البصرة وسوادُها فقد غلب عليها عثمان ، وصنائعُ عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلّا القليل .

وأمّا الكوفة وسوادُها فقد غَلَب عليها عليٌّ وشيعةُ عليّ ، فليس بها من شيعتنا إلّا القليل .

وأمّا الشام فشيعة بني مَرْوان ، وآلِ بني سُفيان .

وأمّا الجزيرة فخارجةٌ ، وحَرُورية ومارقة .

ولكن عليكم بهذا الشّرق فإنَّ هُناك[(١)] صدوراً سليمة ، وقلوباً باسلة ، لم تُفْسِدْها الأهواء ، ولم تُخامِرْها الأدواء ، ولم تعتَقِبْها البِدَع ، وهم مَغِيظون[(٢)] مَوتُورون . وهناك العَدد والعُدَّة ، والعَتَاد والنَّجدة » .

ثم قال : « وأنا أتفاءَلُ إلى حيث ما تَطلع[(٣)] » .

فكنّا خَيْرَ جندٍ لخير إمام ، وصدَّقنا ظنّه ، وثبّتنا رأيه ، وصَوّبنا فِراسَته .

وقال مرّةً أخرى : «إنّ أَمْرَنا هذا شرقيٌّ لا غربيٌّ ، ومُقبِلٌ غيرُ مدبر ، يطلعُ كطلوع الشمس ، ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النَّهار ، حتّى يَبلُغ[(٤)] حيث ما تبلغُه الأخفاف[(٥)] ، وتناله الحَوَافِر » .

قالوا : ونحن قتلنا الصَّحصحيَّة[(٦)] ، والدّالقيَّة[(٧)] ، والدَّكوانية ،

(١) ط فقط : « هنالك » .
(٢) ط فقط : « مغبطون » ، صوابه في سائر النسخ .
(٣) ب : « ما نطلع » ، تحريف . والمراد : حيثما تطلع الشمس . وفي مج : « حيث يطلع النهار » ، وفي الرسائل : « حيث يطلع منه النهار » .
(٤) في الأصول : « حتى تبلغ » ، صوابه بالياء كما في مج والرسائل .
(٥) أي أخفاف الإبل . ب ، م : « الإخفاق » ، صوابه في ط ، مج والرسائل .
(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد المتكلمين . انظر الحيوان ٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبري في حوادث سنة ١٣٢ . وفي الأصول : « الصحيحة » ، صوابه في مج والرسائل .
(٧) م ، ب : « الدالفية » بالفاء . وبدله في الطبري : « الدوكانية » .

والرَّاشديَّة . ونحن أَصحابُ[١] الخنادق ، ونُباتة بن حنظلة[٢] ، وعامر ابن ضُبارة[٣] ، وأَصحابُ ابن هُبيرة . فلنا قديمُ هذا الأَمر وحديثُه ، وأَوّلُه وآخِره[٤] .

ومنّا قاتل مَرْوان .

ونحن قومٌ لنا أَجسامٌ وأَجرام ، وشُعور وهام ، ومناكبُ عظام ، وجباهٌ عِراض ، وقَصَرٌ غِلاظ[٥] ، وسَواعدُ طِوال .

ونحن أَولَدُ للذُّكورة ، وأَنسَلُ بُعولةً ، وأَقلُّ ضَوًى وضُئولة ، وأَقلُّ إِتـآما[٦] ، وأَنتَقُ أَرحاماً[٧] ، وأَشدُّ عصباً ، وأَتمُّ عظاماً . وأَبدانُنا أَحملُ للسِّلاح ، وتجفافنا أَملأُ للعيون[٨] .

(١) بعده فى مج والرسائل : « أيام نصر بن سيار ، وابن جديع الكرمانى ، وشيبان بن سلمة الخارجى » . وابن جديع هذا هو على بن جديع الكرمانى ، كما فى حواشى رسائل الجاحظ ١ : ١٧ .

(٢) ب : « وبنانه بن حنظلة » ، م : « وبناته » صوابهما فى ط ، مج والرسائل . وفيهما : « ونحن أصحاب نباتة بن حنظلة » . وكان نباتة هذا والياً على جرجان . وانظر جمهرة ابن حزم ٢٨٢ . وهو نباتة بن حنظلة بن ربيعة بن عبد قيس بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وانظر خبر مقتله فى تاريخ الطبرى سنة ١٣٠ .

(٣) كان عامر بن ضبارة هذا من قواد ابن هبيرة . وانظر الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ وجمهرة ابن حزم ٢٥٤ . وفى الأصول : « بن ضبابة » صوابه بالراء كما فى مج والرسائل والتنبيه والإشراف ٢٨٣ والطبرى ٧ : ٤٠٥ . قتله قحطبة بن شبيب الطائى بأصبهان فى حروب أبى مسلم الخراسانى سنة ١٣١ .

(٤) فى الطبرى أن قاتل مروان بن محمد ، هو رجل من أهل البصرة يقال له المغود ، طعنه وهو لا يعرفه فصرعه ، فصاح صائح : صرع أمير المؤمنين ! وابتدروه ، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه . انظر حوادث سنة ١٣٢ .

(٥) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق . وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر » فى قراءته بفتح الصاد .

(٦) الإتآم : أن تلد المرأة اثنين فى بطن .

(٧) أنتق أرحاماً ، أى أكثر ولادة . والمرأة ناتق ، لأنها ترمى بالأولاد رمياً . والنتق : الرمى والنفض .

(٨) فى الأصول ومج وأصل الرسائل ١ : ١٨ : « وأخفافنا » . والوجه ما أثبت . وانظر حواشى الرسائل . والتجفاف ، بفتح التاء وكسرها : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح فى الحرب . وانظر ص ١٧٨ .

ونحن أكثر مادّةً ، وأكثر عَدداً وعُدَّة ، ولو أنَّ يأجوج ومأجوج كاثَرُوا[١] مَنْ وراءَ النَّهرِ منَّا لَظَهروا عليهم بالعَدَد .

فأمَّا الأَيْدُ وشِدَّةُ الأَسْر فليس لأَحدٍ بعد عادٍ وثمودَ والعمالقةِ والكنعانيِّين مثلُ أَيْدِنا وأَسْرنا .

ولو أنَّ خُيولَ الآفاق ، وفُرسانَ جميعِ الأَطراف جُمِعُوا فى حَلْبةٍ واحدة لكنَّا أكثرَ فى العُيون ، وأهولَ فى الصُّدور .

ومتى رأيتَ مواكبَنا وفُرساننا وبُنودَنا التى لا يحملها[٢] غيرُنا علمت أنَّا لم نُخلَقْ إلَّا لقلب الدُّوَل ، وطاعةِ الخُلفاءِ ، وتأْييد السُّلطان .

ولو أنَّ أهلَ تُبَّت ، ورجال الزَّابجَ[٣] ، ورجالَ وفُرسان الهند[٤] ، وحَلْبَة[٥] الرُّوم ، هَجَم عليهم هاشم بن أَشتاخنج[٦] لمَاَ امتنعوا من طَرْحِ السّلاح ، والهرب فى البلاد .

ونحن أصحابُ اللِّحَى ، وأربابُ النُّهَى ، وأهل الحِلْم والحِجَا[٧] ، وأهلُ الثَّخانة فى الرأْى[٨] ، والبُعدِ مِن الطَّيش .

---

(١) كاثروهم : باروهم فى الكثرة . م فقط : « كثروا » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « يحمله » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٣) الزابج ، بفتح الباء وكسرها : جزيرة فى أقصى بلاد الهند فى حدود الصين . وفى الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . وفى الأصل ، وهو هنا ب فقط : « الزنج » إذ لم ترد « رجال الزابج » فى كل من م ، ط .

(٤) هذا ما فى ط . وفى ب ومج والرسائل : « وفرسان الهند » ، وفى م : « وفرسان ورجال الهند » .

(٥) الحلبة ، بالفتح : جماعة الخيل فى السباق ، والمراد هنا الفرسان .

(٦) كان قد عصى وخالف فى إفريقية ، فقتله أبو جعفر المنصور سنة ١٥٢ كما فى الطبرى .

(٧) كتبت فى م ، ط : « الحجى » بالياء ؛ والكلمة واوية بمعنى العقل والفطنة ، يقال حاجيته فحجوته .

(٨) ثخانة الرأى : قوته وجزالته . ب : « التجانة » م ، ط : « الثجانة » ، صوابهما فى مج والرسائل .

ولسنا كجُنْد الشَّام المتعرِّضِين للحُرَم ، والمنتهكين لكلِّ مُحَرَّم .

ونحن ناسٌ لنا أَمانة ، وفينا عفَّة . ونحن نجمع بين النَّزاهة والقَناعة ، والصَّبر على الخِدْمة ، وعلى التجمير وبُعْدِ الشُّقة (١) .

ولنا الطبول المَهُولة والبُنود العظام (٢) .

ونحن أَصحاب التَّجافيف والأَجراس (٣) ، والبازَفكَنْد (٤) ، واللُّبود الطِّوال ، والأَغماد المعقَّفة (٥) والقلانس الشاشيّة (٦) ، والخيول الشِّهْرية (٧) ، ولنا الكافِركُوبات (٨) ، والطَّبَرْزِينات فى الأَكُفّ (٩) ، والخناجرُ فى الأَوساط .

---

(١) تجمير الجيش : إبقاؤه فى ثغر العدو ، وأصل معناه التجميع . مج والرسائل : « عند بعد الشقة » .

(٢) وكذا فى مج . لكن فى الرسائل : « ولنا الطبول المهولة العظام والبنود » . والبنود : جمع بند ، وهو العلم الكبير ، فارسى معرب .

(٣) انظر للتجافيف ما مضى فى ص ١٧٦ .

(٤) مج والرسائل : « والبازتكند » . وفى البيان ١ : ٩٥ — ٣ : ١١٥ : « بازيكند » أيضاً . وضبطت فى أعلى نسخ البيان بفتح الزاى وضم الياء المثناة وفتح الكاف . وفى هامشها : « بازيكند : نوع من الثياب ، فارسية » . ويبدو أنه كساء يلقى على الكتف . وباز فى الفارسية بمعنى الكتف .

(٥) الأغماد : جمع غمد ، وهو جفن السيف . فى الأصول : « والأعمدة » ، صوابه فى مج والرسائل . والمعقفة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التى تشتمل عليها . ب : « والمعقفة » والواو مقحمة . وفى ط : « والحقفة » وفى م : « والمقفة » ، صوابها ما أثبت .

(٦) نسبة إلى الشاش ، وهو نسيج رقيق من القطن تضمد به الجروح ، ويستعمل أيضاً لفافة للعمامة ، ولفظه مولد . ب ، م : « الشباسية » صوابه فى ط ومج والرسائل .

(٧) الشهرية ، بالكسر كما فى اللسان والقاموس . وذكر ابن منظور أنه ضرب من البراذين . وزاد صاحب اللسان أنه بين البرذون والمقرف من الخيل .

(٨) جمع كافركوب ، وفى هامش ل من نسخ البيان أن كافركوب هى المقرعة .

(٩) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل فى القتال عند الفرس ، مركب من « تبر » بمعنى الفأس . و « زين » بمعنى السرج ، ولعله سمى بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ والمعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية لأدى شير ١١١ .

ولنا تعليقُ السيوف وحُسْنُ الجِلْسة على ظُهور الخيل ، ولنا الأَصوات التى تُسقِط الحبالَى .

وليس فى الأَرض صناعةٌ غريبةٌ(١) ، من أَدبٍ وحكمة وحساب وهَندسة ، وارتفاع بناءٍ وصَنْعة(٢) ، وفقهٍ ورواية ، نظرَتْ فيها الخُراسانيَّة إلَّا فرعَتْ فيهَا الرُّؤساءَ(٣) ، وبذَّت فيها العُلماءَ(٤) .

ولنا صنعةُ السِّلاح ، عُدَّةً للحرب(٥) ، وتثقيفاً ودُربة للمجاولة والمُشَاولةَ(٦) ، وللكرِّ بعدالفَرّ ،مثل الدَّبُّوق(٧) ،والنَّزْو على الخيل صغاراً ، ومثل الطَّبْطاب والصَّوالجة كِباراً(٨) . ثمّ رمى المُجثَّمة(٩) والبُرجاس(١٠) والطائر الخاطف(١١) . فنحن أَحقُّ بالأَثَرة ، وأَولى بشرَف المنزلة .

قلت : وزعم أَنَّ العربي يقول :إن تكن القُرْبَةُ(١٢) تُستحَقُّ بالأَنساب

(١) فى الأصول : « عراقية ولا حجازية » وهو تحريف ساق إلى تحريف . والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٢) مج والرسائل : « وإيقاع وصنعة » .

(٣) فرع فلان فلاناً : علاه وفاقه . فى الأصول : « فرغت منها الرؤساء » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٤) بذهم : غلبهم وسبقهم . فى الأصول : « وبدت » صوابه بالذال المعجمة كما فى مج والرسائل .

(٥) العبارة هنا موجزة إيجازاً شديداً . وانظر الرسائل ١ : ٢٠ .

(٦) المشاولة : أن يتناول بعضهم بعضاً عند القتال بالرماح .

(٧) فى اللسان : «الدبوق لعبة يلعب بها الصبيان، معروفة » . وفى القاموس : «لعبة معروفة» .

(٨) الطبطاب ، بالفتح : مضرب الكرة . والصولجان : المحجن ، أى العصا المعوجة الطرف ، ويستعملها الفرس للعب بالكرة وهم على ظهور الخيل . استينجاس ٧٩٦ واللفظ معرب من الفارسى « شوجان ». والجمع صوالجة . فى مج والرسائل : « والصوالج الكبار ». ويبدو أن ما هنا هو الوجه لأنه مايقابل « صغاراً » السابقة .

(٩) المجثمة : مانصب من الحيوان للرمى والقتل . ب فقط : ، « المجثة » تحريف .

(١٠) البرجاس ، بضم الباء وفتحها : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . كما فى : الألفاظ الفارسية ١٨ ومعجم استينجاس ١٧٠ . ولفظه فارسى . ب ، م : « والبرحاسب » ط : « والبرحاسبارا » ، تحريف مافى مج والرسائل .

(١١) مج والرسائل : « الخطاف » .

(١٢) ب : « القرية » تحريف » . وفى ط : « القربى» ، وأثبت مافى م ، مج والرسائل .

الثابتة ، والأرجام الشابكة ، وبالقِدْمة[(١)] ، وبطاعة الآباء والعشيرة ، وبالشُّكر النافع ، والمديح الباقي[(٢)] ، وبالشعر الموزُون الذى يبقى بَقاءَ الدهر ، ويلوحُ مالاحَ نجم ، ويُنْشَد ما أُهِلَّ بالحجّ ، وما هَبَّت الصَّبا ، وما كان للزَّيت عاصر . وبالكلام المنشور ، والقول المأثور ، وبصفة مَخرج الدولة ، والاحتجاج للدَّعوة ، وتقييد المآثر ، إذْ لم يكن ذلك من عادة العجم ، ولا كان يحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب ، ونحن نرتبطُها بالشِّعر المقفى ، ونقيِّدها بحفظ الأُمِّيِّينَ[(٣)] الذين لا يَتَّكلون[(٤)] على الكتب المدوّنة ، والخطوط المطرّسة[(٥)] .

ونحن أَصحاب التفاخر والتنافر ، والتَّنازُع فى الشَّرف ، والتحاكم إلى كلِّ حَكَم مُقْنع ، وكاهنٍ سَجَّاع[(٦)] .

ونحن أَصحاب[(٧)] التعايرُ بالمثالب ، والتفاخُر بالمناقب .

ونحن أَحفَظُ لأَنسابنا ، وأَرعى لحقوقنا[(٨)] ، وتقييدِها[(٩)] أَيضاً بالمنثور المرسَل ، بعد الموزون المعدَّل ، بلسانٍ أَمضَى من السِّنان ، وأَرهَف

---

(١) م : وبالقدومة » صوابه فى ب ، ط ومج والرسائل .
(٢) فى جميع الأصول : « والمدمج الباقى » ، صوابه فى مج والرسائل . وفيهما : « والمديح الكافى » .
(٣) ب : « الأمتين » ب : « الأمين » مع تشديد الميم ، صوابه فى ط ومج والرسائل .
(٤) ط فقط : « لا يتكلمون » ، تحريف .
(٥) التطريس ، كما فى القاموس : إعادة الكتابة على المكتوب .
(٦) السجاع : الذى يستعمل السجع ، وهو الكلام المقفى ، أو الكلام الذى له فواصل ، وكان ذلك من دأب الكهان ، كما نراه فى سيرة ابن هشام من أقوالهم . وفى جميع الأصول وكذلك مج : « شجاع » بالشين المعجمة ، صوابه فى رسائل الجاحظ ١ : ٢٢ .
(٧) ب : « ونحن بنا » ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى مج والرسائل : « ولنا » .
(٨) ط فقط : « وأدعى لحقوقنا » .
(٩) م فقط : « وتقييد » .

من السَّيف الحسام ، حَتَّى نذكِّرهم ما قد درس رسمُه ، وعفا أثره . وبين القتال من جهة الرَّغبة والرَّهبة فرق . وليس المعرق فى الحِفاظ كمن هذا فيه حادث[(١)] . وهذا بابٌ يتقدَّم التالدُ القديمُ الطارفَ الحديثَ[(٢)]

وطُلاَّب الطَّوائل رجلان : سِجستانىٌّ وأعرابىٌّ . وهل أكثَرُ النُّقباء إلَّا من صميم العرب ، ومن صَليبةِ هذا النَّسَب ، كأبى عبد الحميد قَحطبة بن شبيب الطائىّ[(٣)] ، وأبى محمد سُليمان بن كثير الخُزَاعىّ[(٤)] ، وأبى نصر مالك بن الهيثم الخزاعىّ[(٥)] ، وأبى داود خالد بن إبراهيم الذُّهلىّ ، وكأبى عمروٍ لاهزِ بن قُرَيظ المَرَئىّ[(٦)] ، وأبى عُتَيبة موسى

---

(١) ط فقط : « كمن هذى فيه حادثا » .

(٢) ب فقط : « والطارف الحديث » تحريف .

(٣) قطبة بن شبيب الطائى ، صحب أبا مسلم الخراسانى ، فى اثنى عشر رجلا من النقباء اختارهم له أبو محمد الصادق ، فكان شريكاً لأبى مسلم فى إقامة الدعوة العباسية بخراسان ، وقاد جيوش أبى مسلم فكان مظفراً . ومات غرقاً فى الفرات سنة ١٣٢ حين بدأت الخلافة العباسية . انظر الطبرى فى حوادث سنة ١٠٠ ، وسنة ١٣٢ . ط : « كعبد الحميد بن قحطبة » ، صوابه فى سائر النسخ ومج والرسائل .

(٤) كان سليمان بن كثير الخزاعى أحد النقباء الاثنى عشر من دعاة الدولة العباسية وأنصار أبى مسلم ، ولكن أبا مسلم شك فى أمره وأمر بضرب عنقه فى سنة ١٣٢ . الطبرى ٧ : ٤٥٠ وابن الأثير ٥ : ٤٣٧ .

(٥) أبو نصر هذا : أحد النقباء ، وكان المنصور قد أمر بقتله بعد قتله لأبى مسلم ، ولكنه أظهر من الطاعة والنصح ما غير رأى المنصور فيه ، فمن عليه واستعمله على الموصل . وذلك فى سنة ١٣٧ . الطبرى وابن الأثير .

(٦) لاهز بن قريظ ، بالظاء المعجمة كما فى الطبرى وابن الأثير ورسائل الجاحظ . وفى الأصول : « بن قريط » بالطاء المهملة . وفى مج : « بن طريز »، صوابهما ماأثبت . ونسبته من الجمهرة ٢١٤ : لاهز بن قريظ بن سرى بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . كان من وجوه أهل دعوة بنى العباس وضرب أبو مسلم عنقه صبراً لأنه قرأ بحضرة نصر بن سيار : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » ، ففهمها نصر وهرب . فنسبته « المرئى » هى إلى امرئ القيس . وفى الأصول ومج : « المزنى » ، تحريف . وما بعده من الكلام إلى : « ومن كان يجرى » ساقط من ط .

ابن كعب المَرَئىّ[١] ، وأبى سهل القاسم بن مُجاشع المَرَئىّ[٢] . ومن كان يجرى مجرى النُّقباء ولم يَدخُل فيهم ، [مثل[٣]] مالك بن الطوّاف[٤] المَرَئىّ[٥] .

وبعد ، فمن هذا الذى باشر قَتْل مَرْوانَ[٦] ، ومن هَزَم ابنَ هُبيرة ، ومن قَتل ابن ضُبَارة ، ومن قتل نُباتةَ بن حَنظلَة ، إلَّا عربُ الدَّعوة ، والصَّميم من أهل الدولة ؟ ومن فَتح السِّند إلَّا موسى بن كعب ، ومَن فتح إفريقيَّة إلَّا محمَّد بن الأشعث ؟

وقلت : وقال : ويقُول الموالى[٧] لنا النَّصيحة الخالصةُ ، والمحبَّة الرَّاسخة . ونحنُ موضع الثِّقة عند الشِّدَّة ،وعلل المَولَى[٨] من تحت موجبةٌ لمحبَّة المولى من فَوق ؛ لأَنَّ شَرفَ مولاه راجعٌ إليه ، وكرمَه زائدٌ فى كرمه ، وخمولَه مُسقِطٌ لقَدْره ، وبوُدّه[٩] أَنَّ خصال الكرم كلَّها اجتمعت فيه ، لأَن ذلك كلَّما[١٠] كان مولاه أَكبر وأشرفَ وأَظْهر ، كان هو بها أَشرفَ وأَنبل ، ومولاك أَسلم لك صدراً ، وأَودُّ ضميراً ، وأَقلُّ حسداً .

---

(١) فى الطبرى ٧ : ٣٨٠ : « ومن تميم :موسى بن كعب أبو عيينة » كما فى مج ، لا أبو عتيبة بالتاء كما هنا وكما فى الرسائل . ولاهز بن قريظ ، والقاسم بن مجاشع ، كلهم من بنى امرئ القيس » ب : « المرانى » م: «المزانى » تحريف والصواب« المرئى » نسبة إلى امرىءالقيس.

(٢) ب : « المزنى » م : « المزانى » ، صوابهما ما أثبت . وانظر الحواشى السابقة .

(٣) التكملة من مج والرسائل .

(٤) م : « الطراف » وفى الطبرى : « بن طريف » وفى ابن الأثير : « بن طرافة » ، وجعلا نسبته « الخراسانى » .

(٥) فى مج : « المزانى » وفى ط والرسائل : « المزنى » .

(٦) انظر ما سبق فى ص ١٧٦ س ٤ :

(٧) ب فقط : « للوالى » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « الموقى » ، تحريف .

(٩) ب : « ويوده » م : « ويؤده » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١٠) مج والرسائل : « لأنه كلما » .

وبَعْدُ ، فالوَلاءُ لحمةٌ كلحمة النَّسب[١] ، فقد صار لنا النَّسب الذى يصوِّبه العربىّ[٢] ، ولنا الأَصلُ الذى يفتخر به العجمىّ .

قال : والصَّبر ضروبٌ ، فأَكرمها كلِّها الصَّبرُ على إفشاء السرّ ، وللمولَى فى هذه المكرُمة ما ليس لأَحدٍ ، ونحن أَخصُّ مدخلًا ، وأَلطف فى الخِدمة مَسلكاً . ولنا مع الطَّاعة والخِدمة ، والإخلاصِ وحُسْن النِّيَّة ، خِدمةُ الأَبناء للآباء ، والآباءِ للأَجداد[٣] ، وهم بمَوَالِيهم آنَسُ ، وبناحيتهم أَوثَق ، وبِكفايتهم أَسرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمّد بن على ، وعلىُّ بن عبد الله ، يخصُّون مواليَهم بالمواكلة والبَسْط والإيناس ، لا يُبهرِجونَ الأَسودَ لسواده ، ولا الدَّميمَ لدمامته ، ولا ذا الصِّناعة الدنيئة لدناءتها . ويُوصون بحفظهم أَكابرَ أَولادِهم ، ويجعلون لكثيرٍ من موتاهم الصَّلَاةَ على جنائزهم[٤] ، وذلك بحضرةٍ من العمومة ، وبنى الأَعمام والإخوة .

ويتذاكرون إكرامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة مولاه ، حين عقد له يوم مُؤْتة على جِلَّة بنى هاشم ، وجَعَلَه أَمير كلِّ بلدةٍ[٥] يطؤُها .

ويتذاكرون حُبَّهُ لأُسامة بن زيد ، وهو الحِبُّ ابنُ الحِبّ . وعقدَ له على عُظماء المهاجرين وأَكابر الأَنصار .

---

(١) مج : « وبعد فقالوا : لاحمة كلحمة النسب » ، تحريف .

(٢) ب : « تضئ به العربى » م : « تضبوى به العربى » ط : « تقوى به العربى» ، صوابه من مج والرسائل .

(٣) فى جميع النسخ : « والأجداد للأجداد » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٤) ط فقط : « ويجلون الكثير من موتاهم فى الصلاة على جنائزهم » .

(٥) ب فقط : « بلد » ، تحريف .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليه كأبي أَنسَة[١] وشُقْران[٢] ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا صاحب الدولة : أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم ، وأبو سَلَمة حَفْص بن سليمان . وأبو مسلمٍ مولى الإمام ، وعليهما دارت رحَى الدَّولة ، وتمّ الأَمرُ واتّسق نظام الملك .

قالوا : ولنا من رءُوس[٣] النُّقباء : أَبو منصورٍ مولى خُزاعة ، وأَبو الحكم عيسى بن أَعْيَن مولى خُزاعة ، وأَبو حمزة عَمرو بن أَعْيَن[٤] مولى خزاعة ، وأَبو النَّجم عمران بن إسماعيل[٥] مولى آل أَبي مُعَيط[٦] .

فلنا مناقب الخُراسانيَّة ، ولنا مناقبُ الموالى فى هذه الدَّعوة . ونحن منهم وإليهم ، ومن أَنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم . ولا ينكره مؤمن . خدمناهم كباراً ، وحملناهم على عواتقنا صغاراً .

هذا مع حقِّ الرَّضاع والخُؤولة ، والنُّشوء فى الكُتَّاب ، والتقلُّب فى تلك العِراص التى لم يبلغْها إلَّا كلُّ سعيدِ الجَدّ ، وجيهٍ فى الملوك . فقد شاركْنا العربيَّ فى فخره ، والخراسانيَّ فى مجدِه، والبنويّ فى فضله[٧] ، ثم تفرَّدْنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سابقُونا إليه[٨] .

(١) اختلف فى اسمه ، فقيل أنسة أيضاً ، كما فى الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشياً كما فى جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ . وكان يأذن على النبى صلى الله عليه وسلم . ومات فى خلافة أبى بكر .

(٢) شقران ، يقال كان اسمه صالح بن عدى . وكان حبشياً أهداه عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من دلى رسول الله فى قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام فى السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه فى غسله .

(٣) فقط : « رؤساء » .

(٤) فى الأصول : « عمر بن أعين » ، صوابه فى مج والرسائل والطبرى ٦ : ٥٦٢ »

(٥) فى الأصول : « عامر بن اسماعيل » ، صوابه فى مج الرسائل والطبرى ٦ : ٥٦٢ .

(٦) ط فقط : « مولى أبى معيط » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٧) البنوى : نسبة إلى الأبناء ، كما سبق فى ١٦٧ . ط : « والنبوى » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٨) مج والرسائل : « ولا سبقونا إليه » ، وهو الوجه .

قالوا : ونحن أشكلُ بالرعيَّة ، وأقربُ إلى طباع الدَّهماء ، وهم[(١)] بنا آنَس ، وإلينا أسكَن ، وإلى لقائنا أحَنّ . ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطَف ، وبهم أشبه . فمن أحقُّ بالأثَرة ، وأولى بحُسْن المنزلة ممَّن هذه الخصالُ له ، وهذه الخلالُ فيه .

وقلت : وذكرت أنَّ البنوىّ قال : نحن أصلُ خراسانى[(٢)] ، وهو مخرج الدولة ، ومطلع الدَّعوة ، ومنها نَجَم هذا القرنُ ، وصبأ هذا النَّابُ ، وتفجَّر هذا الينبوع ، واستفاضَ هذا البحر ، حتَّى ضرب الحقُّ بجِرانه[(٣)] ، وطَبَّق الآفاقَ بضيائه ، فأبرأ من السُّقم القديم ، وشفى من الداءِ العُضال ، وأغنى من العَيْلة ، وبصَّر من العمى .

وهذه بغدادُ وهى مستقَرُّ الخلافة ، والقَرارُ بعد الجَوْلة[(٤)] ، وفيها بقيّة رجالِ الدَّعوة ، وأبناءُ أبناءِ الشِّيعة[(٥)] ، وهى خُراسان العراق ، وبيتُ الخلافة[(٦)] وموضعُ المادةّ .

وأنا أعرَقُ[(٧)] فى هذا الأمر من أبى ، وأكثر تردداً فيه من جدِّى ، وأحقُّ بهذا الفضل من المولى والعربىّ .

ولنا بعدُ فى أنفسنا مالا يُنكَر من الصَّبر تحت ظلال السُّيوف

---

(١) م فقط : « وهما » .
(٢) ب ، م : « أصلى » ، صوابه فى ط . وفى مج والرسائل : « أنا أصلى خراسان » .
(٣) ضرب بجرانه : استقر وثبت . وأصل الجران باطن عنق البعير . فإذا برك واستقر قيل ألقى جرانه .
(٤) ب ، م ، مج والرسائل : « الحولة » ، وهى بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتنقل » . وما هنا من ط .
(٥) مج والرسائل : « وأبناء الشيعة » .
(٦) بعده فى الأصول : « وفيها بقية رجال الدعوة » ، وهو تكرار لما سبق .
(٧) ب ، ط : « أعرف » ، صوابه فى م ، مج والرسائل .

القصار ، والرِّماح الطوال ، ولنا معانقةُ الأَبطال عند تحطُّم القَنا ، وانقطاع الصفائح[(١)] ، ولنا المواجأة بالسَّكاكين ، وتلقِّى الخناجر بالعُيون .

ونحن حماةُ المُستلحَم ،وأبناءُ المضايق ، ونحن أهلُ الثَّبات عند الجَوْلة ، والمعرفة عند الحَيْرة[(٢)] ، وأصحاب المشهّرات[(٣)] ، وزينةِ العساكر وحُلَى الجيوش[(٤)] ، ومَن يمشى فى الرُّمح ، ويختال بين الصَّفَّين. ونحن أَصحابُ الفتك والإِقدام .

ولنا بعدُ التَّسلُّقُ ونَقْبُ المُدن ، والتقحُّمُ على ظُباتِ السُّيوف[(٥)] ، وأَطرافِ الرماح ، ورَضْخُ الجندل ، وهَشْم العُمد ، والصَّبرُ تحت الجراح[(٦)] ، وعلى جَرِّ السلاح[(٧)] ، إذا طار قلبُ الأَعرابىِّ ، وساءَ ظنُّ الخُراسانى .

ثم الصَّبرُ تحتَ العُقوبة ، والاحتجاجُ عند المسأَلة ، واجتماع العقل ، وصِحَّة الطَّرْف ، وثباتُ القدمين ، وقلَّة التَّكفِّى بجبل العُقَابَيْن[(٨)] ،

---

(١) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .
(٢) فى الأصول ، مج : « الخبرة » ، صوابه فى الرسائل .
(٣) المشهرات : الحلل الفاخرة الموسومة بالشهرة لحسنها ، كما فى الفائق للزمخشرى ، عند حديث عمر : « وفد إليه عامله من اليمن وعليه حلة مشهرة » : ط فقط : المشّهرات » .
(٤) الحلى بكسر الحاء وضمها : جمع حلية ، بالكسر ، وهى كل ما حليت به امرأة أوسيفاً ونحوه . ب فقط : « والحلى الجيوش » ، تحريف .
(٥) الظبات : جمع ظبة ، وهى حد السيف والخنجر وما أشبه ذلك.وفى ب فقط : « ظباة » ، وهو خطأ .
(٦) فى الرسائل : « على الجراح » .
(٧) يقال أجره الرمح إجراراً ، إذا طعنه به فمشى وهو يجره .
(٨) التكفى : التميل والتقلب . والعقابان : خشبتان يشبح بينهما الرجل فيجلد . انظر اللسان (عقب) وجنى الجنتين ٨٠ .

والبعد من الإقرار(١) ، وقلّة الخضوع للدّهر ، والخضوع عندَ جَفْوةِ الزُّوّار(٢) ، وجفاء الأَقارب والإِخوان. ولنا القتالُ عند أَبواب الخنادق ورءُوس القناطر(٣) .

ونحن الموتُ الأَحمرُ عند أَبواب النُّقَب ، ولنا المواجأة فى الأَزِقَّة ، والصَّبرُ على قتال السُّجون . فَسَلْ عن ذلك الخُلَيْدِيّة(٤) والكتفية والبلالية ، والحزبية ، ونحن أَصحاب المكابرات(٥) ،وأَرباب البَيَات(٦) ، وقَتْلِ النَّاس(٧) جهاراً فى الأَسواق والطُّرقات .

ونحن نجمع بين السَّلَّة والمُزاحَفة . ونحن(٨) أَصحاب القنا الطِّوالِ ما كُنَّا رَجَّالةً ، والمطاردِ القِصارِ ما كنَّا فرساناً(٩) . فإِنْ صرنا كُمُناً(١٠) فالحتفُ القاضى ، والسُّمُّ الزُّعاف(١١) ، وإِنْ كنَّا طلائعَ فكلُّنا يقوم مقامَ أَميرِ الجيش . نُقاتل باللَّيل كما نقاتل بالنهار ، ونقاتل فى الماءِ كما نُقاتل على الأَرض(١٢) ، ونقاتل فى القرية كما نُقاتل فى المحلَّة .

---

(١) ط : « من الفرار » .

(٢) مج : « حفوة الزوار » بالحاء المهملة .

(٣) ب فقط : « والروس القناطر » ، تحريف .

(٤) طائفة منسوبة إلى خليد . وفى البخلاء ٤١ — ٤٣ : « فسل عن الكتيفية والخليدية والحربية والبلالية » . والظاهر أنهم طوائف من أهل الشغب والفوضى . م ، ط : « الخلدية » فإن صحت كانت بضم الخاء وفتح اللام ، فإن المبرد يجيز الحذف فى فعيل مضموم الفاء باطراد .

(٥) ط فقط : « المكابدات » بالدال .

(٦) وكذا فى مج والرسائل . وفى ط فقط : « البينات » .

(٧) ب فقط : « وفتيل الناس » ، تحريف .

(٨) فى جميع النسخ : « وبين » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٩) المطارد : جمع مطرد ، بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(١٠) جمع كمين ، وهم الذين يكمنون ويختفون فى الحرب ، وفى ط : « كمينا » .

(١١) الذعاف : الوحى السريع ، ويقال أيضاً الزعاف بالزاى . وفى ب ومج : «الزعاف» بالزاى .

(١٢) م فقط : كما على الأرض » .

ونحن أَفتك وأَخشب[١] . ونحن أَقطع للطريق ، وأَذكَرُ فى الثُّغور[٢] ، مع حسن القُدود ، وجَودة الخَرْط ، ومقادير اللِّحَى ، وحُسْن العِمّة ، والنفس المُرّة ، وأَصحاب الباطل والفُتوّة[٣] ، ثم الخطِّ والكتابة ، والفِقْه والرِّواية .

ولنا بغدادُ بأَسرها ، تسكُن ماسَكَنَّا ، وتتحرَّك ما تحرَّكنا . والدُّنيا كلُّها معلَّقة بها ، وصائرةٌ إلى مَغْناها[٤] ، فإذا كان هذا أَمرَها وقَدْرها فجميعُ الدُّنيا تبَعٌ لها ، وكذلك أَهلُها لأَهلها ، وفُتَّاكُها لفُتَّاكها ، وخُلَّاعَها لِخُلَّاعِها ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصُلَحاؤها لصُلحائها .

ونحن تَربيةُ الخُلفاءِ ، وجيرانُ الوُزراءِ[٥] ، وُلدنا فى أَفْنيةِ مُلوكنا[٦] ، ونحن أَجنحةُ خلفائِنا ، فأَخَذْنا بآدابهم ، واحتذَيْنا على مثالهم ، فلسنا نَعرِف سِواهم ، ولا نُتَّهم بغيرهم[٧] ، ولم يطمع فينا أَحدٌ قطُّ[٨] مِنْ خُطَّابِ مُلكهم ، وممن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمن أَحقُّ بالأَثَرةِ ، وأَولى بالقُرْب فى المنزلة مِمَّن هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخِلال له[٩] .

إنْ ذهبنا ، حَفِظك الله ، بعقِب هذه الاحتجاجات ، وعند مُنقطَع

---

(١) أى أشد غلاظة وخشونة .
(٢) جمع ثغر ، وهو الموضع يخاف هجوم العدو منه . ب فقط : « الصغور » ، تحريف .
(٣) ط فقط : « وأصحاب الفتوة » .
(٤) المغنى : المنزل يقام فيه طويلا . مج والرسائل : « معناها » بالعين المهملة .
(٥) ب : « وجيران والوزراء » ، تحريف .
(٦) الفناء : ساحة الدار ، والجمع أفنية . ب فقط : « أثنية » ، تصحيف .
(٧) مج والرسائل : « ولا نعرف بغيرهم » .
(٨) فى جميع الأصول : « ولم يطمع فينا أحد قط أحداً » صوابه فى مج والرسائل .
(٩) بعده فى مج والرسائل : بسم الله الرحمن الرحيم »

هذه الاستدلالات نَستعمل المفاوضة[١] بمناقب الأَتراك ، والمقارنة[٢] بين خصالهم وخصال كلِّ صنف من هذه الأَصناف ، سلكنا فى هذا الكتاب سبيلَ أَصحابِ الخصومات فى كتبهم ، وطريقَ أَصحاب الأَهواءِ فى الاختلاف الذى بينهم .

وكتابنا هذا إنَّما تكلَّفناه لنؤلِّف بين قلوبهم إن كانت مختلفة[٣] ، ولنزيد فى الأُلفة إنْ كانت مؤتلفة ، ولنُخبِرَ عن اتِّفاق أَسبابهم ، لتجتمع كلمتهُم ، ولِتسلمَ صُدورُهم ، وليعرف مَنْ كان لا يعرف منهم موضعَ التَّفاوُتِ فى النَّسب كم مقدارُ الخلافِ فى الحَسب ، لئلا يُغيِّر بعضَهم مغيِّر ، ويُفسدهُ[٤] عدوٌّ بأَباطيلَ مُّوهة ، وشُبُهات مزَّورة ، فإِنَّ المنافق العليمَ ، والعدوّ ذا الكيد العظيم قد يصوِّر لمن دونه الباطلَ فى صورة الحقِّ ، ويُلبس الإِضاعة ثيابَ الحزم[٥] .

إلَّا أَنَّا على حالٍ[٦] ، سنذكر جملًا من أَحاديثَ رويناها ، وأُمورٍ[٧] رأَيناها وشاهدناها ، وقصصاً تلقَّفناها من أَفواه الحكماءِ وسمعناها .

وسنذكر ما حُفظ لجميع الأَصناف من الآلات والأَدوات ، ثم ننظر أَيُّهم لها أَشدُّ استعمالا ، وبها أَشدُّ استقلالا ، ومَنْ أَثقبُ حَسَباً[٨] ،

---

(١) ب : « يستعمل » م ، ط : « تستعمل » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٢) فى جميع الأصول : « والمقاربة » ، والوجه ما أثبت . وفى مج والرسائل : « والموازنة » .

(٣) فى الرسائل فقط : « التى كانت مختلفة » .

(٤) ب ، م : « ومفسدة » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل . وفى الأخيرتين : « فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده » .

(٥) ب ، م : « ثبات الحزم » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٦) مج فقط : « على كل حال » .

(٧) م ، ط فقط : « وأموراً » .

(٨) مج والرسائل : « كيسا » . والكيس ، بالفتح : العقل ، وتوقد الذهن .

وأيقظُ عيناً ،وأزكى نَفْساً ، وأَشدُّ غَوراً[١] ، وأَعمُّ خواطرَ[٢] ، وأَكثر نفعاً في الحروب وضَرًّا ، وأَدربُ دُربةً ، وأَغمض مكيدةً ، وأَشدُّ احتراساً ، وأَلطفُ احتيالًا ، حتَّى يكون الخيارُ في يد النَّاظر في هذا الكتاب ، المتصفِّحِ لمعانيه ، والمقلِّب لوجوهِه ، والمفكِّر في أَبوابه ، والمقابِلِ بين أَوَّله وآخِره . ولا نكونُ نحن انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلَّدنا تفضيل بعضٍ على بعض ، بلْ لعلَّنا أَن لا نُخبر عن خاصَّةِ ما عندنا بحرفٍ واحد .

فإذا دبَّرنا كتابَنا هذا التَّدبير ، وكان موضوعاً على هذه الصِّفة كان أَبعدَ له[٣] مِنْ مذاهب الجِدال والمراء ، واستعمال الهوى[٤] .

وقد ظنَّ ناسٌ كثير أَنَّ أَسماءَ أَصنافِ الأَجناد لمَّا اختلف في الصُّورةِ والخطِّ والهجاءِ ،أَنَّ حقائِقها ومعانيَها على حَسَب ذلك .وليس الأَمر على مايَتوهَّمون[٥] .

أَلا ترى أَنَّ اسم الشَّاكرية[٦] وإن خالَفَ في الصُّورة والخطِّ والهجاءِ اسمَ الجنديِّ فإنَّ المعنى فيهمَا ليس ببعيد ، لأَنَّهم يرجعون إلى معنًى واحد ، وعلمٍ واحد[٧] . والذى يرجعون إليه طاعةُ الخُلفاءِ وتأْييدُ السُّلطان .

وإذا كان[٨] المولَى منقولًا إلى العرب في أَكثر المعاني ، ومجعولًا

---

(١) مج والرسائل : « وأبعد غوراً » .
(٢) ب ، م : « خواطرا » تحريف .
(٣) وكذا في مج والرسائل . وفي م : « كان العدلة » ، وفي ط : « كان العدل له .
(٤) ب : « الهوا » م ، ط : « الهواء » ، صوابه في مج والرسائل .
(٥) ب : « تتوهمون » .
(٦) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفي القاموس : « الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب « جاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .
(٧) مج والرسائل : « وعمل واحد » .
(٨) م : « فإذا » .

منهم فى عامَّة الأَسباب لم يكن بأَعجبَ من جعل الخال والداً[(١)] ، والحليفِ من الصَّميم ، وابن الأُختَ من القوم .

وقد جعل الله ابن الملاعَنةِ المولودَ على فِراش البَعْل منسوباً إلى أُمِّه ، وقد جعَل[(٢)] إسماعيلَ وهو ابن أَعجميَّين عربيًّا ، لأَنَّ الله تعالى لمَّا فتق لهاتَهُ بالعربيَّة المُبينة على غير التلقين[(٣)] والتَّرتيب ، وفَطَره على الفصاحة العجيبة على غير النشوءِ والتمرين ، وسَلَخ طِباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأَجزاءَ ، وركَّبه اختراعاً على ذلك التركيب ، وسوّاه تلك التسوية ، وصاغَه تلك الصِّيغة ، ثمّ حَماه من طبائِعهم ، ومَنعَه من أَخلاقهم وشمائلهم ، وَطَبعه من كرمهم وأَنفتهم وهِمَمِهم على أَكرمها وأَسناها ، وأَشرفِها وأَعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلًا على نبوَّته ، وصار أَحقَّ بذلك النسب[(٤)] ، وأَولى بشرف ذلك الحَسَب .

وكما جُعل إبراهيمُ أَباً لمن لم يلد[(٥)] ، فالبنوىُّ خُراسانىٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربىٌّ من جهة المدَّعَى والعاقلة .

ولو أَحاط علمنا بأَنَّ زيداً لم يخلق من نَجْل عَمرٍو إلَّا عهاراً[(٦)] لنفَيْناه عنه ، وإنْ أَيقنَّا أَنَّه لم يُخلَقْ إلَّا من ماءِ صُلبه .

وكما جعل النبىُّ أَزواجَه أُمّهاتِ المؤمنين ، وهنّ لم يلِدْنَهم ولا

---

(١) ب : « جعله الخال والداً » .
(٢) فى الرسائل : « وقد جعلوا » .
(٣) م ، ط : « التعين » ، صوابه فى ب . مج والرسائل .
(٤) ب : « بهذا النسب » ، وفى مج والرسائل : « فكان أحق بذلك النسب » .
(٥) فى الرسائل : « لمن لم يلده » .
(٦) ط : « لم يخلق إلا من نجل عمرو » . فقط وهو تحريف . والنجل : النسل والولادة .

أرضَعْنَهم . وفى بعض القراءات :﴿ وأزواجُهُ أُمَّهاتهمْ ، وهو أبٌ لَهُمْ[١] ﴾ على قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبيكُمْ إبراهِيمَ[٢] ﴾ ، وجَعل المرأةَ من جهة الرَّضاع أُمًّا ، وجعل امرأَةَ البعل أُمَّ ولدِ البعلِ من غيرها ، وجعل الرَّابَّ والداً[٣] . وجُعِلِ العّم فى كتاب الله أباً . وهم عبيدهُ[٤] لا يتقلَّبُون إلا فيما قلَّبهم فيه .

وله أن يجعلَ من عباده[٥] من شاءَ عربيًّا،ومن شاءَ أعجميًّا ، ومن شاءَ قرشيًّا ، ومن شاءَ زنجيًّا . كما أَنَّ له أن يجعل من شاءَ ذكراً ومن شاءَ أُنثى ، ومن شاءَ خُنْثَى ، ومن شاءَ أَخرجَه من ذلك[٦] فجعله لا ذكراً ولا أُنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق الملائكة ، وهم أَكرمُ على الله من جميع الخليقة .

ولم يجعلْ لِآدم[٧] أباً ولا أُمًّا ، وخَلقَه من طينٍ ونَسَبه إليه ، وخلق حَوّاءَ[٨] من ضِلَعِ آدم ، وجعلها له زوجاً وَسَكَنا .

وخَلَق عيسى من غير ذكرٍ ، ونسبه إلى أُمِّه التى خَلقَه منها .

وخلق الجانَّ من نار السَّموم ، وآدمَ من طين ، وعيسى من غير

---

(١) هى قراءة أبى وعبد الله بن مسعود فى الآية ٦ من سورة الأحزاب . انظر تفسير أبى حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) الراب : فاعل من ربه يربه ربا ، بمعنى رباه حتى يفارق الطفولية ، كان ابنه أو لم يكن .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الأنعام الآية ٧٤ : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » قيل أن آزر عم إبراهيم وليس اسم أبيه . قال أبو حيان فى تفسيره ٤ : ١٦٤ : « وهو قول الشيعة ، يزعمون أن آباء الأنبياء لايكونون كفاراً . وظواهر القرآن ترد عليهم ولا سيما محاورة إبراهيم مع أبيه فى غير ما آية » .

(٥) ب فقط : « وهم عبيد » ، وفى مج : « وهم عباده » ، وأثبت مافى م ، ط والرسائل .

(٦) مج والرسائل : « أفرده من ذلك » .

(٧) مج فى الأصول : « فلم يجعل لآدم » ، والوجه ما أثبت . والذى فى مج والرسائل : « وخلق آدم فلم يجعل له » .

(٨) ب ، م : « حوى » .

نُطْفة ، وخلق السَّماءَ من دُخانٍ ، والأَرضَ من الماء . وخلق إسحاق من عاقرٍ .

وأنطقَ عيسى فى المهد ، وأنطقَ يحيى بالحكمة وهو صبيٌّ ، وعلَّم سُليمانَ مِنطقَ الطَّيرِ ، وكلامَ النَّمْل . وعَلَّم الحَفَظَة من الملائكة جميعَ الأَلسنة حتَّى كتبوا بكلٍّ خطٍّ ، ونَطَقوا بكلِّ لسان . وأنطقَ ذئب أُهبانَ ابن أَوس(١) .

والمؤمنون من جميع الأُمم إذا دخلوا الجنَّةَ ، وكذلك أطفالُهم والمجانينُ منهم ، يتكلَّمون ساعةَ يدخلون الجَنَّة بكلامِ أهلِ الجنَّة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليمِ على طُول الأَيَّام والتلقين . فكيف يتعجَّب الجاهلون من إنطاق إسماعيل بالعربيَّة على غير تعليم الآباء ، وتأْديب الحواضِنِ ؟ !

وهذه المسأَلةُ ربَّما سأَل عنها بعضُ القحطانية ، ممَّن لا علم له ، بعضَ العدنانية(٢) ، وهى على حال القحطانيَّة أَشدُّ(٣) .

فأمَّا جواب العدنانيِّ فسَلِسُ النِّظام ، سهلُ المخرج ، قريبُ المعنى ؛ لأَنَّ بنى قحطان لا يدَّعون لقحطان نُبُوَّة(٤) فيعطيَه الله تعالى مثلَ هذه الأُعجوبة .

وما الذى قَسَم اللهُ بينَ النَّاس من ذلك إلَّا كما صنع الله فى طينة

---

(١) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلمه ثم بشره بالرسول . انظر تفصيل ذلك فى ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ : ٥١٣ / ٤ : ٨٠ / ٧ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ .

(٢) ب ، م : « لبعض العدنانية » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٣) مج : « وهى على القحطانى أشد » .

(٤) ب فقط : « بنوة » بتقديم الباء ، تحريف .

الأَرض[١] ، فجعل بعضَها حجراً ، وبعضَ الحجر ياقوتاً ، وبعضَه ذهباً ، وبعضه نُحاساً ، وبعضَه رَصاصاً ، وبعضه صُفْراً[٢] ، وبعضَه حديداً ، وبعضه تراباً ، وبعضَه فَخَّارا . وكذلك الزَّاج ، والمَغْرَةُ ، والزِّرنيخ ، والمرْتَكُ ، والكِبريت ، والقارُ ، والتُّوتيا ، والنُّوشادر[٣] ، والمرقشيشا[٤] ، والمِغناطيس[٥] .

ومَن يُحصى عَدَدَ جواهرِ الأَرض وأَصنافَ الفِلِزّ[٦] ؟ !

وإذا كان الأَمرُ على ما وصَفْنا فالبَنَوىُّ[٧] خُراسانىٌّ . وإذا كان الخراسانى مولًى والمولى عربىٌّ[٨] ، فقد صار الخراسانى والبَنوىّ والمولى والعربىُّ[٩] شيئاً واحداً . وأَدنى ذلك أَن يكون الذى معهم[١٠] من خصال الوِفاق غامراً لما مَعهم من خصال الخِلاف ، بل هم فى مُعظم الأَمر ، وفى كُبْرِ الشَّأْن[١١] وعمود النَّسَب متَّفقون . فالأَتراك خراسانية ،

---

(١) م فقط : « إلا كما صنع فى طينة الأرض » .

(٢) الصفر ، بالضم : النحاس الأصفر .

(٣) انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٧٧ / ٥ : ٣٤٩ .

(٤) المرقشيشا ، هو ما يعرف بحجر الماركزيت ، كما فى معجم أستينجاس ١٢١٨ . وقد وردت فى مج والرسائل : « المرقشيثا » بالثاء بدل الشين الثانية . كما وردت بالثاء أيضاً فى تذكرة داود عرضاً فى الكلام على « المغنيسيا » إذ يقول : « حجر كالمرقشيثا » . وعقد له رسماً فى المعتمد لابن رسولا ٣٤٢ بلفظ « مرقشيثا » .

(٥) ذكر داود فى تذكرته أنه يسمى حجر المعشوق وحجر الحديد . وقال : « وأجوده اللازوردى الرزين الصافى « الجاذب للحديد » . ومثله فى المعتمد لابن رسولا .

(٦) الفلز : جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهها . ب فقط : « الفلل » ، تحريف .

(٧) ط : « فالنبوى » ، تحريف . وانظر ما سبق فى ١٦٧ .

(٨) ط : « عربياً » .

(٩) فى جميع الأصول : « والمولى مولى والعرب » ، صوابه فى مج والرسائل .

(١٠) ب فقط : « معه » .

(١١) الكبر ، بكسر الكاف وضمها : الرفعة فى الشرف .

وموالى الخلفاء قُصْرةً[١] ، فقد صار فضْل التُّركِ إلى الجميع راجعاً ، وصار شرفهم زائداً فى شرفهم .

وإذا عرف سائرُ الأَجنادِ ذلك سامحت النُّفوس ، وذهب التَّعقيد ، ومات الضِّغن ، وانقطع سببُ الاستثقال ، فلم يبقَ إلَّا التحاسدوالتنافس الذى لا يزال يكون بين المتقاربَين فى القرابة ، وفى الصِّناعة ، وفى المُجاورة .

على أَنَّ التوازر والتَّسالم فى القرابات وفى بنى الأَعمام والعشائر أَفشى وأَعمُّ من التَّخاذُل والتعادى .

ولحبِّ التناصر والحاجة إلى التعاوُن انضمَّ بعض القبائل فى البوادى إلى بعض ، ينزلون معاً ، ويَظْعَنون معاً . ومن فارق أَصحابه أَقلُّ ، ومن نَصر ابن عمِّه أَكثر ، ومن اغتبط بنعمته وتمنَّى بقاءها والزيادةَ فيها أَكثر ممن بغاها الغوائِل[٢] وتمنَّى انقطاعَها وزوالها .

ولا بدَّ فى أَضعافِ ذلك من بعض التَّنافس والتَّخاذلُ ، إلَّا أَنَّ ذلك قليلٌ من كثير .

وليس يكون[٣] أَن تصفوَ الدُّنيا ، وتنقَى[٤] من الفَسادِ والمكروه ، حتَّى يموت جميع الخلاف[٥] ، وتستوىَ لأَهلها ، وتتمهّد لسكَّانها[٦] على ما يشتهون ويَهْوَوْن ؛ لأَنَّ ذلك من صفة دار الجزاءِ ، وليس كذلك صفةُ دار العمل .

---

(١) قصرة ، بضم القاف ، أى أدنى إليهم . كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى دانى النسب .

(٢) الغوائل : المهلكات . ويقال بغيتك الشىء : طلبته لك وتمنيته . وفى كتاب الله : « يبغونكم الفتنة » ، أى يبتغونها لكم .

(٣) وكذا فى مج . وفى الرسائل : « وليس يجوز » .

(٤) ب : « أن يصفو الدنيا ويبقى » م ، ط : « أن تصفو الدنيا ويبقى » ، صوابهما فى مج والرسائل . ونقى الشىء ينقى نقاء : صار نقياً خالصاً .

(٥) فى جميع الأصول : « وحتى » ، صوابه فى مج والرسائل . وفى الرسائل أيضاً : « جميع الخلائق » .

(٦) فى جميع الأصول : « ويستوى لأهلها ويتمهد لسكانها » ، صوابه فى مج والرسائل .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ كتبته أيّامَ المعتصِم بالله[١] رضى الله عنه ونَضَّر وجهَه ، فلم يَصل إليه لأَسباب يطول ذكرها[٢] ، فلذلك لم أَعرِضْ للإخبار عنها ، وأَحببت أَن يكون كتاباً قَصْداً ، ومذهباً عَدْلًا ، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ فى مديح قوم ، وإغراقٍ فى هجاءِ آخَرين ؛ فإنَّ الكتابَ إذا كان كذلك شابَهُ الكذب[٣] وخالطه التزيُّد ، وبُنِى أَساسه على التكلُّف[٤] ، وخرج كلامُه مَخرج الاستكراهِ والتَّغْليق[٥] .

وأَنفع المدائح للمادح ، وأَجداها على الممدوح ، وأَبقاها أَثراً وأَحسنُها ذكراً ، أَن يكون المديح صِدقاً ، ولِظاهرِ حالِ الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتَّى لا يكون من المعبِّر عنه والواصفِ له إلَّا الإشارةُ إليه ، والتَّنبيهُ عليه .

وأَنا أَقول : إن كان لا يمكن ذكرُ مناقب الأَتراك إلَّا بذكر مثالب سائر الأَجناد ، فتَرْكُ ذكرِ الجميع أَصوَب ، والإضراب عن هذا الكتاب أَحزم .

---

(١) هو محمد بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

(٢) مج والرسائل : « يطول شرحها » .

(٣) هذا مافى الرسائل . وفى جميع الأصول : « شانه » فقط . وفى مج : « شانه الكذب » .

(٤) فى جميع الأصول : « فى التكلف » .

(٥) التغليق ، المراد به العسر ، كما يغلق الباب تغليقاً . وفى جميع الأصول وكذا فى مج والرسائل : « التعليق » ، والوجه ما أثبت .

وذكرُ الكثير من هذه الأَصناف بالجميل لا يقوم إلَّا بالقليل من ذكر بعضِهم بالقبيح ، وهو معصية[١] وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أَجدَى علينا ، لأَن ذكر الأَكثر بالجميل نافلة ، وبابٌ من التطوُّع ؛ وذكر الأَقلِّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليل الفريضة أَجدى علينا من كثيرِ التطوُّع .

ولكلٍّ الناس نصيبٌ من النَّقص ، ومقدارٌ من الذُّنوب ، وإنَّما يُتفاضَل بكثرة المحاسِن وقلَّة المساوِى . فأَمَّا الاشتمالُ على جميع المحاسن ، والسَّلامةُ من جميع المساوى ، دقيقِها وجليلِها ، ظاهِرها وخفيِّها ، فهذا لا يعرف فيهم[٢] .

فإذا كان الخلطاءُ من جمهور الناس وأَهلِ المَعايِش[٣] من دهماءِ الجماعة[٤] يرون ذلك واجباً فى الأَخلاق ، ومصلحةً فى المعاش ، وتدبيراً فى التَّعامُل ، على ما فيهم من مشاركة الخطأ للصَّواب ، وامتزاج الضَّعف بالقوَّة ، فلسنا نشكُّ أَنَّ الإمام الأَكبرَ[٥] ، والرئيس الأَعظم مع الأَعراق الكريمة ، والأَخلاق الرفيعة ، والتمام فى الحلم والعلم ، والكمال فى العَزْم والحزم ، مع التمكين والقدرة ، والفضيلة والرِّياسة والسيادة ، والخصائص التى معه من التوفيق والعِصمة ، والتَّأْييد وحُسن المعونَة — لم يكن الله ليجلِّله لِباس الخلافة ، ويحبوَه ببهاءِ الإمامة[٦] ، وبأَعظم نعمةٍ

(١) ب : « لم نعصيه » م : « معصية » فقط . وأثبت مافى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « فهذا مايعرفونه » ، صوابه فى مج والرسائل مع سقوط كلمة « فيهم » منهما .

(٣) فى جميع الأصول : « وأهل المقايس » . وفى مج : « وأصحاب المقايس » ، وأثبت مافى الرسائل .

(٤) ط فقط : « من زعماء الجماعة » .

(٥) ب فقط : « فى أن الإمام الأكبر » .

(٦) ب : « بهاء الإمامة » ، وفى مج والرسائل : « بتاج الخلافة » .

وأسبغِها ، وأفضلِ كرامةٍ وأسناها ، ثُم وَصَل طاعتَه بطاعته ، ومعصيتَه بمعصيته ، إلَّا ومعه من الحلم فى موضع الحلم ، والعَفْوِ فى موضع العفو ، والتَّغافُلِ فى موضع التَّغافل ، مالا يبلغه فَضْلُ ذى فضل ، ولا حِلمُ ذى حلم .

ونحن قائلون ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم ، فيما انتهى إلينا من القول فى الأتراك .

زعم محمَّدُ بن الجَهْم وثُمامة بن الأَشرس[١] والقاسم بن سَيَّار[٢] فى جماعةٍ ممن يغشى دارَ الخلافة[٣] ، وهى دار العامَّة[٤] ، قالوا جميعاً :

بينا حُمَيد بن عبد الحميد جالساً ومعه إخشيد الصُّغدى[٥] ، وأبو شجاع شبيب بن بُخار خُداى[٦] البلخى ، ويحيى بن مُعاذ ، ورجالٌ من المعدودين المتقدِّمين فى العلم بالحرب ، من أصحاب التجارب والمِراس ، وطُول المعالجة والمعاناة بصناعة الحرب ، إذْ خرجَ رسولُ المأْمون فقال لهم : يقول لكم مفترقين ومجتمعين : فليُثبتْ[٧] كلٌّ

---

(١) ب : « الأشرث » ، تحريف . وهو ثمامة بن أشرس النميرى مولى بنى نمير . كان زعيم القدرية فى زمان المأمون والمعتصم والواثق . وهو الذى دعا المأمون إلى الاعتزال . انظر الفرق بين الفرق ١٥٧ . وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع ، لخوفهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : انظر إلى هؤلاء الحمير والبقر ! ثم قال : ماصنع ذاك العربى بالناس . تأويل مختلف الحديث ٦٠ . قتل ثمامة فى زمان الواثق الذىتولى الخلافة من ٢٢٧ — ٢٣٢ . وقيل مات سنة ٢١٣ . انظر الفرق ١٥٩ ولسان الميزان ٢ : ٨٤ وتاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ — ١٤٨

(٢) ب : « يسار » ، صوابه فى سائر النسخ والحيوان ٤ : ٤٤٢

(٣) ط فقط : « ممن يغشون دار الخلافة » .

(٤) ط فقط : « وهى دار الإمامة » .

(٥) مج : « بخشاد الصغدى » ، وفى الرسائل : « بخشاد الصغدى » .

(٦) ب : « نجار خداى » ، وأثبت مافى م ، ط ، مج . وفى الرسائل ١ : ٤٠ : « بخارا خداى » .

(٧) مج والرسائل : « فليكتب » .

رجلٍ منكم دَعْواه وحُجَّته ، يقول لكم : أَيُّما أَحبُّ إِلى كلِّ قائد منكم ، إذا كان فى مائةٍ من نخبته وثقاته[١] : أَن يلقى بهم مائةَ تركىٍّ أَو مائة خارجى ؟

فقال القوم جميعاً :[لأَنْ[٢]] نلقى مائة تركىٍّ أَحبُّ إلينا من أَن نلقى مائةَ خارجىّ ! وحُميدٌ ساكت ، فلمَّا فرغ القومُ جميعاً من حُجَجهم قال الرسول لحُميد : قد قال القومُ فقُلْ واكتُبْ قولك ، وليكنْ حُجَّةً لك أَو عليك . قال : بل أَلقى مائةَ خارجىٍّ أَحبُّ إِلىّ ؛ لأَنِّى وجدتُ الخصالَ التى فَضَل بها التركىُّ جميع المقاتِلة غَيْرَ تامَّةٍ فى الخارجى ، ووجدتُها تامّةً فى التركىّ . ففَضلُ التركىِّ على الخارجىِّ بقدر فَضْل الخارجىِّ على سائر المقاتلة . وذلك بأَنَّ التركىّ بَانَ من الخارجىِّ بأُمورٍ ليس فيها للخارجىِّ دَعْوَى ولا مُتعلَّق . على أَنَّ هذه الأُمورَ التى بان بها التركىُّ من الخارجى أَعظَمُ خطراً وأَقلُّ نَفْعاً ممَّا شاركه الخارجىُّ فى بعضه .

ثم قال حميد : والخصال التى يصول بها الخارجىُّ على سائر الناس : صِدْقُ الشَّدَّة عند أَوّل وهلة ، وهى الدَّفعة التى يبلغون بها ما أَرادوا ، وينالون بها ما أَمَّلوا .

والثانية : الصَّبر على الخَبَبَ[٣] ، وعلى طُول السُّرَى حتَّى يُصبِّحوا القوم الذين مَرَقُوا بهم غارِّين[٤] ، فيهجمُوا[٥] عليهم وهم بَسُوءٌ[٦]

(١) ب : « من نخبه » . وفى مج والرسائل : « إذا كان فى عدته من صحبه وثقاته » .
(٢) هذه من ط والرسائل .
(٣) الخبب : ضرب من العدو السريع . ب : « الجنب » تحريف .
(٤) المروق : المرور بسرعة كما يمرق السهم من الرمية . غارون : غافلون . ب : «غازين» .
(٥) ب فقط : « فهجموا » .
(٦) فى الأصول : « بشر » ، ولا وجه له . والوجه ما أثبت من مج والرسائل . وهو من قولهم : ناقة بسوء ، بفتح الباء : لاتمنع الحالب . وهذا مثل للضعف .

ولحم على وَضَم[١] ، فيُعجِّلوا بهم عن الرّوِيّة[٢] ؛ وعن ردِّ النَّفْس بعد الجَوْلة[٣] والنَّزْوة ، لا يظنون أنَّ أحداً يقطع فى ذلك المقدارِ من الزَّمان ذلك المقدارَ من البلاد .

والثالثة : أنَّ الخارجيَّ موصوفٌ عند الناس بأنَّه إنْ طَلَبَ أدرَك ، وإن طُلِبَ فات .

والرابعة : خِفَّة الأَزواد[٤] ، وقلَّة الأَمتعة ، وأنَّها تَجْنُب الخيل[٥] ، وتركَب البِغال ، وإن احتاجت أمسَتْ بأَرضٍ وأَصبحتْ بأُخرى[٦] ، وأنّهم قومٌ حين خرجوا لم يخلِّفوا الأَموالَ الكثيرة ، والجنانَ الملتفَّة ، والدُّور المشيَّدة ، ولا ضِياعاً ولا مُستغَلّات ، ولا جواريَ مطهَّمات ، وأنَّهم[٧] لا سَلبَ لهم ، ولا مالَ معهم ، فيرغبَ الجندُ فى لِقائهم ، وإنَّما هم كالطَّير لا تدَّخر ، ولا تهتمُّ[٨] لغدٍ ، ولها فى كل أرضٍ من المياه والبُزُور[٩] مَا يَقُوتها . وإن لم تجد ذلك فى بعض البلادِ فأَجنحتُها تقرِّب لها البعيد ، وتسهِّل لها الحُزُون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والطُّعم[١٠] ،

---

(١) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شىء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير ، يوق به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

(٢) فى جميع الأصول : « على الرؤية » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٣) ب ، م : « بعد الحولة » بالحاء المهملة .

(٤) ب فقط : « الأزواج » تحريف . والأزواد : جمع زاد ، وهو الطعام ولاسيما فى السفر .

(٥) تجنبها : تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٦) ب فقط : « وأضحت بأخرى » .

(٧) ب ، م : « أنهم » بدون واو .

(٨) ب : « ولا تهم لغد » .

(٩) فى جميع الأصول : « والبرور » ، ولا وجه له . وفى مج والرسائل : « والأقوات » .

(١٠) مج والرسائل : « والمطعم » . والطعم ، بالضم : الطعام .

فإنْ يمتنعْ[(١)] عليهم ففى بنات أَعْوجَ[(٢)] وبنات شَحّاج[(٣)]، وخِفَّة الأَثقال، والقُوّة على طول الخَبَب ما يأْتيها بأَرزاقها، وأَكثَرَ من أَرزاقها.

والخامسة: أَنَّ الملوك إذا أَرسلوا إليهم أَعدادَهم ليكونوا فى خفَّة أَزوادهم وأَثقالهم، وليَقْوَوْا على التنقُّل كقوَّتهم[(٤)]، لم يَقْوَوْا عليهم، لأَنَّ مائة[(٥)] من الجند لا يقومون لمائةٍ من الخوارج. وإن كثَّفوا الجيش وضاعفوا العدد[(٦)] ثَقُلُوا عن طلبهم، وعن الغَوْث إنْ طلبَهُم عدُوهم. ومتى شاء الخارجيُّ أَن يَقْرُب منهم ليتطرّفَهم[(٧)]، أَو لِيُصيبَ الغِرَّة[(٨)] أَو ليثبتهم[(٩)]، فعل ذلك[(١٠)]، ثقةً بأَنَّه يغنم[(١١)] عند الفرصة ورؤية العَوْرة، ويمكنه الهربُ عند الخوف، وإن شاء كَبَسهم[(١٢)] ليقطع نظامهم، أَو ليقتطع القِطعةَ منهم.

---

(١) فى الأصول: «تمتنع»، وأثبت ما فى مج. وفى الرسائل: «فإن تمنع».

(٢) ط: «أعواج» تحريف. وأعوج هذا: فرس كان لكندة، فأخذته بنو سليم فى بعض أيامهم، فصار إلى بنى هلال. وليس فى العرب فحل أشهر ولا أكثر نسلا منه.

(٣) بنات شحاج، هى البغال، لأنها تشحج بصوتها. وفى مج والرسائل: «وبنات شحاج وبنات صهال». وبنات صهال يعنى بها الخيل فإن الصهيل لها. وبنات صهال لم ترد فى اللسان ولا القاموس، ولكن وردت فى المزهر ١ : ٥٢٥.

(٤) ب: «كقولهم»، صوابه فى م، ط ومج والرسائل.

(٥) ب: «لامابة» تحريف.

(٦) مج والرسائل: «وإن كثفوا الجيش بالجيش، وضاعفوا العدد بالعدد».

(٧) التطرف: الإغارة من حول العسكر. ب: «لينظر فيهم». م، ط: «ليتطرقهم» بالقاف، صوابه فى مج والرسائل.

(٨) الغرة، بالكسر: الغفلة. ب: «العراة»، صوابه فى م، ط، مج والرسائل.

(٩) أثبته: جرحه جراحة لا يقوم معها. وفى الكتاب العزيز: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك» فى الآية ٣٠ من الأنفال. وفى مج والرسائل: «أو ليسلبهم».

(١٠) ب، مج: «فعل» بإسقاط «ذلك».

(١١) فى الأصول: «يقيم»، وأثبت ما فى مج والرسائل.

(١٢) الكبس: الاقتحام، كالتكبيس والتكبس. ب: «كيسهم» بالياء المثناة التحتية، تحريف.

قال حُمَيد : فهذه هي مفاخرُهم وخصالهم ، التي بها كَرِه القُوّاد لقاءهم .

قال القاسم بن سيّار : وخَصلة أُخرى ، وهي التي رَعَبت القلوب[(١)] وَحَشَتْها[(٢)] ، ونَقَضت العزائم[(٣)] وفَسختْها ، وهو ما تَسْمعُ الأَجنادُ ومُقاتلةُ العوامِّ مِن ضرب المثل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخيل والمحاذِر للقِرَى
رأَى الضَّيفَ مثلَ الأَزرقيِّ المجفَّفِ[(٤)]

هذه زيادةُ القاسم بن سَيّار .

فأَمّا حُمَيد[(٥)] فإنَّه قال :

فأَمّا الشَّدةُ فالتُّركيُّ فيها أَحمدُ أَثرًا ، وأَجمع أَمراً ، وأَحكَم شأْنا ؛ لأَنَّ التركي مِن أَجْلِ أَنْ تَصدُقَ شَدَّتُه ويتمكَّن عزمُه ، ولا يكون مُشترَك العزم ، ومُنْقسِمَ الخواطر ، قد عَوَّدَ بِرذونَه أَن لا ينثنيَ وإن ثناه ، أَنْ يملأَ فُروجَه[(٦)] ، إلَّا أن يُديره مرّةً أَو مرّتين ، وإلَّا فإنَّه لا يدع سَنَنَه ، ولا يقطع ركْضَه[(٧)] ، وإنَّما أَراد التركيُّ أَن يوئِسَ نفسَه من البَدَوات[(٨)] ،

(١) ط فقط : « أرعبت » . يقال رعب فلاناً رعباً : خوفه وأفزعه ، كما يقال أرعبه إرعاباً .

(٢) أي ملأتها من الرعب . وفي م : « وجشتها » ، وفي مج والرسائل : « وخلعتها » .

(٣) ب : « ونقضتها العزائم » .

(٤) ب : « إذا ما المخيل ، تحريف . وفي ط : « إذا ما رأى الخيل المحاذى للقرى » تحريف أيضاً ، صوابه في م ، ومج والرسائل . ب ، م : « الصيف » بالصاد المهملة ، تحريف . والمجفف : الذي جفف فرسه بالتجفاف ، وهو ما جلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح . وفي ب : « المخفق » وفي م ، ط : « المخفف » صوابهما في مج والرسائل .

(٥) م ، ط : « وأما حميد » .

(٦) ط فقط : « فلا يملأ فروجه » تحريف . والفروج : مابين قوائم الفرس . وكنى بملئها عن الإسراع وشدة العدو حتى لاتكاد تظهر تلك الفروج للنظر .

(٧) ب فقط : « ركده » تصحيف .

(٨) ب فقط : « يوبس » بالباء ، تحريف . والبدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر . ط فقط : « البدرات » .

ومن أن يعتريه التّكذيب[1] بعد الاعتزام ، لهول اللقاء ، وحُبِّ الحياة ، لأنَّه إذا علم أنَّه قد صيَّر بِرذونَه إلى هذه الغاية حتَّى لا ينثنيَ ، ولا يجيبَه إلى التصرُّف معه إلَّا بأَنْ يصنع شيئاً بين الصَّفَّين فيه عَطبُه ، لم يُقْدِم على الشَّدَّة إلَّا بعد إحكام الأمر ، والبَصَر بالعورة[2] . وإنَّما يريد أن يشبِّه نفسه بالمُحْرَج[3] الذى إذا رأى أشدَّ القتال لم يَدعْ جُهْداً ولم يدَّخر حِيلة ، ولينفِيَ[4] عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعيَ الرُّجوع .

وقال : الخارجيُّ عند الشَّدَّة إنَّما يعتمد على الطِّعان . والأتراك تطعُن طعنَ الخوارج ، وإنْ شَدَّ منهم أَلْفُ فارسٍ فرموا رِشْقاً واحداً[5] صرعوا أَلفَ فارس ، فما بَقاءُ[6] جيشٍ على هذا النَّوع من الشَّدِّ[7] ؟! والخوارج والأعراب ، ليست لهم رمايةٌ مذكورةٌ على ظُهور الخيل ، والتُّركيُّ يرمى الوَحْشَ ، والطَّيرَ ، والبُرجاس[8] ، والنَّاسَ[9] ، والمجثَّمة[10] ، والمُثُلَ الموضوعة ، والطَّير الخاطف[11] ، ويرمى وقد ملأَ فُروج دابَّته

---

(١) التكذيب : الإحجام ، يقال للرجل إذا حمل ثم ولى ولم يمض : قد كذب عن قرنه تكذيباً .

(٢) العورة : موضع الخلل عند العدو . ويقال بيوت عورة ، أى ممكنة للسراق ، لخلوها وأنها غير حريزة . وفى جميع الأصول : « بالعودة » . وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٣) فى جميع الأصول : « بالمخرج » ، صوابه بالحاء المهملة كما فى مج والرسائل .

(٤) ب فقط : « ولينقى » بالقاف ، صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل .

(٥) الرشق بالكسر : الاسم من الرشق ، ورشقاً واحداً ، أى وجهاً واحداً بجميع سهامهم .

(٦) فى جميع الأصول ، مج : « بقى » ، صواب رسمه من الرسائل .

(٧) هذا ما فى ب . وفى م ، ط ومج والرسائل : « من الشدة » .

(٨) البرجاس ، بضم الباء ، سبق تفسيره فى ص ١٧٩ .

(٩) انظر ما سيأتى فى ٢٠٦ س ٤ .

(١٠) المجثمة ، سبق تفسيرها فى ص ٣٢ . ب فقط : « المجثة » ، تحريف .

(١١) م ، ط : « والطائر الخاطف » .

مُدْبِراً ومُقْبلًا [١] ، ويَمْنةً ويَسْرة ، وصُعُدا وسُفْلا ، ويرمى بعشرة أَسهم [٢] قبل أَن يفوِّق الخارجىُّ سهماً واحداً . ويركُض دابَّتَه منحدِراً من سهل ، أَو متسفِّلا إلى بطنِ وادٍ بأَكثرَ ممَّا يمكن الخارجىَّ على بسيط الأَرض .

والتركىُّ له أَربعةُ أَعين [٣] : عينان فى وجهه ، وعينان فى قَفاه .

وللخارجىِّ عيب فى مستدبَر الحرب ، وللخراسانى عيبٌ فى مُستقبَل الحرب .

فعيب الخراسانيَّة أَنَّ لها جولةً عند أَوَّل الالتقاء [٤] ، فإنْ ركِبُوا أَكساءَهم [٥] كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يَثُوبون ، وذلك بعد الخِطار بالعَسكر ، وإطماع العدوِّ فى الشدَّة .

والخوارج إذا وَلَّوا فقد ولَّوْا ، وليس لهم بعد الفَرِّ كَرٌّ إلَّا ما لا يُعدّ .

والتركىُّ ليست له جَولةُ الخراسانىّ ، وإذا أَدبَرَ فهو السمُّ الناقع ، والحَتْف القاضى ، لأَنَّه يُصِيب بسهمِه وهو مُدْبر ، كما يُصيب بسهمه وهو مقبلٌ ، ولا يُؤمن وَهَقُه [٦] .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٢٠١ .

(٢) ب : « لعشرة أسهم » محرف ، م : « العشرة أسهم » ؛ وهو خطأ ، وفى ط : « العشرة الأسهم » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « والتركى أربعة عين » . وقد وردت « أربعة » مؤنثة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز فى العربية مذكور فى المطولات . وانظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان .

(٤) م : « الألقاء » ، صوابه فى ب ، ط .

(٥) الأكساء : جمع كسء ، بالضم ، وهو مؤخر كل شىء . يقال ركب كسأه : وقع على قفاه . والمراد : أدبروا وتأخروا . ب فقط : « كسأهم » ، بالإفراد .

(٦) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشوطة ، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان . ب فقط : « رهقه » ، تحريف .

قال : وهم علَّموا الفُرسانَ حملَ قَوسين وثلاثِ قِسيٍّ ، ومن الأَوتار على حَسَب ذلك[(١)] .

والتركيُّ فى حال شَدَّته معه كلُّ شيءٍ يحتاج إليه ، لنفسه ، ولسلاحه ، ولدابَّته ، وأَداةِ دابَّته[(٢)] . فأَمّا الصَّبر على الخَبَب[(٣)] ومواصلة السَّير ، وعلى طُول السُّرى وقَطع البِلاد [فعجيبٌ جدًّا[(٤)]] .

فواحدةٌ[(٥)] : أَنَّ فرسَ الخارجِّى لا يصبر صَبْرَ برذَون التركيّ .

والخارجيُّ لا يحسن أَن يعالج فرسَه إلَّا مُعالجةَ الفُرسان لخيولهم ، والتركيُّ أَحذَقُ من البَيطار ، وأَجود تقويماً لبِرْذَونهِ على ما يريد من الرَّاضة[(٦)] ، وهو استَنْتَجَهُ ، وهو ربَّاه فِلْواً ، ويَتْبعُه إنْ سَمَّاه[(٧)] ، وإنْ ركضَ ركضَ خَلْفه ، قد عوَّده [ذلك[(٨)]] حتَّى عرفه ، كما يعرف الفرس : اجدَم[(٩)] ، والناقة : حَلِ[(١٠)] ، والجمل : جاهِ[(١١)] ، والبغل : عَدَسْ ، والحمارُ : سأْساْ ، وكما يعرف المجنونُ لقبه ، والصبيُّ اسمَه .

(١) م ، ط : « على حساب ذلك » .
(٢) ب فقط : « وأداة دابته » ، تحريف .
(٣) انظر ما معنى فى ص ٨٩ . وفى ب : « الجنب » ، تحريف
(٤) التكملة من مج والرسائل .
(٥) ط فقط : « فظاهر » .
(٦) الراضة : جمع رائض ، وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذللها .
(٧) ب ، م والرسائل : « وتتبعه إن سماه » ، وأثبت ما فى ط .
(٨) التكملة من مج والرسائل .
(٩) أجدم ، بوصل الهمزة بعدها جيم ودال مهملة ، وهو زجر للفرس ، ومثله « هجدم » بالهاء . وفى الأصول : « اجذم » بالذال المعجمة ، صوابه فى مج ومعظم أصول الرسائل . انظر : ١ : ٤٧
(١٠) يقال فى زجر الناقة : حل ، وحلِى أيضاً . وأنشدوا لأبى النجم :
* وقد حدوناها بحوب وحلى *
(١١) جاه ، بكسر الهاء : زجر للإبل . وربما قيل جاه بالتنوين ، وكذلك جوه جوه بسكون الهاء . ومثله جأ ، وشأ ، كما يقال جيء جيء : أمر لها بورود الماء وهى على الحوض . وجؤجؤ : أمر لها بورود بالماء وهى بعيدة منه ، أوهو زجر لها لا أمر بورود الماء . وفى م ، ط : « جأ » . وأثبت مافى ب ، مج والرسائل .

ولو حصَّلت مُدَّةَ عُمرِ التُّركيِّ وحَسَبت أيَّامَه لوجدتَ جُلوسَه على ظهر الأَرض نادراً[١] . والتركيُّ يركب فَحلًا أو رَمَكةَ[٢] ، ويخرج غازياً أو مسافراً ، أو متباعداً فى طلب صيد ، أو سببٍ من الأَسباب ، فتتبعُه الرَّمَكةُ وأفلاؤُها ؛ إنْ أعياه اصطيادُ النَّاسِ اصطادَ الوحش ، وإنْ أخفقَ منها واحتاجَ إلى طعامٍ فصَدَ دابَّةً من دوابِّه ، وإنْ عَطِشَ حَلَب رَمَكة من رِماكه ، وإن أراحَ واحدةً ركبَ أُخرى ، من غير أَن ينزلَ إلى الأَرض .

وليس فى الأَرض أَحدٌ إلَّا وبدنُه ينتقض[٣] عن اقتيات اللَّحم وحدَه ــ غَيْره ، وكذلك دابّته تكتفى بالعُنقُر[٤] والعُشب والشَّجر ، لا يُظِلُّها من شمسٍ ، ولا يُكنُّها من برد .

قال : وأَمَّا الصبر على الخبَب[٥] فإنَّ الثَّغريِّين[٦] ، والفُرانقيِّين[٧] ، والخِصيان ، والخوارج ، لو اجتمعتْ قُواهم فى شخصٍ واحد لما وَفَوْا بتركىٍّ واحد . والتركيُّ لا يبقَى معه مع طولِ الغاية إلَّا الصَّميمُ من دوابِّه ، والذى يقتله التركيُّ بإتعابه له . وينْفِيه[٨] عند غَزَاته هو الذى لا يصبر

(١) نادراً ، ساقطة من ب . وفى م : « نادر » محرف . وفى مج والرسائل : « لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض » .

(٢) الرمكة ، بالتحريك : الأنثى من البراذين . وفى جميع الأصول : « فحل أرماكه » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٣) ينتقض : يفسد ويهزل . وفى جميع الأصول : « ينتفض » بالفاء ، ولا وجه له .

(٤) العنقر ، كعصفر : أصل القصب والبردى والبقل مادام أبيض مجتمعاً .

(٥) ب : « الجنب » ، تحريف . وانظر ١٩٩ .

(٦) الثغريون : نسبة إلى الثغر ، وهو واحد ثغور الشام . ومن أشهرها : أنطاكية ، وبغراس ، والمصيصة . وأصل أهلها من الروم .

(٧) نسبة إلى الفرانق بالضم ، يعنى بهم عمال البريد ، ويبدو أنهم كانو من غير العرب . والفرانق : الذى يدل صاحب البريد على الطريق ، معرب « بروانك » . ب ، م : « والغزانقيين» ط : « والفزانقيين » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) فى جميع الأصول : « ويبقيه » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

معه فرسُ الخارجي ، ولا يبقَى معه كلُّ بِرذونٍ بخاريّ[(١)] ، ولوساير خارجيًّا لاستفرغ جُهدَه[(٢)] قبل أن يبلغ الخارجيُّ عفوه .

والتركيُّ هو الراعي ، وهو السَّائس ، وهو الرائِض ، وهو النخَّاس[(٣)] ، وهو البَيْطار ، وهو الفارسُ . فالتركيُّ الواحدُ أُمّةٌ على حدة .

قال : وإذا سار التركيُّ في غير عساكر الترك فسار القومُ عشرةَ أميال سار التركيُّ عشرين مِيلًا ، لأنَّه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ، ويَصعَدُ في ذُرَى الجبال ، ويَستبطِنُ قعورَ الأودية ، في طلب الصيد ، وهو في ذلك يرمي كلَّ ما دبَّ ودرج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركيُّ لم يَسِر في العسكر سَيْرَ النَّاسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقيماً قط[(٤)] .

قال : وإذا طالت الدُّلجة ، واشتدَّ السَّير ، وبَعُدَ المنزلُ ، وانتصف النَّهار ، واشتدَّ التعب ، وشَغَل الناسَ الكلالُ[(٥)] ، وصمت المتسايرون فلم يَنطِقوا ، وقَطعَهم ما همْ فيه عن التَّشاغل بالحديث ، وتفسَّخَ[(٦)] كلُّ شيءٍ من شدَّة [الحرّ ، وجَمَد كل شيءٍ من شدَّة[(٧)]] البَرْد ، وتمنى كلُّ جليدِ القُوى على طُول السُّرى أنْ تُطوى له الأرض ، وكلَّما رأى خيالًا[(٨)]

(١) ط فقط : « نجاري » ، تحريف .

(٢) هذا الصواب من م ، مج . وفي الرسائل : « لاستفرغ وسعه » . وفي ب : « لا استفرغ جهده » . وفي ط « لايستفرغ جهده » ، محرفتان .

(٣) ب ، م : « النحاس » ، تحريف . والنخاس ، بالخاء المعجمة : بائع الدواب ، سمي بذلك لنخسه إياها حتى تنشط .

(٤) ب : « ولا مدار » ، صوابه في م ، ط .

(٥) في جميع الأصول : « الكلام » ، ولا يستقيم مع مابعده . والصواب من مج والرسائل . والكلال : التعب والإعياء .

(٦) التفسخ : عدم الطاقة وقلة الاحتمال . م فقط : « وتفسح » ، تحريف .

(٧) التكملة من مج والرسائل ، لكن في الرسائل : « وخمد » بالخاء .

(٨) الخيال : مانصب في الأرض ليعلم أنها حمى فلا تقرب . والخيال والخيالة أيضاً : ماتشبه لك في اليقظة أو الحلم من صورة

أَو عَلماً استبشَرَ به ، وظن أَنَّه قد بلغ المنزل ، وإذا بلغه الفارس نزلَ وهو متفحجٌ [١] ، كأَنَّه صبيٌّ محقونٌ [٢] ، يئنُّ أَنينَ المريض ، ويستريح إلى التثاؤب [٣] ، ويتداوَى مما به بالتمطِّي والتضجُّع . وترى التركيَّ في تلك الحال ، وقد سار ضِعفَ ما ساروا ، وقد أَتعبَ مَنكِبَيه كثرةُ النَّزْع [٤] ، يرى بقرب [٥] المنزلِ عَيْراً أَو ظَبْياً ، أَو عرَضَ له ثعلبٌ أَو أَرنب ، كيف يركُض ركضَ مبتدئٍ مستأْنِف ، حتَّى كأَنَّ الذى سار ذلك السَّير ، وتَعِب ذلك التَّعبَ غيرُه .

وإنْ بلغ النَّاسُ وادياً فازدحموا على مَسلكه أَو على قنطرته ، بَطَنَ [٦] برذونَه فأَقْحمَه ثم طلع من الجانب الآخَر كأَنَّه كوكبٌ . وإن انتهَوْا إلى عَقَبةٍ صَعْبة ترك السَّنَن [٧] ، وذهبَ في الجَبَل صُعُدا ، ثم تدلَّى من موضعٍ يَعجِز عنه الوَعِل ، وأَنت تحسَبه مخاطراً بنفْسه ، لِلَّذى ترى من مُطَّلعه . ولو كان في كل ذلك مخاطراً لما دامت له السَّلامةُ ، مع تتابع ذلك منه .

---

(١) متفحج : قد فتح ما بين رجليه ، وذلك من تأثير طول الركوب . ب : « متفحح » م ، ط : « متفجح » بتقديم الجيم على الحاء ، ولا مادة لهذه في العربية ، وصوابها ماأثبت من مج والرسائل .

(٢) محقون : قد أعطى الدواء بالحقنة . وفي جميع الأصول : « مجنون » ، صوابه في مج والرسائل .

(٣) ب : « التناوب » ، م ، ط « التثواب » ، والصواب ما أثبت من مج والرسائل .

(٤) النزع في القوس : مد وترها ليرمى بسهامها .

(٥) في جميع الأصول : « لقرب » باللام ، والوجه ما أثبت . وفي مج والرسائل : « قرب المنزل » .

(٦) بطنه بطناً : ضرب بطنه . ب : « فطن » ، بالفاء ، صوابه في م ، ط ، مج والرسائل .

(٧) السنن ، بالتحريك : نهج الطريق ومحجته . م ، ط : « السير » تحريف .

قال : ويَفخَرُ[١] الخارجىُّ بأنَّه إذا طَلَب أدركَ ، وإذا طُلِب فات[٢] .

والتركىُّ ليس يُحْوَج إلى أن يَفُوت ، لأنَّه لا يُطلَب ولا يُرام . ومَن يرومُ مالا يُطمع فيه ؟ !

فهذا دليلٌ على أنّا قد علمنا أنَّ العلَّة التى عمَّت الخوارج بالنَّجدة استواءُ حالاتِهم فى أشدِّ الديانة[٣] ، واعتقادُهم بأنَّ القتالَ دِين ؛ لأنَّنا حين وجدْنا السِّجستانىَّ ، والجَزرى[٤] ، واليمانىَّ ، والمغربى ، والعُمانىَّ ، والأزرَقىَّ منهم والنَّجْدىّ[٥] ، والإباضىَّ ، والصُّفْرى[٦] ، والمولى والعربىّ ، والعجمىّ والأعرابىّ ، والعبيدَ والنِّساء ، والحائكَ والفلَّاح ، كلُّهم يُقاتِل مع اختلافِ الأنساب ، وتَبايُن البُلدان ــ علمْنا أنَّ الدِّيانة هى التى سوَّت بينهم فى ذلك ، كما أنَّ كلَّ حجّامٍ فى الأرض من أىِّ جنسٍ كان ، ومن أهلِ أىِّ بلد كان ، فهو يحبُّ النبيذ . وكما أنَّ

(١) فى جميع الأصول : « ويعجز » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٢) مج والرسائل : « لم يدرك » .

(٣) مج والرسائل : « فى الديانة » .

(٤) ب : « والحزرى » ط : « والخزرى » ، وأثبت ما فى م ومج والرسائل .

(٥) نسبة إلى نجدة بن عامر ، أو ابن عاصم ، الحنفى . ويقال لهم « النجدات » أيضاً . وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ونجدة إلى اليمامة ، وذلك فى سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى فى حوادث ٦٤. ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب بن الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم نقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكاته سنة ٧٣ وقتل نجدة فى تلك السنة . الطبرى والفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٦) الصفرية ، بضم الصاد : طائفة من الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، ويقال لهم الزيادية أيضاً . وقولهم كقول الأزارقة فى أن أصحاب الذنوب مشركون ، غير أن الصفرية لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم ، وهم يرون ذلك . انظر آراءهم فى الملل ١ : ١٨٣ والفرق ٧٠ والسمعانى ٣٥٤ والمواقف ٦٤٠ ومفاتيح العلوم ١٦ والكامل ٦٠٤ . ط : « والصفوى » تحريف .

أَصحاب الخُلقانِ[١] ، والسَّمَّاكين ، والنَّخَّاسين والحاكَةَ ، فى كلِّ بلدٍ ومن كلِّ جنس ، شِرار خلْق الله فى المبايَعَة والمعاملة . فعلْمنا بذلك أَنَّ ذلك خلقةٌ فى هذه الصِّناعات ، وبِنيةٌ فى هذه التِّجارات ، حتَّى صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأَيناهُ فى بلادِه ليس يُقاتل على دين ، ولا على تأْويل ، ولا على مُلْك ولا على خَرَاج ، ولا على عَصبية ، ولا على غَيرةٍ دونَ الحُرْمة ، ولا على حميَّة ولا على عداوة ، ولا على وطنٍ ولا على مَنْع دارٍ[٢] ولا مال ، وإنَّما يقاتل على السَّلْب والخيارُ فى يده . وليس يخاف الوعيدَ إن هرب ، ولا يرجو الوَعْدَ إنْ أَبلى عذراً . وكذلك هم فى بلادهم وغَاراتِهم[٣] وحروبِهم .

وهو الطالب غير المطلوب ، ومن كان كذلك فإنَّما يأْخذ العفو من قوَّته ، ولا يحتاج إلى مجهوده ، ثم مع ذلك لا يقوم له شىءٌ ، ولا يطمع فيه أَحد ، فما ظنُّك بمن هذه صِفَتُه ، أَنْ لو[٤] اضطرَّه إحراجٌ أَو غَيْرةٌ[٥] ، أَو غضَبٌ أَو تديُّن ، أَو عَرَض له بعضُ ما يصحب المقاتلَ المحامىَ من العلل والأَسباب .

قال : وقناةُ الخارجىِّ طويلةٌ صمَّاءُ ، وقَناة التركىِّ مِطردٌ أَجوَف[٦] . والقَنَا الجُوف القصارُ أَشدُّ طعنةً ، وأَخفُّ مَحمِلا . والعجم تجعل القَنا الطِّوالَ للرَّجّالة ، وهى قَنا الأَبناءِ[٧] على أَبوابِ الخنادق والمضايق .

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، بالتحريك ، وهو البالى . وانظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) ب فقط : « ومنع دار » .

(٣) فى الأصول : « وعاداتهم » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٤) ب ، م : « أولو » ط : « ولو » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) ب ، م : « إخراج أو غيره » ط : « إحراج أو غيره » ، صوابه من مج والرسائل .

(٦) المطرد ، بكسر الميم : رمح قصير .

(٧) ب : « قناء » ، وإنما تجمع القناة على قنوات وقنا وقنى ، الأخيرة على وزن فعول . وفى مج والرسائل : « قنى الأبناء » . والأبناء سبق القول عليهم فى ص ١٦٧ .

والأَبناءِ فى هذا الباب لا يَجرون مع الأَتراك والخراسانية ، لأَنَّ الغالب على الأَبناءِ المطاعنةُ على أَبواب الخنادق ، وفى المضايق ، وهؤلاءِ أَصحاب الخيل والفُرسان ، وعلى أَصحاب الخيل والفرسان يدور أَمر الفروسيَّة(١) . لهم الفَرُّ والكَرّ . والفارس هو الذى يطوى الجيش طىَّ السِّجِلّ(٢) ، ويفْرِقُهم فَرْق الشَّعر(٣) . وليس يكون الكمين ولا الطَّليعة ولا السَّاقَة إِلَّا الكبارَ منهم(٤) . وهم أَصحاب الأَيَّام المذكورة ، والحروبِ الكِبار ، والفتوح العظام .

٢٤ — فصل منها

والشحُّ على الوطن ، والحنين إِليه ، والصَّبابةُ به ، مذكورٌ فى القرآن(٥) ، مخطوط فى الصُّحف بين جميع الناس ، غير أَنَّ التركىَّ للعللِ التى ذكرناها أَشدُّ حنيناً ، وأَكثر نُزُوعاً(٦) .

وباب آخر مما كان يدعوهم إِلى الرُّجوع قبل ثَنْى العَزْم(٧) والعادةِ المنقوضة : وذلك أَنَّ التُّركَ قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْر(٨) والجُثوم(٩) ،

(١) ب ، م : « الفروس » ، صوابه فى ط . و فى مج والرسائل : « تدور الجيوش »

(٢) السجل : الصحيفة ، والكتاب الكبير ، والسجل : الكاتب أيضاً أو ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه ، وبهما فسرت الآية الكريمة : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » فى الآية ١٠٤ من الأنبياء . ب : « على السجل » ، صوابه فى م ، ط ومج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « ويفرقهم تفريق الشعر » .

(٤) فى الرسائل فقط : « وليس يكون الكمين إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة » .

(٥) فى آيات كثيرة فيها ذكر « الديار » . ينظر لها المعجم المفهرس .

(٦) النزوع والنزاع أيضاً : الحنين والاشتياق إلى الأهل والوطن . ب : « نزعا » تحريف . وفى مج : « نزاعا » . وأصل النزاع المغالبة ، يقولون : نازعتنى نفسى إلى هواها أى غالبتنى . كما يقولون نزع إلى أهله ووطنه نزوعاً .

(٧) ب ، م : « عزم الثانى » ، وأثبت مافى ط . وفى مج والرسائل : « قبل العزم الثابت » .

(٨) فى جميع الأصول وكذا فى مج : « الحضر » ، وأثبت مافى الرسائل .

(٩) جثم جثوماً : لزم مكانه فلم يبرحه . وهذه الكلمة ساقطة من ط . وفى ب : «الختوم» وفى م : « الحتوم » ، صوابها من مج والرسائل .

وطُول اللُّبث والمُكث ، وقلّة التصرُّف والتحرُّك[(١)] . وأصلُ بِنيتهم إنَّما وضع على الحركة ، وليس للسُّكون فيهم نصيب ، وفى قُوى أرواحهم فضْلٌ على قُوى أبدانهم ، لأنَّهم أصحابُ توقُّدٍ وحرارة ، واشتعال وفطنة[(٢)] ، كثيرةٌ خواطرهم ، سريعٌ لحظُهم . وكانوا يرون الكِفاية مَعْجَزةً ، وطُولَ المُقام بُلْدة[(٣)] ، والرَّاحةَ عُقلة[(٤)] والقناعةَ من قِصر الهمّة ، وأنَّ تَركَ الغزوِ يورث الذِّلَّة .

وقد قالت العرب فى مثلِ ذلك : قال عبد الله بن وهبٍ الرَّاسبيّ[(٥)] : « حبُّ الهُوَينَى يُكسب النَّصَب » .

والعرب تقول : « من غلا دماغُه فى الصَّيف غلَتْ قِدرُه فى الشِّتاء » .

وقال أكثم بن صَيفيّ : « ما أَحبُّ أَنِّى مكفِىٌّ كلَّ أَمرِ الدُّنيا » ، قيل : ولِم ؟ قال : « أَخاف عادة العَجْز[(٦)] » .

فهذه كانت عِللَ التُّرك فى حبُّ الرُّجوع ، والحنينِ إلى الوطن .

ومِن أَعظم ما كان يدعوهم إلى الشُّرود ، ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جهلِ قُوّادهم بأَقدارهم ، وقلّة معرفتهم بأَخطارهم ، وإغفالِهم موضعَ الردِّ عليهم[(٧)] ، والانتفاعِ

(١) ب ، م : « والتحرق » ط : « والتحرف » ، صوابهما فى مج والرسائل .
(٢) هذا ما فى ط . وفى ب ، م ومج والرسائل : « واشتغال » بالغين المعجمة .
(٣) البلدة بضم الباء وفتحها : ضد الذكاء والنفاذ والمضاء فى الأمور ، ومثلهما البلادة . ط ، ومج والرسائل : « بلادة » .
(٤) عقلة ، بضم العين المهملة : أى تعقل صاحبها وتحبسه عن الانطلاق . ط فقط : «غفلة » .
(٥) الراسى : نسبة إلى راسب بن ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزد . وكان عبد الله هذا قد خرج على على فى أربعة آلاف ، وبايعه الخوارج لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ وقتل يوم النهروان سنة ٣٨ كما فى الطبرى . وانظر التنبيه والإشراف ٢٥٦ وجمهرة ابن حزم ٣٨٦ .
(٦) م : « عارة العجز » . تحريف . وفى الرسائل : « أخاف العجز » .
(٧) الرد : النفع ، من قولهم : هذا أرد من ذاك ، أى أنفع .

بهم ، ولأنهم حين جعلوهم أُسوَة أجنادهم[١] لم يقنعوا أن يكونوا فى الحاشية والحُشْوة ، وفى غِمارِ العامَّة[٢] ، ومن عُرْض العساكر ، وأَنِفوا [من ذلك[٣]] لأنفسهم ، وذكروا ما يجبُ لهم ، ورأَوْا أَنَّ الضَّيم لا يليق بهم ، وأَنَّ الخمولَ لا يجوز عليهم ، وأنَّهم فى المُقام على مَن لم يعرف حقَّهم أَلْوَمُ ممَّن مَنَعهم حقَّهم . فلما صادفوا مَلِكاً حكيماً ، وبأَقدار النَّاس عليماً ،لا يميل إلى سوءِ عادة ،ولا يَجنَحُ إلى هوًى ، ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ، يدور مع التَّدبير حَيثُما دار[٤] ، ويقيم مع الحَزْم حيثما أَقام ــ أَقاموا إقامة من مُنِح الحظَّ[٥] ، ودان بالحقِّ[٦] ، ونَبذ العادة ، وآثر الحقيقة ، ورَحَلَ نفسه لِقطيعة وطنه[٧] ، وآثر الإمامة على مُلك الجَبَريَّة ، واختار الصَّواب على الإلْف .

ثم اعلمْ بعد ذلك كلِّه أنَّ كلَّ أُمّة وقرنٍ وجيل وبنى أَبٍ وجَدْتَهم قد بَرَعوا فى الصناعات ، وفَضَلوا الناسَ فى البيان ، أَوْ فاقوهم فى الآداب[٨] أَو فى تأْسيس الملك ، أَو فى البَصر بالحرب[٩] . فإنَّك لا تجدهم فى الغاية وفى أَقصى النهاية ، إلَّا أَنْ يكون الله تعالى قد سخَّرهم لذلك المعنى بالأَسباب ، وقَصرهم عليه بالعلل التى تُقابِل تلك

(١) وكذا فى مج . وفى الرسائل : « حتى جعلوهم » ، بإسقاط « ولأنهم » .

(٢) الغمار : جمع غمرة ، بالفتح ، وهى الزحمة من الناس والماء ، وفى حديث أويس : « أكون فى غمار الناس » ، أى جمعهم المتكاثف . وفى الأصول : « غمارة العامة » صوابه فى مج والرسائل .

(٣) التكملة من مج والرسائل .

(٤) ط : « مع التدبير مادار » .

(٥) هذا مافى ط . وفى م : « فهم الحظ » ، وفى ب : « فهم الخط » .

(٦) فى جميع الأصول : « ودار بالحق » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٧) رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفى جميع الأصول : « ووصل نفسه بقطيعة وطنه » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٨) ب ، م : « وأفاقوهم فى الآداب » ، وفى ط : « وفاقوهم » .وأثبت مافى مجوالرسائل .

(٩) فى جميع النسخ : « أو فى النصر بالحرب » ، صوابه فى ج والرسائل .

الأُمور ، وتَصْلُح لتلك المعانى ، لأنَّ من كان متقسَّم الهوى ، مُشتَرَك الرَّأْى ، متشعِّبَ النَّفْس[١] ، غير موفَّر على ذلك الشىء ، ولا مهيَّأً له ، لم يَحذِق من تلك الأَشياءِ شيئاً بأَسْره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأَهل الصِّين فى الصِّناعات ، واليونانيِّين فى الحِكَم والآداب ، والعربِ فيما نحن ذاكروه فى موضعه ، والسَّاسانِ[٢] فى الملك ، والأَتراك فى الحروب .

أَلا ترى أَنَّ اليونانيِّين الذين نظروا فى العِلَل لم يكونوا تُجَّاراً ولا صُنَّاعاً بأَكفِّهم ، ولا أَصحابَ زرعٍ وفِلاحة ، وبناءٍ وغَرْس ، ولا أَصحاب جمعٍ ومَنْع وكدٍّ[٣] . وكانت الملوك تفرِّغُهم[٤] ، وتُجرِى عليهم كفايتَهم ، فنظَروا حين نَظَروا بأَنفسٍ مجتمعة ، وقوَّةٍ وافرة ، وأَذهانٍ فارغة ، حتَّى استخرجوا الآلاتِ والأَدوات ، والملاهىَ التى تكون جَمَاماً للنفس ، وراحةً بعد الكَدِّ ، وسُروراً يداوى قرْحَ المهموم[٥] ، فصنعوا من المرافق ، وصاغُوا من المنافع ، كالقَرِسطُونات[٦] ، والقَبَّانات ،

---

(١) الرسائل فقط : « ومتشعب النفس » .

(٢) مج والرسائل : « وآل ساسان » .

(٣) فى مج والرسائل : « ومنع ، وحرص وكد » .

(٤) ب ، ط : « تفزعهم » ، صوابه فى م والرسائل .

(٥) القرح ، بالفتح والضم : الجرح . ب : « فرج المهموم » م : « فرح المهموم ، ط : « فرح الهموم » ، وأثبت ما فى مج . وفى الرسائل : « قرح الهموم » .

(٦) فى النزهة المبهجة لداود الأنطاكى بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : « علم مركز الأثقال مثل القرصطيون ، يعنى القبان » . كما جاء فى كتاب التربيع والتدوير ص ١٣٨ ساسى : « وخبرنى عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » . وانظر الحيوان ١ : ٨١ . ويبدو أنه ضرب من الميزان القبان .

والأَسْطُرلابات(١) ، وآلة الساعات ، وكالكونيا(٢) ، والكسيران(٣) والبِرْكار(٤) ، وكأَصناف المزامير والمعازِف ، والطبِّ(٥) والحساب ، والهندسةِ ، واللحون ، وآلات الحرب ، وكالمجانيق ، والعَرّادات(٦) ، والرّتيلات(٧) ،والدَّبَّابات ، وآلة النَّفَّاطين ، وغير ذلك مما يطول ذِكره(٨) .

وكانوا أَصحابَ حِكمة ، ولم يكونوا فَعَلةً . يصوِّرون الآلة ، ويَخرِطون الأَداة(٩) ، ويَصُوغون المُثُل ولا يحسنون العمل بها(١٠) ، ويشيرون إليها ولا يمسُّونها ، يُرَغِّبون فى التعليم(١١) ، ويَرغَبون عن العمل .

فأَمَّا سكّان الصِّين فإِنَّهم أَصحاب السَّبْكِ والصِّياغة ، والإِفراغ والإِذابة ، والأَصباغِ العجيبة ، وأَصحابُ الخَرْط والنَّجْر(١٢) والتَّصاوير ،

---

(١) الأسطرلاب أو الأصطرلاب : مقياس النجوم ، هو باليونانية : أصطرلابون . وأصطر هو النجم ، ولابون هو المرآة . وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاقات فى هذا المعنى بمالامعنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر . وهذا اسم يونانى ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف . انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١/٢ : ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس فى هذا الوهم الذى نبه عليه الخوارزمى فى مادة (لوب) .

(٢) ب ، ط : « وكالكرنيا » وفى م : « والكرنبا » ، وأثبت مافى مج والرسائل . وجاء فى مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواوكما أثبت وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة » .

(٣) كذا فى جميع الأصول . وفى مج : « والكشتوان » ، وفى الرسائل : « وكالشيزان » .

(٤) فى جميع النسخ « والبوكار » ، صوابه فى مج والرسائل . والبركار : آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين ، تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى ، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وهى فى العامية المصرية « البرجل » ، وفى الفارسية : « بركار » .

(٥) مج والرسائل : « وكالطب » .

(٦) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة ونحوها فى القتال . وانظر حواشى البيان ٣ : ١٧ . ط : « والقرادات » ، تحريف .

(٧) انظر ما سبق فى حواشى ١ : ٦٩

(٨) ب فقط : « يطيل ذكره » ، تحريف .

(٩) م فقط : « الادات » ، تحريف .

(١٠) فى جميع الأصول : « به » ، صوابه فى الرسائل . وفى مج : « ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به » .

(١١) مج والرسائل : « فى العلم » .

(١٢) مج والرسائل : « والنحت » .

والنَّسج والخَطّ[١] ، ورِفْق الكَفّ فى كلّ شىء يتولَّوْنه ويُعانُونه ، وإن اختلفَ جوهرُه ، وتباينت صنعته ، وتفاوت ثمنه[٢] .

فاليونانيُّون يعرفون العِلل ولا يباشرون العَمَل ، وسُكَّان الصِّين يباشرون العمل ولا يعرفون العِلل ؛ لأَنَّ أُولئك حكماءُ ، وهؤلاءِ فَعَلة .

وكذلك العرب لم يكونوا تجّاراً ولا صُنَّاعاً ، ولا أَطبَّاءَ ولا حُسَّاباً ولا أَصحابَ فلاحة ، فيكونُوا مَهَنة[٣] ، ولا أَصحابَ زرعٍ ، لخوفهم صَغَارَ الجِزْية[٤] . ولم يكونوا أَصحاب جمعٍ وكَسْب ، ولا أَصحابَ احتكارٍ لما فى أَيديهم ، وطلبٍ لما عند غيرهم ، ولا طَلبوا[٥] المعاشَ من أَلسنةِ الموازين ورءُوس المكاييل ، ولا عَرَفوا الدَّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقرَ الْمُدْقع الذى يَشغَل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغَنَاءَ الذى يورث البُلْدة[٦] ، والثَّروة التى تُحدث الغِرَّة[٧] ، ولم يحتملوا ذلاًّ قطُّ فيميت قلوبهم ، ويصغِّر[٨] عندهم أَنفسَهم . وكانوا سُكَّانَ فيافٍ ، وتربية العَرَاء ، لايعرفون الغَمَقَ ولا اللَّثقَ[٩] ، ولا البُخَار ولا الغِلَظ[١٠] ،

(١) فى الرسائل : « والنسخ والخط » .

(٢) ثمنه ، ساقطة من م .

(٣) فى حديث عائشة : « كان الناس مهنة أنفسهم » ، جمع ماهن ، ككاتب وكتبة ، ويقال مهان أيضاً ككاتب وكتاب .

(٤) الصغار ، بالفتح : الذل والضيم .

(٥) ب : « ولا طلب » .

(٦) الغناء ، بالفتح : ضد الفقر ، وهو الغنى بالكسر والقصر . ب : « الغناء » م : « الفناء » ، وجههما ما أثبت من مج . وفى ط ، والرسائل : « الغنى » . والبلدة ، : بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور . وفى ط : « البلادة » وفى مج : « التبليد » .

(٧) ب ، م : « العزة » صوابه فى ط ومج والرسائل . والغرة : الغفلة .

(٨) ب : « أو تصغير » صوابه فى م ، ط . وفى مج : « أو يصغر » ، وفى الرسائل : « ويصغر » .

(٩) الغمق ، بالتحريك : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح .

(١٠) فى جميع النسخ : « الغلط » بالطاء المهملة ، صوابه بالظاء المعجمة ، وهو ضد الرقة فى الخلق والطبع والعيش ، والمراد غلظ الهواء .

ولا العَفَن ، ولا التَّخَم[١] . أذهانٌ حديدة[٢] ، ونفوسٌ منكرة . فحين حملوا حدَّهم[٣] ، ووجَّهوا قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة[٤] ، وتصاريف الكلام ، وقيافة البَشَر بعد قيافة الأَثَر ، وحفظ النَّسَب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلالِ بالآثار ، وتعرُّفِ الأَنواء[٥] ، والبصَر بالخَيْل والسِّلاح وآلة الحرب ، والحفظِ لكلِّ مسموع ، والاعتبارِ بكلِّ محسوس ، وإحكام شأْن المناقب والمثالب ، بلغوا فى ذلك الغاية ، وحازوا كلَّ أُمنيَّة . وببعض هذه العلل صارت نفوسُهم أكبر ، وهِمَمُهم أَرفع ، وهم من جميع الأُمم أَفخر[٦] ، ولأَيَّامهم أَذكَر .

وكذلك الترك ، أَصحاب عَمَدٍ ، وسُكَّان فيافٍ ، وأَرباب مَواشٍ . وهم[٧] أَعرابُ العَجَم ، كما أَنَّ هُذيلًا أَكرادُ العرب ، لم تشغلهم الصِّناعاتُ ولا التجارات ، ولا الطبُّ والفلاحة والهندسة ، ولا غِراسٌ ولا بُنْيانٌ ، ولا شَقُّ أَنهار ، ولا جِبايةُ غَلَّات ، ولم يكن [هَمُّهم غيرَ الغارة والغزْوِ والصَّيد ، وركوب الخيْل ، ومقارعةِ الأَبطال ، وطلبَ الغنائم ، وتدويخ البلاد . وكانت[٨]] هِمَمُهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المعانى والأَسبابِ مُسَخَّرةً ، ومقصورةً عليها وموصولةً بها ، أَحكموا ذلك الأَمر بأَسْرِه ، وأَتَوْا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتَهم وتجارتَهم ، ولذَّتَهم فى الحربِ وفخرَهم ، وحديثَهم وسَمَرَهم .

فلما كانوا كذلك صارُوا فى الحرب كاليونانيِّين فى الحكمة ،

---

(١) النخم : الوخم ، وهو الوباء .
(٢) مج والرسائل : « حداد » .
(٣) ب فقط : « أحدهم » ، تحريف .
(٤) ط فقط : « وتثقيف اللغة » ، تحريف .
(٥) ط : « الأنوار » ، تحريف .
(٦) وكذا فى مج ، لكن فى الرسائل : « وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر » .
(٧) ب : « والترك » . (٨) التكملة من م ، ط ، مج والرسائل .

وأهل[١] الصِّينِ فى الصناعات ، والأَعرابِ فيما عددنا ونزَّلنا[٢] ، وكالسَّاسان[٣] فى الملك والسياسة .

ومِمَّا يُستدَلُّ به على أنَّهم قد استقصَوْا هذا البابَ واستفرغوه ، وبلغوا أقصى غايته وتعرَّفوه ، أنَّ السَّيف إلى أن يتقلَّده متقلِّد ، أو يضرب به ضارب[٤] ، قد مرَّ على أيدٍ كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنَّاعِ ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبِه ولا يُحسنه ، ولا يدَّعيه ولا يتكلَّفه ؛ لأنَّ الذى يُذيب حديد السَّيف ويُمِيعه ويصفِّيه ويُهذِّبه ، غيرُ الذى يمدُّه ويَمْطُله[٥] ، والذى يمدُّه ويمطله[٦] غير الذى يَطبعه ويسوِّى متنَه ، ويقيم خَشِيبته[٧] ، والذى يَطْبعه ويسوِّى متنَه غير[٨] الذى يَسقيه ويُرهِفه ، والذى يسقيه ويُرهفه ، غير الذى يركِّب قبيعتَه ، ويَستوثقُ من سِيلانه[٩] ، والذى يَعمل مسامير السِّيلانِ ، وشاربَىِ القبيعة[١٠] ونَعْلَ السَّيف[١١] غير الذى ينحت خشب غِمْده . والذى ينحت خَشب غِمده غيرُ الذى يدبغُ جِلده ، والذى يدبغ جلدَه غير الذى يحلِّيه ، والذى يحلِّيه ويركِّب نصله غير الذى يَخْرِز حمائله .

---

(١) ب فقط : « وأصل » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « ونولنا » ط : « ونوعنا » ، صوابهما فى مج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « وكآل ساسان » .

(٤) فى جميع النسخ : « ويضرب به ضارب » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) المطل : المد والبسط . ط : « ويمطه ؟ » .

(٦) ط : « ويمطه » .

(٧) يقال سيف مشقوق الخشيبة : عرض حين طبع . ب فقط : « خشابته » .

(٨) ب ، م : « سوى » .

(٩) السيلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(١٠) القبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان فى أصل مقبض السيف . وفى ب : « وشادى القبيعة » وفى م ، ط : « وشاذى القبيعة » .

(١١) نعل السيف : الحديدة التى تكون فى أسفل جفنه من حديدة أو فضة ، وفى الحديث : « كان نعل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضة » . مج والرسائل : « ونصل السيف » .

وكذلك السَّرجُ ، وحالات السَّهم والجَعْبة والرُّمح ، وجميع السلاح مما هو جارحٌ[(١)] أو جُنَّة .

والتُّركيُّ يعمل هذا كلَّه بنفسه ، من ابتدائه إلى غايته ، ولا يستعينُ برفيقٍ ، ولا يَفْزَع إلى رأى صديق ، ولا يختلف إلى صائغ ، ولا يَشْغَل قلبه بمِطاله وتسويفه[(٢)] ، وأكاذيبِ مواعيده ،وبغُرْم كِرائِه[(٣)] .

وليس فى الأرض كلُّ تركيّ كما وصَفْنا ، كما أنَّه ليس كلُّ يونانيٌّ حكيماً ، ولا كلُّ صينيٍّ حاذقاً ، ولا كلُّ أعرابيٍّ شاعراً فائقاً[(٤)] ، ولكنّ هذه الأُمورَ فى هؤلاءِ أعمُّ وأتمُّ ، وفيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا فى السَّببِ الذى تكاملَتْ به النَّجدةُ والفروسيَّةُ فى التُّركِ دونَ جميع الأُمم ، وفى العلل[(٥)] التى من أجلها نظموا جميعَ معانى الحرب ، وهى معانٍ تشتمل على مذاهبَ غريبةٍ ، وخصالٍ عجيبة ،فمنها مَا يُقْضَى[(٦)] لأهله بالكرم ، وببُعد الهمّةِ ، وطلب الغاية . ومنها ما يدلُّ على الأدب السَّديد[(٧)] ، والرّأى الأصيل ، والفِطنة الثّاقبة ، والبصيرة النافذة .

أَلَا ترى أنَّه ليس بدٌّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحَزْم والعزم ، والصَّبر والكِتمان ، ومن الثَّقافة وقِلَّة الغَفْلة ، وكثرة التَّجرِبة ؟ ولا بدَّ من البصَر بالخيلِ والسِّلاح[(٨)] ، والخبرةِ بالرِّجال والبلاد ،

(١) م ، ط : « خارج » ،صوابه فى ب ، ومج والرسائل .
(٢) م ، ط: «بمطله وتسويفه» . والمطل والمطال: التسويف وتأجيل موعد الوفاء بالشىء.
(٣) هذا الصواب من مج والرسائل . وفى ب : « وبعزم كرائه » ، وفى م : « وبغزم كرائه » وفى ط : « ويغرم كراءه » .
(٤) مج والرسائل : « قائفاً » . القائف : الذى يتتبع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه . وأثبت مافى سائر النسخ
(٥) كذا فى مج والرسائل . وفى جميع النسخ : « فى العلل » بسقوط الواو .
(٦) فى الأصول : « يفضى » بالفاء ، وأثبت مافى مج والرسائل .
(٧) كذا فى مج والرسائل . وفى ب: « الأرب الشديد » ،وفى م ، ط: « الأدبالشديد » .
(٨) ب : « فى الخيل والسلاح » ، وفى مج : « من البصر فى الخيول والسلاح » .

والعلم بالمكان والزّمان والمكايد ، وبما فيه صلاحُ الأُمورِ كلِّها[١] .

والمُلْك يَحتاج إلى أَواخٍ شِداد ، وأَسبابٍ مِتان ، ومن أَمتنها سبباً ، وأَعمِّها نفعاً ، ما ثبَّته فى نصابه[٢] ، وسَكَّنه فى قراره ، وزاده فى تمكينه وبهائه ، وقطعَ أَسبابَ المطمعة فيه ، ومنع أَيدىَ البُغاة من الإِشارة إليه ، فضلًا عن البسط عليه .

قد قلنا فى مناقب جميع الأَصنافِ بجُمَلِ ما انتهى إلينا ، وبَلغَه علمُنا ، فإِنْ وقَع بالموافقة فبتوفيقٍ من الله تعالى وصُنْعِهِ ، عزّ ذكره . وإِنْ قصَّر دون ذلك فالذى قصَّر بنا[٣] نُقصانُ علمنا ، وقلَّةُ حفظنا ، وأَسماعنا[٤] . فأَمّا حُسْن [النيَّة[٥]] ، والذى[٦] نضمر من المحبَّة والاجتهادِ فى القُربة ، فإِنّا لا نرجع فى ذلك إلى أَنفسنا بلائمةٍ . وبين التقصير من جِهَة العجز وضَعْف القوّة[٧] فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كُتب المناقضات ، وكُتب المسائل والجوابات ، وكان كلٌّ صنف من هذه الأَصناف يريد الاستقصاءَ على صاحبه ، ويكون غايتُه إظهارَ نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلَّا بإِظهار نَقْص أَخيه ووليِّه ، لكان كتابُنا كبيراً ، كثير الورق عظيماً . ولكنَّ القليلَ الذى يَجْمع ، خيرٌ من الكثير الذى يفرِّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأَله العون والتسديد ، إنَّه سميعٌ قريب ، فعَّالٌ لما يريد .

---

(١) فى الرسائل : « صلاح هذه الأمور كلها » .
(٢) ب : « مابثته فى نصابه » م : « ماتثبته » فقط ، صوابهما فى ط ، مج والرسائل .
(٣) ب ، م : « فما الذى قصر بنا » ، صوابه فى ط ومج والرسائل .
(٤) مج والرسائل : « وسمعنا » .
(٥) التكملة من مج والرسائل . وفى م : « وأما حسن » فقط . وفى ط : « وزيما حسنه » .
(٦) ط : « الذى » بطرح الواو .
(٧) مج والرسائل : « وضعف العزم » .

٨

من كتابه في

حُجَج النُّبُوَّة

٢٥ ـ فصل(١) من صدر كتابه
فى حجج النبوة

الحمد لله الذى عرَّفنا نفسَه ، وعلَّمنا دينَه ، وجَعَلنا من الدُّعاةِ إليه ، والمحتجِّين له . فنحن نسأَله تمامَ النِّعمة ، والعونَ على أداءِ شُكره ، وأَنْ يوفِّقنا للحقِّ برحمته ، إنَّه ولىُّ ذلك ، والقادرُ عليه ، والمرغوب إليه فيه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

ثم إنَّا قائلون فى الأَخبار ، ومخبرون عن الآثار ، ومفرِّقون بين أَسباب الشُّبهة ، وأَسباب الحُجَّة ، ثمَّ مفرِّقون بين الحجّة التى تَلزم الخاصَّةَ دون العامَّة ، ومُخبرون عن الضَّرب الذى يكون الخاصَّةُ فيه حجّةً على العامَّة ، وعن الموضع الذى يكون القليلُ فيه أَحقَّ بالحجة من الكثير ، ولِم شاعَ الخبرُ وأَصلُه ضعيف ؟ ولِم خَفِىَ وأَصلُه قوىّ ؟ وما الذى يُؤمَن من فساده وتبديله مع تقادُم عصره ، وكثْرة الطاعنين فيه(٢) ، وعن الحاجة إلى رواية الآثار ، وإلى سماع الأَخبار ، وعن أَخلاقِ النَّاس وآبائهم ، ومذاهب أَسلافهم ، وعن سِيرَ الملوك قبلهم(٣) ، وما صنعت الأَيَّامُ بهم ، وعن شرائع أَنبيائهم ، وأَعلام رسلهم ، وعن أَدب حكمائهم ، وأَقاويل أَئمَّتهم وفُقَهائهم ، وعن حالاتِ من غاب عن أَبصارهم فى دهرهم ، ولِم كان الإِخبار على النَّاس(٤) أَخفَّ من الكتمان ؟ ولِم

---

(١) ب فقط : « فصل منها » .
(٢) كلمة « فيه » من ط فقط .
(٣) ب : « وعن سر الملوك قبلهم » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « عن الناس » .

كان الصَّمتُ أثقلَ عليهم من الكلام ؟ وما الضَّربُ الذى يَقدِرون على كتمانه وطيِّه ، والضَّربُ الذى لا يقدرون إلَّا على إذاعته ونَشْره ؟ ولم اجتمعت الأُمم على الصِّدق فى أُمور ، واختلفت فى غيرها ؟ ولم حَفِظَتْ أُموراً ونسيتْ سواها ؟ ولم كان الصِّدق أكثر من الكذب ؟ ولم كان الصَّمتُ أثقل والقول أفضل ؟

والعجب مِن تركِ الفُقهاءِ تمييزَ الآثار ، وتَرْكِ المتكلِّمين القولَ فى تصحيح الأَخبار ، وبالأَخبار يعرِفُ النَّاسُ النبيَّ من المتنبِّى[(١)] ، والصَّادقَ من الكاذب ، وبها يعرفون الشَّريعة من السُّنَّة ، والفريضَة من النافلة ، والحَظْرَ من الإِباحة ، والاجتماع من الفُرقة ، والشُّذوذ من الاستفاضة[(٢)] ، والرَّدَّ من المعارضة ، والنَّارَ من الجنَّة ، وعامَّةَ المفسَدةِ من المصْلحة[(٣)] .

فإذا نزَّلْتُ الأَخبارَ منازلَها وقسَّمتُها ، ذكرتُ حجج الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودلائلَه وشرائعَه وسُنَنَه ، ثم جنَّست الآثارَ على أقدارها ، ورتَّبتُها فى مراتبها ، وقرَّبتُ ذلك واختصرتُه ، وأَوضحتُ عنه وبيَّنتُه ، حتَّى يستوىَ فى معرفتها مَنْ قلَّ سماعُه وساءَ حِفظُه ، ومَن كثُر سماعه وجاد حِفظه ، بالوجوهِ الجليلة ، والأَدلَّة الاضطراريَّة .

ولم أُردْ فى هذا الكتاب جمعَ حُجج الرَّسول عليه السلام ، وتَفْصيلَها والقولَ فيها ، لنقضٍ مَسَّها[(٤)] ، أَو لوَهْن كان فى أَصلها من ناقليها

---

(١) ب : «المتنبىُ» بالهمز .
(٢) م فقط : « الإفاضة » .
(٣) م ، ط : « والمصلحة » .
(٤) ب : « لبغض سببها » ط : « لبغض مسها » م : « لبعض مسها » ، والوجه ما أثبت .

والمخبرينَ عنها ، أَو لأَنَّ طعْنَ الملحِدين نَهَكها وفرَّق جَماعتَها ، ونَقَضَ قُواها . ولكنْ لأُمورٍ سأَذكرها وأَحتجّ .

وكيف تقصُر الحُجّة عن بُلوغ الغاية ، وتنقُص عن التمام[(١)] ، والله تعالى المتوكِّل بها ، ومُسخِّر أَصنافِ البريَّة ومهيِّج النُّفوسِ على إبلاغها[(٢)] ، وقد أَخبر بذلك عن نَفْسه فى محكم كتابه عَزَّ ذكرهُ[(٣)] ، حين قال : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رَسُولَه بِالهُدَى ودِينِ الحَقِّ ليُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه ولو كَرِه المُشْرِكون[(٤)] ﴾ . وأَدنى منازل الإظهار إظهار الحجَّة على من ضارَّه وخالف عليه .

وقال عزّ ذكره : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْواهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولو كَرِهَ الكافرون[(٥)] ﴾ .

وأَخْبَرَ أَنَّه أَمَرَ الأَحمر والأَسود ، ولم يكُنْ ليأْمر الأَقصى إلَّا كما يأْمر الأَدنَى[(٦)] ويأْمر الغائب على الحاضر[(٧)] ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وما أَرسَلْناك إلَّا كافَّةً للنَّاسِ بشيراً ونَذِيراً[(٨)] ﴾ .

فأَقول : إنَّ كلَّ مُطيقٍ محجوج[(٩)] » والحُجّة حُجّتان : عِيانٌ ظاهر ،

---

(١) ب : « وينقص عن التمام » ، والوجه ما فى م ، ط .
(٢) ب ، م : « عن إبلاغها » .
(٣) ب : « عن ذكره » ، تحريف .
(٤) الآية : ٣٣ من سورة التوبة . وفى الكتاب العزيز أيضاً : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . الآية ٢٨ من سورة الفتح .
(٥) الآية ٨ من سورة الصف .
(٦) كلمة « إلا » ليست فى جميع النسخ ، كما أن كلمة : « يكن » ساقطة من ب .
(٧) كذا فى الأصول ، والوجه : « إلا كما يأمر الحاضر » .
(٨) الآية ٢٨ من سورة سبأ .
(٩) المطيق : القادر ، والمراد المكلف . وفى ط : « منطيق » . والمنطيق : البليغ ، ولا وجه له هنا .

وخَبَرٌ قاهر. فإذا تكلَّمنا فى العِيان وما يفرَّع منه[١] فلا بدَّ من التعارف فى أَصله وفرعِه منه . ولا بدَّ من التَّصادُق فى أَصله ، والتَّعارُف فى فرعه . فالعقلُ هو المستدِلّ ، والعِيان والخبر هما عِلَّة الاستدلالِ وأَصلُه ، ومُحالٌ كونُ الفرع مع عدمِ الأَصل ، وكونُ الاستدلال[٢] مع عدم الدَّليل . والعَقْل مضمَّن بالدَّليل ، والدَّليل مضمَّن بالعَقْل ، ولا بدَّ لكلِّ واحدٍ منهما من صاحبه[٣] ، وليس لإِبطال أَحدهما وجهٌ مع إِيجاب الآخر .

والعقل نوعٌ واحد ، والدَّليل نوعان : أَحدهما شاهِدُ عِيانٍ يدلُّ على غائب ، والآخر مجىءُ خبرٍ يدلُّ على صدق .

ثم رجعَ الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبى صلى الله عليه وسلم وأَعلامه ، والاحتجاج لشواهده وبُرهانِه ، فأَقول :

إنَّ السلف الذين جمعوا القرآنَ[٤] فى المصاحف بعدَ أَنْ كان متفرقاً فى الصُّدور ، والذين جَمعُوا النَّاسَ على قراءَة زيدٍ ، بعد أَن كان غيرُها[٥] مُطلَقاً غيرَ محظورٍ ، والذين حَصَّنوه ومَنعوه الزِّيادةَ والنقصان لو كانوا جمعوا علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم ، وبُرهانَه ، ودلائلَه وآياتِه وصنُوفَ بدائعه ، وأَنواعَ عجائبِه فى مُقَامِهِ وظعنه[٦] ، وعند دعائه واحتجاجِه فى الجَمْع العظيم ، وبحضرة العددِ الكثير الذى

(١) ب : « وما يفرغ » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « ويكون » ، صوابه فى ط .
(٣) ط فقط : « من صاحب » .
(٤) ب فقط : « جعلوا القرآن » .
(٥) أى غير قراءة زيد .
(٦) الظعن ، بالفتح والتحريك : السير والارتحال . ب فقط : « وطعنه » بالطاء المهملة ، تحريف .

لا يستطيعُ الشَّكَّ فى خبرِهم إلَّا الغبىُّ الجاهلِ ، والعدوُّ المائِل ، لما استطاعَ اليومَ أَن يدفع كَوْنَها وصحَّةَ مَجيئها[١] ، لا زنديقٌ جاحدٌ ، ولا دُهرىٌّ معانِد ، ولا متطرِّفٌ ماجن ، ولا ضعيفٌ مخدوع ، ولا حَدَثٌ مَغْرور ؛ ولكان مشهوراً فى عوامِّنا كشهرته فى خواصِّنا ، ولكان استبصارُ جميعِ أَعيانِنا فى حقِّهم كاستبصارهم فى باطلِ نَصاراهم ومَجوسهم ، ولما وجَد الملحِدُ مَوضِعَ طمعٍ فى غنىٍّ يستميله[٢] ، وفى حَدَث يموِّه له[٣] .

ولولا كثرةُ ضُعفائنا مع كثرة الدُّخلاءِ فينا ، الذين نَطَقوا بأَلسنتنا ، واستعانُوا بعقولنا على أَغبيائنا وأَغمارنا ، لما تكلَّفنا كَشْفَ الظَّاهر ، وإِظهارَ البارز ، والاحتجاجَ الواضح .

إِلَّا أَنَّ الذى دعا سلفَنا إِلى ذلك ، الاتِّكالُ على ظهورها واستفاضةِ أَمرها .

وإِذ كان[٤] ذلك كذلك فلم يُؤْتَ من أُتِىَ من جُهَّالنا وأَحداثنا ، وسفهائنا وخُلعائنا[٥] إِلَّا من قِبَلِ ضعف العِناية ، وقلَّة المبالاة ، ومن قِبَلِ الحداثة والغَرارة ، ومن قبلِ أَنَّهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبلَ العلمِ بجليله ما لم تبلغْه قُواهم ، وتتَّسعْ له صدورهم ، وتحملْه أَقدارُهم ، فذهبوا عن الحقِّ[٦] يميناً وشِمالًا ، لأَنَّ مَن لم يَلزم الجادَّةَ تخبَّطَ ، ومَنْ تناول الفَرعَ قبل إِحكام الأَصل سَقَط ، ومن خَرَق بنفسه

---

(١) ب : « وصحة بجها » ، صوابه فى م ، ط .

(٢) فى جميع الأصول : « يستمليه » . واستملاه الكتاب : سأله أن يمليه عليه . ولا وجه له هنا .

(٣) م ، ط : « مموه له » .

(٤) ب ، م : « وإن كان » ، وأثبت مافى ط .

(٥) الخليع : المستهتر بالشرب واللهو ، وأصله الشاطر الخبيث الذى خلعته عشيرته وتبرءوا منه . ط : « وخلفائنا » ، تحريف .

(٦) ط فقط : « عن الحمق » ، محرف ،

وكلَّفها فوق طاقتها[١] ، ولم ينَلْ مالا يقدر عليه تفلَّتَ منه ما كان يقدر عليه[٢] .

فإذا كانوا كذلك فإنَّما أُتوا من قِبَلِ أَنفسهم ، ولم يُؤتَوْا من سَلفهم ، أو لأَنَّ الله تبارك وتعالى صَرف أَسلافنَا بنسيانٍ أو غيره ليمتحن بذلك غيرَهم فى آخر الزَّمان ، وليعرِّضَهُم لطاعته بالذبِّ عن دينه ، والاحتجاج لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليجرىَ هذا الخيْرَ على أَيديهم ، كما أَجرى أَكثَرَ منه على أَيدى أَسلافهم ، لئلَّا يُبخَس أَحدُ خليقته[٣] من العُلماءِ والفقهاءِ ، ولأَن يَجعَلَ فضلَه مقسَّماً بين جميع الأَولياءِ ، وإن كان الأَوّل أَحقَّ بالتقديم ، والآخِرُ أَحقَّ بالتأْخير ، لِلذى[٤] قدَّموا من الاحتمال ، وأَعطَوْا من المجهود ، ولأَنَّهم أَصلُ هذا الأَمرِ ونحنُ فرعُه ، والأَصل أَحقُّ بالقوَّة من الفرع . وهم السابقون ونحن التابعون ، وهم الذين وطَّئوا لنا ، وكلَّفونا ما لم نكن لنكلِّفَه أَنفُسَنا ، فتجرَّعوا دُوننا المُرَار[٥] ، ومَنحونا رُوحَ الكفاية . ولأَنَّ الله تعالى اختارهم لصحبة نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ولأَن القرآنَ نَطَق بفضيلتهم ؛ والله تعالى أَعلَمُ بمن بعدهم ، والذى جَمَعَ أَسلافَنا[٦] الذين جمعوا النَّاسَ على قراءَة زيد ، دون أُبَىٍّ بن كعبٍ وعبدِ الله بن مسعود ، والذين رأَوْا من قول عبد الله فى المعوِّذتين[٧] ، وقول أُبَىٍّ فى سورتى الحَفْد والخَلْع[٨] .

(١) ب ، م : « طاقته » .
(٢) عليه ، ساقطة من ب .
(٣) ب ، م : « لئلايبخس من أحد خليقته » .
(٤) ب ، م : « للذين » ، تحريف .
(٥) المرار ، بالضم : شجر مر .
(٦) أى والله تعالى هو الذى جمع الأسلاف .
(٧) انظر فى ذلك البرهان ١ : ٢٥١ والإتقان ١ : ١٨٤ . وانظر لتعليل عدم كتابته للمعوذتين ولأم الكتاب فى مصحفه ، مقدمه كتاب المبانى نشرة آرثر جفرى ص ، ٩٣ ، ٩٦ — ٩٧ .
(٨) هذا التصويب من الإتقان للسيوطى ١ : ١٨٤ . وفى جميع الأصول =

ومِنْ تعلُّق الناسِ بالاختلاف ، فكانوا لا يزالون قد رأَوْا الرَّجلَ يروى الحرفَ الشاذَّ ، ويقرأ بالحرف الذى لا يعرفونه ، فرأَوْا أَنَّ تحصينَه لا يتمُّ إلَّا بحمل الناس على المقروء عندهم(١) ، المشهورِ فيما بينهم ، وأَنَّهم إن لم يشدِّدوا فى ذلك لم ينقطع الطمع ، ولم ينزجر الطير(٢) ، لأَنَّ رجلًا من العرب لو قرأَ على رجلٍ من خطبائهم وبُلغائهم سورةً واحدة ، طويلة أَو قصيرة ، لتبيَّن له فى نظامها ومَخرجها ،وفى لفظها وطَبْعها ، أَنَّه عاجزٌ عن مثلها . ولو تحـــدَّى بها أَبلغَ العربِ لظهر عجزُه عنها . وليس ذلك(٣) فى الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين .

أَلا ترى أَنَّ الناسَ قد كان يتهيَّأُ فى طبائعهم ، ويَجرِى على أَلسنتهم أَن يقول رجلٌ منهم : الحمد لله ، وإنَّا لله ، وعلى الله توكَّلْنا ، وربُّنَا الله ، وحَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل ، وهذا كلُّه فى القرآن ، غير أَنَّه متفرِّق غير مجتمع ؛ ولو أَراد أَنطَقُ النَّاسِ أَن يؤلِّف من هذا الضَّرب سورةً واحدة ، طويلةً أَو قصيرة ، على نَظْم القرآن وطَبْعه ، وتأْليفه ومخرجه لما قَدَر عليه ، ولو استعان بجميع قَحْطان ومَعدِّ بنِ عدنان .

ورَأَوا(٤) بفهمهم وبتوفيقِ الله تعالى لهم أَن يحصِّنوه ممَّا يشكلُ ، ويمكنُ أَنْ يُفتَعَل مثلُه من الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين ،

= : « سورتى العرب » ووجهه ما أثبت من الإتقان . وانظر النصوص فيه . وجاء فى كتاب مقدمتان فى علوم القرآن ص ٧٥ : « وأما ما ذكر عن أبى بن كعب أنه عد دعاء القنوت : «اللهم إنا نستعينك» إلى آخره ، سورة من القرآن ، فإنه إنصح ذلك عنه فإنه كتبها فى مصحفه لا على أنها من القرآن ، بل ليحفظها ولا ينساها احتياطاً ، لأنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم كان يقنت بها فى صلاة الوتر » .

(١) ب : « المكروه عندهم » م : « المكروه » فقط ، صوابهما فى ط .

(٢) م فقط : « الطين » .

(٣) ذلك ، ساقطة من ب ، م .

(٤) ب فقط : « فرأوا » .

وقد كانوا عرفوا الابتداعَ الكثير[١] على البلغاء والشُّعراء، وخافوا إنْ هم لم يتقدَّموا فى ذلك أنْ يتطرَّفُوا عليه، كما تطرّفُوا على الرواية[٢]، لأَنَّهم حين رأَوْا كثرةَ الرّواية فى غير ذوِى السابقة، ورأَوا كثرةَ اختلافها، والغرائبَ التى لا يعرفونها، لم يكن لهم إلَّا تحصينُ الشىء الذى عليه مدارُ الأَمر، وإن كانوا يعلمون أَنَّ الله بالغُ أَمرِه.

فعلَى الأَئمَّة أَن تَحُوط هذه الأُمّة، كما حاط[٣] السَّلفُ أَوّلها، وأَن يعملوا[٤] بظاهر الحيطة، إذْ كان على الناسِ الاجتهاد[٥]، وليس عليهم عِلم الغُيوب. وإنَّما ذلك كنحوِ رجُلٍ أَبصر نبيًّا يُحيِي الموتَى فعَرفَ صِدقَه، فلمَّا انصرفَ سأَله عنه بعضُ من لم يَرَ ذلك ولا صَحّ عنده، فعليه أَن لا يكتُمه، وإن كان يعلم أَنَّ الله تعالى سيُعْلِمه ذلك من قِبَلِ غيره، وأَنَّه عزّ ذكرهُ سيُسمِعُه صِحَّته على حُبِّه وكرهه.

ورأَوْا أَنَّ قراءَةَ زيدٍ أَحقُّ بذلك، إذْ كانت آخر العَرْض، ولأَنَّ الْجمْعَ الذين سمِعُوا آخر العرض أَكثَرُ ممَّن سمع أَوّلَه، فَحملُوا النَّاسَ على قراءَة زيد، دونَ أُبيٍّ وعبدِ الله، وإنْ كان الكلُّ حَقًّا، إذ كان رُبَّ حقٍّ فى بعض الزَّمان أَقطعُ للقيل والقال، وأَجدرُ أَن يُميتَ الخلاف، ويحسمَ الطمع. فتركوا حقًّا إلى حقٍّ العملُ به أَحَقّ.

ولو أَنَّ فقيهاً رأَى إطباقَ العلماء على صوم يوم عَرَفة، واستنكارَهُم الإفطارَ فيه، فأَفطرَ وأَظهرَ ذلك ليُعلمهم موضعَ الفريضةِ من النافلة،

(١) ب : «امتناع الكثير»، م : «المبتاع الكثير» وأثبت ما فى ط.
(٢) المتطرف : الذى لا يثبت على أمر. وفى الأصول : «أن يتطرقوا عليه كما تطرقوا على الرواية»، مع سقوط «على الرواية» من م. والصواب ما أثبت.
(٣) ب، م : «أحاط».
(٤) ب، م : «وأن يعمل»، صوابه فى ط.
(٥) ب، م : «إذا كان». وكلمة «على» ساقطة من ب.

أو خاف أن يَلحق الفرضَ على تطاوُل الأيَّام ما ليس فيه — كان مصيباً ، ولكان قد ترك حقًّا إلى أحقَّ منه .

وللحقِّ درجاتٌ ، وللخلاف درجاتٌ ، وللحرام درجات . ألا ترى أنَّ لوليِّ المقتول أن يَقتُلَ ويصفح ، وأنَّه إنْ قَتلَ قتَلَ بحقٍّ ، وإنْ صفَح صفح بحقٍّ ، والصَّفح أفضَلُ من القتل .

ولو أنَّ رجلًا أخرج ساكناً بيتاً له[1] ، أو اقتضى ديناً له ساعة مَحَلِّه[2] ، أو طلَّق زوجته وما دَخَل بها[3] — لكان ذلك له ، ولحقٍّ فعل[4] . وغير ذلك الحقِّ أولى به .

وكيف لا يكون أولى به وهو أحسن ، والثَّواب فيه أعظم ، وإلى سلامة الصُّدور أقرب .

وقد يكون الأمرانِ حسنَينِ ، وأحدُهما أحسن . وقد يكون الأمران قبيحين ، وأحدهما أقبح .

وبعدُ ، فعلى الناس طاعةُ الأئمَّة فى كلِّ ما أمَرُوا به ، إلَّا فيما تبيَّن أنَّه معصية . فأمّا غير ذلك فإنَّه واجبٌ مفروض ، ولازم غير مرفوع .

وعَلِمُوا أيضاً أنَّهم لا يبقَوْن إلى آخر الزمان ، وأنَّ مَنْ يجيءُ بعدَهم لا يقوم مَقامهم ، ولا يُفصِّل الأُمور تفصيلهم . ولو عَرَفوا كمعرفتهم ، وأرادوا ذلك كإرادتهم ، لما أُطيعوا كطاعتهم .

وعلموا أنَّ الأكاذيبَ والبِدعَ ستكثُر ، وأنَّ الفِتَن ستُفْتَح ، وأنَّ

(١) بيتا ، ساقطة من ب ، م .
(٢) ب ، م : « واقتضى » . ومحل الدين : وقت حلول أدائه . وفى ط : « عند حلول أجله »
(٣) ب ، م : « ولما دخل بها » ووجه هذه : « ولما يدخل بها » .
(٤) ب ، م : « ولحق فعله »

الفساد سيَفشو ، فكرهوا أَنْ يجعلوا للمتطرِّفين علَّة[١] ، ولأهل الزَّيغ حُجَّة .

بل لا شَكَّ[٢] أنَّهم لو تركوا الناس عامّةً يقرءُون على حرفِ فلانٍ وكلّ ما أَجاز فيه فلانٌ عن فلان ،لألحق قومٌ فى آخر الزَّمان بهم ما ليس منهم ، ولا يَجرى مجراهم ، ولا يَجوز مَجازَهم .

٢٦ — فصل منه فى الاحتجاج للجمع على قراءة زيد

ولو كان زيدٌ من آل أَبى العاص ، أَو من عُرْض بنى أُميّة ، لوجد ابنُ مسعودٍ متعلَّقاً .

ولو كان بدلَ زيدٍ عبدُ الرحمن بن عوف لوَجَد إلى القول سبيلًا .

ولو كان ابن مسعودٍ رجلًا من بنى هاشم لوجدَ للطَّعن موضعاً .

ولو كان عثمان رضى الله تعالى عنه استبدَّ بذلك الرأْى على علىٍّ بن أَبى طالب كرَّم الله وجهه ، وسعدٍ وطلحةَ والزُّبير رحمهم الله ، وجميع المهاجرين والأَنصار ، لوَجَد للتُّهمة مساغاً .

فأَمّا والأَمرُ كما وصفنا ونَزَّلنا ، فما الطاعن على عثمان إلّا رجلٌ أَخطأَ خُطّةَ الحقّ[٣] ، وعَجِلَ على صاحبه . ولكلِّ بنى آدمَ من الخطأ نصيب ، والله عز ذكره يغفر له ويرحمه .

---

(١) فى جميع الأصول : « للمتطرقين » . وانظر ماسبق فى حواشى ٢٣٠ .

(٢) ب : « بل شك » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) ب ، م : « أخطأ خطه » مع سقوط كلمة « الحق » ، والصواب فى ط .

والذى يخطِّئُ عثمان فى ذلك فقد خطَّأَ عليًّا وعبدَ الرحمن وسعداً ، والزُّبيرَ وطَلحة ، وعِلْية الصَّحابة(١) .

ولو لم يكن ذلك رأىَ علىٍّ لغَيَّرَه ، ولو لم يمكنْه التغيير لقال فيه ، ولو لم يمكنه فى زمنِ عثمان لأَمكنَه فى زَمن نفسه ، وكان لا أَقلَّ من إظهار الحُجّة إنْ لم يَملِك تحويلَ الأُمّة ، وكان لا أَقلَّ من التَّجربة إن لم يكن من النُّجح على ثقة ، بل لم يكن لعثمان فى ذلك ما لم يكن لجميع الصَّحابة ، وأَهل القَدَم والقُدْوة . ومع أَنَّ الوجه فيما صنعوا واضح ، بل لا نَجِدُ لمَا صنعوا وجهاً غير الإِصابة والاحتياط ، والإِشفاقِ والنظر للعواقب ، وحَسْمِ طعنِ الطاعن .

ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضاً(٢) لما اجتمع عليه أَوّلُ هذه أَول الأُمّةِ وآخرُها . وإِنَّ أَمراً اجتمعتْ عليه المعتزلة والشِّيعة ، والخوارجُ والمُرْجِئة ، لظَاهرُ الصَّوابِ ، واضحُ البرهان ، على اختلاف أَهوائهم ، وبغيتهم لكلِّ ما ورد عليهم .

فإن قال قائل : هذه الروافضُ بأَسْرها تأْبى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه ، وترى تغييره(٣) .

قلنا : إِنَّ الروافض ليست مِنَّا بسبيل ، لأَنَّ من كان أَذَانُه غيرَ أَذاننا ، وصلاتُه غيرَ صلاتنا ، وطلاقُه غيرَ طلاقنا ، وعتقُه غيرَ عتقنا ، وحجَّتُه غيرَ حجَّتنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا(٤) وإمامه غير إمامنا ،

---

(١) ط : « وما عليه الصحابة » .
(٢) م فقط : فيما صنعوا » مع سقوط كلمة « فيه » من ب ، م . وأثبت ما فى ط .
(٣) ب ، م : « لغيره » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٤) غير فقهائنا ، ساقط من ب ، م .

وقراءته غَيْرَ قراءتنا ، وحلالُه غَيْرَ حلالنا ، وحرامه غيرَ حرامنا ، فلا نحنُ منه ولا هو منَّا[(١)] .

ولأَىِّ شىءٍ حامَتْ[(٢)] عن قراءة ابنِ مسعود ، فو اللهِ ما كان أَحدٌ أَفرطَ فى العمريَّة منه ، ولا أَشدَّ على الشِّيعة منه ، ولقد بَلَغَ من حبِّه لعمر رضى الله عنه أَن قال : لقد خشيت اللهَ تعالى فى حبِّى لعمر . فلِمَ يُحامُون عنه وهو كان شجاهم[(٣)] لو أَدركَهم .

٢٧ — فصل منه

فآمن اللهُ رجلًا فارقَهم ولزم الجماعةَ ، فإِنَّ فيها الأَنَسَة والحُجَّة[(٤)] ، وتَرَكَ الفُرقةَ فإِنَّ فيها الوَحشةَ والشُّبهة . والحمد لله الذى جَعلَنا لا نفرِّق بين أَئمتنا ، كما جعلنا لا نفرِّق بين أَنبيائنا .

٢٨ — فصل منه

والذى دعانا إِلى تأْليف حُججِ الرّسولِ ونَظْمها ، وجَمْعِ وجوهِها وتدوينِها — أَنَّها متى كانت مجموعةً منظومة ، نَشِط لحفظها وتفهُّمها مَنْ كان عسى أَن لا يَنْشَطَ لجمعها ، ولا يقدرَ على نَظْمها ، وجمعِ متفرِّقها ، وعلى اللَّفظ المُؤْثر عنها[(٥)] ، ومَنْ كان عسى أَن لا يعرف وجه مَطلبها ، والوقوعِ عليها .

---

(١) ب ، م : « ولا نحن منه ولا هو منا » ، صوابه فى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « جانب » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٣) أصل الشجا : ما يعترض فى حلق الإنسان والدابة من عظم أوعود أو غيرهما ، ومنه قول سويد بن أبى كاهل فى المفضليات ١٩٨ :

ويرانى كالشجا فى حلقه عسراً مخرجه ما ينتزع

وفى م فقط : « سحاهم » تحريف .

(٤) الأنس ، بالضم ، والأنسة ، بالتحريك : الطمأنينة . ط فقط : « الأنس » .

(٥) كذا فى جميع النسخ . وأراها « المأثور عنها » . يقال أثر الحديث أثرا : نقله ورواه عن غيره ، فهو مأثور .

ولعلَّ بعض الناس يعرف بعضَها ويَجهلُ بعضها .

ولعلَّ بعضهم وإن كان قد عَرفَها بحقِّها وصِدْقها فلم يعرفْها من أَسهلِ طُرقها ، وأَقربِ وجوهها .

ولعلَّ بعضهم أَن يكون قد عَرف فنسِيَ ، أَو تهاون بها فعَمِيَ ، بل لا نشكُّ أَنَّها إذا كانت مجموعة محَبّرة (١) ، مستقصاةً مفصَّلة ، أَنَّها ستزِيد (٢) فى بصيرة العالم ، وتَجْمع الكلّ لمن كان لا يعرف إلَّا البعض ، وتُذكِّر النَّاسِيَ ، وتكون عُدَّةً على الطاعن (٣) .

ولعلَّ بعضَ من أَلحَدَ فى دينه ، وعَمِيَ عن رُشْدِه ، وأَخطأَ موضعَ حَظِّه (٤) أَن يدعُوَه العُجْبُ بنفسه ، والثِّقةُ بما عنده ، إلى أَن يلتمس قراءتَها ، ليتقدَّم (٥) فى نَقْضها وإفسادها ، فإذا قرأَها فهمها ، وإذا فهمها انتبهَ من رَقْدته (٦) ، وأَفاقَ مِنْ سكرته (٧) ، لعزِّ الحقِّ ، وذُلِّ الباطل ، ولإشراف الحجَّة على الشُّبهة (٨) ، ولأَنَّ من تفرَّد بكتابٍ فقرأَه ليس كمن نازع صاحبَه وجاثاه (٩) ، لأَنَّ الإنسان لا يُباهِى بنفسه (١٠) ،

(١) من تحبير الخط والشعر ونحوهما ، أى تحسينه ، ب ، م : « مخيرة » صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « سيزيد » ، صوابه فى ط .

(٣) فى جميع الأصول : « ويجمع » و « يذكر » و « يكون » ، صوابها كلها بالتاء كما أثبت .

(٤) ب فقط : « خطه » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « ليقدم » ، صوابه فى ط .

(٦) م فقط : « فإذا قرأها وفهمها انتبه من رقدته » .

(٧) ب ، م : « عن سكرته » .

(٨) ب فقط : « ولإشراق » بالقاف .

(٩) المجاثاة : أن يجلس مع خصمه على ركبتيه للخصومة . وفى البيان والتبيين ٣ : ٦ : « وبالأرجاز عند المتح وعند مجاثاة الخصم » . وفى ب ، م : « وحاثاه » ، وفى ط : « وجافاه » صوابهما ما أثبت .

(١٠) ب ، م : « نفسه » ، صوابه فى ط .

والحقُّ بعدُ قاهرٌ له . ومع التَّلاقى يحدُث التَّباهى ، وفى المحافل يقلُّ الخُضوع ، ويشتدُّ النُّزوع .

ثمّ رجَع الكلامُ إلى حاجة النَّاسِ إلى استماع الأَخبار ، والتفقُّه فى تصحيح الآثار ، فأَقول : إنَّ الناس لو استغنَوْا عن التَّكرير (١) ، وكُفُوا مَئونةَ البحثِ والتنقير (٢) لَقلَّ اعتبارُهم (٣) . ومن قلَّ اعتبارُه قلَّ عِلمُه ، ومَن قلَّ علمه قَلَّ فضلُه ، ومن قَلَّ فضلُه كثُر نقصه ، ومن قلَّ علمه وفَضْلُه وكثُر نقصه لم يُحمَد على خيرٍ أَتاه ، ولم يُذَمّ على شرٍّ جناه ، ولم يَجِدْ طعمَ العِزّ ، ولا سُرور الظَّفَر ، ولا رَوْح الرّجاءِ ، ولا بَرْدَ اليقين ، ولا راحة الأَمن .

وكيف يُشكر من لا يقصد ، وكيف يُلام من لا يتعمّد ، وكيف يُقْصَد من لا يعلم . وما عسى أَن يَبلُغَ قدرُ سرورٍ من لا يحسن من السُّرور إلّا ما سُرَّ به حَواسُّه (٤) ومَسَّه جِلدُه (٥) .

وكيف يأْتى أَربحَ الأَفعال ، وأَبعدَ الشرّيْن من ركِّب فى شراسة السِّباع (٦) وغَباوة البهائم ، ثمّ (٧) لم يُعط الآلةَ التى بها يستطيع التفرقة (٨) بين ما عليه وله ، والعِلمَ بمصالحِهِ ومفاسده ، فيقوى بها على عصيان طبائعِه ، ومُخالفةِ شَهَواته ، وبها يعرف عواقبَ الأُمور ، وما تَأْتى به

(١) فى جميع الأصول : « قد استغنوا عن التكرير » ، والصواب ما أثبت .
(٢) ب فقط : « وكفوا عن مئونة البحث والتنقير » .
(٣) ب ، ط : « لقلة اعتبارهم » ، صوابه فى م .
(٤) ب ، م : « وحواسه » ، والوجه حذف الواو كما فى ط .
(٥) ب فقط : « ومس جلده » .
(٦) ب ، م : « من ركب فى شرارة السباع » ، ط : « من ركب شراسة السباع » صوابهما ما أثبت .
(٧) ثم ، ساقطة من ب .
(٨) ب ، م : « تفرقة » .

الدُّهور(١)، وفضْلَ(٢) لذَّةِ القلب على لذَّة البدن .

وإنَّ سرور الجــاهل لا يَحسُن فى جَنْب سرور العالِم ، وإنَّ لذَّةَ البهائم لا تَعشُر(٣) لذَّة الحكيم العالِم .

وأىُّ سرور كسرور العزِّ والرِّياسة ، واتِّساعِ المعرفة ، وكثرةِ صواب الرّأْى ، والنُّجح الذى لا سَبَبَ له إلَّا حُسْنُ النَّظر والتقدُّم(٤) فى التدبير ، ثم العلمُ بالله وحده ، وأنَّك بعرض ولايته والجاهِ عنده ، وأنَّه الذى يرعاك ويكفيك ، وأنَّك إذا عملت اليسيرَ(٥) أعطاك الكثير ، ومتى تركت له الفانىَ أعطاك الباقى ، ومتى أدبرتَ عنه دعاك ، ومتى رجعتَ إليه اجتباك ، ويحمدك على حقك ، ويُعطيك على نظرِك لنفسك ولا يُفْنيكَ إلَّا ليُبْقيَك(٦) ، ولا يُميتُك إلَّا ليحييَك ، ولا يمنُعك إلَّا ليعطيك . وأنَّه المبتدئُ بالنعمة قبل السؤال ، والناظر لك فى كلِّ حال .

وهذا كلُّه لا يُنال إلَّا بغريزة العقل . على أنَّ الغريزة لا تنال ذلك بنفسها ، بما باشرَتْه حواسُّها ، دون النَّظر والتفكُّر ، والبحثِ والتصفُّح .

ولن ينظر ناظرٌ ولا يفكر مفكِّرٌ(٧) دون الحاجة التى تبعثُ على

---

(١) ب : « وما يأتى به الدهور » .

(٢) الفضل : الزيادة . وفى ب ، م : « وفضلة » ، وإنما الفضلة والفضالة : البقية من الشىء ، فالوجه ما أثبت من ط .

(٣) تعشرها : تبلغ عشرها . ب ، م : « لا يعشر » ، صوابه ما أثبت . وفى ط : « لاتعادل » .

(٤) فى جميع الأصول : « والتقديم » .

(٥) ب : « علمت اليسير » .

(٦) ب ، ط : « ولا يغنيك » ، وأثبت مافى م . وفى جميع الأصول : « إلا ليقيك » . والمراد بالإبقاء هنا الإبقاء الأبدى فى الآخرة .

(٧) ب : « ولم ينظرنا ولا فكر مفكر » ، صوابه فى م ، ط .

الفكرة[١] ، وعلى طلب الحيلة . ولذلك وضع الله تعالى فى الإنسان طبيعة الغضب ، وطبيعةَ الرضا ، وطبيعة البُخْل والسخاء ، والجزع والصَّبر ، والرِّياءِ والإخلاص ، والكِبْر والتَّواضُع ، والسُّخط والقناعة ، فجعلها عروقاً . ولن تفِيَ[٢] قوّة غريزة العقل بجميع[٣] قوى طبائعه وشَهواته ، حتَّى يقيم ما اعوجَّ منها[٤] ، ويسكِّن ما تحرَّك ، دون النَّظر الطويل الذى يشدُّها ، والبحث الشديد الذى يشحَذها ، والتجارب التى تُحَنِّكُها[٥] ، والفوائد التى تزيد فيها[٦] . ولن يكثُر النظر حتَّى تكثُر الخواطر[٧] ، ولن تكثر الخواطر حتى تكثُر الحوائج[٨] ، ولن تَبعُد[٩] الرّؤية إلَّا لبعد الغاية وشدَّة الحاجة .

ولو أنَّ الناس تُرِكوا وقدْرَ قُوَى غرائزِهم[١٠] ، ولم يُهاجُوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكُّر فى معاشِهم ، وعواقِب أُمورهم ، وأُلجِئوا إلى قدر خواطرهم التى تولِّدها مباشرةُ حواسِّهم ، دون أن يُسمِعهم الله تعالى خواطرَ الأَوّلين ، وأَدبَ السَّلَف المتقدِّمين ، وكُتُبَ ربِّ العالمين ، لمَا أَدركوا من العلم إلَّا اليسير[١١] ، ولمَا ميَّزوا من الأُمور إلَّا القليل .

---

(١) ب فقط : « على الفكر » .

(٢) ب فقط : « ولم يف » ، تحريف .

(٣) يقال هذا الشىء لا يفى بذلك ، أى يقصر عنه ولا يوازيه . وفى جميع النسخ : « لجميع » ، والصواب ما أثبت .

(٤) ب ، م : « ماعدا منها » ، صوابه فى ط .

(٥) يقال حنكته التجارب : حنكا ، بالفتح ، وحنكاً بالتحريك ، وأحنكته وحنكته تحنيكاً ، واحتنكته : أى هذبته وأحكمته . ب :« الذى يحنكها » م : « التى يحكنها » ، صوابهما فى ط .

(٦) ب ، م: « التى يزيد فيها » ، صوابها فى ط .

(٧) ب ، م : « يكثر الخواطر » ، وأثبت مافى ط .

(٨) ب : « ولم يكثر » صوابه فى م ، ط ، وفى ب ، م : « حتى يكثر الحوائج » ، وأثبت مافى ط .

(٩) ب : « ولن يبعد » صوابه فى م ، ط .

(١٠) م : « تركوا قدر قوى غرائزهم » .

(١١) ب : « الستر » م : « التستر » ، صوابهما ط .

ولولا أنَّ الله تعالى أراد تشريف العالِم وتربيتَه[(١)] ، وتسويدَ العاقِل ورفْعَ قدره ، وأَنْ يجعله حكيماً ، وبالعواقب عليماً ، لمَا سخَّر له كلَّ شيءٍ ، ولم يسخِّرْه لشيءٍ ، ولَمَا طبعه الطَّبعَ الذى يجىءُ منه أَريبٌ حكيم ، وعالمٌ حليم .

كما أنَّه عزّ ذكرُه لو أراد أن يكون الطفل عاقلًا ، والمجنون عالماً ، لطبعهم طبعَ العاقل ، ولسوَّاهم تسويةَ العالم ، كما أراد أن يكون السَّبُع وثَّاباً ، والحديدُ قاطعاً ، والسمُّ قاتلًا ، والغِذاءُ مقيماً ؛ فكذلك أراد[(٢)] أن يكون المطبوع على المعرفة عالماً ، والمهيَّأُ للحكمة حكيماً ، وذو الدَّليلِ مستدِلاًّ ، وذو النِّعمة مستنفعاً بها[(٣)] .

فلمَّا علِمَ الله تبارك وتعالى أنَّ الناس لا يُدركون مصالحهم بأنفُسهم ، ولا يَشعُرون بعواقب أُمورهم بغرائِزهم ، دون أن يردَّ عليهم آداب المرسلين ، وكُتب الأوَّلين ، والأخبار عن القرون ، والجبابرة الماضين ـ طبَعَ كلَّ قرنٍ من الناس على أخبار من يَليه ، ووضع القَرن الثانىَ دليلًا يُعلَم به صدقُ خبرِ الأوَّل ؛ لأنَّ كثرة السَّماع للأخبار العجيبة ، والمعانى الغريبة ، مَشْحَذةٌ للأذهان ، ومادَّةٌ للقلوب ، وسببٌ للتفكير ، وعِلَّةٌ للتَّنقير[(٤)] عن الأُمور .

وأكثر النَّاس سماعاً أكثرهُم خواطرَ ، وأكثرهم خواطرَ أكثرهم تفكُّراً ، وأكثرهم تفكُّراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملًا . كما أنَّ أكثر البصراءِ رؤيةً للأعاجيب أكثرهم تجاربَ[(٥)] ، ولذلك

(١) ب ، م : « وترتيبه » .
(٢) أراد ، من ط فقط .
(٣) ب ، م : « والدليل مستدلا والنعمة مستنفعاً بها » ، صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « للتبقير » ، صوابه فى ط .
(٥) فى جميع الأصول : « تجارباً » ، والصواب ما أثبت .

صار البصير أكثر خواطر(١) من الأعمى ، وصار السميع البصير أكثر خواطرَ من البصير .

وعلى قدر شِدَّة الحاجة تكون الحركة ، وعلى قدر ضَعْف الحاجة يكون السُّكون ، كما أَنَّ الرَّاجىَ والخائف دائبان ، والآيس والآمِن وادِعان .

وإذا كان(٢) الله تعالى لم يَخلُق عباده فى طبع عيسى بن مريم ، ويحيي بن زكريا ، وآدم أَبى البشر ، صلوات الله عليهم أَجمعين ، وخَلَقَهم منقوصين(٣) ، وعن دَرْك مصالحهم عاجزين ، وأَراد منهم العبادة ، وكلَّفهم الطَّاقة(٤) ، وتَرَكَ العِنان(٥) للأَمل البعيد ، وأَرسل إليهم رسلَه ، وبعث فيهم أَنبياءه ، وقال : ﴿ لِئلَّا يكونَ للنَّاسِ على الله حُجَّةٌ بعد الرسل(٦) ﴾ ، ولم يُشهِد أَكثَرَ عباده حُجَجَ رُسُلِه(٧) عليهم السلام ، ولا أَحضَرَهُمْ عجائب أَنبيائِه(٨) ، ولا أَسمَعَهُم احتجاجَهم ، ولا أَراهم تدبيرَهم — لم يكن بدٌّ من أَن يُطْلِع(٩) المُعاينين على أَخبار الغائبين ، وأَن يسخِّر أَسماعَ(١٠) الغائبين لأَخبار المعاندين ، وأَن يخالف بين طبائع

---

(١) ب ، م : « خواطرا » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابه فى ط .
(٢) ب : « وإن كان » ، تحريف .
(٣) ط فقط : « ناقصتين » .
(٤) كذا فى جميع النسخ . والمراد : مايطيقون . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .
(٥) العنان : السير أو الحبل الذى تمسك به الدابة . وإطلاق العنان هنا كناية عن اتساع مدى الأمل . وفى جميع الأصول : « العيان » ، والوجه ما أثبت .
(٦) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٧) ب ، م : « وحجج رسله » ، صوابه فى ط .
(٨) ب : « ولا أخبر » م : « ولا أخضر » ، صوابهما فى ط .
(٩) ب ، م : « يطمع » ، وجهه فى ط .
(١٠) ب ، م : « يسحر » ، صوابه فى ط .

المُخْبرين ، وعِلَلِ الناقلين [١] ، ليدلَّ السامعين ، ومن يجيب من الناس [٢] .

على أَنَّ العددَ الكثيرَ المختلفى العلل ، المتضادِّى الأَسباب ، المتفاوتى الهِمَم ، لا يتَّفقون على تخرُّص الخبر فى المعنى الواحد [٣] ، وكما لا يتَّفقون على الخبر الواحد على غير التَّلاقى والتراسل إلَّا وهو حقٌّ . فكذلك [٤] لا يمكن مثلَهم فى مثل عللهم التَّلاقى عليه ، والتَّراسلُ فيه .

ولو كان تلاقيهم ممكناً ، وتراسُلُهم جائزاً لظهر ذلك وفشا ، واستفاضَ وبدا .

ولو كان ذلك أَيضاً ممكناً ، وكان قولًا متوهَّماً لبطلتِ الحُجَّة ، ولنُقِضَتِ العادة [٥] ، ولفَسَدت العبرة ، ولعادت النَّفْسُ بعلَّة الإِخبار جاهلة ، ولكان لِلناس [٦] على الله أَكبرُ الحجّة . وقد قال الله جل وعز : ﴿ لئلَّا يَكُون للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجّةٌ بَعْدَ الرُّسُل [٧] ﴾ ، إذْ كلَّفهم [٨] طاعةَ رُسلِه ، وتصديقَ أَنبيائه ورسله وكتبه [٩] ، والإِيمانَ بجنَّته وناره ، ولم يضَعْ لهم دليلًا على صِدق الأَخبار ، وامتناع الغَلَط فى الآثار ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

---

(١) ب الفقط : « وعلى الناقلين » ، تحريف .
(٢) ط فقط : « ومن يحبب » .
(٣) التخرص ، المراد به الحزر والتقدير والفهم . وسيأتى فى ٢٤٨ س ١٢ : « لايتفقون على تخرص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد » .
(٤) ب ، م : « فلذلك » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، م : « ولانقضت » ، تحريف .
(٦) ب : « الناس » ، محرفة .
(٧) من الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٨) ط : « إذا كلفهم » .
(٩) ب : « أنبيائه وكتبه » م : « أنبيائه ورسله » ، وأثبت النص كاملا من ط .

واعلمْ أَنَّ الله تعالى إِنَّما خالف بين طبائع الناس ليوفِّق بينهم، ولم يحبَّ أَن يوفِّق بينهم فيما يخالف مصلحتَهم؛ لأَنَّ الناسَ لو لم يكونوا مسخَّرين بالأَسباب المختلفة، وكانوا مجْبَرين[1] فى الأُمور المتَّفقة والمختلفة، لجاز أَن يختاروا بأَجْمعهِم التجارة والصناعة، ولجاز أَن يطلبوا بأَجمعهم المُلكَ والسِّياسة[2]. وفى هذا ذهابُ العَيش، وبُطلان المصلحة، والبَوَار والتَّواءِ[3].

ولو لم يكونوا مسخَّرين بالأَسباب، مُرتَهَنين بالعِلَل لرغبوا عن الحِجامة أَجمعين، والبيطرةِ، والقِصابة، والدِّباغة. ولكنْ لكلِّ صنفٍ من الناس مُزَيَّنٌ عندهم ما هم فيه، ومُسهِّلٌ ذلك عليهم. فالحائك إذا رأَى تقصيراً من صاحبه أَو سوءَ حِذْقٍ أَو خرقا[4] قال له: يا حجَّام! والحجَّام إذا رأَى تقصيراً من صاحبه قال له: يا حائك! ولذلك لم يُجْمعوا على إسلام أَبنائهم فى غير الحِياكة والحِجامة، والبيطرة والقِصابة.

ولولا أَنَّ الله تعالى أَراد أَن يجعل الاختلاف سبباً للاتِّفاق والائتلاف، لما جعل واحداً قصيراً والآخرَ طويلًا، وواحداً حسَناً وآخرَ قبيحاً، وواحداً غنيًّا وآخر فقيرا[5]، وواحداً عاقلًا وآخر مجنوناً، وواحداً ذكيًّا وآخر غبيًّا. ولكنْ خالفَ بينهم ليختبرهم، وبالاختبار يُطيعون، وبالطَّاعة يَسعدون. ففرَّق بينهم ليجمعَهم، وأَحبَّ أَن يجمعهم على

(١) ب فقط: «مخبرين» تحريف.
(٢) ط: «لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة» بسقوط ماقبل «بأجمعهم» الثانية.
(٣) التوى، مقصور: الهلاك، كما فى اللسان والقاموس. وفى ب: «النواء»، وفى م، ط: «التواء»، صوابهما ما أثبت.
(٤) الخرق، بالضم، وبالتحريك: ضد الرفق، وأن لايحسن الرجل العمل.
(٥) ب، م: «والآخر فقيراً».

الطَّاعة ليجمهم على المَثُوبة . فسبحانه وتعالى ، ما أَحسنَ ما أَبلى وأَوْلَى ، وأَحكم ما صنع ، وأَتْقَنَ ما دبَّر ! لأَنَّ الناس لو رغبوا كلُّهم عن عار الحياكة [١] لبقِينا عُراةً . ولو رغبوا بأَجمعهِم عن كدِّ البناءِ لبقينا بالعَرَاءِ . ولو رغبوا عن الفِلاحة لذهبت الأَقوات ، ولَبطلَ أَصلُ المعاش . فسخَّرهم على غير إكراه ، ورغَّبهم من غير دعاء .

ولولا اختلافُ طبائِع الناس وعِلَلهم لما اختاروا من الأَشياء إلَّا أَحسنَها ، ومن البلادِ إلَّا أَعْدَلَهَا ، ومن الأَمصار إلَّا أَوْسَطها . ولو كانوا كذلك لتناجَزُوا على طلب الأَواسط [٢] ، وتشاجَروا على البلاد العُلْيا ، ولمَا وسِعَهمْ بلدٌ ، ولماتَمَّ بينهم صُلح . فقد صار بهم التَّسخير إلى غاية القناعة .

وكيف لا يكون كذلك وأَنت لو حوّلتَ ساكِنِي الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السَّهل إلى الجبال ، وساكنى الجبالِ إلى البحار ، وساكنى الوَبَرِ إلى المدَر ، لأَذاب قلوبهم الهمّ ، ولأَتى عليهم فَرطُ النِّزاع .

وقد قيل [٣] : « عَمَّر اللهُ البُلدانَ بحبِّ الأَوطان » .

وقال عبدُ الله بن الزُّبير رحمه الله تعالى : « ليس الناسُ بشيءٍ من أَقسامهم أَقنَعَ منهم بأَوْطانهم » .

وقال معاويةُ فى قومٍ من اليمن رَجَعوا إلى بلادهم بعد أَن أَنزلهم من

---

(١) ب فقط : « لوغربوا » تحريف . وفى ب ، م : « من عار الحياكة » ، صوابه فى ط .

(٢) فى اللسان : « تناجز القوم : تسافكوا دماءهم ، كأنهم أسرعوا فى ذلك » . ب ، ط : « طلب الواسط » ، وأثبت مافى م .

(٣) وكذا فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ . ونسب القول إلى عمر رضى الله عنه فى رسالة الحنين إلى الأوطان . انظر رسائل الجاحظ ٢ : ٣٨٩

الشام منزلًا خِصْباً ، وفَرض لهم فى شَرَف العطاء[١] : « يصلون أوطانَهم بقطيعةِ أَنْفُسهم » .

وقال الله جلَّ وعز : ﴿ ولَوْ أَنَّا كتَبْنا عليْهم أَن اقتُلُوا أَنفُسَكم أَو اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوه إلَّا قليلٌ منهم[٢] ﴾ . فقرن الضَّنَّ بالأَوطان إلى الضَّنِّ بمهج النفوس[٣] .

وليس على ظهرها إنسانٌ إلَّا وهو مُعْجبٌ بعقْله ، لا يسرُّه أن له بجميع ما لَهُ ما لِغيره ، ولولا ذلك لماتوا كمداً ، ولذَابوا حَسَدا ، ولكن كلُّ إنسان وإن كان يرى أَنَّه حاسد فى شيءٍ فهو يرى أَنَّه محسود فى شيء .

ولولا اختلافُ الأَسباب لتنازعوا بلدةً واحدةً ، واسماً واحداً ، وكُنيةً واحدة . فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأَشياءِ المختلفة[٤] إلى الأَسماء القبيحة ، والأَلقاب السَّمْجة[٥] . والأَسماءُ مبذولةٌ ، والصّناعات مُباحة ، والمَتاجر مُطلقة ، ووجوه الطُّرق مُخَلَّاة[٦] ، ولكنَّها مُطلَقة فى الظاهر ، مقسَّمة فى الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذى دبَّر الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فسبحانَ من حبَّب إلى واحدٍ أَنْ يسمِّيَ ابنه محمَّداً ، وحبَّب إلى آخر أَنْ يسمِّيه شيطاناً[٧] ، وحبَّب إلى آخر أَن يسمِّيَه عبدَ الله ، وحبّب

(١) ب ، م : « فى شوف العطاء » ، ط : « فى شون العطاء » . والوجه ما أثبت .
(٢) من الآية ٦٦ من سورة النساء .
(٣) ب ، م : « الظن » فى الموضعين ، صوابه فى ط .
(٤) كلمة « الأشياء » من ط فقط . وفى م : « مع اختبار مختلفة » . وصواب الكلام فى ط .
(٥) السمج ، بالفتح ، وككتف : القبيح . ب فقط : « السمحة » تحريف .
(٦) ب : « مخلاة » ، صوابه فى م ، ط .
(٧) ب ، م : « شيطان » .

إلى آخر أن يسمِّيَه حماراً[١] ، لأنَّ الناس لو لم يُخالَفْ بين عِلَلهم فى اختيار الأَسماءِ والكُنَى ، جاز[٢] أن يجتمعوا على شيءٍ واحد ، وكان[٣] فى ذلك بُطلان العَلامات ، وفسادُ المعاملات .

وأنت إذا رأيتَ أَلوانَهم وشمائلَهم واختلافَ صُوَرهم ، وسَمِعتَ لُغاتِهم ونَغَمهم[٤] علمت أنَّ طبائِعهم وعلَلَهم المحجوبةَ الباطنة ، على حَسَب أُمورهم الظاهرة .

وبعضُ الناس وإن كان مسخَّراً للحِياكة[٥] فليس بمسخَّر للفِسق والخيانة[٦] ، وللإِحكام[٧] والصِّدق والأَمانة .

وقد يسخِّر اللهُ الملكَ[٨] لقومٍ بأَسبابٍ قديمة وأَسباب حديثة ، فلا يزال ذلك الملكُ مقصوراً عليهم ، ما دامت تلك الأَسبابُ قائمة ، إذا كانوا للمُلْكِ مسخَّرين[٩] ، وكان النَّاس لهم مسخَّرين ، بالجبريَّة[١٠] والنَّخْوة ، والفَظاظةِ والقسوة ، ولطُول الاحتجاب والاستتار ، وسُوءِ اللِّقاءِ والتضييع .

---

(١) ب فقط : « حمار » . وممن سمى به « معقر بن حمار البارق » ، وممن لقب بذلك « مروان الحمار » .

(٢) ط : « وجاز » بزيادة واو .

(٣) ط : « كان » بدون واو .

(٤) م : « ونغماتهم » .

(٥) ب : وإن كانوا مسخراً للحياكة » ط : « وإن كانوا مسخرين للحياكة» . والوجه ما أثبت من م .

(٦) ب : « للتفسيق والخيانة » .

(٧) ب ، ط : « والأحكام » .

(٨) ط : « يسخر الملك » ب ، م : « يسخر الملة الملك » ووجه هذه الأخيرة ما أثبت .

(٩) ب : « فليس إذ كانوا »، م ، ط : « فليس إذا كانوا ». والوجه حذف « فليس ». وفى ب ، م : « المسخرين » .

(١٠) الجبرية : الكبرياء . وانظر لغاتها الثلاث عشرة فى القاموس . وفى ب ، م : « لجبرية » .

وقد يكونُ الإنسانُ مسخَّراً لأَمرٍ ، ومخيَّراً فى آخر .

ولولا الأَمر والنَّهى لجاز التسخير فى دقيق الأُمور وجليلها ، وخفيِّها وظاهرها ؛ لأَنَّ بنى الإنسان[١] إنما سُخِّروا له إرادة العائدة عليهم[٢] ، ولم يسخَّروا للمعصية ، كما لم يسخَّروا للمَفْسَدة .

وقد تستوى الأَسباب فى مواضع ، وتتفاوت فى مواضع[٣] . كلُّ ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدُّنيا ، ومراشدَ الدِّين .

أَلَا ترى أَنَّ أُمةً قد اجتمعت على أَنَّ عيسى عليه السلام هو الله ، وأُمَّة قد اجتمعت على أَنَّه ابن الله ، وأُمّةً اجتمعت على أَنَّ الآلهة ثلاثة ، عيسى أَحدها . ومنهم يتبدَّد[٤] ، ومنهم من يتدهَّر[٥] ، ومنهم من يتحوَّل نِسطوريًّا بعد أَن كان يَعقوبيًّا ، ومنهم من أَسلم بعد أَن كان نَصرانيًّا . ولستَ واجداً[٦] هذه الأُمّة مع اختلاف مذاهبها ، وكثرة تنقُّلها ، انتقلت مرّة واختلفت مرّةً ، متعمدة أَو ناسيةً ، فى يومٍ واحد ، فجعلته – وهو الجمعة – يومَ السَّبت ، ولم تَخطُب فى يوم جُمُعةٍ بخطبةٍ يوم خميس ، ولا غلِطَتْ فى كانونَ الأَوّلِ فجعلته كانونَ الآخِر ، ولا بين الصَّوم والإِفطار ؛ لأَنَّ الباب الأَوّل فى باب الإِمكان

---

(١) ب ، م : « لأن الإنسان » ، تحريف .

(٢) م : « الفائدة عليهم » .

(٣) ب : « وقد يستوى » و « يتفاوت » ، صوابهما فى م ، ط .

(٤) يريد : يعبد البد ، بالضم ، وهو الصنم . ب : « يتدبد » م : « يتدبر » ط : « يتذبذب » . وأرى أن الجاحظ قد اشتق هذا الفعل من «البد » ، كما اشتق الفعل التالى من الدهر ، وكلاهما لم تذكره المعاجم .

(٥) يتدهر ، أراد يدين بمذهب الدهرية ، بضم الدال نسبة غير قياسية إلى الدهر بالفتح . وانظر آراءهم المتفرقة فى الحيوان ١ : ٢/١٧ : ٤/١٣٩ : ٨٥ ، ٥/٤٣٢ : ٤٠ ، ٦/٣٢٧ : ٢٦٩ ، ٢٧٠ بالإضافة إلى مادة (الدهرية) فى دائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٣٣٧/ ٣٤٠

(٦) م فقط : « واجدة » تحريف .

وتعديل الأسباب والامتحان ، والباب الثانى داخلٌ فى باب الامتناع وتسخير النفوس وطرح الامتحان .

وقد زعم ناسٌ من الجهّال ، ونفرٌ من الشُّكّاك ، ممن يزعم أنَّ الشَّكَّ واجب فى كلِّ شىءٍ ، إلّا فى العيان ، أنَّ أهل المنصورة[1] وافَوْا مُصلَّاهم يومَ خميسٍ على أنَّه يومُ الجمعة ، فى زمن منصور بن جُمهور[2] . وأنَّ أهلَ البَحْرين جَلَسوا عن مصلَّاهم[3] يومَ الجمعة على أنّه يومُ خميس ، فى زمن أبى جعفرٍ ، فبعثَ إليهم وقوَّمهم .

وهذا لا يجوزُ ولا يمكنُ فى أهل الأمصار ، ولا فى العدد الكثير من أهل القرى ، لأنَّ الناس مِن بين صانعٍ لا يأْخذ أُجرته ولا راحةَ له دون الجمعة ، وبين تجّار قد اعتادوا الدَّعَة فى الجُمَع[4] ، والجلوسَ عن الأسواق . ومن معلِّمِ كتّاب لا يَصرِف غِلمانَه إلّا فى الجمع . وبين معنىٍّ بالجُمَع يتلاقى هناك مع المعارف[5] والإخوان والجلساء . وبين مَعْنىٍّ بالجُمَع حرصاً على الصلاة ، ورغبةً فى الثَّواب . ومن رجلٍ عليه موعدٌ ينتظره . ومن صَيْرفىٍّ [يصرف ذلك اليومَ سفاتجَه[6] وكتبَ

---

(١) المنصورة هذه كانت قصبة السند ، واسمها القديم « همناباد » قال المسعودى : سميت : المنصور بمنصور بن جمهور عامل بنى أمية . وقال هشام : بناها فسميت به ، وكان قد خرج مخالفاً لهارون وأقام بالسند . وانظر معجم البلدان .

(٢) ب : « منصورى بن جمهور » ، وفى ط : « منصورى » فقط . ولمنصور هذا أخبار فى تاريخ الطبرى انتهت بهزيمته وموته عطشاً حين وجه إليه أبو العباس السفاح جيشاً إلى الهند بقيادة موسى بن كعب . وذلك فى سنة ١٣٤ . وكان أول ظهور أمره سنة ١٢٥

(٣) أى لم يذهبوا إلى المسجد يوم الجمعة . ب فقط : « على مصلاهم » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « المداعاة فى الجمع » ، صوابه فى ط . وما بعده إلى « الجمع » التالية ساقط من م .

(٥) ب ، م : « تلقى هناك من المعارف » .

(٦) جمع سفتجة ، بضم السين وفتح التاء ، وهى كما فى المصباح : كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قرضاً لآخر فيأمن بذلك على ماله من خطر الطريق . وفى القاموس : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه ثم ، فيستفيد أمن الطريق » . المعطى بضبط =

أَصحابه . ومن جندىٍّ فهو(١)] يعرف بذلك نَوْبتَه(٢) . وبعضٍ كالسُّؤَّال والمساكين والقُصَّاص ، الذين يمدُّون أَعناقهم للجمعة انتظاراً للصَّدقة والفائدة ، فى أُمور كثيرة ، وأَسباب مشهورة .

ولو جاز ذلك فى أَهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أَهل البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك فى الأَيام لكان فى الشهور أَجْوَز ، ولو جاز ذلك فى الشُّهور لكان فى السنينَ أَجْوَز . وفى ذلك فسادُ الحجِّ ، والصَّوم ، والصلاة ، والزكاة ، والأَعياد .

ولو كان ذلك جائزاً لجاز أَن يتَّفق الشُّعراءُ على قصيدة واحدة ، والخطباءُ على خُطبةٍ واحدة ، والكُتَّابُ على رسالةٍ واحدة ، بل جميعُ النَّاسِ على لفظةٍ واحدة .

وإنَّما نزَّلت لك حالات الناس ، وخبَّرتك عن طبائعهم ، وفسَّرت لك عِللَهم لتعلمَ أَنَّ العدد الكثير لا يتَّفقون على تخرُّص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد(٣) ، على غير التشاعر(٤) ، فيكون باطلًا . وسأُوجِدُك موضع اختلافهم واتِّفاقهم(٥) ، وأَنَّه لم يخالف بينهم فى بعض الوُجوه إلَّا إرهاصاً لمصلحتهم(٦) ، ولتصحَّ أَخبارهم .

= اسم الفاعل. وثم، أى هناك . واللفظ فارسى معرب، وقد فسرت حديثاً بأنها حوالة صادرة من دائن يكلف فيها مدينه دفع مبلغ معين فى تاريخ معين لأذن شخص ثالث ، أو لإذن الدائن نفسه ، أو لإذن صاحب الحوالة .

(١) هذه التكملة من م، ط . لكن فى م : « يعرف » موضع « يصرف » . مع سقوط كلمة « اليوم » وكلمة « أصحابه » .

(٢) ب ، م : « ذلك بنوبته » .

(٣) التخرص ، سبق تفسيره فى ٢٤١ .

(٤) التشاعر : تفاعل من قولهم شعر بكذا : أحس به . وانظر العثمانية ص ٣ .

(٥) يقال أوجده الشيء : جعله يجده ويظفر به ، كما فى اللسان والقاموس . وفى ط : « وسأبين لك » .

(٦) الإرهاص : الإرصاد ، والإثبات ، والتأسيس .

أَلَا ترى أَنَّ أَحداً لم يبعْ قطُّ سِلعةً بدرهمٍ إِلَّا وهو يرى أَنَّ ذلك الدِّرهم خيرٌ له من سلعته . ولم يشترِ[(١)] أَحدٌ قطُّ سلعةً بدرهمٍ إِلَّا وهو يرى أَنَّ تلك خيرٌ له من درهمه . ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى فيها صاحبُ الدرهم ، وكان صاحبُ الدرهم يرى فى الدِّرهم ما يرى فيه[(٢)] صاحبُ السِّلعة ما اتَّفق بينهما شراءٌ أَبداً ، ولا بيعٌ أَبداً . وفى هذا جميع المفْسَدة ، وغايةُ الهلكة .

فسبحان الذى حبَّب إلينا ما فى أَيدى غيرنا ، وحبَّبَ إلى غيرنا ما فى أَيدينا ، ليقع التبَّايعُ . وإذا وقع التَّبايُع وقع التَّرابُح ، وإذا وقع الترابُح وقع التَّعايُش .

ويدلُّك أَيضاً على اختلاف طبائعهم وأَسبابهم : أَنَّك تجد الجماعة وبين أَيديهم الفاكهةُ والرُّطَب ، فلا تجِدُ يدين تلتقيان[(٣)] على رُطَبةٍ بعينها ، وكلُّ واحد من الجميع يرى ما حَواهُ الطَّبَق ، غير أَنَّ شهوته وقعَتْ على واحدةٍ غيرِ التى آثَرَها صاحبه[(٤)] . ولربَّما سبَق الرجلُ إلى الواحدة ، وقد كان صاحبُه يريدها فى نفسه ، غير أَنَّ ذلك لا يكون إِلَّا فى الفَرْط ، ولو كانت[(٥)] شهواتهم ودواعيهم تتَّفق على واحدةٍ بعينها لكان فى ذلك التَّمانُع والتجاذب[(٦)] ، والمبادرةُ وسوءُ المخالطة والمؤاكلة . وكذلك هو فى شهوة النِّساءِ والإِماء ، والمراكِب والكُسَى . وهذا كثيرٌ ، والعلم به قليل. وبأَقلَّ ممَّا قلنا[(٧)] يعرف العاقلُ صوابَ مذهبنا . واللهتعالى نسأَلُ التوفيق .

(١) ب : « ولم يشر » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) فيه ، ساقطة من ب . وفى م : « فيها » ، تحريف .
(٣) ب فقط : « فلا نجد » بالنون . وفى ب ، م : « يلتقيان » ، واليد أنثى .
(٤) ب ، م : « صاحبها » .
(٥) ب فقط : « كان » .
(٦) م فقط : « التحازب » .
(٧) ب : « وبأقل ماقلنا » .

وهو الذى[١] خالَف بين طبائعهم وأسبابهم ، حتَّى لا يُتَّفَقَ على تخرُّص خبرٍ واحد[٢] ، لأنَّ فى اتفاق طبائعهم وأسبابهم فى جهة الإخبار فسادَ أُمورهم ، وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفى فساد أَخبارهم فسادُ متاجرِهم والعلمِ بما غاب عن أَبصارهم ، وبُطلانُ المعرفة بأَنبيائهم ورسلهم عليهم السلام ، ووَعْدِهم ووَعيدهم ، وأَمْرهم ونهيهم وزَجْرهم ، ورغبتهم ، وحُدودهم ، وقصاصهم الذى هو حياتُهم ، والذى يعدِّل طبائعهم ، ويسوِّى أَخلاقهم ، ويقوِّى أَسبابهم[٣] ، والذى به يتمانعون من تواثب السِّباع[٤] ، وقلَّة احتراس البهائم ، وإضاعة الأَعمار . وبه تكثُر خواطرهُم وتفكيرهم ، وتحسُن معرفتُهم[٥] .

ولم نقلْ إنَّ العددَ الكثير[٦] لا يجتمعون على الخبرِ الباطل ، كالتَّكذيب والتَّصديق ، ونحن قد نجد اليهودَ والنَّصارى ، والمجوس والزنادقة ، والدُّهرية وعُبَّاد البِددة[٧] يكذِّبون النبى صلى الله عليه وسلم ، وينكرون آياتِه وأَعلامَه ، ويقولون : لم يأْت بشىء ، ولا بانَ بشىء . وإنَّما قلنا : إنَّ العدد الكثير[٨] لا يتفقون على مثل إخبارهم أَنَّ محمَّد بنَ عبد الله بن عبد المطلب ، التِّهامىَّ الأَبطحىَّ عليه السلام خرج بمكة ، ودعا إلى كذا ، وأَمرَ بكذا ، ونَهى عن كذا ، وأَباح كذا ،

(١) ب ، م : « والذى » .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٤١ ، ٢٤٨
(٣) ب ، م : « ويقوم أسبابهم » .
(٤) ب ، م : « تواثر » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، ط : « ويحسن معرفتهم » .
(٦) ب ، م : « ولم يقل إن العدد كثير » ، تحريف مافى ط .
(٧) البددة : جمع بد ، بالضم ، وهو الضم ، معرب بت ، ويجمع أيضاً على أبداد . وفى ب ، م : « البدرة » ، وفى ط : « المبدرة » ، صوابهما ما أثبت .
(٨) ب ، م : « كثير » ، صوابه فى ط .

وجاء بهذا الكتاب الذى نقرؤه ، فوجب العملُ بما فيه ، وأنَّه تحدَّى البلغاءَ(١) والخطباءَ والشُّعراءَ، بنظمه وتأليفه، فى المواضع الكثيرة ، والمحافل العظيمة . فلم يَرُمْ ذلك أَحدٌ ولا تكلَّفه ، ولا أَتى ببعضِه ولا شبيهٍ منه ، ولا ادَّعى أَنَّه قد فعل ، فيكون ذلك الخبرُ باطلًا .

وليس قولُ جَمْعهم إنَّه كان كاذباً(٢) معارضةً لهذا الخبر ، إلَّا أَن يُسمُّوا الإنكار معارضة . وإنَّما المعارضة مثلُ الموازَنَة والمُكايَلة ، فمتى قابلونا بأَخبارٍ فى وزن أَخبارنا ومَخرجِها ومَجيئها ، فقد عارضونا ووازنونا وقابلونا ، وقد تكافينا(٣) وتدافعنا . فأَمّا الإنكار فليس بحجَّة ، كما أَنَّ الإقرار ليس بحجَّة ، ولا تصديقُنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم حُجَّةً على غيرنا ، ولا تكذيبُ غيرنا له حجَّةً علينا ، وإنَّما الحُجَّة فى المجىءِ الذى لا يمكن فى الباطل مثله .

فإنْ قلتَ : وأَىُّ مجىءٍ أَثبَتَ خبر النَّصارى عن عيسى بنِ مريمَ عليه السلام ؟ وذلك أَنَّك لو سأَلتَ النَّصارى مجتمعين ومتفرِّقين لخبَّروك عن أَسلافهم أَنَّ عيسى قد قال : إنِّى إلَه .

قلنا : قد علمنا أَنَّ نصارى عصرِنا لم يكذبوا على القرن الذى كان قَبْلَهم ، والذين كانوا يَلُونهم . ولكنَّ الدليل على أَنَّ أَصلَ خبرِهم ليس كفرعه ، أَنَّ عيسى عليه السلام لو قال : إنِّى إله ـ لما أَعطاه الله تعالى إحياءَ الموتى ، والمشْىَ على الماءِ . على أَنَّ فى عيسى عليه السلام(٤) دلالةً فى نفسه ، أَنَّه ليس بإلَه ، وأَنَّه عبدٌ مدبَّر ، ومقهور ميسَّر ، وليس

(١) ب : « تجد » م : « تحد » صوابهما فى ط .
(٢) ب : « أنه كذا كان كاذباً » م : « أنه كان كاذبة » ، صوابهما فى ط .
(٣) ب : « تكافأنا » بالهمز .
(٤) ب فقط : « على أن عيسى عليه السلام » .

خبرُهم هذا إلَّا كإخبار النصارى عن آبائهم والقرنِ الذى يليهم أَنَّ بُولس[(١)] قد كانَ[(٢)] جاءَ بالآياتِ والعلامات. وكإخبار المَنانيَّة[(٣)] عن القرن الذى كان يليهم منه[(٤)] أَنَّ مانِي قد كان جاءَهم بالآيات والعلامات . وكإخبار المجوس عن آبائهم الذين كانوا يلونهم أَنَّ زَرادُشت قد جاءَهم بالآيات والعلامات . وقد علمنا أَنَّ هؤلاءِ النَّصارى لم يكذبوا على القَرْن الذى كان يليهم ، ولا الزَّنادقة ولا المجوس . ولكن الدليل على أَنَّ أَصل خبرهم ليس كفرعه[(٥)] أَنَّ[(٦)] الله جلّ وعز لا يُعطى العلاماتِ من لا يَعْرِفُه ، لأَنَّ بولس إنْ كان عنده أَنَّ عيسى عليه السلام إلَه فهو لا يعرف الله تعالى ، بل لا يعرف الرُّبوبيَّة من العبودية ، والبشريَّة من الإلهية .

٢٩ – فصل منـــه

وللنصارى خاصَّةً رياءٌ عجيب[(٧)] ، وظاهرُ زُهد ، والناس أَبطأُ شيءٍ عن التصفُّح ، وأَسرع شيءٍ إلى تقليد صاحب السِّنِّ والسَّمت ، وظاهر العمل أَدعَى لهم من العِلْم .

---

(١) بولس : أحد الحواريين ، وقد قام نيرون ملك الروم بقتله هو وبطرس بمدينة رومية وصلبهما منكسين ، وذلك بعد وفاة المسيح باثنتين وعشرين سنة ، وذلك بعد ثلاث عشرة سنة من ملكه . ابن الأثير ١ : ٣٢٥ والتنبيه والإشراف ١٠٩ – ١١٠ . و فى م فقط : « يونس » تحريف .

(٢) كان ، ساقطة من ب ، م .

(٣) المنانية ، والمانية : أتباع مانى المتنبئ الذى زعم أنه الفارقليط الذى بشر به عيسى عليه السلام ، واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية . وانظر ماكتبت من تحقيق فى حواشى الحيوان ٤ : ١ . وفى ط : « المانوية » .

(٤) أى من زمن مانى . وفى ب ، م : « منهم .

(٥) أن ، ساقطة من ب ، ط .

(٦) ط فقط : « لأن » .

(٧) م : « رئاء » ، وهى لغة قرآنية .

٣٠ ــ فصل منه على ذكرهم

وكلُّ قومٍ بنَوْا دينَهم على حبِّ الأَشكال [١]، وشبْه الرِّجال [٢]، يَشتدُّ وجدُهم به [٣] وحبُّهم له ، حتَّى ينقلبَ [٤] الحبُّ عِشقاً ، والوجدُ صبابةً ، للمشاكلة التى بين الطبائع ، والمناسبة التى بين النفوس .

وعلى قدر ذلك يكون البُغْض والحقد ، لأَنَّ النَّصارى حين جعلوا ربَّهم إِنساناً مثلهم بَخَعتْ نفوسُهم بالهَيْبَةِ له [٥] لتوهُّمهم الرُّبوبيَّة ، وأَسمحت بالمودَّة لتوهُّمهم البَشَريَّة ، فلذلك قَدَرُوا من العبادة على ما لم يقدِرْ عليه مَنْ سواهم [٦] . وبمثل هذا السَّبَب صارت المشبِّهة منَّا أَعبَدَ ممَّن ينفى التَّشبيه ، حتَّى ربَّما رأَيتَه يتنفَّس من الشوق إليه ، ويَشْهق [٧] عندَ ذكر الزيارة ، ويبكى عند ذكر الرُّؤية ، ويُغْشَى عليه عند ذكر رَفْع الحُجُب . وما ظنُّك بشوقِ مَنْ طَمِع فى مجالسة ربِّه عزَّ وجلَّ ، ومحادثةِ خالقه عزّ ذكرُه .

ولقد غالت القومَ غُولٌ ، ودعاهم أَمرٌ ، فانظُرْ ما هو ؟ وإنْ [٨] سأَلتنى عنه خبَّرتك : إِنَّما هو نتيجةُ أَحدِ أَمرين : إِمَّا تقليدُ الرِّجال ، وإِمَّا طلبُ تعظيمهم . ولذلك السَّببِ لم ترض اليهودُ من إِنكار حقِّه بتكذيبه ، حتَّى طلبَتْ قتلَه وصَلْبَه ، والمُثْلة به ، ثم لم ترضَ بذلك حتَّى زعمت

---

(١) ط : « بنوا على حب الأشكال » .

(٢) ب ، م : « وشيد الرجال » ط : « وشد الرحال » ، ولعل وجهه ما أثبت .

(٣) ب : « أشد وجدهم به » م : « اشتد وجدهم به » ، وأثبت ما فى ط .

(٤) ب : « تقرب » م : « يقرب » ، صوابهما فى ط .

(٥) بخعت : خضعت وأقرت . وفى ب : « نجعت » تحريف . م ، ط : « بالهيته له » والإلهية : الربوبية . وأثبت ما فى ب .

(٦) ب ، م : « من العبادة مالم يقدر عليه سواهم » .

(٧) ب ، م : « ويشهد » .

(٨) ب : « وإذا » .

أَنَّه لغير رِشْدة ، فلو كانت دون هذه المنزلةِ منزلةٌ لما انتهت اليهودُ دونَ بلوغها ، ولو كانت فوق ما قالت النَّصارى منزلةٌ لما انتهت دونَ غايتها .

وبذلك السَّبب صارت الرافضة أَشدَّ صبابةً وتحرُّقاً ، وأَفرطَ غضَباً ، وأَدوَمَ حِقداً . وأَحسَنَ تواصُلًا من غيرهم أَيضاً .

وربَّ خبرٍ قد كان فاشياً[١] فدخل عليه من العِلل ما منَعَه من الشُّهرة ، وربَّ خبرٍ ضعيف الأَصلِ ، واهنِ المخرج ، قد تهيَّأَ له من الأَسباب ما يُوجب الشُّهرة .

٣١ — فصل منـــه

واعلم أَنَّ لأَكثر الشِّعر ظَعْنا[٢] وحظوظاً ، كالبيت يحظَى ويسير ، حتَّى يحظى صاحبُه بحظِّه ، وغيرُه من الشِّعر أَجوَدُ منه . وكالمثَل يحظَى ويَسير ، وغيرُه من الأَمثال أَجوَد . وما ضاع من كلام النَّاسِ وضَلَّ أَكثرُ ممَّا حُفِظ وحُكى . واعتبر ذلك من نفسِكَ ، وصديقِك وجليسك .

وأَمر الأَسبابِ عجيب . ومن ذلك قَتْلُ علىّ بن أَبى طالب[٣] من السَّادة والقادة والحُماة ، ما عسى لو ذكرتُه لاستكبرتَه واستعظمْتَه ، فأَضرَب النَّاسُ عن ذكرهم ، وجَهلت العوامُّ مواضعَهم ، وأَخذوا فى ذكر عمرو بن عَبْدوُدّ[٤] فرفَعُوه فوق كلِّ فارس مشهور ، وقائدٍ مذكور .

---

(١) فاشياً : ذائعاً منتشراً . ب ، م : « ناسياً » صوابه فى ط .

(٢) فى الأصول : « طعناً » بالمهملة ، صوابه ما أثبت . والظعن : الارتحال والسير .

(٣) ب ، م : « وليس كل ذلك يعرف قبل على بن أبى طالب » ، تحريف .

(٤) عمرو بن عبد ود : أحد أشراف قريش . وقد ظهر أمره فى غزوة بدر الكبرى قاتل فيها فأثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه ، ودعا إلى المبارزة ، فنازله على بن أبى طالب وجاوله حتى قتله . وانظر السيرة ٤٣٦ ، ٦٧٧ ، ٦٩٩ . وفى ب ، م : « وأخذوا فى ذلك » . وود : صنم يقال بفتح الواد وضمها ، وفتحها أكثر فى اللغة وفى القراءات .

وقد قرأْتُ على العلماء كِتاب الفجار[1] الأَوّل ، والثانى ، والثالث . وأَمر المطيِّبين[2] والأَحلاف[3] ، ومَقْتَل أَبى أُزَيهر[4] ، ومجىء الفيل ، وكلِّ يوم جَمْعٍ كان لقريش ، فما سمعتُ لعمرو هذا فى شىءٍ من ذلك ذكراً .

فإنْ قلت : إنَّ نُبْل القاتل زيادة فى نُبْل المقتول ، فكلٌّ من قتله على ابن أَبى طالب رضوان الله عليه أَنبلُ منه وأَحقُّ بالشهرة ، ولكن أَشعار ابنِ دَأْبٍ[5] ، ومناقلةَ الصِّبيان فى الكُتَّاب هما اللَّتان أَوْرثتاه[6] ما تَرَى وتسمع .

---

(١) أيام الفجار معروفة فى أيام العرب أيام الجاهلية . وسميت فجاراً لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وكانت قبل مبعث النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بست وعشرين سنة. وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة »أنبل . : أناولهم النبل،أى السهام . وانظر العقد ٥ : ٢٥١ — ٢٥٧ . ب ، م : « الفخار » ، صوابه فى ط .

(٢) المطيبون : هم أسد ، وزهرة ، وتيم، عقدت معهم بنو عبد مناف حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ، وأن يكونوا يداً واحدة على أخذ مافى يدى عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية ، فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها فى المسجد ، ثم غمس القوم أيديهم فيها جميعاً وتعاقدوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً ، فسموا المطيبين . وكان أبو بكر من المطيبين .

(٣) الأحلاف،هم خمس قبائل من قريش: عبد الدار ، وجمح ، وسهم، ومخزوم ، وعدى ابن كعب . تعاقدت معهم بنو عبد الدار حلفاً مؤكداً ألا يتخاذلوا ،فسموا الأحلاف. وكان عمر ابن الخطاب من الأحلاف . انظر اللسان (حلف)،وكذلك المحبر لابن حبيب ١٦٦ — ١٦٧ .

(٤) فى ب ، ط : « ومقتل أبى أزيهر » وفى م : « ومقبل بن أبى أزيهر » ، صوابهما ما أثبت . وانظر خبر مقبل أبى أزيهر الدوسى فى كتاب أسماء المغتالين من نوادر المخطوطات ٢ : ١٤٩ . والذى قتله هوهشام بن الوليد بن المغيرة .

(٥) اسمه عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، كان خطيباً شاعراً ناسباً ، وكان يضع الحديث والشعر كأحاديث السمر . وكان يضع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند ، وفيهما يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفهـــا شوكر وأخرى مؤلفـــة لابن داب

وكان كثير الأدب ،عذب الألفاظ ، صاحب خطوة عند الهادى . روى عنه شبابة بن سوار ، ومحمد بن سلام الجمحى . تاريخ بغداد ٥٨٤٥ ولسان الميزان ٤ : ٤٠٨ . ط : « ابن ود » ، تحريف .

(٦) ب : « ورثتا » م : « أورثتا » ، وأثبت مافى ط .

٣٢ ـ فصل منه في أمر الأخبار

وإنَّما ذكرت هذا لتعلم أَنَّ الخبر قد يكون أَصلُه ضعيفاً ثم يعود قويًّا ، ويكون أَصلُه قويًّا فيعودُ ضعيفاً ، للذى يعتريه من الأَسباب ، ويَحُلُّ به من الأَعراض ، من لدُن مَخرجه وفُصُوله ، إلى أَن يبلغ مدَّتَه[١] ، ومنتهى أَجلِه ، وغايةَ التَّدبيرِ فيه ، والمصلحةِ عليه .

فلمَّا كان هذا مخوفاً ، وكان غير مأْمونٍ على المتقادِم منه وضَعَ الله تعالى لنا على رأْس كلِّ فترةٍ علامة ، وعلى غاية كلِّ مدَّةٍ أَمارة ، ليُعيدَ قوَّةَ الخبر ، ويجدِّد ما قد همَّ بالدُّروس ، بالأَنبياءِ والمرسلين[٢] عليهم السلام أَجمعين . لأَنَّ نوحاً عليه السلام هو الذى جدَّد الأَخبار التى كانت فى الدَّهر الذى بينه وبين آدم عليهما السلام ، حتَّى منَعها الخللَ ، وحماها النُّقصانَ بالشواهد الصادقة ، والأَمارات القائمة . وليس أَنَّ أَخبارهم وحججهم قد كانت دَرَست واختلَّت ، بل حين همَّت بذلك[٣] وكادَت . بعثَهُ الله عزّ وجل بآياته لئلا تخلوَ الأَرض من حُجَجهِ ، ولذلك سمَّوا آخر الدهر الفَتْرة . وبين الفَتْرةِ والقِطْعة فرق . فاعرفْ ذلك .

ثم بعث الله جلّ وعزّ إبراهيم عليه السلام على رأْس الفترة الثانية التى كانت بينه وبين دهر نوح ، وإنَّما جعلها[٤] الله تعالى أَطولَ فترةٍ كانت فى الأَرض ، لأَنَّ نوحاً كان لبث فى قومه يحتجُّ ويُخبر ، ويؤكِّد ويبيِّن ، أَلفَ سنةٍ إلَّاخمسين عاماً ، ولأَنَّ آخر آياته كانت أَعظم الآيات ، وهى الطُّوفان ، الذى أَغرقَ الله تعالى به[٥] جميعَ أَهل الأَرض

(١) ب : « تبلغ مدته » .
(٢) ط : « من أنباء المرسلين » .
(٣) كلمة « بل » من ط فقط .
(٤) ب ، م : « جعله » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، م : « التى غرق الله تعالى » فقط ، صوابه فى ط .

غيرَه وغير شيعته ، وإنَّما أَفار الماءَ[١] من جوف تَنُّور ، ليكون أَعجب للآية[٢] ، وأَشهر للقِصَّة ، وأَثبتَ للحُجَّة .

ثم ما زالت الأَنبياء صلوات الله عليهم أَجمعين ، بعضُهم على إِثْر بعضٍ فى الدَّهر الذى بين إبراهيم ، وبين عيسى عليهما السلام . فلتَرادف حُجَجهم ، وتظاهُر أَعلامهم ، وكثرةِ أَخبارهم ، واستفاضة أُمورهم ، ولشدَّة ما تأَكَّد ذلك فى القلوب ، ورسَخَ فى النفوس ، وظَهَر على الأَلسنة ، لم يدخلها الخَطَل والنَّقص[٣] والفسادُ ، فى الدَّهر الذى كان بين النبى عليه السلام وبين عيسى عليه السلام .

فحينَ همَّت بالضَّعف ، وكادت تنقص عن التمام[٤] ، وانتهت قوّتُها ، بعثَ الله تعالى محمّداً صلى الله عليه وسلم ، فجدَّد أَقاصيص آدم ونوحٍ ، وموسى وهارون ، وعيسى ويحيى ، عليهم السلام ، وأُموراً بين ذلك ، وهو الصادق ، بالشَّواهد الصادقة ، وأَنَّ السَّاعة آتية[٥] ، وأَنَّه ختم الرُّسل عليهم السّلامُ به ، فعلمْنا عند ذلك أَنَّ حجَّته ستتمُّ إلى مُدَّتها ، وبلوغِ أَمرِ الله عزّ وجلّ فيها .

٣٣ — فصل

ثم رجع الكلام إلى القول فى الأَخبار ، فأَقول :

إِنَّ الناس مُوكَّلون بحكايةِ كلِّ عجيب ، وميسَّرون للإِخبار عن

(١) يقال فار الشىء : جاش ، وأفرته وفرته أيضاً بالتعدية فيهما . وأنشد ابن الأعرابى :

وكانوا قعوداً حولها يرقبونها وكانت فتاة الحى ممن يفـــيرهـــا

ويروى : « يفورها » ويروى : « يغيرها» . ط فقط : « فار الماء » .

(٢) ب : « وليكون » بزيادة واو .

(٣) ب : « لم يدخلها النقص » فقط . م : « لم يدخلها الخلل والنقص » ، وأثبت ما فى ط .

(٤) ب : « وكانت تنقص عن التمام » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) ب ، م : « أن الساعة آتية » .

كلِّ عظيم ، وليسوا[١] للحسَن أَحكَى منهم للقبيح ، ولا لما يَنفع أَحكَى منهم لما يضرّ ، وعلى قدر كِبَر الشّيء تكون حكايتهم له واستماعُهم[٢] .

أَلا ترى أَنَّ رجلًا من الخلفاءِ لو ضربَ عُنقَ رجلٍ من العظماءِ لما أَمسَى وفى عسكره وبَلْدته جاهلٌ ولا عالمٌ إلَّا وقد استقرَّ ذلك عنده وثبت فى قلبه[٣] ، لأَنَّ الناس بين حاسدٍ فهو يحكى ذلك الذى دَخَل عليه من الثُّكْل وقلَّة العدد ، وبين واجدٍ[٤] يعجِّب الناس ، وبين واعظٍ مُعتبر ، وبين قومٍ شأْنُهم الأَراجيفُ بالفاسد والصَّالح . ولو كانَ ضربَ عُنقَه فى يومِ عيدٍ ، أَو حَلْبةٍ[٥] ، أَو استمطارٍ ، أَو موسم ، لكان أَشدَّ لاستفاضته ، وأَسرعَ لظُهوره .

ولو جاز أَن يكتم النَّاسُ هذا وشبهه على الإيثار للكتمان ، وعلى جهة النِّسيان ، لكُنَّا لا ندرى : لعلَّه قد كان فى زمنِ صِفِّينَ والجملِ والنَّهروانِ حَربٌ مثلها أَو أَشدُّ منها ، ولكن النَّاسَ آثروا الكتمان ، واتَّفقوا على النسيان .

فإذا كان قتلُ الملكِ الرّجلَ من العُظماءِ بهذه المنزلة من قلوب الأَعداءِ ، ومن قلوب الحكماءِ والغَوْغاء ، فما ظنُّك بمن لو أَبصروا رجلًا قد أَحياه بعد أَن ضرب عنقَه ، وأَبان رأْسَه من جسده ، أَليس كان يكون تعجبُّهم[٦] من إحيائه أَشدَّ من تعجبُّهم من قتله ، وكان يكون إخبارهم مَن خلَّفوا فى منازلهم ومَنْ وَرَدَ عليهم عن القَتْل ليكون سبباً للإخبار عن الإحياء ، إذْ كان الأَوّلُ صغيراً فى جَنْب الثَّانى .

---

(١) ب ، م : « وليس هم » .
(٢) ب : « يكون » بالياء . وكلمة « له » من ط فقط .
(٣) ب ، م : « ذلك عنده وقلبيه » تحريف .
(٤) ب ، م : « واحد » ، صوابه فى ط .
(٥) يوم الحلبة : يوم سباق الخيل . ب ، م : « خلية » ، صوابه فى ط .
(٦) ط فقط : « أليس يكون يكون تعجبهم » .

فهذا يدلُّ على أَنَّ أعلامَ الرُّسل عليهم السلام وآياتهم أَحقُّ بالظُّهور والشهرة ، والقهرِ للقلوب والأَسماع ، من مخارجهم وشرائعهم . بل قد نعلم أَنَّ موسى عليه السلام لم يُذكَر ولم يُشْهَر إِلَّا لأَعاجيبه ولآياته . وكذلك عيسى عليه السلام ، ولولا ذلك لما كانا إِلَّا كغيرهما ممن لا يُشْعَر بموته ولا مولده .

وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأَعلامهما[(١)] وأَعاجيبهما ، وأَنت لم تسمع بذكرهما قطُّ ، دون ما ذكر من أَعلامهما .

فإِذا كان شأْنُ النَّاسِ الإِخبارَ عن كلِّ عجيبٍ ، وحكايةَ كلِّ عظيمٍ ، والإِطرافَ بكلِّ طريف ، وإِيرادَ كلِّ غريبٍ من أُمور دنياهم ، فما لا يمتنع[(٢)] في طبائعهم ، ولَا يَخرُج من قوى الخليقة في البطش والحيلة ، أَحقُّ بالإِخبار والإِذاعة ، وبالإِظهار والإِفاضة ، هذا على أَن يُترِكَ الطِّباعُ وما يُولَدُ عليه[(٣)] ، والنُّفوسُ وما تُنتج[(٤)] ، والعِللُ وما يسخَّر . فكيف إِنْ كان الله عز وجل قد خَصّ أَعلامَ أَنبيائه وآياتِ رسله عليهم السلام من تهييج الناس على الإِخبار عنها[(٥)] ، ومن تسخير الأَسماع لحفظها ، بخاصّة لم يجعلْها لغيرها[(٦)] .

٣٤ ــ فصل منه

فإِن قال قائل : إِنَّ الحجَّةَ لا تكون حجّة حتى تعجز الخليقة[(٧)] ،

(١) ب ، م : « وكيف يتقدم » وبعدها في ب فقط : « المعرفة » . وتتمة الكلام من م ، ط .
(٢) ب ، م : « ولاما يمتنع » ، صوابه في ط .
(٣) الطباع : الطبع ، ويكون أيضاً جمعاً للطبع ، كما قال الأزهري . وفي ط : « وما تولد عليه » ، فلها وجهها .
(٤) ب ، م : « وما ينتج » .
(٥) ب ، م : « عن الإخبار عنها » ، صوابه في ط .
(٦) ب ، م : « خاصة لم يجعلها لغيرها » .
(٧) ب ، م : « حتى يعجز الخليقة » .

وتخرج[١] من حدِّ الطاقة ، كإحياءِ الموتى ، والمشْى على الماءِ ، وكفَلْق البحر ، وكإطعام الثِّمار فى غير أَوان الثِّمار ، وكإنطاق السِّباع ، وإشباع الكثير من القليل ، وكلِّ ما كان جسمًا مُخترعاً ، وجرماً مُبتدعاً . وكالذى لا يجوز أن يتولَّاه إلَّا الخالق ، ولا يقدر عليه إلَّا الله عزّ ذكره .

فأَمّا الأَخبار التى هى أَفعالُ العباد ، وهم تَولَّوها ، وبهم كانت وبقولهم حدثَتْ ، فلا يجوز أن يكون حجّة ، إذْ كان[٢] لا حُجَّةَ إلَّا مالا يقدر عليه الخليقة ، وما لا يُتوهَّم من جميع البريَّة .

قلنا : إنَّا لم نَزْعُم أَنَّ الأَخبار حُجّةٌ فيحتجُّون علينا بها ، وإنَّما زعمنا أَنَّ مجيئها حجّةٌ ، والمجىء ليس هو أَمرٌ يتكلَّفه الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أَرادوه فعلوه وتهيَّئوا له ، ولفعلوه فى الباطل[٣] كما يجىءُ لهم فى الحقِّ . والمجىءُ أَيضاً ليس هو فعلًا قائماً فيستطيعوهُ أَو يعجزوا عنه[٤] ، وإنَّما هو الإنسان ، يعلم أَنَّه إذا لقى البَصْريين فأَخبروه أَنَّهم قد عاينوا بمكة شيئاً ، ثم لقىَ الكوفيِّين فأَخبروه بمثل ذلك ، أَنَّهم قد صدَقوا[٥] . إذْ كان[٦] مثلهُم لا يتواطأ[٧] على مثل خبرِهم على جَهْلهم بالغيب ، وعلى اختلاف طبائعهم وهممهم وأَسبابهم .

فليس بين هذا وبين إحياءِ الموتى والمشْى على الماء فرق ، إذْ كان الناس لا يقدرون عليه ، ولا يطمعون فيه ، والمجىء إنَّما هو معنىً

(١) ب ، م : « ويخرج » .
(٢) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .
(٣) هذا مافى ط . وفى م : « وتهيئوا لفعله فى الباطل » ، وفى ب : « وتهيأ ولفعلوه فى الباطل » .
(٤) ب ، م : « فيستطيعونه أو يعجزون له عنه » .
(٥) فى ب : « فأخبروه بمثل ذلكقد صدقوا » . وتتمة الكلام من م ، ط .
(٦) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « يتوطأ » ، تحريف .

معقول ، وشيءٌ موهوم . إذْ كان[١] كيف يكون ومعـلومٌ أَنَّ الناس لا يمكنهم أَن يقدِروا ، ولا يستطيعون فعلَه . وإنَّما مدارُ أَمرِ الحُجَّة على عجز الخليقة . فمتى وجَدْتَ أَمراً ووجدت الخليقة عاجزةً عنه[٢] فهى حجة . ثمَّ لا عليك جوهراً كان أَو عَرَضاً ، أَو موجوداً أَو متوهَّماً معقولًا . أَلا ترى أَنَّ فَلْق البحرِ ليس هو من جنس اختراع الثمار ، لأَنَّ الفلق هو انفراج أَجزاء ، والثمار أَجرامٌ حادثة .

وكذلك لو ادَّعى رجلٌ أَنَّ الله عزّ وجلّ أَرسله وجعل حجّتُه علينا[٣] الإخبارَ بما أَكلْنا وادّخَرنا وأَضْمرنا ، لكان قد احتجَّ علينا .

فإن قلتم[٤] : إنَّ المنجِّمين ربَّما أَخبروا بالضمير ، وبالأَمر المستور ، وببعضِ ما يكون .

قلنا : أَمَّا واحدةً[٥] فإنَّ خطأَ المنجِّمين كثير ، وصوابهم قليل ، بل هو أَقلُّ من القليل . وأَنتم لا تقدرون أَن تقفونا[٦] من أَخبار المرسلين عليهم السلام فى كثير أَخبارهم على خطاءٍ واحد[٧] ، والذى سهَّل قليل المنجِّمين طَرَافةُ ذلك منهم[٨] ، لأَنهم لو قالوا فأَخطئوا أَبداً لما كان

---

(١) م ، ط : « إذا كان » .

(٢) ب : « غيره عجزه » م : « غير عاجزة » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب : « فجعله حجة علينا » تحريف . وفى ط : « فجعل حجته علينا » ، وأثبت مافى ب .

(٤) ب : « فلم قلتم » تحريف . ط : « فإن قلت » ، وأثبت مافى م .

(٥) بدله فى ط : « هناك فرق » .

(٦) ط : « أن تقفون » صوابه فى ب ، م .

(٧) ب : « فى كثرة أخبارهم » . ب ، ط : « على خطأ واحد » . والجاحظ يميل كثيراً إلى استعمال « الخطاء » بمعنى الخطأ ، وهوماورد هنا فى نسخة م . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٥٠٠ والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧ .

(٨) الطرافة من الطريف ، وهو الشىء الغريب المستحدث . وفى جميع النسخ : « ظرافة » بالظاء المعجمة ، والظرافة : الكيس والحذق ، ولاوجه لها هنا .

عَجَبا ، لأنّه ليس بعَجَبٍ أن يكون الناس لا يعلمون ما يكون قبل أن يكون ، ومن أعجبِ العجب أنْ يوافق قولُهم بعضَ ما يكون .

وقد نجد المنجِّمين يختلفون فى القضيَّة الواحدة ، ويُخطئون فى أكثرِها . وقد نجد الرَّسولَ يُخبرهم عمَّا يأْكلون ويَشربون ويدَّخرون ويُضْمرون ، فى الأُمور الكثيرة المعانى ، والمختلفةِ فى الوجوه ، حتَّى لا يخطىءَ فى شىءٍ من ذلك . وليس فى الأَرض منجِّم ذكر شيئاً[1] أَو وافَق ضميراً إلَّا وأَنت واجدٌ بعضَ مَن يزجُرُ[2] قد يجىءُ بمثله وأَكثر منــه .

فإن قلت : إنَّ الناس يَكْذِبون فى الإِخبار عن الأَعراب والكُهَّان من كلِّ جيل ؟

قلنا : فهم فى إخبارهم عن المنجِّمين أَكْذَب .

وبعدُ ، فالناس غير مستعظمين لكثرةِ كذِب المنجِّمين وخطاياهم وخُدَعهم ، والناس يستعظمون[3] اليسيرَ من المرسَلين عليهم السلام . وكلَّما كان الرجلُ فى عينك أَعظَمَ ، وكان عن الكذب أَزجَر ، كان كذبه عندك أَعظَمَ . وإنَّما المنجِّم عند العوامِّ كالطبيب الذى إنَّ قَتَلَ المريضَ علاجُه كان عندهم أَنَّ القضاءَ هو الذى قتله[4] ، وإنْ برأَ كان هو أَبرأَه. على أَنَّ صوابهم أَكثر ، ودليلَهم أَظهر .

وقد صار النَّاسُ لا يقتصرون للمنجِّمين على قدر ما يسمعونَ منهم ، دون أَنْ يولِّدوا لهم ، ويضعوا الأَعاجيب عَنْ أَلسنتهم .

---

(١) ب ، م : « قال شيئاً » .
(٢) الزجر : ضرب من الكهانة . وفى جميع النسخ : « مايزجر » . ووجهه ما أثبت .
(٣) فى جميع النسخ : « يستقطعون » ، صوابه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « إن قبل المريض » ، و « هو الذى قبله » صوابهما فى ط .

وكلُّ ملحدٍ فى الأَرض للرسول طاعنٍ عليه ، عائبٍ له ، يرى أَن يصدِّق عليه كلَّ كذَّابٍ يريد ذمَّه ، وأَن يكذِّب كلَّ صادقٍ يريد مدحه .

وبعدُ ، فلو كان خبرُ المنجمين(١) فى الصواب كخبر الأَنبياء والمرسلين عليهم السلام ، الذى هو حُجَّةٌ ، لما كان خبرُ المنجِّمين حجّة .

فإن قلت : ولِم ذاك ؟

قلتُ : لأَنَّ من كثُر صوابُه على غير استدلالٍ ومقايَسة ، وعلى(٢) غير حسابٍ وتجربة ، أَو على نظرٍ ومُعايَنة لم يكن الأَمر مِنْ قبل الوحى(٣) ؛ لأَنَّك لو قلت قصيدةً فى نفسك فحدَّثَك بها رجل ، وأَنت تعلم أَنَّه ليس بمنجِّم ، وأَنشدَكها كلَّها ، لعلمت أَنَّ ذلك لا يكون إلَّا بوحى .

ومِثل ذلك رجلٌ اشتدَّ وَجَعُ عينِه فعالجه طبيبٌ فبرأَ(٤) ، فلو جعل الطَّبيبُ ذلك حُجّةً على نُبُوَّته لوجب علينا تكذيبُه ، ولو قال رجلٌ من غير أَن يمسَّه أَو يدنوَ إليه : اللَّهمّ إن كنتُ صادقاً عليك فاشفِه السَّاعةَ ، فبرأَ(٥) من ساعتِه لعِلْمنا أَنَّه صادق .

فإن قالوا : وما علَّمنا أَنَّ محمداً عليه السّلامُ لم يكن منجِّماً ؟

قلنا : إنَّ عِلْمَنا بذلك كعِلمنا بأَنَّ العبَّاسَ وحمزةَ وعليًّا وأَبا بكرٍ وعمر ، رضوانُ الله عليهم أَجمعين ، لم يكونوا منجِّمين ، ولا أَطبَّاءَ متكهِّنين . وكيف يجوز أَن يصير إنسانٌ عالماً بالنُّجوم من غير أَن يختلف

(١) ب فقط : « غير المنجمين » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « على » بسقوط الواو .
(٣) ب ، م . : « لم يكن الأمر قبل الوحى » ، وإكماله من ط .
(٤) ط : « فبرئ » ، وهما لغتان : برأ يبرأ ويبرؤ ، وبرئ يبرأ ، أى شفى من مرضه .
(٥) م ، ط : « فبرئ » .

إلى المنجِّمين ، أو يختلفوا إليه ، أو يكونَ علمُ النُّجوم فاشياً فى أهل بلاده ، أو يكونَ فى أهله واحدٌ معروف به . ولو بلغَ إنسانٌ فى علم النجوم ، وليست معه عِلَّةٌ من هذه العلل ، وكان ذلك يخفى ، لكان ذلك كبعض الآياتِ والعلامات .

ومتى رأينا حاذقاً بالكلام ، أو بالطِّبِّ ، أو بالحساب ، أو بالغناءِ ، أو بالنُّجوم ، أو بالعَرُوض ، خَفِىَ على النَّاس موضعُه وسببُه ؟ !

وجميعُ ما ذكرنا ، فعنايةُ الناس به[١] وعداوتُهم ، وشُهرتُه فى نفسه ، دون محمد صلى الله عليه وسلم .

وهل نصب أَحدٌ قطُّ لأَحدٍ إلَّا بدون ما نَصَبَ له رهطُه[٢] ، وأَدانى أهله[٣] ، ومن معه فى بَيته ورَبْعه .

وما أَعرِف ـ يرحمك الله ـ المعاندَ والمسترشِد والمصدِّق والمكذِّب ، ينكر أَنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن منجِّماً ولا طبيباً . وإذا قال الجاهل : إنَّه قد كان يعلم الخطَّ فخفِىَ له ذلك ، وتعلَّم الأَسبابَ والقضاءَ فى النجوم فخفِىَ له ذلك ، وتعلَّم البيان وقدرَ منه[٤] على ما يعجِز أَمثالُه عنه وخفِىَ ذلك ، أَليس مع قوله ما يعلمُ خلافَه ، يعلم أَنَّه قد سلَّم له أُعجوبةً كأُعجوبةِ إبراءِ الأَكمهِ والأَبرص ، والمشيِ على الماءِ ، إذْ كان ذلك لا يجوز ، ولا يمكنُ فى الطبائِع والعقل والتَّجرِبة .

وافهمْ يرحمُك الله ما أَنا واصفُه لك : هل يجد التَّارك لتصديقهِ

---

(١) ب ، م : « عناية الناس به » .
(٢) نصب له : أظهر له العداء . ط : « وهل نسب أحد قط لأحد إلا دون مانسبه له رهطه » ، تحريف . وبعد كلمة « رهطه » فى كل من ب ، م وردت لفظة « نعمة » مقحمة .
(٣) الأدانى : جمع أدنى ، وهو الأقرب . ب ، م : « وأرانى » ، صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « وتعلم البيان على قدر منه » ، صوابه فى ط .

أنَّه لا يدرى بزعمه ، لعلَّه كان أعلمَ الخلق بالنُّجوم ، ناظراً لنفسه ، غير معاندٍ لحجَّة عقله . وهو لم يجد أحداً قطُّ بَرَع فى صناعةٍ واحدة فخفِىَ على الناس موضعُه بكلٍّ ما حكينا وفسَّرنا .

وأنت كيف تعلم أنَّه ليس فى إخوانك مَن ليس بمنجِّم ، وأنَّ فيهم من ليس بطبيب ، إلَّا بمثلِ مايَعرِفُ به رهطُ النبى صلى الله عليه وآله منه .

وكيف لم يشتهر ذلك ، ولم لم يحتجَّ به عليه ؟ ولقد بلغ من إسرافهم فى شتمه ، وإفراطهم عليه ، أنْ نافَقُوا وأحالوا ، لأنَّهم كانوا يقولون له : أنت ساحِرٌ ، وأنت مجنون ! وإنَّما يقال للرجل : ساحر ، لخلابته وحسن بيانه ، ولُطف مكايده ، وجودة مداراته وتحبُّبه . ويقال : مجنونٌ ، لضدِّ ذلك كله .

٣٥ — فصل منه

وليس ينتفع الناسُ بالكلام فى الأخبار إلَّا مع التَّصادُق ، ولا تصادقَ إلَّا مع كثرة السماع ، والعلمِ بالأُصول ؛ لأنَّ رجلًا لو نازع فى الأخبار ، وفى الوعد والوعيد ، والخاصّ والعامّ ، والناسخ والمنسوخ ، والفريضة والنَّافلة ، والسُّنَّة والشَّريعة ، والاجتماع والفُرقة ، ثم حَسُنت نيَّتُه ، وناصَحَ عن نفسه(١) ، لما عرف حقائق باطلٍ دون أن يكون قد عرف الوجوه ، وسمع الجُمَل(٢) ، وعَرَف الموازنة ، وما كان فى الطبائع ، وما يمتنع فيها . وكيف أيضاً يقول فى التأْويل مَنْ لم يسمع بالتنزيل ؟ وكيف يعرف صِدْقَ الخبرِ من لم يعرف سبب الصدق (٣) ؟

(١) فى اللسان (نضح) : « ويقال هو يناضح عن قومه وينافح عنهم ، أى يذب عنهم » . وفى جميع النسخ : « وناصح عن نفسه » ، صوابه ما أثبت .
(٢) ب : « وسمل الجمل » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) م فقط : « سبب الخبر » .

واعلم أَنَّ من عوَّد قلبَه التشكُّكَ(١) اعتراه الضعف ، والنَّفس عَرُوف(٢) ، فما عوّدتَها من شيءٍ جَرَتْ عليه .

والمتحَيِّر(٣) إلى تقوية قلبِه وردِّ قوَّته عليه وإفهامه موضعَ رأيه ، وتوقيفِه(٤) على الأَمر الذى أَثقلَ صَدره(٥) ، أَحوَجُ منه إلى المنازعة فى فرق ما بين المجيءِ الذى يكذَّب مثلُه ، والمجيء الذى لا يكذَّب مثلُه .

وسنتكلَّف من علاج دائِه ، وترتيب إفهامه إنْ أَعانَ على نفسه ، بما لا يُبْقِي سبباً للشك ، ولا عِلَّةً للضَّعف . والله تعالى المعينُ على ذلك ، والمحمود عليه .

٣٦ — فصل منـه

ومتى سمِعنا نَبِيَّ الله عليه السلام اتَّكل على عدالته ، وعلى معرفة قومه بقديم طهارته ، وقلَّةِ كذبه ، دون أَن جاءَهم بالعلامات والبُرهانات؟

ولعمرى لو لم نجد(٦) الحافظ يَنسى ، والصَّادقَ يَكذِب ، والمؤْمنَ يبدِّل ، لقد كان ما ذهبوا إليه وجهاً .

٣٧ — فصل منه فى ذكر دلائل النبى عليه الصلاة والسلام

وبابٌ آخر يُعرف به صدقُه ، وهو إخباره عمَّا يكون ، وإخباره عن

---

(١) ب : « التشكلا » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) ب ، ط : « عزوف » ، صوابها فى م .
(٣) فى جميع النسخ : « والمتخير » بالخاء المعجمة ، وإنما يراد هنا المتحير المتشكك ، فالوجه ما أثبت .
(٤) فى جميع النسخ : « وتوفيقه » ، تحريف ما أثبت .
(٥) ب : « انفل صدره » صواب هذه ما أثبت . وفى م ، ط : « أشغل صدره » ، وهى صحيحة أيضاً . لكن فى القاموس : « وأشغله لغة جيدة ، أو قليلة ، أو رديئة » .
(٦) ب ، م : « أن لو نجد » ، صوابه فى ط .

ضمائر الناس[١] ، وما يأْكلون وما يدَّخرون ، ولدعائه المستجاب الذى لا تأْخيرَ فيه ، ولا خُلْف له . وذلك أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين لقِيَ من قريشٍ والعربِ ما لقِيَ من شِدَّة أَذاهُم له ، وتكذِيبِهم إِيَّاه ، واستعانتِهم عليه بالأَموال والرِّجال ، دعا الله جلّ وعزَّ أَنْ يُجدِبَ بلادهم ، وأَن يُدخِلَ الفقر بيوتهم ، فقال صلَّى الله عليه وآله : « اللهمَّ سِنينَ كَسِنِى يوسف[٢] . اللهم اشدُدْ وَطْأَتَك على مُضَر » .

فأَمسَكَ الله عزّ وجل عنهم المطَرَ حتَّى ماتَ الشَّجر ، وذَهَب الثَّمر ، وقَلَّت المزارعُ ، وماتت المواشى ، وحتَّى اشتَوَوا القِدَّ والعِلهز[٣] .

فعند ذلك وفَد حاجبُ بن زُرارة على كسرى ، يشكو إِليه الجَهْد والأَزْل[٤] ويستأْذنه فى رعى السَّواد[٥] ، وهو حين ضمِنه عن قومِه ، وأَرهنَه قوسه . فلمَّا أَصاب مضَرَ خاصَّةً الجهدُ ، ونَهكهم الأَزْل ، وبلغت الحُجَّةُ مبلغَها ، وانتهت الموعظةُ منتهاها ، عادَ بفضله صلى الله عليه وسلم ، على الذى بدأَهم به ، فسأَل ربَّه الخِصْبَ وإدرار الغَيْث ، فأَتاهم منه ماهَدَم بيُوتَهم ، ومَنعهم حوائِجَهم ، فكلَّموه فى ذلك فقال : « اللهم حَوالَيْنا ولا عَلَيْنَا » . فأَمطر الله عزَّ وجلَّ ما حولهم ، وأَمْسَكَ عنهم .

وكتب إِلى كسرى يَدعُوه إِلى نجاته وتخليصِه من كُفره ، فبدأَ باسمِهِ على اسمِه ، فأَنِفَ من ذلك كسرى لشِقْوَته ، وأَمَر بتمزيق الكتاب ،

---

(١) ب فقط : « ضمير الناس » .

(٢) ب فقط « كسنين يوسف » ، تحريف . وكانت سنو يوسف سبعاً شداداً ذات قحط وغلاء . والحديث من أفراد البخارى . انظر الحديث ٦١٩ من الألف المختارة .

(٣) القد ، بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ . والعلهز ، كزبرج : خليط من الدم وأوبار الإبل ، وقد يخلطون به القردان ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه .

(٤) الأزل ، بالفتح : شدة الزمان ، يقال هم فى أزل من العيش وأزل من السنة .

(٥) السواد : جماعة النخل والشجر ، لخضرته واسوداده . وسواد العراق : ما حوالى مدنه من القرى والرسائيق .

فلمَّا بلغه صلَّى الله عليه وسلم قال : « اللهمَّ مزِّقْ مُلْكَه كُلَّ مُمزَّقٍ » . فمزَّق الله جلّ وعزّ ملكه ، وجَدَّ أَصله ، وقطع دابرَه ، لأَنَّ كلَّ ملكٍ فى الأَرض ، وإن كان قد أُخرِجَ من مُعظَم ملكِه ، فهو مقيمٌ على بقيّةٍ منه ، وذلك أَنَّ الإِسلام لم يترُكْ مَلِكاً بحيث تنالُه الحوافر والأَخفاف والأَقدام ، إلَّا أَزاله عنه ، وأَخرجه منه إلى عِقابٍ يعتصمُ بها[1] ، ومعاقلَ يأْوِى إليها ، أَو طرَدَه إلى خليجٍ منيع ، لا يقطعُه إلَّا السُّفُن[2] ، فهم من بين هاربٍ قد دخل فى وِجارٍ ، أَو اختفى[3] فى غَيْضة ، أَو مقيمٍ على فمِ شِعْبٍ ، ورأْس مَضيق ، قد سَخَتْ نفسُه عن كلِّ سهل ، وأَسلَمَ كلَّ مَرْجٍ أَو مُلكٍ لا قرارَ له ، وليس بذى مَدَر فيُؤتَى ، وإنَّما أَصحابه أَكرادٌ يَطلبون النُّجعة ، أَو كخوارج يَطلُبون الغِرّة[4] . فأَمَّا أَن يكون مَلِكٌ يُصْحِرُ لهم[5] ، ويقيم بإزائهم ، ويغاديهم الحرب ويُمسِّيهم ، ويساجلهم الظَّفرَ ويناهضهم ، كما كانت ملوكُ الطَّوائف ، وكالذى كان بين فارسَ والرُّوم — فلا ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رَسولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه[6] ﴾ إلى قوله عزّ ذكره : ﴿ المشركون[7] ﴾ . فلم يرضَ أَن أَظهرَ دينَه حتَّى جعل أَهلَه الغالبين بالقُدْرة ، والظَّاهرين بالمنَعة ، والآخذين الإِتاوة .

---

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهى طريق فى الجبل وعر .
(٢) ب : « لا يمنعه » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) فى جميع النسخ : « واختفى » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب فقط : « العزة » .
(٥) أصحر : برز وظهر . ب ، م : « يصخر » ط : « يصهر » ، صوابهما ما أثبت .
(٦) الآية ٣٣ من سورة التوبة و ٢٨ من سورة الفتح و ٩ من سورة الصف . وختام الأولى والأخيرة : « ولوكره المشركون » ، وختام الوسطى : « وكفى بالله شهيدا » .
(٧) ب ، م : « الكافرون » ، تحريف ، صوابه فى ط .

وكتب كِسرى إلى فَيْروزَ الدَّيلمىّ[(١)] ، وهو من بقية أَصحاب سَيفِ بن ذى يَزَن : أَنِ احمِلْ إلىّ هذا العبدَ الذى بدأَ باسمِه قبل اسمى ، واجترأَ علىّ ، ودعانى إلى غير دينى ! فأَتاه فيروزُ فقال : إنَّ ربى أَمرنى أن أَحمِلَك إليه . فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ربِّى خبَّرنى أَنَّه قد قتَل ربَّك البارحة ، فأَمْسِكْ علىَّ ريثَما يأْتيك الخبر ، فإن تبيَّن لك صدقى ، وإلَّا فأَنتَ على أَمرك » . فراع ذلك فَيروزَ وهالَه ، وكره الإقدامَ عليه ، والاستخفافَ به ، فإذا الخبر قد أَتاه : أَنَّ شيرويه قد وثب عليه فى تلك الليلةِ فقتله . فأَسلم وأَخلص ، ودعَا مَنْ معه من بقيَّة الفُرس إلى الله عزّ ذكره[(٢)] فأَسلموا .

٣٨ — فصل منه[(٣)] فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله

ثم إنَّ الذى تقدَّمه صلَّى الله عليه وآله من البُشارات فى الكتب المتقادِمة ، فى الأَزمان المتباعدة ، والبُلدان الموجودة بكلِّ مكان ، على شدة عداوة أَهلِها ، وتعصُّب حامليها ، ومع قوَّة حسدهم ، وشدَّة بغيهم . وما ذلك ببديعٍ منهم ومن آبائهم ، على أَنَّهم أَشبَهُ بآبائهم منهم بأَزمانهم . وكلُّ النَّاسِ أَشبه بأَزمانهم منهم بآبائهم . وآباؤهم الذين قتلوا أَنبياءَهم عليهم السلام ، وتعنَّتوا رسلهم صلى الله عليهم ، حتَّى خلَّاهم الله عزّ وجل من يده ، وأَفقدهم عِصمتَه وتوفيقه .

---

(١) فيروز الديلمى ، ويقال « فيروز بن الديلمى » كما فى ب ، وهو صحابى يكنى أبا الضحاك ، وأبا عبد الرحمن . وكان من أبناء الأساورة من فارس ، الذين كان كسرى قد بعثهم إلى قتال الحبشة . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد إسلامه رجع إلى اليمن وأعان على قتل الأسود العنسى الكذاب ، وأتى برأسه إلى النبى صلى الله عليه وسلم. وقد سكن مصر . ومات فى خلافة عثمان ، وقيل فى خلافة معاوية ، باليمن سنة ٥٣ . الإصابة ٧٠٠٤

(٢) م : « عز وجل » .

(٣) منه ، ساقطة من ب .

ولم استدلَّ على ذكره فى التَّوراة والإنجيل والزَّبور ، وعلى صِفته والبشارة به فى الكُتب إلَّا لأنَّك[(١)] متى وجدتَ النَّصرانيَّ واليَهوديَّ يُسلِم بأَرض الشام وجدتَه يَعتلُّ بأُمورٍ ، ويحتجُّ بأَشياءَ مثلِ الأُمور التى يحتجُّ بها من أَسلم بالعراق . وكذلك من أَسلم بالحجاز ، ومن أَسلم من اليمن ، من غير تلاقٍ ولا تعارف ، ولا تَشاعُر[(٢)] . وكيف يتلاقَوْن ويتراسلون ، وهم غير متعارفين ولا مُتشاعرين؟ ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم ينكتِم ، كما حكينا قبلَ هذا . ولو قابلتَ بين أَخبارهم واحتجاجِهم مع كثرة الأَلفاظ واختلاف المعانى ، لوجدتَها متساوية .

٣٩ — فصل منه

فإن قال قائل : لِمَ كانت أَعلامُ موسى عليه السلام فى كثرتِها[(٣)] مع غَيِّ بنى إسرائيل ، ونقصان أَحلام القبط ، فى وزنِ أَعلام محمد صلى الله عليه وسلم وفى قَدْرها ، مع أَحلام قريش ، وعُقول العرب .

ومتى أَحببتَ أَن تعرفَ غَيَّ بنى إسرائيل ونُقصان[(٤)] أَحلام القِبْط ، ورُجحان عقول العرب[(٥)] ، وأَحلام كنانة[(٦)] ، فأْتِ[(٧)] بَواديَهم ورِباعَهم . وانظر إلى بنِيهم[(٨)] وبقاياهم ، كما نظرتَ إلى بنى إسرائيل من اليهود[(٩)] وغيِّ بنى من مضى من القبط — تعتبرْ ذلك وتعرفْ

---

(١) ب ، م : « بأنك » .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٥٠
(٣) ب ، م : « وكثرتها » .
(٤) ط : « ونقص » .
(٥) رجحان ، ساقطة من ب ، م .
(٦) ب ، م : « وأحكام كنانة » .
(٧) ط : « فانظر » .
(٨) ب : « بينهم » ، صوابه فى م ، ط .
(٩) ب ، م : « من اليهود عليهم لعنة الله تعالى وعز وبين من مضى من القبط » .

ما أقول . ثم انظرْ فى أشعار العرب الصَّحيحة (١) ، والخُطَب المعروفة ، والأَمثال المضروبة ، والألفاظ المشهورة ، والمعانى المذكورة ، مَّما نقلتْه الجماعاتُ عن الجماعات ، وكلامِ العربِ ومعانيهم فى الجاهليَّة . ثم تفقَّدْ ، وسَلْ أَهلَ العلم والخِبْرة عن بنى إسرائيل ، فإنْ وجدتَ لهم مثلًا سائراً كما تَسمع لِلقبطِ والفُرس ، فضلًا عن العرب فقد أَبطَلْنا فيما قلنا .

وقد كان الرَّجلُ من العرب يقف المواقفَ ، ويسيِّر عدَّة أَمثال (٢) ، كلُّ واحدٍ منها ركنٌ يُبنَى عليه ، وأَصلٌ يتفرَّع منه (٣) .

أَوْ هل تسمع لهم (٤) بكلامٍ شريفٍ ، أَو معنىً يستحسنُه أَهلُ التَّجرِبة ، وأَصحابُ التَّدبير والسياسة ، أَو حُكم (٥) أَو حِكْمة ، أَو حِذقٍ فى صناعة ، مع تَرادُف المُلْك فيهم ، وتَظاهُر الرِّسالة فى رجالهم .

وكيف لا تَقضِى عليهم بالغىِّ والجَهْل ، ولم تسمَعْ لهم بكلمةٍ فاخرةٍ ، أَو معنىً نَبيهٍ (٦) ، لا مِمَّن كان فى المَبْدَى ، ولا مِمَّن كان فى المحْضَر (٧) ، ولا من قاطنى السَّواد (٨) ، ولا مِن نازلى الشَّام ؟

ثم انظُرْ إلى أَولادهم مع طول لُبثهم فينا ، وكَونِهم معنا ، هل غيَّر

---

(١) هذا مافى م . وفى ب ، ط : « فى الأشعار الصحيحة » .

(٢) ب ، م : « ويسير عدة أميال » ط : « وينشئ عدة أمثال » ، وأثبت الصواب من بينهما .

(٣) ب ، م : « ركن يبنى وأصل لفرع منه » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « أهم » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « أو حكم » .

(٦) النبيه : الجليل المشهور . ب فقط : « بينة » ، تحريف .

(٧) المبدى : مكان خروجهم فى البادية ، خلاف المحضر فى الحاضرة . ب : « المبداء » م ، ط : « المبدأ » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) ب فقط : « قاطن السواد » .

ذلك من أخلاقهم وشمائِلهم ، وعقولِهم ، وأحلامهم ، وآدابهم ، وفِطَنهم ؟ فقد صَلَح بنا كثيرٌ من أُمور النَّصارى وغيرِهم .

وليس النَّصارى كاليهود ، لأَنَّ اليهود كلَّهم من بنى إسرائل إلّا القليل .

وبعدُ ، فلم يضرِبْ فيهم غيرُهم ، لأَنَّ مناكحهم مقصورةٌ فيهم ، ومحبوسةٌ عليهم ، فصُوَر أوّلهم مؤدَّاةٌ إلى آخرهم [(١)] ، وعقولُ أَسلافهم مردودةٌ على أَخلافِهم [(٢)] ، ثم اعتبر بقولهم لنبيّهم عليه السلام : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ [(٣)] ﴾ حين مرُّوا على قومٍ يَعكُفُون على أَصنامٍ لهم يعبدونها . وكقولهم : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهرةً [(٤)] ﴾ ، وكعكوفهم على عجلٍ صُنِع من حُليِّهم ، يعبدونه من دون الله ، بعد أَن أَراهم من الآيات ما أَراهم. وكقولهم : ﴿ اذهَبْ أَنتَ وربُّك فقاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون [(٥)] ﴾ ، فكان الذى جاء به مُوسى عليه السلامُ ، مع نَقْص بنى إسرائيل والقِبط ، مثلَ الذى جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، مع رُجحانِ قريشٍ والعرب .

وكذلك وعدُ محمدٍ عليه السلامُ بنار الأَبدِ ، كوعيد موسى بنى إسرائل بإلقاءِ الهُلَاس على زروعهم [(٦)] ، والهَمِّ على أَفئدتهم ، وتَسْليط المُوتان على ماشيتهم [(٧)] ، وبإخراجهم من ديارهم ، وأَنْ يظفر بهم

(١) فى جميع النسخ : « قصوراً ولهم موداة إلى آخره » ، وأرى الوجه فيما أثبت .
(٢) الأخلاف : جمع خلف ، بالتحريك ، وهو الولد صالحاً كان أو طالحاً . ب ، م « أخلاقهم » ، صوابه فى ط .
(٣) من الآية ١٣٨ من الأعراف .
(٤) من الآية ١٥٣ من النساء .
(٥) من الآية ٢٤ من المائدة .
(٦) الهلاس ، بالضم : شبه السل من الهزال . وفى سفر اللاويين ٢٦ : ١٦ : « أسلط عليكم رعباً وسلا وحمى تفنى العينين ، وتتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم » .
(٧) انظر سفر اللاويين ٢٦ : ٢٢ . والموتان ، بالضم ويفتح : موت يقع فى الماشية .

عدوُّهم . فكان تعجيل العذاب الأدنى[1] فى استدعائهم واستمالتهم ، ورَدْعهم عمَّا يريد بهم ، وتعديل طبائعهم ، كتأْخير العذاب الشديد على غيرهم ، لأنَّ الشديد[2] المؤخَّر لا يزجُر إلَّا أَصحابَ النَّظر فى العواقب ، وأَصحابَ العقولِ التى تذهب فى المذاهب[3] .

فسبحانَ من خالَفَ بين طبائعهم وشرائِعهم ليتَّفقوا على مصالحهم فى دُنْياهم ، ومَرَاشِدهم فى دينهم ، مع أَنَّ محمداً صلَّى الله عليه وسلم مخصوصٌ بعلامة لها فى العقل موقع ، كموقع فَلْق البحر من العَيْن ، وذلك قوله لقريشٍ خاصّةً ، وللعرب عامَّة ، مَعَ ما فيهما من الشُّعراء والخُطباء والبلغاءِ ، والدُّهاة والحُلَماء[4] ، وأَصحابِ الرأْى والمكيدة ، والتَّجارب والنَّظر فى العاقبة : إنْ عارضتمونى بسورةٍ واحدةٍ فقد كذبتُ فى دعواىَ ، وصَدَقتم فى تكذيبى .

ولا يجوز أَن يكون مثلُ العربِ فى كثرة عددهم واختلافِ عللهم ، والكلامُ كلامُهم ، وهو سيِّدُ عملِهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قُوّتُهم عليه عند أَنفسهم ، حتَّى قالوا فى الحيَّات والعقارب ، والذِّباب والكِلاب ، والخَنافس والجِعْلان ، والحميرِ والحَمام ، وكلِّ ما دبَّ ودرَج ، ولاح لعينٍ ، وخطر على قلب . ولهم بعدُ أَصنافُ النَّظمِ ، وضروبُ التأْليف ، كالقصيدِ[5] ، والرَّجز ، والمزدوج ، والمُجانَس[6] ، والأَسْجاع[7] والمنثور .

(١) ب ، م : « الدون » .
(٢) ب فقط : « لأن العذاب » .
(٣) ب فقط : « بالمذاهب » .
(٤) الحلماء : ذوو الألباب والعقول . م فقط : « والحكماء » .
(٥) ب فقط : « كالقصة » .
(٦) هو ما عرف بعد بالجناس فى اصطلاح البلاغيين .
(٧) ب ، م : « الأشجاع » ، ط : « الأسماع » ، صوابهما ما أثبت .

وبعد ، فقد هَجَوْهُ من كلِّ جانب ، وهاجَى أَصحابُه شعراءَهم[(١)] ، ونازعوا خُطباءَهم ، وحاجُّوه فى المواقف ، وخاصَمُوه فى المواسم ، وبادَوْه العَداوة[(٢)] ، وناصَبُوه الحرب ، فقَتَل منهم ، وقَتَلوا منه ، وهم أَثبتُ النَّاسِ حِقداً ، وأَبعدُهم مطلباً ، وأَذكرهم لخير أَو لشرّ ، وأَنْفاهم له ، وأَهجاهم بالعَجْز ، وأَمدحهم بالقوَّة ، ثمَّ لا يُعارضه معارضٌ ، ولم يتكلَّف ذلك خطيبٌ ولا شاعر .

ومحالٌ فى التعارف ، ومستنكَرٌ فى التصادق ، أَن يكون الكلامُ أَخْصَر عندهم[(٣)] ، وأَيْسَرَ مَئُونةً عليهم ، وهو أَبلغ فى تكذيبهم وأَنقضُ[(٤)] لقوله ، وأَجدر أَن يعرف ذلك أَصحابُه[(٥)] فيجتمعوا على ترك استعماله ، والاستغناءِ به ، وهم يبذلون مُهَجَهُم[(٦)] وأَموالهم ، ويخرجون من ديارهم فى إِطْفاءِ أَمره ، وفى توهينِ ما جاءَ به ، ولا يقولون ، بل لا يقول واحدٌ من جماعتهم : لِمَ تقتلون أَنفسكم[(٧)] ، وتستهلكون أَموالكم ، وتَخرجون من دِياركم ، والحيلةُ فى أَمره يسيرة ، والمأْخذ فى أَمره قريب ؟ ! ليؤلِّفْ واحدٌ من شعرائكم وخطبائكم كلاماً فى نظم كلامه ، كأَقصر سورة يُخذِّلكم بها ، وكأَصغر آيةٍ دعاكُم إِلى معارضتها . بل لو نَسُوا ، ما تركَهم حتَّى يذكِّرَهم ، ولو تغافلوا ما ترك أَن ينبّههم ، بل لم يرض بالتَّنبيه دون التوقيف .

---

(١) ب : « وهجى أصحابه شعراؤهم » .

(٢) يقال باداه بالعداوة : جاهره بها . وبادره إلى الشيء : عاجله وسابقه . ووردت « العداوة » هنا متعدياً إليها الفعل بغير الحرف . وفى ط : « وبادروه العداوة » .

(٣) من الاختصار . وفى اللسان : « الاختصار فى الكلام أن تدع الفضول وتستوجز الذى يأتى على المعنى » .

(٤) ب ، م : « وأنقص » بالصاد المهملة .

(٥) ذلك ، من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ويبذلون » ب فقط : « مهجعهم » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) ب ، م : « ولم تقتلون أنفسكم » .

فدلَّ ذلك العاقلَ على أَنَّ أَمرهم فى ذلك لا يخلو من أَحد أمرين :

إمَّا أَن يكونوا عَرَفوا عجزهم ، وأَنَّ مثلَ ذلك لا يتهيَّأُ لهم ، فرأَوا أَن الإِضرابَ عن ذكره ، والتَّغافلَ عنه فى هذا الباب وإن قَرَّعهم به ، أَمثَل لهم فى التدبير ، وأَجْدَر[١] أَن لا يتكشَّفَ أَمرُهم للجاهل والضَّعيف ، وأَجدر أَن يَجدوا إلى الدعوى سبيلًا ، وإلى اختداع الأَنبياء سبباً ، فقد ادَّعَوا القُدرة بعد المعرفةِ بعجزِهم عنه ، وهو قوله عزّ ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا قالوا قد سَمِعْنا لَوْ نَشَاءُ لقُلْنَا مِثْلَ هذا[٢] ﴾ .

وهل يُذعِنُ الأَعرابُ وأَصحابُ الجاهليَّة للتَّقريع بالعجز[٣] ، والتَّوقيف على النقص ، ثم لا يبذلونَ مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونَهم[٤] وهم[٥] أَشدُّ خلق الله عز وجل أَنَفَةً ، وأَفرطُ حَمِيَّةً ، وأَطلبهُ بطائلة ، وقد سمِعوهُ[٦] فى كل مَنهلٍ ومَوقِف . والنَّاسُ مُوكَّلون بالخَطَابات ، مُولَعون بالبلاغات . فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غائباً فقد أَتاه به من لم يُزوِّده[٧] .

وإمَّا أَن يكونَ غيرُ ذلك .

ولا يجوز أَن يُطْبِقوا[٨] على ترك المعارضةِ وهم يقدرون عليها ،

---

(١) ب ، م : « وأحذر » ، تحريف ما فى ط .

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال .

(٣) ب ، م : « والأعراب وأصحاب الجاهلية التفريع بالعجز » . وصواب النص وتمامه فى ط .

(٤) ب ، م : « ثم لا يبذل مجهودها ويخرج مكنونها » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « وهو » .

(٦) ب ، م : « وقد سمعته » .

(٧) نظر إلى قول طرفة فى معلقته :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ب ، م : « يروده » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « أن يطيقوا » ، تحريف ما فى ط .

لأنَّه لا يجوز على العدد الكثير من العُقَلاء والدهاة والحُلَماء(١) ، مع اختلاف عِلَلهم ، وبُعْد هِممهم ، وشدَّة عداوتهم الإطباقُ على بذل الكثير ، وصَون اليسير .

وهذا من ظاهر التَّدبير ، ومن جليل الأُمور التى لا تَخفَى على الجُهَّال فكيف على العقلاء ، وأهل المعارف(٢) فكيف على الأَعداء ، لأَنَّ تحبير الكلام أَهْوَنُ من القِتال ، ومن إخراج المال .

ولم يُقَلْ(٣) : إنَّ القوم قد تركوا مساءَلته(٤) فى القرآن والطَّعنَ فيه ، بعد أَن كثُرت خصومتهم فى غيره .

ويدلُّك على ذلك قولهُ عزّ وجلَّ(٥) : ﴿ وقال الذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُملةً واحدةً(٦) ﴾ وقوله عز ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال الذين لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بقُرآنٍ غَيرِ هذا أَوْ بدِّلْه(٧) ﴾ ، وقوله تعالى جل ذكره : ﴿ وقال الذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افْترَاهُ وأَعانَهُ عليه قَومٌ آخرونَ(٨) ﴾ .

ويدلُّك كثرةُ هذه المراجَعةَ ، وطولُ هذه المناقلة ، على أَنَّ التقريع(٩) لهم بالعَجْز كان فاشياً ، وأَنَّ عجزَهم كان ظاهراً .

---

(١) ط فقط : « والحكماء » بالكاف . وانظر ما سبق فى ٢٧٥ .
(٢) ب ، م : « وعلى المعارف » ، تحريف مافى ط .
(٣) م ، ب : « ولم تقل » ، وأثبت مافى ط .
(٤) م : « مسايلته » ، وهى لغة جائزة فيها .
(٥) ذلك ، ساقطة من ب . وفى ب ، م : « عز ذكره » .
(٦) الآية ٣٢ من الفرقان . وفى م : « أنزل عليه » تحريف .
(٧) الآية ١٥ من يونس .
(٨) الآية ٤ من الفرقان .
(٩) م ، ط : « التفريع » ، صوابه فى ب .

ولو لم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَحدَّاهم بالنَّظرَ والتأْليف[١]، ولم يكن أَيضاً أَزاحَ عِلَّتهم، حتَّى قال تعالى: ﴿ قلْ فأْتُوا بعَشْر سُوَرٍ مثلِهِ مُفْتَرَيات[٢] ﴾ وعارِضُونى بالكذب، لقد كان فى تفصيله له وتركيبه، وتقديمه له واحتجاجه، ما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مَسَاويه.

ولو لم يكن تحدَّاهم من كلِّ ما قلنا، وقَرَّعهم بالعَجْز عمَّا وصفنا — وهلْ هذا[٣] إلَّا بمديحه له، وإكثاره فيه — لكان ذلك سبباً مُوجباً لمعارضَتِه ومُغالبته وطلبِ تكذيبه، إذْ كان كلامُهم هو سيِّدَ عملهم، والمئونةُ فيه أَخفُّ عليهم، وقد بَذَلوا النُّفوسَ والأَموال. وكيف ضاعَ منهم، وسَقَط على جماعتهم نيِّفاً وعشرين سنة، مع كَثْرةِ عددهم، وشِدَّة عُقولهم، واجتماعِ كلمتهم؟!

وهذا أَمرٌ جليلُ الرَّأْى، ظاهرُ التدبير[٤].

٤٠ — فصل منه فى ذكر امتناعهم من معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها[٥]

والذى مَنَعهم من ذلك هو الذى منع ابن أَبى العَوْجاءِ[٦]، وإسحاق بن

(١) ب، م: « والتأليف ».

(٢) الآية ١٣ من سورة هود. وبدلها لها فى ب، م: « فهاتوا مفتريات »، ويصح هذا الكلام لو لم يكن مسبوقاً بكلمة « تعالى ».

(٣) ب، م: « قل هذا ».

(٤) بعده فى ب: « لا يحمل من ابتداء القول فيه وساربه »، وفى م: « لحمل من ابتدأ القول فيه وساربه »، وهاتان العبارتان لم تردا فى ط.

(٥) ط: « فى كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لعجزهم عنها »، صوابه فى ب، م

(٦) هو عبد الكريم بن أبى العوجاء، من بنى عمرو بن ثعلبة بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة، وكان أحد الزنادقة، صلبه محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس بالبصرة. جمهرة ابن حزم ٣١٦. وكان خال معن بن زائدة، وجمع بين أربعة أنواع من الضلالة: كان يرى فى السردين المانوية من الثنوية، وكان يقول بالتناسخ، وكان يميل إلى رأى الرافضة فى الإمامة، والرابع قوله بالقدر فى أبواب التعديل والتجوير. الفرق بين الفرق ٢٥٥ — ٢٥٦.

طالوت[١]، والنعمان بن المنذرِ ،وأَشباهَهم من الأَرجاس ، الذين استبدلوا بالعزِّ ذُلاًّ ، وبالإيمان كُفْراً ، والسَّعادةِ شِقوةً[٢] ، وبالحجَّة شُبْهةً .

بل لا شُبْهة فى الزَّندقة خاصّة . فقد كانوا يَصنَعُون الآثار ، ويولِّدون الأَخبار ، ويبثُّونها فى الأَمصار ، ويَطعنون فى القرآن ، ويَسأَلون عن مُتشابهِ ، وعن خاصِّهِ وعامِّه[٣] ، ويضعون الكتبَ على أَهله . وليس شىءٌ ممَّا ذكرنا يستطيع دَفْعَه جاهلٌ غبىٌّ[٤] ، ولا معانِدٌ ذكىّ .

٤١ — فصل منه

ولمَّا كان أَعجبُ الأُمورِ عندقومِ فرعونَ السِّحرَ ، ولم يكن أَصحابُه قطُّ فى زمانٍ أَشدَّ استحكاماً فيه منهم فى زمانه ، بعث الله موسى عليه السلام على إبطالِه وتَوهينه ، وكشْفِ ضَعْفه وإظهاره ، ونقض أَصله[٥] لردع الأَغبياءِ من القوم[٦] ، ولمن نشأَ على ذلك من السّفلة والطَّغام . لأَنَّه لو كان أَتاهم بكلِّ شىءٍ ، ولم يأْتهم بمعارضة السِّحر حتَّى يفصل بين الحجّة والحيلة ، لكانت نفوسُهم إلى ذلك متطلِّعة ، ولَاعتلَّ به أَصحاب الأَشغاب[٧] ، ولشغلوا به بالَ الضَّعيف[٨] ، ولكن الله تعالى جدُّه ، أَراد حَسْم الداءِ ، وقَطْعَ المادة ، وأَن لا يجدَ المُبْطلون متعلَّقا ،

(١) يبدو أنه أحد الزنادقة ، ولم أجد له خبراً .

(٢) ب ، م : « شقاوة » ، وهما بمعنى ما يقابل السعادة . وفى التنزيل العزيز : « ربنا غلبت علينا شقوتنا » ، وقرأ ابن مسعود : « شقاوتنا » .

(٣) ب : « وعن خاصة وعامة » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ب : « عى » م : « غى » ، صوابهما فى ط .

(٥) ب فقط : « ونقص أصله » ، تحريف .

(٦) بدل هذا كله فى ب : « لأغبيا القوم » وفى م : « الأغنياء القوم »

(٧) الأشغاب : جمع شغب ، بالتحريك ، وهى لغة ضعيفة فى الشغب ، بالفتح ، وهو تهييج الشر . وفى ب : « الأشعاب » وفى ط : « الأشغال » ، وأثبت مافى م .

(٨) ب فقط : « باب الضعيف » .

ولا إلى اختداع الضُّعفاءِ سبيلًا[١] ، مع ما أعطى الله موسى عليه السَّلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .

وكذلك زَمنُ عيسى عليه السلام كان الأَغلبُ على أهله ، وعلى خاصّة علمائِه الطِّبَّ ، وكانت عوامُّهم تعظِّم على ذلك خواصَّهم ، فأَرسَله الله عزّ وجلّ بإحياءِ الموْتَى ، إذْ كانت[٢] غايتهم علاجَ المرضى . وأَبرأَ لَهُم الأَكمه[٣] إذْ كانت غايتهم علاجَ الرَّمِد[٤] ، مع ما أَعطاه الله عزّ وجلّ من سائر العلامات ، وضروبِ الآيات ؛ لأَنَّ الخاصَّة إذا بَخَعت بالطَّاعة[٥] ، وقهرتها الحجَّة ، وعَرفَتْ موضعَ العجز والقُوَّة ، وفَصْلَ ما بين الآيةِ والحيلة ، كان أَنجعَ للعامَّة ، وأَجدر[٦] أن لا يبقى في أَنفسهم بقيَّة .

وكذلك دَهْرُ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم ، كان أَغلبُ الأُمور عليهم ، وأَحسنُها عندهم ، وأَجلُّها في صدورهم ، حُسْنَ البيانِ ، ونَظْمَ ضروبِ الكلام ، مع عِلمهم له ، وانفرادِهم به . فحين استحكمت لفهمهم[٧] وشاعت البلاغةُ فيهم ، وكثُر شعراؤُهم ، وفاقَ النَّاسَ خطباؤُهم ، بعثَه الله عزّ وجلّ ، فتحدَّاهم بما كانوا لا يشكُّون أَنَّهم يقدرون على أَكثَرَ منه .

---

(١) ب ، م : « للضعفا سبيلا » .

(٢) ب فقط : « إذا كانت »

(٣) ب : « وإبرائهم الأكمه » تحريف . وفي ط : « وإبراء الأكمه » ، وأثبت مافي م . والأكمه : الذي يولد أعمى .

(٤) الرمد : وجع العين وانتفاخها ، وهو أرمد ورمد ، والأنثى رمداء . ب ، م : « الرمدى » ، صوابه في ط .

(٥) بخعت : خضعت وأقرت . وفي ط فقط : « نجعت » تحريف وانظر ما مضى في ص ٢٥٥ .

(٦) ب فقط : « واحدر » ، تحريف .

(٧) لفهمهم ، ساقطة من ب .

فلم يَزلْ يقرِّعهم بعجزِهم ، وينتقِصُهم على نَقْصهم(١) ، حتى تبيَّن ذلك لضعفائهم وعوامِّهم ، كما تبيَّن لأَقويائهم وخَواصِّهم . وكان ذلك من أَعجب ما آتاه اللهُ نبيًّا قطُّ(٢) ، مع سائر ما جاءَ به من الآيات ، ومن ضُروب البُرهانات .

ولكلِّ شيءٍ بابٌ ومَأْتًى ، واختصارٌ وتقريب . فمِن أَحكمِ الحكمة إرسالُ كلِّ نَبيٍّ بما يفحِمُ أَعجَبَ الأُمورِ عندهم(٣) ، ويُبْطِلُ أَقوى الأَشياء في ظَنِّهم .

٤٢ ــ فصل في ذكر أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

وآيةٌ أُخرى لا يَعرِفها إلَّا الخاصَّة ، ومتى ذكرتُ الخاصَّةَ فالعامَّةُ في ذلك مثلُ الخاصَّة . وهي الأَخلاق والأَفعال التي لم تجتمع لبشرٍ قطُّ قبلَه(٤) ، ولا تجتمع لبشَرٍ بعده .

وذلك أَنَّا لم نَرَ ولم نسمعْ لأَحدٍ قطُّ كصَبرِه ، ولا كحلمِه ، ولا كوفائه ، ولا كزُهده ، ولا كجُوده ، ولا كنجدته ، ولا كصدْقِ لهجتِه ، وكرم عِشْرتِه(٥) ، ولا كتواضُعه ، ولا كعِلمه ، ولا كحِفْظه ، ولا كصمتِه إذا صَمَت ، ولا كقوله إذا قال ، ولا كعجيب مَنشئِه(٦) ، ولا كقلَّة

---

(١) انتقصه واستنقصه : نسب إليه النقصان . ب ، م : « ينقفهم » ، ط : « ينقصهم » ، والوجه ما أثبت .

(٢) لفظ الجلالة ثابت في ط فقط .

(٣) أصل الإفحام الإسكات عن الجواب ، والمراد الفوق والغلبة . ب ، م : « يفهم » صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « لبشرى » في هذا الموضع وتاليه . وأثبت ما في ط . والبشر : الإنسان ، يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .وقد يجمع على أبشار ، ويثنى كما في قوله تعالى : « أنؤمن لبشرين مثلنا » .

(٥) العشرة : المخالطة والمصاحبة . وفي جميع النسخ : «عشيرته» ، صوابه ما أثبت . وأما عشيرة الرجل فهم بنو أبيه الأقربون وقبيلته .

(٦) ب ، م : « منشاه » .

تلوُّنه ، ولا كعَفوِهِ ، ولا كدوام طريقته ، وقلَّة امتنانه .

ولم نَجِد[١] شجاعاً قطُّ إلَّا وقد جال جَولةً ، وفرَّ فرّة ، وانحاز مَرّة ، من مَعدودِى شُجعان الإسلام ، ومشهورِى فُرْسان الجاهليَّة ، كفلان وفلان .

وبَعْدُ ، فقد نَصَرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهاجَرَ معه قومٌ ، ولم نر كنجدتهم نَجْدَةً ، ولا كصبرهم صبراً . وقد كانت لهم الْجَوْلةُ والفَرَّة[٢] ، كما قد بلغك عن يوم أُحد ، وعن يومِ حُنَين ، وغير ذلك من الوقائع والأَيَّام .

فلا يستطيع منافقٌ ولا زِنديقٌ ولا دُهرىٌّ ، أَنْ يحدِّث أَنَّ محمداً عليه السلام جال جَولةً قطُّ[٣] ، ولا فَرّ فَرّةً قطُّ ، ولا خَام عن غَزْوة ، ولا هابَ[٤] حَرْبَ من كاثره .

(١) ب ، م : « ولم تجد » بالتاء .
(٢) ب ، م : « والعزة » ، وليست مرادة هنا .
(٣) ب ، م : « فقط » فى هذا الموضع وتاليه ، والصواب فى ط .
(٤) ب ، م : « وهاب » .

٩

مِن كتابه في

خَلقِ القُرآن

١ – فصل من صدر كتابه فى خلق القرآن[(١)]

ثبَّتك الله بالحجَّة ، وحصَّنَ دينك من كلِّ شُبهة ، وتَوفَّاك مسلماً ، وجعلك من الشاكرين .

وقد أَعجبنى[(٢)] ، حفِظَك الله ، استهداؤُك العِلمَ وفهمُك له ، وشَغَفُك بالإنصاف وميلُك إليه ، وتعظيمُك الحقَّ ومُوالاتُك فيه ، ورغبتُك عن التَّقليد وزرايتُك عليه[(٣)] ، ومُواترةُ كُتُبِكَ على بُعْدِ دارِك ، وتقطُّعِ أَسبابِك ، وصَبْرُك إلى أوان الإمكان ، واتِّساعُك عند تَضايُقِ العُذْر .

وفهمتُ ، حفظك الله ، كتابَك الأَوّل ، وما حثثتَ عليه من تباذُل العِلْم[(٤)] ، والتَّعاونِ على البحث ، والتَّحابِّ فى الدين ، والنصيحةِ لجميع المسلمين .

وقلتَ : اكتبْ إلىّ كتاباً تَقْصِد فيه إلى حاجات النُّفوس ، وإلى صَلَاح القلوب ، وإلى مُعتَلِجات الشُّكوك ، وخواطر الشُّبهات ، دونَ الذى عليه أَكثرُ المتكلِّمين من التَّطويل ، ومن التعمُّقِ والتعقيد ، ومن تكلُّف مالا يجب ، وإضاعةِ ما يجب .

وقلت : كُنْ كالمعلِّم الرَّفيق ، والمعالج الشفيق ، الذى يعرف الداءَ وسببَه ، والدواءَ وموقعَه ، ويَصبِر على طُول العلاج ، ولا يَسْأَم كثرةَ التَّرداد .

---

(١) هذا العنوان ساقط من ط ، والكلام فيها متصل بما سبق . ومثل ذلك فيما نشره السندوبى فى رسائل الجاحظ ١٤٧ وهو مظنة النقل من ط .

(٢) ط : « قد أعجبنى » بطرح الواو .

(٣) ط فقط : « ودرايتك عليه » .

(٤) ب ، م : «وما حثيت عليه من تباذل العلم » .

وقلت : اجعلْ تجارتك التى إيَّاها تُؤمِّل ، وصناعتَك التى إيَّاها تعتمد — إصلاحَ الفاسدِ ، وردَّ الشَّارد .

وقلت : ولا بدَّ من استجماع الأُصول ، ومن استيفاءِ الفروع ، ومن حَسْمِ كلِّ خاطر ، وقَمْع كلِّ ناجم ، وصرفِ كلِّ هاجس ، ودفْعِ كلِّ شاغل ، حتى تتمكَّن من الحجّة(١) ، وتتهنَّأَ بالنعمة(٢) ، وتجد رائحةَ الكفاية ، وتَثْلَج ببرد اليقين ، وتُفْضِيَ إلى حقيقة الأَمر . إن كان لا بدَّ من عوارض العجز ، ولواحق التَّقصير ، فالبرُّ لها أَجمل(٣) ، والضرر علينا فى ذلك أَيسر .

وقلت : ابدأْ بالأَقرب فالأَقرب(٤) ، وبكلِّ ما كان آنقَ فى السَّمع ، وأَحلى فى الصَّدر ، وبالباب الذى منه يُؤتى الرَّيِّض المتكلِّف(٥) ، والجَسُورِ المتعجرف ، وبكلِّ ما كان أَكثَرَ علماً ، وأَنفذ كَيْدا .

وسأَلتنى بتقْبيح الاستبْداد(٦) ، والعجلةِ إلى الاعتقاد ، وصِفة الأَناة ومقدارِها ، ومقدِّمات العلوم ومنتهاها . وزعمتَ أَنَّ من اللفظ مالا يُفهَم معناه دون الإشارة ، ودونَ معرفة السَّبب والهيئة ، ودون إعادَته وكرِّه(٧) وتحريره واختيارِه(٨) .

---

(١) ب ، م : « حتى يتمكن من الحجة »

(٢) ب : « ويهنأ بالنعمة » ، م : « ويتهنأ بالنعمة » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب ، م : « فالفروع لها أجمل » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصول : « بالأخوف فالأخوف » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى ٢٩٣ س ١٠ .

(٥) أصله من الريض من الدواب ، وهو الذى لم يقبل الرياضة ولم يمهر المشية ولم يذل لراكبه ، فالمراد الذى يعسر التفاهم معه . ب ، ط : « المريض » م : « الربض » بالباء ، صوابهما ما أثبت .

(٦) ب ، م : « بتفتيح الاستنداد » ، ط : « بتفتيح الاستداد » ، والوجه ما أثبت .

(٧) ب ، م : « دون إعارته وكسوه » ط : « دون إعارته وركته » وبسقوط الواو منهما ، صوابهما ما أثبت . والكر : الإعادة ، يقال كر عليه الحديث : أعاده .

(٨) فى جميع النسخ : « وتحديده واحتيازه » ، تحريف ما أثبت .

وقلت : فإنْ أنت لم تصوِّر ذلك كلَّه صورة تُغْنى عن المشافهة ، وتكتفى بظاهرها عن المراسلة[١] ـ أَحوجْتَنا إلى لقائك ، على بُعْد دارك[٢] ، وكثرةِ أَشغالك ، وعلى ما تَخاف من الضَّيعة وفساد المعيشة .

فكتبت لك كتاباً ، أَجهدتُ فيه نفسى[٣] ، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلى فى الاحتجاج للقرآن ، والرَّدِّ على كلِّ طعَّان . فلم أَدَعْ فيه مسأَلةً لرافضىٍّ ، ولا لحديثى ، ولا لحُشْوىٍّ ، ولا لكافرٍ مُبادٍ ، ولا لمنافقٍ مقموع ، ولا لأَصحاب النَّظَّام ، ولمن نَجَمَ بعدَ النَّظَّام ، ممَّن يزعُم أَنَّ القرآن خَلْقٌ[٤] ، وليس تأْليفُه بحجَّة ، وأَنَّه تنزيلٌ وليس ببُرهان ولا دَلالة .

فلمَّا ظننت[٥] أَنِّى قد بلغت أَقصَى محبَّتك ، وأَتيتُ على معنى صفتك ، أَتانى كتابُك تذكر أَنَّك لم تُرد الاحتجاجَ لنظمِ القرآن ، وإنَّما أَردت الاحتجاجَ لخَلْق القرآن . وكانت مسأَلتك مبهمةً ، ولم أَكُ أَنْ أُحدثَ لك فيها تأْليفاً[٦] ، فكتبت لك أَشقَّ الكتابين وأَثقلهما ، وأَغمَضَهُمَا معنىً وأَطولَهما .

ولولا ما اعتللتَ به من اعتراض الرَّافضة ، واحتجاج القوم علينا بمذهب مُعمَّر[٧] ، وأَبى كَلَدة[٨] ، وعبد الحميد ، وثُمامة[٩] ، وكلِّ مَنْ

(١) ط فقط : « المرسلة » .
(٢) م فقط : « بد دارك » ، تحريف .
(٣) ب ، م : « أجتهد فيه نفسى » ، صوابه فى ط .
(٤) خلق ، أى مخلوق . وفى جميع النسخ : « حق » .
(٥) ب فقط : « فما ظننت » .
(٦) فى جميع النسخ : « تأليفه » ، والوجه ما أثبت .
(٧) معمر بن عباد السلمى ، صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة . الملل ١ : ٨٣ / ٢ : ١٦ والمواقف ٦٢٣ والفرق بين الفرق ١٣٦ . وهو بتشديد الميم كما فى لسان الميزان ٦ : ٧١ .
(٨) أبو كلدة : ذكر الجاحظ بعض آرائه فى الحيوان ١ : ٣/٢٣٤ : ٣٩٥ / ٤ : ٣٣٢ .
(٩) ثمامة بن أشرس : أحد المعتزلة البصريين . ورد بغداد واتصل بهارون وغيره من الخلفاء . وله أخبار ونوادر يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد . تاريخ بغداد ٧ : ١٤٥=

زعَم أَنَّ أَفعال الطَّبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة ، وأَنَّ متكلِّمى الحَشْوِيَّة(١) والنابتة قد صار لهم بمناظرة أَصحابنا ، وبقراءة كُتبنا بعض الفطنة ــ لمَاَ كتبتُ لك ، رغبةً بك عن أَقدارهم ، وضَنًّا (٢) بالحكمة عن إعثارهم(٣) ، وإنَّما يكتب على الخصوم والأَكْفاء(٤) ، وللأَولياء على الأَعداءِ ، ولمن يرى(٥) للنَّظر حقًّا ، وللعلم قَدْراً ، وله فى الإِنصاف مذهبٌ ، وإلى المعرفة سبب .

وزعمتَ أَنَّك لم تر فى كتُب أَصحابنا إلَّا كتاباً لا تفهمُه ، أَو كتاباً وجدتَ الحجَّة على واضعِ الكتابِ فيه أَثْبَت .

وقلت : وإيَّاك أَن تتَّكل على مقدارِ ما عِندهم ، دون أَن تعتصر (٦) قُوَى باطلهم ، وتوفِّيَهم جميعَ حقوقهم ، وإذا تقلَّدتَ الإِخبار عن خَصْمك فحُطْه كحياطتك لنفسك ، فإِنَّ ذلك أَبلغُ فى التَّعلم ، وآيَسُ(٧) للخُصوم .

= وانظر البيان : ١٠٥ وعيون الأخبار ٣ : ٣٧ وتأويل مختلف الحديث ٦٠ والفرق ١٥٩ ولسان الميزان ٢ : ٨٤ .

(١) الحشوية : بفتح الشين وسكونها ، فبالسكون نسبة إلى الحشو ، وبالفتح نسبة إلى الحشا ، لأن الحسن البصرى أمر بردهم إلى حشا الحلقة ، أى جانبها ، وهم طائفة اختلف العلماء فى تعريفها . فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ يذكر فى تأويل مختلف الحديث ص ٩٦ أنها من الألقاب التى كان أهل الحديث يلقبون بها . قال : « وقد لقبوهم بالحشوية والنابتة والمجبرة » . وقال النوبختى فى كتاب فرق الشيعة ص ٧ : « والبترية أصحاب الحديث منهم سفيان بن سعيد الثورى ، وشريك بن عبد الله ، وابن أبى ليلى ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، ومالك بن أنس ، ونظراؤهم من أهل الحشو والجمهور العظيم . وقد سموا الحشوية . ويطلقون هذا اللفظ أيضاً على « المشبهة » الذين يشبهون الله بخلقه وكذا على المجسمة . انظر شفاء الغليل ٧١ . وفى ب ، م : « الحشوة » ، صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « وظنا » ، صوابه فى ط .

(٣) أعثره على الأمر : أطلعه عليه . وفى التنزيل العزيز : « وكذلك أعثرنا عليهم » ، أى أطلعنا .

(٤) ب فقط : « عن الخصوم والأكفاء » .

(٥) ب ، م : « لمن يرى » بسقوط الواو .

(٦) ب ، م : « تقتصر » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « وأأيس » .

وقلتَ : وزعموا أنَّه يلزُمك أن تزعم أنَّ القرآن ليس بمخلوقٍ إلَّا على المجاز ، كما ألزم ذلك نَفْسه[١] معمَّر وأبو كَلدة وعبدُ الحميد وثُمامة ، وكلُّ مَن ذَهَب مذهبَهم ، وقاس قياسَهم .

فتفهَّمْ ـ فهَّمك الله ـ ما أنا واصفُه لك ، ومُوردُه عليك[٢] :

اعلم أنَّ القوم يلزمهم ما ألزمُوه أنفسَهم ، وليس ذلك إلَّا لعجزهم عن التخلُّص بحقِّهم ، وإلَّا لذَهابهم عن قواعد قولهم[٣] ، وفرُوع أُصولهم، فليس لك أن تضيف العجز الذى كان منهم إلى أصل مقالتهم ، وتحمل ذلك الخطأَ على غيرهم[٤] . فلرُبَّ قولٍ شريفِ الحسب ، جيِّد المُركَّبِ ، وافرِ العِرض ، برىءٍ من العُيوب، سليمٍ من الأَفْن ، قد ضيَّعه أَهلُه ، وهجَّنه المفْتَرون عليه ، فألزموه مالا يلزُمه ، وأضافوا إليه مالا يجوز عليه .

ولو زعم القومُ على أَصل مقالتهم أنَّ القرآن هو الجسم دونَ الصَّوت والتقطيع ، والنَّظم والتَّأْليف ، وأنَّه ليس بصوتٍ ولا تقطيع ولا تأْليف ، إذْ كان الصوت عندهم لا يُختَرع كاختراع الأَجسام المصوَّرة[٥] ، ولا يحتمل التَّقطيع كاحتمال الأَجرام المتجسِّدة ، والصَّوتُ عَرَضٌ ، لا يحدث من جوهرٍ إلَّا بدخولِ جوهرٍ آخَرَ عليه ، ومحالٌ أن يَحدُثَ إلَّا وهناك جِسمانِ قد صكَّ أَحدُهما صاحبَه ، ولا بدَّ من مكانين : مكانٍ زال عنه ، ومكانٍ آل إليه . ولا بد من هواءٍ بين المُصْطكَّين . والجسمُ قد يحدُثُ وحدَه ولا شيء غيره ، والصَّوت على خلافِ ذلك .

---

(١) ط فقط : « لنفسه » .
(٢) ط فقط : « ومورد عليك » .
(٣) ب ، م : « عواقب قولهم » .
(٤) ب ، م : « ولحمل » تحريف . وفى م أيضاً : « الحظا » تحريف .
(٥) ب ، م : « المصوبة » ، صوابه فى ط .

والعرض لا يَقُوم بنفْسه ، ولا بدَّ من أَنْ يقومَ بغيره ، والأَعراض من أَعمال الأَجسام ، لا تكون إِلَّا منها ، ولا تُوجد إِلَّا بها وفيها[(١)] . والجسم[(٢)] لا يكون إِلَّا من جسم ، ولا يكون إِلَّا مِنْ مخترع الأَجسام . وليست لكون الجسمِ من الله عِلَّةٌ توجبه ، ولا يَحدُث إِذَا حدثَ إِلَّا اختياراً ، وإِلَّا ابتداعاً واختراعاً . والصَّوت لا يكون إِلَّا عن علَّةٍ موجبة ، ولا يكون إِلا تولُّداً ونتيجةً ، ولا يحدُث إِلَّا من جرمَين ، كاصطكاك الحجَرين ، وكقَرْع اللِّسان باطن الأَسنان ، وإِلَّا من هواءٍ يَتَضاغط[(٣)] ، وريح تختنق[(٤)] ، ونارٍ تلتهب . والرِّيح عندهم هواءٌ تحرَّك ، والنَّار عندهم ريحٌ حارّة . هكذا الأَمرُ عندهم .

فلو قالُوا : لا يكون الشيءُ مخلوقاً فى الحقيقة ، دون المجازِ وعلى مجازىِّ اللغة ، إِلَّا وقد بانَ الله عز وجلَّ باختراعه ، وتولَّاه بابتداعه ، وكان منه على اختيارٍ ، والابتداعُ[(٥)] : الذى يمكن تَركُه وإِنشاءُ عَقِيبه بدلًا منه ، على ما كان يوكِّده[(٦)] ، ونتيجتُه من أَجسامٍ يستحيل أَن يُخلَق من أَفعالها ، ويَجلبها الله تعالى منها[(٧)] .

والقرآن على غيرِ ذلك ، جسمٌ وصوت ، وذو تـأْليفٍ وذو نظم ، وتوقيعٍ وتقطيع ، وخلقٌ قائمٌ بنفسه ، مستغنٍ عن غيره ، ومسموع فى الهواء[(٨)] ، ومرئىٌّ فى الوَرَق ، ومفصَّل وموصَّل ، واجتماعٌ وافتراق ،

(١) ب ، م : « لايكون » و « ولايوجد » بالياء فيهما ، والصواب من ط .
(٢) ب فقط : « من الجسم » ولا وجه له .
(٣) ب ، م : « والأمر هواء يتضاغط » ، تحريف .
(٤) ب : « تحيق » ، م « تخنيق » محرف .
(٥) ب : « والابتدا » ، صوابه فى م ، ط .
(٦) ب : « بولده » م : « تولده » ، وأثبت مافى ط .
(٧) م : « ويجعلها » ط : « ويحلها » ، وأثبت مافى ب .
(٨) ب ، ط : « فى الهوى » ، صوابه فى م .

ويحتمل الزِّيادة والنُّقصان ، والفَنَاءَ والبَقَاءَ ، وكلّ ما احتملتْهُ الأَجسام ، ووُصِفَتْ به الأَجرام . وكلُّ ما كان[١] كذلك فمخلوقٌ فى الحقيقة دون المجاز وتوسُّعِ أَهلِ اللغة .

فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أَصابوا فى القياس ، ووافَقُوا أَهلَ الحقِّ ، وكانوا مع الجماعة ، ولم يُضَاهُوا أَهل الخِلاف والفُرْقة ، ولم يَصِموا أَنفسَهم[٢] بقول المشبِّهة ، إِذْ كان ظاهر قولهم على التَّشبيه أَدلَّ ، وبه أَشبه .

ولا يجوز أَن أَذكر موافقىّ لهم ، ومخالفىّ عليهم فى صدرِ هذا الكتاب ، لأَنَّ التدبير فى وضع الكتاب ، والسياسةَ فى تعليمِ الجهّال أَن يُبدَأَ بالأَوضح فالأَوضح ، والأَقرب فالأَقرب ، وبالأُصولِ قبلَ الفروع ، حتَّى يكون آخر الكتاب لآخر القياس .

وآخِرِ الكلام لا يفهم ــ أَرشدك الله ــ ولا يُتوهَّم إِلَّا على ترتيب الأُمور ، وتقدِيمِ الأُصول . فإِذا رتَّبنا الأُمورَ ، وقدَّمْنا الأُصولَ صارت أَواخرُ المعانى فى الفهم كأَوائلها ، ودقيقُها كجليلها[٣] .

٢ ــ فصل منه

وقد علمْنا أَنَّ بعض ما فيه الاختلافُ بين من ينتحل الإِسلام أَعظَمُ فِريَةً[٤] ، وأَشدُّ بليَّةً ، وأَشنَعُ كُفراً ، وأَكبرُ إِثماً مِن كثيرٍ ممَّا أَجمعوا على أَنَّه كفر .

---

(١) ب ، م : « وكلما كان » خطأ كتابى . وفى ط : « كل ما » بدون واو .

(٢) فى جميع النسخ : « ولم يفهموا أنفسهم » .

(٣) ط فقط : « ورقيقها كجليلها » ، تحريف .

(٤) الفرية ، بكسر الفاء : الاسم من الافتراء ، وهو الاختلاق والكذب . ب فقط : « قرية » محرف .

وبعدُ ، فنحن لم نكفِّر إلَّا مَن أَوسعناهُ حُجّة ، ولم نَمْتحِنْ إلَّا أهل التُّهمَة ، وليس كشف المتّهم من التَّجسُّس(١) ، ولا امتحان الظَّنين مِن هَتْك الأَستار . ولو كان كلُّ كشفٍ هَتْكاً ، وكلُّ امتحان تَجَسُّساً(٢) ، لكان القاضى أهتكَ النَّاسِ لِسترٍ ، وأشدَّ الناسِ كشفاً لعورة .

والذين خالفوا فى العَرْش إنّما أرادوا نَفْىَ التشبيه فَغَلِطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان(٣) إنَّما كرهوا أنْ تكون الأَعمال أَجساماً وأجراماً غلاظاً . فإنْ كانوا قد أَصابوا فلا سبيلَ عليهم ، وإن كان قد أخطئوا فإنَّ خطأَهم لا يتجاوزُ بهم إلى الكفر . وقولُهم وخِلافُهم بَعْدَ ظهورِ الحجّة تشبيهٌ للخالق بالمخلوق(٤) ، فبينَ المذهبينِ أَبْيَنُ الفَرْق(٥) .

وقد قال صاحبُكم للخليفة المعتصم ، يومَ جَمَعَ الفقهاءَ والمتكلِّمين والقُضاةَ والمخلصين ، إعذاراً وإنذاراً : امتحنتَنى وأنتَ تعرف ما فى المِحْنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتَنى من بين جميعِ هذه الأُمّة ! قال المعتصم : أَخطأْتَ ، بل كذبت ، وجدتُ الخليفةَ قبلى قد حَبَسَك وقيَّدك ، ولو لم يكن حَبَسك على تُهمَة لأَمْضَى الحكم فيك ، ولو لم يَخَفْكَ على الإسلام ما عَرَض لك ، فسؤالى إيَّاكَ عن نَفْسك ليس من المِحْنة ، ولا من طريق الاعتساف(٦) ، ولا من طريق كَشْف العورة ، إذْ كانت حالُكَ هذه الحالَ ، وسبيلُكَ هذه السَّبيل .

وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : أَلَا تَبعث إلى أَصحابه حتَّى يشهدوا إقراره ، ويُعايِنُوا انقطاعَه ، فينقُضَ ذلك استبصارُهم ، فلا يمكنَه

---

(١) م : « من التحسس » ، وهما بمعنى ، وبه فسر قوله تعالى : « ولا تجسسوا » .
(٢) م : « تحسسا » . وانظر الحاشية السابقة .
(٣) ب ، م : « والذين أنكروا معناكم فى الميزان » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٤) ب ، م : « لخلق بالمخلوق » ، والصواب من ط .
(٥) ب : « المفرق » ، تحريف ما أثبت من م ، ط .
(٦) ولا من طريق الاعتساف ، ساقط من م .

جَحْدُ ما أقرَّ به عندهم(١)؟ فأَبَى أن يقبل ذلك، وأنكره عليهم، وقال: لا أُريد أنْ أُوتَى بقوم إن اتَّهمتُهم مُيِّزْتُ فيهم بسيرتى فيهم(٢)، وإنْ بانَ لى أمرُهم أنفذْتُ حُكْمَ الله فيهم، وهم ما لم أُوتَ بهم(٣) كسائر الرعيَّة، وكغيرهم من عوام الأُمّة، وما من شىءٍ(٤) أَحبَّ إلىّ من السَّتر، ولا شىءَ أولى بى من الأَناة والرِّفق.

وما زال به رفيقاً، وعليه رقيقاً، ويقول: لأَنْ أَستحيِيَكَ بحقٍّ أَحبُّ إلىَّ من أن أَقتلك بحقٍّ! حتَّى رآه يُعاند الحجة، ويَكذِب صُراحاً عند الجواب. وكان آخر ما عانَدَ فيه، وأَنكر الحقَّ وهو يراه، أنَّ أَحمد بنَ أَبى دُوَادٍ(٥) قال له: أَليس لا شىءَ إلَّا قديمٌ أَو حديث؟ قال: نعم. قال: أَوَ ليس القرآنُ شيئاً؟ قال: نعم. قال: أَو ليس لا قديمَ(٦) إلَّا الله؟ قال: نعم. قال: فالقرآنُ إذاً حديث؟ قال: ليس أَنا متكلِّم(٧).

وكذلك كان يَصنَع فى جميع مسائله، حتَّى كان يجيبه فى كلِّ ما سأَل عنه، حتى إذا بلغ المُخَنَّق(٨)، والموضِعَ الذى إنْ قال فيه كلمةً واحدة بَرِئَ منه أَصحابه قال: ليس أَنا متكلِّم!

---

(١) ب، م: «جحدها أقربه عندهم»، صوابه فى ط.
(٢) ب، م: «فيه».
(٣) ب، م: «مالم أوتى بهم»، صوابه فى ط.
(٤) م، ط: «وما شىء».
(٥) فى جميع النسخ: «أبى داود»، تحريف.
(٦) ب: «أوليس ألا قديم».
(٧) كذا فى جميع الأصول، فى هذا الموضع وتاليه فى آخر هذه الصفحة.
(٨) فى اللسان: «يقال بلغ منه المخنق، وأخذت بمخنقه، أى موضع الخناق. وأنشد ابن برى لأبى النجم:

* والنفس قد طارت إلى المخنق *».

وفى م، ط: «المختنق»، تحريف.

فلا هو قال فى أَوّل الأَمر : لا علمَ لى بالكَلَام ، ولا هو حين تكلَّم فبلغ موضعَ ظُهور الحجَّة(١) ، خَضَع للحقَّ . فمقتَه الخليفةُ ، وقال عند ذلك : أُفٍّ لهذا الجاهل مَرّة ، والمُعانِد مرَّة .

وأَمَّا الموضع الذى واجَهَ فيه الخليفةَ بالكذب ، والجماعةَ بالقِحَة(٢) ، وقلةِ الاكتراث وشدَّة التَّصميم ، فهو حين قال له أَحمدُ بنُ أَبى دُوَاد(٣) : تزعم أَنَّ الله ربُّ القرآن ؟ قال : لو سمعتُ أَحداً يقول ذلك لقُلت . قال : أَفَمَا سمعتَ ذلك قطُّ من حالفٍ(٤) ولا سائل ، ولا من قاصٍّ ، ولا فى شعرٍ ، ولا فى حديث ؟ !

قال : فعرف الخليفة كذِبه عند المسأَلة ، كما عرف عُنُوده(٥) عند الحجَّة .

وأَحمد بن أَبى دُواد(٦) ــ حفظَك الله ــ أَعلمُ بهذا الكلام ، وبغيره من أَجْناسِ العلم ، من أَن يجعل هذا الاستفهام مسأَلة ، ويعتمدَ عليها فى مثل تلك الجماعة . ولكنَّه أَراد أَن يكشف لهم جُرْأَته(٧) على الكذب ، كما كشف لهم جرأَته(٨) فى المعاندة . فعند ذلك ضربَه الخليفة .

وأَيَّةُ حجَّةٍ لكم فى امتحاننا إِيّاكم ، وفى إِكفارنا لكم .

وزعَم يومئذٍ أَنَّ حكم كلام الله كحكم علمه ، فكما لا يجوز أَن

(١) ب ، م : « ظهور الحجة والحجة » .
(٢) القحة : الوقاحة . ب فقط : « بالخلقحة » ، تحريف .
(٣) فى جميع النسخ : « داود » ، تحريف .
(٤) ط ، م : « خالف » بالخاء المعجمة .
(٥) العنود والعناد : الميل عن الحق . ط فقط : « عناده » .
(٦) فى جميع النسخ : « داود » .
(٧) ب : « جراءته » ، وأثبت مافى م ، ط .
(٨) ب ، م : « جراءته » ، وأثبت مافى ط .

يكون علمُه مُحدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً مُحْدثاً . فقال له : أليس قد كان الله يقدر أن يبدِّل آيةً مكان آية ، ويَنْسَخَ آيةً بآية ، وأن يَذهَب بهذا القرآن ، ويأْتىَ بغيره ، وكلُّ ذلك فى الكتاب مَسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا فى العلم ، وهل كان جائزاً أنْ يبدِّل الله علمه ، ويذهب به ، ويأْتى بغيره ؟ قال : ليس [1] .

وقال له : رَوَيْنا فى تثبيت ما نقول [2] الآثارَ ، وتَلَوْنا عليك الآيةَ من الكتاب ، وأريناك الشَّاهدَ من النُّقُول [3] التى بها لزمَ النَّاسَ الفرائضُ ، وبها يَفْصلون بين الحقِّ والباطل ، فعارضْنا أنت الآنَ بواحدةٍ من الثلاث . فلم يكن ذلك عنده ، ولا استخْزَىمن الكذب عليه فى غيرِ هذا المجلس [4] ، لأَنَّ عدَّةَ مَنْ حضره أكثرُ من أن يُطمع أحداً أنْ يكون الكذبُ يجوز عليه . وقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تقيَّةَ إلَّا فى دار الشِّرك . فلو كانَ ما أَقَرَّ به من خَلْق القرآن كان منه على وجه التقيَّةِ فقد أعمل التقيَّة [5] فى دار الإسلام ، وقد أكذب نفسه . وإنْ كان ما أَقرَّ به على الصحَّة والحقيقة فلستم منه ، وليس منكم . على أنَّه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضُرِب ضرباً كثيراً ، ولا ضُرِبَ إلَّا ثلاثين سوطاً مقطوعة الثِّمار [6] ، مشعَّثة الأَطراف [7] ، حتَّى أفصح بالإقرار مراراً . ولا كانَ فى مجلسٍ

(١) ط : « قال : لا » .
(٢) ط فقط : « تقول » بالتاء ، محرف .
(٣) فى جميع النسخ : « العقول » .
(٤) ب ، م : « ولا استخرنا الكذب عليه » ، صوابه فى ط . وفى ط : « فى هذا المجلس » ، صوابه فى ب ، م .
(٥) ط فقط : « فقد أعملها » .
(٦) ثمرة السوط : عقدة طرفه . وفى حديث الحد : « فأتى بسوط لم تقطع ثمرته » .
(٧) ط : « مشعبة الأطراف » . وتشعيث الشيء : تفريقه .

ضيِّق ، ولا كانت حالَهُ حالٌ مُؤْيسة ، ولا كان مُثْقلًا بالحديد ، ولا خُلِع قلبُه بِشدَّة الوعيد . ولقد كان يُنَازَعُ بأَلْيَنِ الكلام ، ويُجيب بأَغلظ الجواب ، ويَرْزُنون ويَخفُّ ، ويَحْلمُون ويطيش (١) .

وعبتم علينا إكفارنا إيَّاكم ، واحتجاجَنا عليكم بالقرآن والحديث . وقلتم : تُكْفِروننا على إنكار شيءٍ يحتمله التأْويل (٢) ، ويثبُت بالأَحاديث ، فقد ينبغى لكم أَن لا تحتجُّوا فى شيءٍ من القَدَر والتَّوحيد بشيءٍ من القرآن ، وأَنْ لا تُكْفِروا أَحداً خالفكم فى شيءٍ وأَنتم أَسرعُ النَّاسِ إلى إكفارنا ، وإلى (٣) عداوتنا والنَّصْبِ لنا .

٣ — فصل منه

وأَصحابنا — حفِظك الله — إذا قاسوا خَطأَهم ، ومَرُّوا على غَلَطهم فإنَّما ينقُضون به شَيئاً من العَرَض والجوهر ، وشيئاً من قولهم فى المعلوم والمجهول فقط . وهم قومٌ يكفيهم من التنبيه (٤) أَقلُّه ، ومن القول أَيسرُه . وخطأُ النَّابتة وقولُ الرَّافضة تشبيهٌ مصرِّح ، وكُفر مُجلِّح (٥) ، فليس هذا الجنسُ من ذلك الجنس . والحمد لله .

وأَمَّا إخبارهم عن عيبنا إيَّاهم حين لم يقولوا : إنَّ الله تعالى ربُّ القرآن ، وفينا من يقول : إنَّ الله تبارك وتعالى ربُّ الكفرِ والإيمان ،

---

(١) ب فقط : « ويحملون » ، صوابه فى م ، ط .

(٢) ط : « يحتمل التأويل » .

(٣) ب فقط : « أو إلى » .

(٤) فى جميع النسخ : « التنبه » ، والوجه ما أثبت .

(٥) يقال صرح الشيء ، إذا كشف عنه وأظهره ، وصرح هو إذا انكشف ، ومنه قول شهل بن شيبان فى الحماسة ٣٤ :

فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان

والمجلح ، بالبناء للفاعل أيضاً : الجرىء ، وهو من التجليح ، وهو الإقدام على الشر وتكشيف العداوة وتصريحها ، كما فى أساس البلاغة .

فإنّا لم نسألهم[١] عن ذلك من جهة ما يتوهَّمون ، وإنَّما سألناهم عنه بجحدهم ما يَرَوْنَ بأبصارهم ، ويَسمعون بآذانهم ، فى الأشعار المعروفة ، وفى الخطب المشهورة ، وفى الابتهال[٢] عند الدُّعاء ، وعلى ألسنة العوامّ والدَّهماء[٣] ، وعندَ العُهود والأَيمان ، وعند تعظيم القرآن ، وبما يسمعون من السُّؤّال فى الطُّرُقات ، ومن القُصَّاص فى المساجد ، لا يَرَوْن عائباً[٤] ، ولا يسمعون زاريا[٥] . وليس أنَّا جعلنا هذا مسألةً على من أنكر خَلْقَ القرآن ، ولكنَّا أردنا أن نبيِّن للضُّعفاءِ معاندتهم ، وفِرَارهم من البَهْت ، ومكابرتَهم إذا سمعوا أنَّهم لم يسمعوا النَّاسَ يقولون : وربِّ القرآنِ ، وربِّ ياسين ، وربِّ طه ، وأشباهَ ذلك .

ولعمرى أنْ لو سمعوا النَّاس يقولون عند أيمانهم وابتهالهم إلى ربِّهم ، على غير قصدٍ إلى خلافٍ ولا وِفاق : وربِّ الزِّنى والسَّرَق[٦] ، وربِّ الكفرِ والكذب ، كما سمعوهم يقولون[٧] : وربِّ القرآنِ ، وربِّ يٓس ، وربِّ طٰه ! ثم ألزمناهم خَلْقَ القُرآن بمثل ما لهم علينا فى خَلْق الزِّنى — لقد كان ذلك معارضة صحيحة[٨] ، وموازنة معروفة .

وأمَّا قولهم : إنَّ معنا العامَّةَ ، والعُبَّادَ ، والفقهاءَ ، وأصحابَ الحديث ، وليس معهم إلَّا أصحابُ الأهواء ، ومن يأْخذ دينَه من أوّل

(١) ب : « نسالم » ، صوابه فى ب ، ط .
(٢) ب ، م : « وفى ابتهال » .
(٣) والدهماء ، ساقطة من ط .
(٤) م ، ط : « غائباً » بالغين المعجمة ، صوابه فى ب .
(٥) زرى عليه وأزرى : عاب . وفى ب : « زاويا » صوابه فى م ، ط .
(٦) السرق ، بالتحريك ، وككتف : السرقة . وفى ط : « والسرقة » وفى ب : « ورب السرقة » .
(٧) ب ، م : « كما سمعوا وهم يقولون » ، وأثبت مافى ط .
(٨) ب : « معاوضة صحيحة » .

الرِّجال(١) ، فأَىُّ صاحبٍ هو – يرحمك الله – أَبعد من الجماعة من الرَّافضة ، وهم فى هذا المعنى أَشقَّاؤهم(٢) وأَولياؤُهم ، لأَنَّ ما خالفوهم فيه صغيرٌ فى جَنْبِ ما وافقوهم عليه ، والذين سمَّوهم أَصحابَ أَهواءٍ هم المتكلِّمون ، والمصلحون والمستصلحون ، والمميِّزون(٣) . وأَصحاب الحديثِ والعوامُّ هم الذين يقلِّدون ولا يحصِّلون ، ولا يتخيَّرون ، والتقليد مرغوب عنه(٤) فى حجَّة العقل ، منهىٌّ عنه فى القرآن(٥) ، قد عكسوا الأُمور كما ترى ، ونَقَضوا العادات . وذلك أَنَّا لا نشكُّ أَنَّ من نظر وبحث ، وقابل ووازن(٦) ، أَحقُّ بالتبيُّن ، وأَولى بالحجَّة .

وأَمَّا قولهم : منَّا النُّسَّاك والعُبّاد ، فعُبَّاد الخوارج وحدهم أَكثر عدداً من عبّادهم ، على قلَّة عدد الخوارج فى جنب عَدَدهم ، على أَنَّهم أَصحاب نِيَّة(٧) ، وأَطيب طعمة(٨) ، وأَبعد من التكسُّب ، وأَصدقُ ورعاً ، وأَقل رياءً(٩) ، وأَدوم طريقةً ، وأَبذل للمُهْجة ، وأَقلُّ جمعاً ومَنْعا ، وأَظهر زُهداً وجَهْداً . ولعلّ عبادةَ عَمْرِو بن عُبيدٍ تَفِى بعبادة عامَّة عُبَّادِهم .

وأَمَّا قولهم : إنَّ للقرآن قلباً وسَنَاماً ولِساناً وشَفتَين ، وأَنَّه يقدِّس ويَشْفع ويَمْحَل(١٠) ، فإِنَّ هذا كلَّه قد يجوز أَن يكون مَثَلا ، ويجوز أَن

---

(١) ب ، م : « من أدل الرجال » .
(٢) فى جميع الأصول : « أشقياؤهم » ، والوجه ما أثبت .
(٣) والمميزون ، ساقط من ط .
(٤) ب ، م : « عليه » ، صوابه فى ط .
(٥) ط فقط : « فى القراب » ، تحريف .
(٦) ط : « ووزن » ، تحريف .
(٧) ب : « بنة » ، تحريف .
(٨) الطعمة ، بالضم : وجه المكتسب . وبالكسر : السيرة فى الأكل .
(٩) هذا مافى ب . وفى م : « رأيا » ، وفى ط : « زيا » .
(١٠) التقديس : التطهير والتبريك . ومنه الأرض المقدسة . ويمحل ، أى يمحل بصاحبه ، إذا لم يتبع مافيه وإذا هو ضيعه ، أى يعرضه للهلكة . وفى الحديث عن ابن مسعود : « إن هذا القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق » . وانظر اللسان (محل ١٤١) .

يجعله الله كذلك إذا كان جِسْمًا ، والله على ذلك قادر ، وهو له غير مُعجِز ، ومنه غير مستحيل . وكلُّ فعل لا يكون عيباً ، ولا ظلماً ولا بخلًا ولا كذباً ، ولا خطاءً[1] فى التَّدبير ، فهو جائز ، والتعجب منه غيرجائز .

٤ ــ فصل منه

وما أَكثَرَ من يُجِيب فى المسائل ، ويؤلِّف الكتب على قَدْر ما يَسنح له فى وهمه ، وعلى قدر ما يتصوَّر له فى حاله تلك ، لا يعمل على أَصلٍ[2] ، أَوْ لا يشعُر[3] بالذى انبنَى عليه ذلك الأَصل[4] ، وإن كان ممَّن يعمل على أَصل .

وإنَّما صار علماؤنا إلى ما صاروا إليه لأَنَّهم لا يَقفون من القول فى خَلْق القرآن على جوابٍ مهذَّب ، ومذهبٍ مصفًّى ، وعلى قولٍ مفروغ منه ، وعلى جواباتٍ بأَعيانها . فقد ردَّدوا فيها النَّظر ، وامتحنوها بأَغلظ المِحَن ، وقلَّبوها أَكثر التقليب[5] ، وتبطَّنوا معانيَها بأَبلغ التَّفكير ، وتعرفوا كلَّ ما فيها ، واعتصروا جميعَ قُواها ، وسهَّلوا سُبلَها ، وذلَّلوا العبارة عنها[6] ، احتقاراً منهم لمن خالفهم ، واتِّكالًا على طول السَّلامة منهم ، وثقةً بطول الظَّفَر بهم .

ومن تمامِ أَمرِ صاحب الحقِّ أَن لا يتَّكل على عَجْز الخصم ، وأَنْ لا يُعْجَبَ بظهورهِ[7] على مَنْ لاحظَّ له فى العِلم .

---

(١) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . ط فقط : « خطأ » .
(٢) ط : « على أصله » .
(٣) فى الأصول : « ولا يشعر » ، وجهه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « فى الذى عليه ذلك الأصل » ، صوابه فى ط .
(٥) ط : « وقلبوها » فقط .
(٦) ط : « وذبوا العناد عنها » ب : « وذللوا العبادة عنها» ، صوابه فى م .
(٧) ظهر عليه : غلبه . ب ، م : « بظهور » ، وأثبت مافى ط .

وعلى العلماءِ أَنْ يخافوا دُوَلَ العِلْم(١) ، كما يخافُ الملوك دول المُلْك . وقد رأَيت البَكْرِيَّة(٢) ، والجَبْرِيَّة ، والفَضْليَّة(٣) ، والشَّمريَّة(٤) وإنَّهم لَأَحَقُر عند المعتزلةِ من جُعَل(٥) مما زالوا يستقُّون(٦) من علمائهم ، ويستمدُّون من كبرائهم ، ويَدْرُسون كتبهم ، ويأْخذون أَلفاظهم فى جميع أُمورهم ،حتَّى رأَيت شَبِيبَتَهُم ونابتتهم(٧) ، يَدَّعون أَنَّهم أَكْفَاءُ ، ويجمع بينهم فى البَلَاء . والنَّابتة اليوم فى التشبيه(٨) مع الرَّافضة ، وهم دائبُون(٩) فى التألُّم من المعتزلة . غدرهم كثير(١٠) ، ونَصْبُهم شديد ، والعوامُّ معهم ، والحشو يُطيعهم(١١) .

الآن(١٢) معك أَمرانِ : السُّلطان وميلُهم إليه ، وخَوفُهم منه .

والعاقبــة للمتَّقين .

---

(١) الدول : جمع دولة ، وهى الانتقال من حال إلى حال .

(٢) البكرية : أتباع بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد . وقد ذكرهم البغدادى فى الفرق فى فصل مع الجهمية والضرارية . الفرق ١٩٩ والفصل ٤ : ١٩١

(٣) الفضلية الذين يعنيهم الجاحظ ، هم أتباع الفضل بن عيسى الرقاشى البصرى. وهم طائفة من المعتزلة . وهناك فضلية الخوارج ، ينتسبون إلى الفضل بن عبد الله . انظر مفاتيح العلوم ١٩ والبيان ١ : ٣٠٦ .

(٤) الشمرية ، بالشين المعجمة المكسورة والميم المشددة المفتوحة ، كما فى السمعانى ٣٣٨ . قال : « والمشهور بهذه النسبة عمرو بن أبى عثمان الشمرى ، رأس المعتزلة » .

(٥) الجعل : دويبة شبيهة بالخنفساء ، يضرب بها المثل فى الحقارة والهوان ، وفى اللصوق بالإنسان يتبعه إلى الغائط ، إذ قالوا : « ألصق من جعل » . حياة الحيوان للدميرى . و« من جعل » من ط فقط .

(٦) ب ، م : « يسبقون » ، صوابه فى ط .

(٧) ب : « شيتهم ونابيتهم » م : « شيتهم ونابيتهم » ط : « شيبهم ونابتهم » ، والوجه ما أثبت .

(٨) فى جميع النسخ : « فى التشبيه به » ، وكلمة « به » مقحمة .

(٩) ب : « داينون » ، صوابه فى م ، ط .

(١٠) ط : « عددهم كثير » .

(١١) ب ، م : « يطبعهم » .

(١٢) ب ، م « إلا أن » .

١٠

من كتابه في
الرد على النصارى

١ – فصل من صدر كتابه فى الرد على النصارى[1]

الحمد لله الذى مَنَّ علينا بتوحيدِه ، وجعَلَنا ممَّن ينفى شُبهة خَلْقِه[2] وسياسة عبادِه[3] ، وجَعَلنا لا نفرِّق بين أَحدٍ من رُسُله ، ولا نَجحد كتاباً أَوجَبَ علينا الإِقرار به ، ولا نُضيف إِليه ما ليسَ منه ، إِنَّه حميدٌ مجيدٌ ، فعَّالٌ لما يريد .

أَمَّا بعدُ فقد قرأْتُ كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه[4] من مسائل النَّصارى قِبَلكم ، وما دخَلَ على قلوب أَحداثكم وضُعَفائِكم من اللَّبْس ، والذى خِفتموه على جواباتهم من العَجْز ، وما سأَلتم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حُسْن معونتهم بالجَوَاب .

وذكرتم أَنَّهم قالوا : إِنَّ الدَّليل على أَنَّ كتابَنا باطلٌ ، وأَمرَنا فاسد ، أَنَّنا ندَّعى عليهم مالا يَعرِفونه فيما بينهم ، ولا يَعرفونَه من أَسلافهم ، لأَنَّا نزعُم أَنَّ الله جلّ وعزّ قال فى كتابه على لسانِ نبيِّه محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإِذْ قال الله يا عِيسَى بنَ مريم أَأَنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونى وأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ[5] ﴾ ، وأَنَّهم زعموا أَنَّهم لم يَدِينوا قطُّ بأَنَّ

(١) نشر هذا الاختيار من قبل ، بعد ظهوره على هامش الكامل ، فى مجموعة يوشع فنكل ، وعنوانها (ثلاث رسائل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وطبعت فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ . وجعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء التى كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ، إلى قرائها فى السنة الثانية . والرسالة التى تليها هى (ذم أخلاق الكتاب) ، ثم (رسالة القيان) . وقد قمت بنشرهاتين الأخيرتين فى الجزء الثانى من الرسائل فى الصفحات ١٣٩ – ٢٠٩ .

(٢) يعنى كونه مخلوقاً .

(٣) إشارة إلى مايرى المعتزلة من أنه غير خالق لأفعال العباد ، فهم يخلقون أفعالهم ويريدونها ، فيحاسبون على مافعلوا .

(٤) ب : « من ما ذكرتم » .

(٥) الآية ١١٦ من سورة المائدة .

مريم إلّه فى سِرِّهم ، ولا ادّعَوْا ذلك قطُّ فى علانيَتهِم . وأنّهم زعموا أنّا ادّعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادّعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نَطقَ كتابُنا ، وشهِدَ نبيُّنا : أنَّ اليهود قالوا : إنَّ عزيراً ابن الله[١] ، وإنَّ يَد الله مغلولة[٢] ، وإنَّ الله فقيرٌ وهم أغنياءُ[٣] . وهذا ما لا يتكلَّم به إنسان ، ولا يُعَرف فى شيءٍ من الأَديان .

ولو كانوا يقولون فى عُزيرٍ[٤] ما نَحَلْتُمون وادَّعيتموه ، لَما جَحدوه من دينهم ، ولماَ أنكروا أن يكونَ من قولهم ، ولما كانوا بإنكار بُنوَّة عزيرٍ أحقَّ منَّا بإنكار بنوَّة المسيح ، ولَمَا كان علينا منكم بأْسٌ بعد عَقدِ الذِّمَّة ، وأَخْذِ الجزية .

وذكرتم أنَّهم قالوا : وممَّا يدلُّ على غَلطكم فى الأَخبار ، وأخذكم العلم عن غير الثقات[٥] ، أنَّ كتابَكم ينطق : أنَّ فرعون قال لِهامانَ : ﴿ ابنِ لِى صَرْحاً[٦] ﴾ . وهامانُ لم يكن إلَّا فى زَمن الفُرْسِ ، وبعد زمنِ فرعونَ بدهرٍ طويل ، وإنَّ ذلك معروفٌ عند أصحاب الكُتُب ، مشهورٌ عند أهل العلم . وإنَّما اتَّخذ صرحاً ليكون إذا عَلَاه أشرَفَ على الله .

وفرعونُ لا يخلو من أن يكون جاحداً لله تعالى ، أو مقرًّا به . فإن كان دينُه عند نفسه وأهلِ مملكته نَفْىَ الله وجَحْدَه ، فما وجهُ اتِّخاذِ الصَّرح وطَلبِ الإشراف، وليس هناك شيء ولا إله ؟

---

(١) ب : « عزير ابن الله » .
(٢) إشارة إلى الآية ٦٤ من المائدة .
(٣) إشارة إلى الآية ١٨١ من آل عمران .
(٤) ب فقط : « يقولون فى شىء فى عزير » .
(٥) فى جميع النسخ : « الثقاة » ، وهو خطأ فادح فى الرسم الذى يوجب رسم تاء جمع المؤنث السالم مبسوطة .
(٦) من الآية ٣٦ فى غافر .
(٧) م فقط : « لم يكن فى زمن الفرس » ، تحريف .

وإن كان مُقِرًّا بالله عارفاً به ، فلا يخلو من أنْ يكون مشبِّهاً أو نافياً للتَّشبيه . فإن كان ممن يَنفِي الطُّول والعَرض والعُمْق والحُدود والجهاتِ ، فما وَجْهُ طلبه له فى مكانٍ بعينه ، وهو عنده بكلِّ مكان ؟ وإن كان مشبِّهاً فقد عَلِم أنَّه ليس فى طاقةِ بنِى آدم أن يبنُوا بُنياناً ، أو يرفعوا صَرحاً يخرِقُ سَبْعَ سموات بأعماقهنّ ،والأجزاءَ التى بينهنّ ،حتَّى يحاذىَ[1] العرشَ ثم يَعْلُوَه .

وفرعونُ وإن كان كافراً فلم يكن مجنوناً ، ولا كان إلى نَقْصِ العقلِ من بينِ الملوكِ منسوباً . على أنَّ الحُكم قد يقوم[2] بعُقول الملوكِ بالفضيلة على عُقُول الرعية .

وذكرتم أنَّهم قالوا : تَزعُمون أنَّ الله تعالى ذَكَرَ يحيى بنَ زكريّا يُخبِر أنَّه ﴿ لم يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا[3] ﴾ ، وأنَّهم يجدون فى كتبهم وفيما لا يختلف فيه خاصَّتهُم وعامَّتهم أنَّه كان من قبل يحيى بن زكريا غيرُ واحدٍ يقال له يحيى ، منهم : يُوحَنَّا بن فرح[4] .

وزعمتم أنهم قالوا لكم[5] : إنَّكم ذكرتم أنَّ الله قال فى كتابه لنبيِّكم : ﴿ وما أَرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إلَّا رجالًا نُوحى إليهم[6] ، فاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُون[7] ﴾ ، وإنَّما عنى بقوله : ﴿ أهلَ الذِّكر ﴾ :

---

(١) ب : « يحازى » ، تحريف .

(٢) ب : « قد يقدم » . (٣) من الآية ٧ فى سورة مريم .

(٤) لم أجد له ذكراً فى كتب الجاحظ ، كما لم أجد له خبراً إلا فى سفر إرميا ٤٠ : ٨ و٤١ : ١١ و٤٣ : ٦ . واسمه فى هذا السفر : يوحانان بن قاريح .

(٥) ب فقط : « لك » صوابه فى م ، ط .

(٦) كذا القراءة فى الآية ٤٣ من سورة النحل . أما فى الآية ٧ من سورة الأنبياء فقراءة الجمهور فيها : « يوحى إليهم » ، كما ورد فى نسخة ب . وقرأها حفص فقط : « نوحى إليهم » انظر إتحاف فضلاء البشر ٣٠٩ .

(٧) هى الآية ٤٣ من سورة النحل ، ونصها هو نص الآية ٧ من سورة الأنبياء .

أَهلَ التَّوراة ، وأَصحابَ الكتب يقولون : إنَّ الله قد بَعثَ من النِّساء نَبيَّاتٍ ، منهم مريم بنت عمران[١] ، وبعث منهنَّ حَنَّة[٢] ، وسارَى[٣] ، ورِفْقَى[٤] .

وذكرتُم أَنَّهم قالوا : زَعمتُمْ أَنَّ عيسى تكلَّمَ فى المَهْد ، ونحن على تقديمنا له ، وتقريبِنا لأَمرِه ، وإفراطنا بزَعْمكم فيه ، على كثرة عَدَدنا ، وتفاوُتِ بلادنا ، واختلافِنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندَّعيه[٥] ، وكيف ندَّعيه ولم نسمَعه عن سلفٍ ، ولا ادَّعاه منَّا مدَّعٍ .

ثم هذه اليهودُ لا تَعرِف ذلك ، وتزعُم أَنَّها لم تسْمع به إلَّا منكم ، ولا تعرفُه المجوسُ ، ولا الصَّابئون ، ولا عُبَّاد البِدَدة[٦] من الهِنْد وغيرهم ،

---

(١) انظر بقية نسبها فى الطبرى ١ : ٥٨٦ .

(٢) هى حنة بنت فنوئيل ، من سبط أشير . إنجيل لوقا ٢ : ٣٦

(٣) سميت فى العهد القديم « ساراى » تكوين ١١ : ٢٩ ، ٣٠ / ١٢ : ٥ ، ١١ ، ١٧ / ١٦ : ١ — ٩ وجاء فى سفر التكوين ١٧ : ٥ فى مخاطبة إبراهيم عليه السلام : « فلا يدعى اسمك بعد إبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم » وفى الفقرة الخامسة عشرة منه : « وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لاتدعو اسمها ساراى ، بل اسمها سارا » . وفى حواشي سفر التكوين أن « سارة » بمعنى رئيسة . وسارة هذه هى بنت هاران الأكبر عم إبراهيم ، كما فى الطبرى ١ : ٢٤٤ ، وفيها الآية الكريمة : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » . وسارة تضبط بتخفيف الراء ، ويخطئُ من يشددها ، وإن كانت قد ضبطت بذلك فى اللسان (هجر ١١٨ ورقم ١٨٠) وشرح القسطلانى ٤ : ١٠٢ . ومما يعين ضبطها بتخفيف الراء قول جرير فى ديوانه ٥٤٣ :

فيجمعنا والعز أولاد سارة   أب لايبالى بعده من تعذرا

(٤) ورسمت فى الطبرى : « رفقا » ، وهو الوجه ، لأن جميع المنتهى بالألف اللينة من الأسماء الأعجمية حقه أن يكتب بالألف ، ماعدا الأسماء الخمسة : موسى ، عيسى ، كسرى ، بخارى ، متى . وهى رفقا ابنة بتويل بن ناحور بن تارخ ، وهى امرأة إسحاق ، كما فى الطبرى ١ : ٣١٣ . وتسمى أيضاً « رفقة » فى التكوين ٢٤ : ١٥ ، ٢٩ / ٢٥ : ٢٠ .

(٥) ب ، م : « لايعرف ذلك ولا يدعيه » ، صوابه فى ط .

(٦) البد ، بالضم : الصنم الذى يعبد ، وهو إعراب بت ، بالفارسية بضم الباء أيضاً . والجمع البددة . ب : « البدرة » ط : « المدرة » ، صوابهما فى م . وانظر ما سبق فى حواشى ٢٥٢ .

ولا التُّرك والخزر[1] ، ولا بلغنا ذلك عن أحدٍ من الأُمم السالفة ، والقرونِ الماضية ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى ذِكْر صفاتِ المسيح فى الكُتُب والبشاراتِ به على ألسنة الرُّسُل .

ومِثلُ هذا لا يجوز أنْ يجهله الولىُّ والعدُوّ ، وغيرُ الولىِّ وغيرُ العدوّ ، ولا يُضربَ به مثل ، ولا يَرُوح به النَّاس ، ثم يُجمع النَّصارى على ردِّه ، مع حُبِّهم لتقوية أمْرِه . ولم يكونوا ليضادُّوكم[2] فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذِّبوكم فى إحيائه الموتى ، ومَشْيِهِ على الماءِ ،وإبراءِ الأَكمه والأَبرص ؟! بل لم يكونوا ليتَّفقوا على إظهار خلاف دينهم ، وإنكار أعظم حجّةٍ كانت لصاحبهم ، ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفكُّ ممن يخالف ويَنُم[3] .

والكلام فى المهد أعجبُ من كلِّ عجبٍ ، وأغربُ من كلِّ غريب ، وأبدعُ من كلّ بديع ؛ لأنَّ إحياءَ الموتى والمشْىَ على الماءِ ، وإقامة المُقْعَد ، وإبراءَ الأَعمى ، وإبراءَ الأَكمهِ[4] قد أتت به الأنبياءُ ، وعَرفَه الرُّسل ، ودار فى أسماعهم . ولم يتكلَّمْ صبىٌّ قطُّ ، ولا مولودٌ فى المهد .

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حُجَّة هذه العلامة من بين كلِّ علامة ؟ !

وبعدُ ، فكلُّ أُعجوبةٍ يأْتى بها الرجالُ[5] ، والمعروفون بالبيان ،

---

(١) م : « والحزر » ، تحريف . والخزر : جيل من الترك كان مقر حكمهم فى سهوب القوقاز الشمالية . وانظر مادتى (بلغار) و (الخزر) فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ب ، م : « ولم يكن ليضادوهم » .

(٣) ب فقط : « ويتم » بالتاء .

(٤) الأكمه : الذى يولد أعمى ، ومصدره الكمه ، بالتحريك . وربما جاء الكمه فى الشعر للعمى العارض ، كما جاء فى قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضليات ٢٠٠ :

كمهت عيناه لما ابيضتا ... فهو يلحى نفسه لما نزع

(٥) ب ، م : « الرجل » ، وأثبت ما فى ط .

والمنسوبون إلى صوابِ الرأى ، تكون[١] الحيلة فى الظَّنِّ إليها أقرب ، وخوفُ الخُدْعةِ عليها أَغلب . والصبىُّ المولودُ عاجزٌ فى الفطرة ، ممتنعٌ من كلِّ حيلة ، لا يُحتاج فيه إلى نظر ، ولا يشَبِّهه من شاهده بدَخَل[٢] .

٢ — فصل منه

وسنقول فى جميع ما ورَدَ علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحُجج القويَّة ، والأَدِلَّة الاضطرارية ، ثم نسأَلهم بعد جوابنا إيَّاهم عن وجوهٍ يعرفون بها انتقاضَ قولهم ، وانتشارَ مذهبهم[٣] ، وتهافُتَ دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلُّف وانتحالِ مالا نُحسِن ، ونسأَله القَصْدَ فى القول والعمل ، وأَن يكون ذلك لوجهه ، ولنُصرةِ دينه ، إنَّه قريبٌ مجيب .

فأَنا مبتدىءٌ فى ذكر الأَسبابِ التى لها[٤] صارت النَّصارى أَحبَّ إلى العوامِّ من المجوس ، وأَسلَمَ صُدوراً عندهم من اليَهودِ ، وأَقربَ مودَّة ، وأَقلَّ غائلة ، وأَصغَر كُفْراً ، وأَهوَنَ عذاباً .

ولذلك أَسبابٌ كثيرة ، ووجوهٌ واضحة ، يعرفها مَن نَظَر ، ويجهلها مَن لم يَنظُر .

---

(١) ب ، م : « فكون » ، صوابه فى ط .

(٢) ط فقط : « ولا ليشبهه » . والدخل ، بالتحريك وبالفتح أيضاً : الريبة والغش . قال الله تعالى : « تتخذون أيمانكم دخلا بينكم » . وفى كلام ابنة الخس :

ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل

(٣) انتشار مذهبهم : تفرقه وعدم ترابطه . ويقولون : ضم الله نشرك ، بالتحريك، أى لم شعثك .

(٤) ب : « التى بها » .

أوّلُ ذلك أن اليهود كانوا جيرانَ المسلمين بيثربَ وغيرها ، وعداوةُ الجيرانِ شبيهةٌ بعداوة الأقارب فى شدَّة التمكُّن وثَبات الحقْد ، وإنَّما يُعادِى الإنسان مَن يعرف ، ويميل على من يرى ، ويُناقِض من يُشاكل ، ويبدو له عيوبُ من يُخالِط . وعلى قدر الحبِّ والقُرب يكون البُغض والبُعد ، ولذلك كانت حُروب الجيران وبنى الأعمام من سائر النَّاس وسائرِ العرب أطولَ ، وعداوتُهم أشدَّ .

فلمَّا صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الأنصار متقدِّمةَ الجوار ، مشاركةً فى الدار ، حَسدتْهم اليهود على النِّعمةِ[1] فى الدِّين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتَّواصُل بعد التقاطع ، وشَبَّهوا على العوَامّ[2] ، واستمالوا الضَّعَفة ، ومالئوا[3] الأعداءَ والحَسَدة ، ثم جاوزوا الطَّعنَ وإدخالَ الشُّبهة ، إلى المناجزة والمُنابذَة بالعَدَاوة ، فَجَمعوا كيدهم ، وبذلوا أنفُسَهم وأموالَهم فى قِتالهم ، وإخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم[4] وظهر ، وتَرَادف لذلك الغَيْظُ ، وتضاعَف البُغْض ، وتمكَّن الحقد .

وكانت النصارى لبعد ديارهم[5] ، من مَبعثِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومُهاجَرِه ، لا يتكلَّفون طعْناً[6] ، ولا يُثيرون كيداً[7] ،

---

(١) ب ، م : « حسدتهم اليهود النعمة » ، وهى صحيحة أيضاً ، يقال حسده على الشيء ، وحسده إياه ، كما فى قول شمر بن الحارث الضبى :

فقلت إلى الطعام فقال منهم   زعيم نحسد الإنس الطعاما

(٢) ط فقط : « القوام » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « وملأوا » ، صوابه فى ط . والممالأة : المساعدة ، والمشايعة .

(٤) ب ، م : « واستقاص فيهم » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « ديارها » .

(٦) ب ، م : « لايتكلف طعناً » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « ولا يستر كيداً » ، والوجه فى ط .

ولا يجمعون على حرب (١) . فكان هذا أوّلَ أسبابِ ما غلّظَ القلوب على اليهود ، وليّنها على النصارى .

ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجَنْبة (٢) ما حَبَّبهم (٣) إلى عوامِّ المسلمين . وكلّما لانت القلوبُ لقومٍ غَلُظت على أعدائهم ، وبقَدْرِ ما نقَص من بُغض النصارى زادَ فى بغض اليهود .

ومن شأْنِ النَّاس حبٌّ من اصطنعَ إليهم خيراً أَوْ جرى على يديه (٤) ، أَرادَ اللهُ بذلك أو لم يُرِدْه ، وبقَصْدٍ (٥) كان أم باتّفاق .

وأَمرٌ آخر ، وهو من أَمْتنِ أَسبابهم وأَقوى أُمورهم ، وهو تأْويلُ آيةٍ غَلِطت فيها العامّة حتّى نازَعَت الخاصّة ، وحفظتْها النّصارى واحتجّت ، واستمالت قلوب الرَّعاع والسِّفْلة ، وهو قول الله تعالى : ﴿ لَتجدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوةً لِلَّذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والذِينَ أَشْركُوا ولتجِدَنَّ أَقرَبَهُمْ مودَّةً للذينَ آمَنُوا الذين قَالُوا إنَّا نَصارَى (٦) ﴾ . إلى قوله : ﴿ وذَلِك جَزاءُ المُحْسنين (٧) ﴾ . وفى نفس الآيةِ أَعظمُ الدَّليل على أَنَّ الله تعالى لم يَعْنِ هؤلاءِ النَّصارى ولا أَشباههم : الملكانية (٨) واليعقوبيّة (٩) ، وإنّما عَنَى

(١) ب ، م : « ولا يجمع على حرب » ، تحريف .
(٢) الجنبة : الجانب . وفى ط فقط : « الجهة » .
(٣) ب فقط : « ماجبهم » ، صوابه فى م ، ط .
(٤) الكلام بعده إلى كلمة « باتفاق » ساقط من ط .
(٥) فى الأصل ، وهو هنا ب ، م : « وبعد » ، والوجه ما أثبت .
(٦) الآية ٨٢ من سورة المائدة .
(٧) يعنى الآيات ٨٢ – ٨٥ من سورة المائدة .
(٨) ب فقط : « المكانية » ، صوابه فى م ، ط . ويقال ملكانية وملكائية أيضاً بالهمز ، كما فى مفاتيح العلوم ٢٣ . ويقال أيضا الملكية ، كما فى التنبيه والإشراف للمسعودى ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣١ . وجاء فى مفاتيح العلوم ٢٣ : « وهم منسوبون إلى ملكاء ، وهم أقدمهم » ، أى أقدم النصارى . وفى الملل والنحل ٢ : ٦٢ : « الملكانية أصحاب ملكا الذى ظهر بالروم واستولى عليها » . والحق أن الملكانيين منسوبون إلى « ملكا » ومعناه الملك بالسريانية . والمراد بهم أتباع مذهب قياصرة الروم الذى يسمى أيضاً المذهب الخلقيدونى ، الذى أقره المجمع المعقود فى خلقيدونية سنة ٤٥١م . وفى مفاتيح العلوم : « وأهل الروم كلهم ملكائية » . وانظر تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية ص ٩١ – ٩٣) .
(٩) اليعقوبية ، أو اليعاقبة : ثالثة فرق قدماء النصارى ، وهم الملكانية ، والنسطورية ، =

ضَرْبَ بَحِيرا(١) ، وضَرْبَ الرُّهبانُ الذين كان يَخْدُمهم سَلْمانُ(٢) .

وبين حَمْلِ قولِه(٣) : ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ على الغَلَط منهم فى الأَسماءِ ، وبين أَن نجزم عليهم(٤) لأَنَّهم نَصارى ـ فرقٌ .

كما ذكر اليهودُ أَنَّه جاءَ الإِسلامُ وملوكُ العربِ رجلان : غسَّانىٌّ ولخْمىّ ، وهما نَصرانيَّانِ ، وقد كانت العربُ تَدِين لهما ، وتؤدِّى الإتاوة إليهما ، فكان تعظيم قلوبهم لهما راجعاً(٥) إلى تعظيم دينهما . وكانت تِهامة ، وإن كانت لَقاحاً(٦) لا تدين الدِّين(٧) ، ولا تؤدِّى

= واليعقوبية . وهم ينسبون إلى مار يعقوب . قال الخوارزمى فى مفاتيح العلوم : « وهم قليل » . وفى الفصل لابن حزم ١ : ٤٩ : « ينسبون إلى يعقوب البرذعانى ، وكان راهباً بالقسطنطينية » . وانظر الملل والنحل ٢ : ٦٦ .

(١) بحيرا الراهب ، بفتح الباء ، كما فى القاموس ، وقد رسم بالياء فى آخره فى القاموس وشرحه ، والوجه كتابته بالألف كما فى الإصابة ٥٩٥ . وهو الذى لقى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فى ركب قريش حين نزلوا بصرى من أرض الشام ، فاستضافهم جميعاً ، وعرف رسول الله مما كان يعرف من صفته من قبل . السيرة ١١٥ — ١١٧ .

(٢) سلمان الفارسى : صحابى جليل ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان ، وكان قد سمع بأن النبى صلى الله عليه وسلم سيبعث ، فخرج فى طلب ذلك ، وأسلم ، وشهد بدراً ، وآخى النبى بينه وبين أبى الدرداء . الإصابة ٣٣٥٠ والسيرة ١٣٦ ، ٣٤٥ ، ٦٦٣ ، ٦٧٧ . ب : « نجد منهم سلمان » م : « يجذمهم سلمان » وفى ط : « يجذبهم سلمان » ، والصواب ما أثبت . وقد وجدت نصاً صريحاً فى سيرة ابن هشام ١٣٨ يقول فيه سلمان لأسقف الكنيسة فى الشام قبل إسلامه : « إنى قد رغبت فى هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك » . ثم تروى السيرة تنقله فى كنائس الموصل ، ونصيبين ، وعمورية ، ومن عمورية انتقل إلى أرض العرب حتى كان بالمدينة ولقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل فى الإسلام .

(٣) ب ، م : « وبين قوله » بسقوط كلمة « حمل » .

(٤) ب : « نجزم » ط : « نجرى » . وأثبت ما فى م .

(٥) ب ، م : « راجعة » ط : « راجع » ، صوابهما ما أثبت .

(٦) يقال حى لقاح ، كسحاب : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم سباء فى الجاهلية . قال ثعلب : مشتق من لقاح الناقة ، لأن الناقة إذا لقحت لم تطاوع الفحل .

(٧) كلمة « الدين » ساقطة من ط . وفى ب ، م : « لايدين » . صوابهما فى ط .

الإتاوة ، ولا تَدِين للمُلوك ، فإنَّها[١] كانت لا تمتنعُ من تعظيم ما عظَّم الناس ، وتصغيرِ ما صغَّروا .

ونصرانيَّةُ النُّعمان وملوكِ غَسّانَ مشهورةٌ فى العرب ، معروفةٌ عند أَهل النَّسَب ، ولولا ذلك لدَلَلْتُ عليها[٢] بالأَشعار المعروفة ، والأَخبار الصحيحة .

وقد كانت تتَّجِر إلى الشَّام ، ويَنفُذ[٣] رجالُها إلى مُلوك الرُّوم ، ولها رحلةٌ فى الشِّتاءِ والصَّيف، فى تجارةٍ مرّةً إلى الحبشة ، ومرّةً قِبَلَ الشام ، ومرَّة بيثرب[٤] ، ومصيفُها بالطَّائف ، ومرة منيحين مستأْنفاً بحمده[٥] ، فكانوا أَصحاب نَعْمة ، وذلك مشهورٌ مذكورٌ فى القرآن ، وعند أَهلِ المعرفة .

وقد كانت تَهاجر إلى الحبشة[٦] ، وتأْتى بابَ النَّجاشىِّ وافدةً ، فيَحُبوهم بالجزيل[٧] ، ويَعرِف لهم الأَقدار ، ولم تكن تعرف كسرى[٨] ، ولا تأَنَّس بهم . وقيصرُ والنَّجاشىُّ نَصْرانيَّان ، فكان ذلك أَيضاً للنَّصارى ، دونَ اليهود .

والآخِر من النَّاس تَبَعٌ للأَوَّل فى تعظيم من عظَّم ، وتصغير من صغَّر .

---

(١) ب ، م : « وبأنها » ط : « لأنها » ، والوجه ما أثبت

(٢) ب فقط : « عليه » تحريف . (٣) ط فقط : « وتنفذ » .

(٤) ومرة بيثرب ، ساقطة من ط .

(٥) كذا وردت هذه العبارة فى ب . م مع سقوطها من ط . لكن فى م : « بجهده » . ولعلها « ومرة ميمنين » من أيمن ويمن تيميناً ، إذا أتى اليمن .

(٦) ب ، م : « تهاجر الحبشة » ، صوابها فى ط .

(٧) يحبوهم ، من الحباء ، وهو العطاء بلا من ولا جزاء . ب ، م : « فيحيوهم » ط : « فيحييهم » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) ط : « ولم يكن يعرف ذلك كسرى » .

وأُخرى[١] : أَنَّ العرب كانت النصرانيَّةُ فيها فاشية ، وعليها غالبة ، إلَّا مُضَر ، فلم تغلب عليها يهوديَّةٌ ولا مجوسيَّة ، ولم تَفْشُ فيها النَّصرانية ، إلَّا ما[٢] كان من قومٍ منهم نزلُوا الحِيرَةَ[٣] يسمّون : العِباد ، فإنَّهم كانوا نَصَارى ، وهم مَغْمورون مع نَبْذٍ يسيرٍ[٤] فى بعض القبائل . ولم تعرف مُضَر إلَّا دينَ العرب ، ثم الإسلام .

وغَلبت النَّصرانيةُ على مُلوك العرب وقبائلها : على لخمٍ ، وغَسَّان ، والحارث بن كعبٍ بنَجْران ، وقُضاعةَ ، وطيٍّ ، فى قبائل كثيرةٍ ، وأَحياءٍ معروفة . ثم ظهرت فى ربيعةَ فغلبت على تغلب وعبدِ القيس وأَفناءِ بكر[٥] ، ثم فى آلِ ذى الجَدَّينِ خاصَّة .

وجاءَ الإسلامُ وليست اليهوديَّةُ[٦] بغالبةٍ على قبيلة ، إلَّا ما كان من ناسٍ من اليمانية ، ونَبْذٍ يسير[٧] من جميع إيادٍ وربيعة . ومعظمُ اليهودية إنَّما كانت بيثربَ وحِميَر وتَيماءَ ووادى القُرى ، فى ولدِ هَارونَ ، دون العرب .

فعطفَ قُلوبَ دَهماءِ العرب على النَّصارى المُلْكُ الذى كان فيهم ، والقرابةُ التى كانت لهم . ثم رأَتْ عوامُّنا أَنَّ فيها مُلْكاً قائماً ، وأَنَّ فيهم عَرَباً كثيرة[٨] ، وأَنَّ بناتِ الرُّوم وَلَدْنَ لملوك الإسلام ، وأَنَّ فى

---

(١) ط : « وأخرى ، وهى » .
(٢) فى الأصول : « إلا من كان » ، ووجهه ما أثبت .
(٣) نزلوا الحيرة ، ساقط من ب .
(٤) النبذ ، بالفتح : الشيء القليل . ب فقط : « معمورون مع نبذ يسيرة » ، صوابه فى ط .
(٥) الأفناء : الأخلاط النزاع من هاهنا وهاهنا ، الواحد فنو ، بالكسر .
(٦) ب ، م : « لليهودية » ، صوابه فى ط .
(٧) ب : « ونبذ يسيرة » تحريف . وانظر ما مضى قريباً .
(٨) ب ، م : « غرباً كثيرة » صوابه بالعين المهملة كما فى ط .

النصارى متكلِّمين وأطبَّاءَ ومنجِّمين ، فصاروا بذلك عندهم عُقلاءَ وفلاسفةً حكماءَ ، ولم يَرَوْا ذلك فى اليهود .

وإنَّما اختلفت (١) أحوالُ اليهودِ والنَّصارى فى ذلك لأنَّ اليهود ترى أنَّ النظر فى الفَلسَفةِ (٢) كفر ، والكلامَ فى الدِّين بدعة ، وأنَّه مَجْلبَةٌ لكلِّ شُبهة ، وأنَّه لا علم إلَّا ما كان فى التَّوراة وكُتُب الأنبياء ، وأنَّ الإيمانَ بالطِّبِّ ، وتصديقَ المنجِّمين من أسباب الزَّندقةِ والخُروجِ إلى الدُّهرية ، والخلافِ على الأسلافِ وأهلِ القُدوة ، حتَّى إنَّهم لَيُبهرِجُون المشهورَ بذلك ، ويحرِّمون كلامَ من سَلكَ (٣) سبيلَ أُولئك .

ولو علمتِ العوامُّ أنَّ النَّصارى والرُّوم ليست لهم حكمةٌ ولا بَيان ، ولا بُعْدُ رويَّة (٤) ، إلَّا حكمة الكفِّ ، من الخَرْط والنَّجْر والتَّصوير ، وحياكة البِزْيون (٥) لأخرجَتْهم من حُدود الأُدباء ، ولمَحَتْهُمْ من ديوان الفلاسفةِ والحكماء ؛ لأنَّ كتابَ المنطقِ والكَونِ والفساد ، وكتاب العُلْوىِّ (٦) ، وغير ذلك ، لأَرسطاطاليس (٧) ، وليس بروميٍّ ولا نصرانىّ .

وكتابَ المِجَسْطِىِّ لبطليموس (٨) ، وليس بروميٍّ ولا نَصرانىّ .

وكتابَ إقليدسَ لإقليدس ، وليس بروميٍّ ولا نصرانى .

(١) ب ، م : « اختلف » .
(٢) ب فقط : « فى الفلاسفة » .
(٣) ط : « كلام سالك » .
(٤) ب ، م : « رؤية » .
(٥) البزيون : السندس . قال ابن برى : هو رقيق الديباج . وضبطه صاحب القاموس كجردحل وعصفور ، وصاحب اللسان بالضم فقط . ط : « البريون » تحريف . وانظر اللسان والقاموس (بزن) .
(٦) ذكره فى الحيوان ٦ : ٢٨٠ باسم « الآثار العلوية » . ط فقط : « العدوى » تحريف .
(٧) ب ، م : « لأرسطوطيلس » ، وأثبت ما فى ط والحيوان .
(٨) انظر حواشى الحيوان ١ : ٨٠ .

وكتابَ الطبِّ لجالينوس ، ولم يكن روميًّا ولا نصرانيًّا .

وكذلك كتب دِيمُقْراطَ وبُقْراطَ وأَفلاطون ، وفلانٍ وفلان .

وهؤلاءِ ناسٌ(١) من أُمة قد بادوا وبقيتْ آثارُ عقولهم ، وهم اليونانيُّون ، ودينُهم غير دينِهم ، وأَدبُهم غيرُ أَدبِهم ، أُولئك علماءُ ، وهؤلاء صُنَّاعٌ أَخذوا كتبهم(٢) لقُرب الجوار ، وتداني الدار ، فمنها ما أَضافوه إلى أَنفسهم ، ومنها ما حوَّلوه إلى مِلَّتهم . إلَّا ما كان من مشهور كتبهم ، ومَعروف حِكَمهم ، فإنَّهم حين لم يَقدِروا على تغيير أَسمائها زَعَموا أَنَّ اليونانيين قبيلٌ من قبائل الروم ، ففخَرُوا(٣) بأَديانهم على اليهود ، واستطالُوا بها على العرب ، وبَذِخُوا بها على الهند(٤) ، حتَّى زعموا أَنَّ حكماءَنا أَتْباعُ حكمائِهم ، وأَنَّ فلاسفَتَنَا اقتدوْا على مثالهم(٥) ، فهذا هذا .

ودينُهم(٦) يرحمُك الله — يُضاهِي الزَّندقة ، ويناسبُ في بعض وجوهه قولَ الدُّهرية ، وهم من أَسبابِ كلِّ حَيرةٍ وشُبهة .

والدَّليل على ذلك أَنَّا لم نر أَهلَ ملَّةٍ(٧) قطُّ أَكثَر زندقةً من النَّصارى ، ولا أَكثر متحيِّراً أَوْ مترنِّحاً منهم(٨) .

وكذلك شأْنُ كلِّ مَن نظر في الأُمور الغامضة بالعقول الضعيفة : أَلا تَرَى أَنَّ أَكثَرَ من قُتِلَ في الزَّندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويُظهره ،

(١) ط فقط : « أناس » .

(٢) ب : « أخذ وكتبهم » ، وهو تحريف كتابي .

(٣) ب ، م : « ففجروا » ، صوابه في ط

(٤) البذخ والبذوخ : تطاول الرجل بكلامه وافتخاره ، وفعله كفرح يفرح ، وقعد يقعد .

(٥) ب : « اقتدروا » ، تحريف . ط : « احتذوا » ، وأثبت ما في م .

(٦) ط : « فهذا هو دينهم » ، وإخاله تصرفاً من الناشر . وما أثبته من ب ، م هو لغة الجاحظ .

(٧) ط : « أهل مكة » ، صوابه في ب ، م .

(٨) الترنح : التمايل والاضطراب . وفي جميع الأصول : « متحيزاً » بالزاي ، صوابه ما أثبت .

هم[١] الذين آباؤهم وأُمَّهاتُهم نصارى .

على أنَّك لو عددتَ اليومَ أهلَ الظِّنَّة ومواضعِ التُّهمة لم تجد أكثَرَهم إلَّا كذلك .

ومِمَّا عظَّمهم فى قلوب العوامِّ ، وحبَّبهم إلى الطَّغَام ، أنَّ منهم كُتَّابَ السَّلاطين ، وفَرَّاشِي الملوك[٢] ، وأطبَّاءَ الأشرافِ ، والعطَّارينَ والصَّيارفة . ولا تجد اليهوديَّ إلَّا صبَّاغاً ، أو دبَّاغاً ، أو حجَّاماً ، أو قصَّاباً ، أو شَعَّاباً .

فلمَّا رأت العوامُّ اليهودَ والنَّصارى توهَّمتْ أنَّ دينَ اليهود فى الأديان كصناعتهم فى الصِّناعات ، وأنَّ كُفرهم أقذرُ الكُفْر،إذْ كانواهمأ قذَرالأُمَم .

وإنَّما صارت النَّصارى أقلَّ مَسَاخة من اليهود[٣] ، على شدَّة مساخة النَّصارى ، لأنَّ الإسرائيليَّ لا يزوِّج إلَّا الإسرائيلى،وكل مناكِحِهم مردودةٌ فيهم[٤] ، ومقصورةٌ عليهم ، وكانت الغرائبُ لا تَشُوبهم ، وفحولةُ الأجناسِ لا تُضرَب ولا تضربِ فيهم ، لم يُنجِبوا فى عَقْل ولا أَسْر ولا مِلْحٍ[٥] . وإنَّك لتعرف ذلك فى الخيلِ والإبل ، والحمير والحمام .

ونحن ـ رحمك الله ـ لم نُخالف العوامَّ فى كثرة أموال النصارى ، وأنَّ فيهم مُلكاً قائماً ، وأنَّ ثيابهم أنظف[٦] ، وأنَّ صناعتَهم أحسن .

---

(١) ب : « وهم » ، والواو مقحمة .

(٢) يراد بالفراش من يتعهد فراش البيت وأثاثه . وانظر ماكتبت فى ذلك فى (حول ديوان البحترى) ٣٩ – ٤٠ والحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) المسيخ من الناس : الذى : الذى لاملاحة له . وقد مسخ مساخة .

(٤) ب : « وكل مناكحتهم مردون فيهم » ط ، م : « وكل مناحهم مردودة فيهم » ، صوابهما ما أثبت .

(٥) الأسر : شدة الخلق . وفى التنزيل العزيز : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » . والملح ، بالكسر : الرضاع واللبن .

(٦) ب : « وأن مابهم » م : « مابهم » ط : « ماءهم » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى ٣٢٥ من قوله : « والنصرانى وإن كان أنظف ثوباً » .

وإنّما خالفْنا فى فرق ما بين الكُفرينِ والفِرْقتين ، فى شدَّة المعاندة واللَّجاجة ، والإرصادِ لأهلِ الإسلام بكلِّ مَكيدة ، مع لُؤْم الأصول ، وخُبْث الأعراق .

فأمّا المُلك والصِّناعة والهيئةُ ، فقد علمنا أنَّهم اتَّخذوا البراذين الشِّهرية[(١)] ، والخيلَ العِتاق ، واتَّخذوا الْجَوْقات[(٢)] ، وضَرَبوا بالصَّوالجة ، وتحذَّفُوا المدِينيَّ[(٣)] ، ولبِسوا المُلْحَم والمطبَّقَة[(٤)] ، واتَّخذوا الشاكريَّة[(٥)] ، وتسمَّوْا بالحسن والحُسَين ، والعبّاس والفضل وعليٍّ ، واكْتَنَوْا بذلك أجمع ، ولم يبقَ إلّا أنْ يتسمَّوا بمحمّد ، ويكتَنُوا بأبى القاسم . فرغب إليهم المسلمون ، وتَرَك كثيرٌ منهم عَقْدَ الزَّنانير ، وعَقَدها آخرونَ[(٦)] دون ثِيابهم ، وامتنع كثيرٌ من كُبرائهم من إعطاءِ الجزية ، وأَنِفوا مع أَقدارهم من دفعها[(٧)] وسَبُّوا مَن سبَّهم ، وضربوا من ضَرَبهم .

(١) الشهرية ، سبق تفسيرها فى ١٢٨ . وكلمة « اتخذوا » ساقطة من ب ، م .

(٢) الجوقة : جماعة من الناس ، معربة كما فى شفاء الغليل . والمراد فرق الفروسية ونحوها .

(٣) تحذيف الشعر : تطريره وتسويته . وفى اللسان : « قال النضر : التحذيف فى الطرة أن تجعل سكينية كما تفعل النصارى » . فقد وضع التحذف هنا موضع التحذيف . وفى الأصول هنا : « وتحدقوا » ، ولا وجه له .

(٤) فى اللسان : « الملحم : جنس من الثياب » . وفى القاموس : «وكمكرم : جنس من الثياب » . وألحم الناسج الثوب . وفى المثل : « ألحم ما أسديت » أى تمم ما ابتدأته من الإحسان . واللحمة ، بالضم : خيوط النسج العرضية يلحم بها السدى ، كما فى المعجم الوسيط . وفيه أيضاً : « الملحم جنس من الثياب يختلف نوع سداه ونوع لحمته ، كالصوف والقطن ، أو الحرير والقطن » ، أى لايكونان من نوع واحد . أما المطبقة ، فهى من قولهم : طابق بين قميصين : لبس أحدهما على الآخر . فالمراد الثياب المزدوجة المتطابقة .

(٥) الشاكرية ، يراد بهم الجند المستأجرون ؛ لأن الشاكرى معناه كما فى القاموس : الأجير المستخدم ، معرب جاكر . وانظر حواشى الحيوان ٢ : ١٣٠ ورسائل الجاحظ ١ : ٣٠

(٦) ب ، م : « وعقدوها آخرون » ، وأثبت مافى ط .

(٧) ب ، م : « وأنف مع أقدارهم من دفع » ، صوابه فى ط

وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثرَ منه ، وقُضاتُنا أَوْ عامّتهم[١] يرون أَنَّ دمَ الجاثَليق[٢] والمُطْرانِ والأَسْقُفِّ وفاءٌ بدم جعفرٍ وعليٍّ والعبّاسِ وحمزة .

ويرون أَنَّ النَّصرانى إذا قذفَ أُمَّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالغَوايةِ[٣] أَنَّه ليس عليه إلّا التعْزير والتّأْديب[٤] ، ثم يحتجُّون أَنَّهم إنَّما قالوا ذلك لأَنَّ أُمَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مُسلِمة . فسبحانَ الله العظيم ! ما أَعجب هذا القولَ[٥] وأَبْيَنَ انتشاره[٦] !

ومن حُكْمِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أَن لا يساوُونا فى المجلِس ، ومن قوله : « وإنْ سبُّوكم فاضربُوهم ، وإن ضَربوكم فاقتلوهم » .

وهم إذا قذفوا أُمَّ النبي عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أُمّته إلّا التَّعزير والتّأْديب . وزَعموا أَنَّ افتراءَهم على النبيِّ ليس بنكْثٍ للعهد ، ولا بنَقْضٍ للعَقْد .

وقد أَمر النبي عليه السلام أَن يُعطونا الضَّريبة عن يدٍ منّا عالية[٧] فى قبولنا منهم[٨] ، وعَقْدِنا لذمّتهم ، دون إراقة دمهم[٩] . وقد حكم الله تعالى عليهم[١٠] بالذِّلَّة والمسكنة .

---

(١) ط فقط : « وعامتهم » .
(٢) الجاثليق ، بفتح الثاء : رئيس من رؤساء النصارى ، يكون تحته المطران ، ثم الأسقف ثم القسيس ، ثم الشماس .
(٣) الغواية ، بالفتح : الضلال . ب ، م : « بالغوية » ، صوابه فى ط .
(٤) التعزير : التأديب والعقاب .
(٥) ب ، م : « القوم » ، تحريف ما فى ط .
(٦) انتشار الأمر : عدم إحكامه . ط فقط : « انتشاره » .
(٧) ب ، م : « عليه » ، وتصح إذا قرئت « علية » .
(٨) ب ، م : « منه » .
(٩) ب ، م : « وعقدنا له ذمته دون إراقة دمه » .
(١٠) ب ، م : « عليه .

أَوَ ما ينبغى(١) للجاهل أَنْ يعلم أَنَّ الأَئمة الراشدين ، والسَّلفَ المتقدِّمين لم يشترطوا عند أَخذِ الجزية ، وعَقْد الذِّمَّة عدمَ الافتراءِ(٢) على النبى صلى الله عليه وسلم وأُمّته ، إلَّا (٣) لأَنَّ ذلك عندهم أَعظَمُ فى العيون ، وأَجلُّ فى الصدور من أَن يحتاجوا إلى تخليده فى الكُتُب ، وإلى إظهار ذِكره بالشَّرط ، وإلى تثبيته بالبيِّنات(٤) ، بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوَهَن عليهم ، والمطمَعةُ فيهم ، ولظنُّوا أَنَّهم فى القَدْر الذى يُحتاج فيه(٥) إلى هذا وشِبهِه .

وإنَّما يتَواثَقُ النَّاس فى شروطهم ، ويفسِّرون فى عُهودهم ما يُمكن فيه الشُّبهة ، أَو يقعُ فيه الغَلَط ، أَو يَغْبَى عنه الحاكم(٦) ، وينساه الشَّاهد ، ويتعلَّق به الخَصْم ، فأَمَّا الواضح الجلىّ(٧) ، والظاهر الذى لا يُخِيل(٨) فما وجه اشتراطه ، والتَّشاغُلِ بذكره .

وأَمَّا ما احتاجوا إلى ذكره فى الشُّروط ، وكان مما يجوز أَنْ يظهر فى العَهْد فقد فعلوه ، وهو كالذِّلَّة والصَّغارة(٩) ، وإعطاءِ الجزية ، ومُقاسمة الكنائِس ، وأَن لا يُعِينوا بعضَ المسلمين على بعضٍ ، وأَشباهِ ذلك . فأَمّا

(١) ط فقط : « وما ينبغى » .
(٢) كلمة « عدم » من ط .
(٣) إلا ، ساقطة من ب .
(٤) ط : « وتثبيته بالبينات » .
(٥) ب ، م : « فيهم » .
(٦) غبى عنه غباء وغباوة : لم يفطن له . ب ، م : « يغنى » بالنون . ط : « يعيا » ، صوابهما ما أثبت .
(٧) الجلى : الظاهر . ب ، م : « الجليل » .
(٨) لايخيل على أحد : لا يشكل . ط : « لايخيل غيره » ، تحريف .
(٩) الصغارة ، كسحابة : صغر القدر . وفى اللسان : « ابن سيده : الصغر والصغارة : خلاف العظم . وقيل الصغر فى الجرم والصغارة فى القدر » . ب ، م : « والصيرفة » ط : « الصفارة » بالفاء ، ووجههما ما أثبت .

أن يقولوا لمن هو أذلُّ من الذَّليل، وأقلُّ من القليل، وهو الطالبُ الراغبُ فى أَخْذِ فديته، والإنعامِ عليه بقَبْض جزيته وحَقْنِ دمِه: نُعاهدك على أن لا تفترىَ[1] على أُمَّة[2] رسول ربِّ العالمين، وخاتَم النبيين، وسيِّدِ الأوّلين والآخِرين[3] فهذا ما لا يجوز[4] فى تدبيرِ أوساط الناس، فكيف بالجِلَّة والعِلْية، وأئمَّة الخليقة، ومصابيحِ الدُّجى، ومَنار الهُدَى، مع أَنَفَة العربِ، وَبأْوِ السُّلطان[5]، وغَلَبة الدولة، وعزِّ الإسلام، وظهور الحجَّة، والوعدِ بالنُّصرة.

على أنَّ هذه الأُمة لم تُبتلَ باليهود، ولا المجوسِ، ولا الصابئين كما ابتُلِيتْ بالنصارى[6]. وذلك أنَّهم يَتْبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيفَ بالأَسناد من روايتنا، والمتشابهَ من آيِ كتابنا، ثم يَخْلُون بضعفائنا، ويسألون عنها عوامَّنا، مع ما قد يعلمون من مسائل المُلحِدين، والزَّنادقة الملاعين، وحتَّى مع ذلك ربَّما تبرَّءوا[7] إلى علمائنا، وأهلِ الأقدارِ مِنَّا، ويَشْغَبون على القوىّ[8]، ويُلْبسون على الضَّعيف.

ومن البلاءِ أنَّ كلَّ إنسانٍ من المسلمين يرى أنَّه متكلم، وأنَّه ليس أحدٌ أحقَّ بمحَاجَّة الملحدين من أحد.

وبعدُ، فلولا متكلِّمُو النَّصارى وأطبَّاؤُهم ومنجِّموهم ما صار إلى

(١) ب، م: «يعاهدك أن لايفترى»، ومع سقوط «على»، وصوابه فى ط.
(٢) ب، م: «على أم».
(٣) ب، م: «وخير سيد الأولين والآخرين»، تحريف.
(٤) ب، م: «فهذا ما يجوز»، تحريف.
(٥) البأو: الكبر والفخر والعظمة. ب: «وباوو» ط: «وشأو»، صوابهما فى ب.
(٦) ط: «كما ابتلت بالنصارى»، صوابه فى ب، م.
(٧) ب: «تبروا».
(٨) ب، م: «على القوم»، صوابه فى ط.

أَغبيائنا[١] وظرفائنا ، ومُجَّاننا وأَحْدَاثنا[٢] شيءٌ من كتب المنانيَّة[٣] ، والدَّيصانية[٤] ، والمَرْقُونيَّة[٥] ، والفُلانية[٦] ، ولما عرفوا غير كتابِ الله تعالى ، وسنَّةَ نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند[٧] أهلها ، ومُخَلَّاة[٨] فى أيدى ورثتها . فكلُّ سُخْنَةِ عينٍ[٩] رأَيناها فى أَحداثنا وأَغبيائنا فمِنْ قِبَلهم كان أَوّلُها .

وأَنت إذا سمعتَ كلامَهم فى العفْو والصَّفح ، وذِكرَهم للسِّياحة ، وزرايتَهم على كلِّ من أَكل اللُّحمان[١٠] ، ورَغْبَتَهم فى أَكل الحُبوب ، وتَركِ الحيوان ، وتزهيدَهُم فى النِّكاح ، وتَركَهم لطلب الوَلَد ، ومديحَهم للجاثَليق والمُطْران والأُسقفّ والرُّهبان ، بتَركِ النِّكاح وطلبِ النَّسْل ، وتعظيمَهم الرُّؤساءَ — علمتَ أَنَّ بين دينهم وبين الزَّندقة نسباً ، وأَنَّهم يحنُّون إلى ذلك المذهب .

---

(١) م : « أغنائنا » ب ، ط : « أغنيائنا » ، صوابهما ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى فى السطر الخامس .

(٢) المجان : جمع ماجن . ب ، م «وتحابنا » ، صوابه فى ط . والأحداث : جمع حدث . وفى ب ، م : « وأخذائنا » ط : « وأخدائنا » ، صوابهما ما أثبت .

(٣) المنانية : أتباع مانى . وانظر ما سبق فى ٢٥٤ .

(٤) الديصانية : فرقة من المجوس . قال ابن النديم : « إنما سمى صاحبهم بديصان باسم نهر ولد عليه . هو قبل مانى . والمذهبان قريب بعضهما من بعض ، وإنما بينهما خلف فى اختلاط النور بالظلمة » . وانظر الملل ٢ : ٨٨ والفهرست ٤٧٤ والحيوان ٥ : ٤٦ .

(٥) المرقونية : فرقة من المجوس ، أتباع مرقون . أثبت قديمين أصلين متضادين أحدهما النور والآخر الظلمة ، وأثبتوا أصلا ثالثاً هو المعدل الجامع . وفى مفاتيح العلوم ٢٥ : « المرقيونية » . وهى فى جميع الأصول : « المرقوبية »، تحريف . وانظر الملل والنحل ٢ : ٨٩ ومعجم استينجاس . ١٢١٨ .

(٦) لعله كناية عن أى فرقة كانت .

(٧) ب فقط : « مسطورة » .

(٨) مخلاة : متروكة . وفى جميع الأصول : « محلاة » بالحاء المهملة .

(٩) سخنة العين : نقيض قرتها ، وذلك من حرارة الحزن . وفى ب فقط : « سحنة » بالمهملة ، تحريف .

(١٠) الزراية : العيب والإنكار . ب : « وذرياتهم » ، صوابه فى م ، ط

والعجبُ أَنَّ كلَّ جاثَليقٍ لا ينكح ، ولا يَطلُب الولد . وكذلك كلُّ مَطرانٍ[(١)] ، وكل أُسقفّ . وكذلك كلُّ أَصحاب الصَّوامع من اليَعقوبية ، والمقيمين فى الدِّيارات[(٢)] والبيوتِ من النِّسطورية . وكلُّ راهبٍ فى الأَرض وراهبةٍ ، مع كثرة الرُّهبان والرَّواهب ، ومع تشبُّه أَكثر القِسِّيسينَ بهم فى ذلك[(٣)] ، ومع ما فيهم[(٤)] من كثرة الغُزاة ، وما يكون فيهم ممَّا يكون فى الناس ، من المرأَةِ العاقر ، والرَّجُل العقيم .

على أَنَّ من تزوّج منهم امرأَةً لم يقدِرْ على الاستبدال بها ، ولا على أَنْ يتزوج أُخرى معها[(٥)] ، ولا على التَّسرِّى عليها . وهم مع هذا قد طبَّقوا الأَرضَ ، ومَلئوا الآفاق ، وغَلبوا الأُممَ بالعدَد ، وبكثْرة الولد . وذلك ممَّا زاد فى مصائبنا ، وعَظُمت بهِ محنتُنا .

وممَّا زاد فيهم ، وأَنمى عددَهم ، أَنَّهم يأْخذون من سائر الأُمم ، ولايُعطونهم ، لأَنَّ كلَّ دينٍ جاءبعد دين ، أَخَذَ منه الكثير ، وأَعطاهالقليل .

٣ ــ فصل منه

وممَّا يدلُّ على قلَّة رحمتهم ، وفسادِ قلوبهم أَنَّهم أَصحابُ الخِصاءِ من بين جميع الأُمم ، والخِصَاء أَشدُّ المُثْلة ، وأَعظم ما رُكِب به إنسان[(٦)] ثمَّ يفعلون ذلك بأَطفالٍ لا ذنْبَ لهم ، ولا دَفْعَ عندهم .

---

(١) المطران ، بفتح الميم وكسرها ، كما فى القاموس .

(٢) ط : « الديورات » تحريف . ويراد بالديارات أديار النصارى . والديارات معروفة فى جموع الدار إذ هو جمع جمع لها ، فهى جمع للديار . وانظر مقدمة كتاب « الديارات » للشابستى . وأما الجمع المعروف للدير ، بالفتح ، فهو الأديار والأديرة .

(٣) ب ، م : « فى زلل » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « وقع مع مافيهم » ، صوابه فى ط .

(٥) على ، ساقطة من ب . وفى ب ، م : « يزوج » .

(٦) ط . فقط : « ركبه إنسان » .

ولا نَعْرِف قوماً يُعرَفون بخصاءِ النَّاس حيث ما كانوا إلَّا ببلاد الرُّوم والحَبَشة ، وهم فى غيرهما قليلٌ ، وأَقلُّ قليل[١] .

على أَنَّهم لم يتعلَّموا إلَّا منهم ، ولا كان السَّببُ فى ذلك غيرَهم ، ثم خَصَوْا أَبناءَهم وأَسلموهم فى بِيَعهم . وليس الخِصاءُ إلَّا فى دين الصابئين ، فإنَّ العابد ربَّما خَصَى نفسه[٢] ، ولا يستحلُّ خصاءَ ابنه[٣] . فلو تمَّت إرادتُهم فى خِصاءِ أَولادهم فى ترك النِّكاح وطلب النَّسْل كما حكيتُ لك قبل هذا — لانقطَع النَّسْلُ ، وذهب الدِّينُ ، وفُتِن الخَلْق .

والنصرانيُّ وإن كان أَنظَفَ ثوباً ، وأَحسنَ صِناعةً ، وأَقلّ مَساخة[٤] ، فإنَّ باطنَه أَلْأَمُ وأَقذر وأَسمج ، لأَنَّه أَقلَف ، ولا يَغتسِل من الجَنَابة ، ويـأْكُل لحمَ الخِنزير ، وامرأَته جُنُبٌ لا تَطهُر من الحيض ، ولا من النِّفاس ، ويَغْشَاها فى الطَّمْث ، وهى مع ذلك غير مختونة .

وهم مع شَرَارةِ طبائِعهم[٥] ، وغَلَبَة شَهَواتهم ليس فى دينهم مَزاجِرُ كنار الأَبَدِ فى الآخرة ، وكالحُدود والقَوَدِ والقصاصِ فى الدُّنيا ، فكيف يُجانب ما يفسده ، ويُؤْثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك . وهل يُصلح الدُّنيا من هو كما قلنا[٧] ؟ وهل يهيِّجُ على الفَسَاد إلَّا مَنْ وصفنا[٨] ؟

(١) انظر الحيوان ١ : ١١٩ ، ١٢٤ .
(٢) انظر الحيوان ١ : ١٢٥ .
(٣) ب ، م : « خصاء نفسه » ، صوابه فى ط .
(٤) انظر ما مضى فى ص ٣١٨
(٥) يقال : شر يشر ويشر شراً ، وشرارة ، فهو شرير كأمير ، وشرير كسكيت . وفى جميع الأصول : « شرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٤ : ٦/٢٩٧ : ٤٦٠ . وأما الشرار ، بالكسر وكجبل ، فهو مايتطاير من النار ، واحدتهما بهاء .
(٦) ب ، م : « بجانب ما يفسده » » ، صوابه فى ط .
(٧) ب ، م : « وهل يصلح الدنا كما قالوا » ، صوابه فى ط .
(٨) ب ، م : « وهل التهييج على الفساد إلا كما وصفوا » ، صوابه فى ط .

ولو جَهَدت بكلِّ جَهدِكَ ، وجمعتَ كلَّ عقلِك أَنْ تفهم قولهم فى المسيح ، لما قدرتَ عليه ، حتّى تعرف به حدَّ النصرانية ، وخاصّةً قولَهم فى الإلهيَّة .

وكيف تقدر[1] على ذلك وأَنت لو خلوتَ ونصرانىٌّ نِسطورىٌّ فسأَلته عن قولهم فى المسيح لقال قولًا ، ثم إنْ خلوتَ بأَخيه لأُمِّه وأَبيه وهو نِسطورىٌّ مثلُه فسأَلتَه عن قولهم فى المسيح لأَتاك بخلاف أَخيه وصِنوِه . وكذلك جميع المَلْكانية واليعقوبيَّة[2] . ولذلك صِرْنا لا نعقل حقيقةَ النصرانية ، كما نعرف[3] جميعَ الأَديان .

على أَنَّهم يزعُمون أَنَّ الدين لا يَخرُج فى القياس ، ولا يقوم على المسائل[4] ، ولا يثبت فى الامتحان ، وإنَّما هو بالتَّسليم لما فى الكتب ، والتَّقليد للأَسلاف . ولعمرى ، إنَّ[5] من كان دينُه دينَهم ليَجِبُ عليه أَن يعتذر بمثلُ عُذْرهم .

وزعموا أَنَّ كلَّ من اعتقدَ خِلاف النصرانية من المجوسِ والصَّابئين والزَّنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمَّد الباطل ، ويُعانِدِ الحقَّ . فإذا صاروا إلى اليهود قَضَوْا عليهم بالمعاندة ، وأَخرجُوهم من طريق الغَلَط والشُّبهة .

٤ — فصل منه

فأَمَّا مسأَلتهم فى كلام عيسَى فى المهد : أَنَّ النصارى مع حبِّهم لتقويةِ أَمرِه لا يُثْبتونه ، وقولُهم : إنَّا تقوّلناه ورَوَيناه عن غير الثِّقات[6] ،

(١) ب ، م : « يقدر » .
(٢) انظر مامعنى فى ص ٣١٢ .
(٣) م فقط : « يعرف » .
(٤) فى جميع الأصول : « السائل » ، والوجه ما أثبت .
(٥) إن ، ساقطة من ط .
(٦) فى جميع النسخ : « الثقاة » ، وهو خطأ فى الرسم ، لأنه جمع ثقة .

وأنَّ الدليل على أنَّ عيسى لم يتكلَّم فى المهد أنَّ اليهودَ لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والخَزَرُ والدَّيلم . فنقول فى جواب مسألتهم عند إنكارهم كلامَ المسيح فى المهد مولوداً .

يقال لهم : إنَّكم حين سوّيتم المسألةَ وموّهتموها ، ونظمتم ألفاظَها ، ظننتم أنَّكم قد أنْجحتم[1] ، وبلغتم غايتكم . ولعمرى لئن حَسُنَ ظاهرُها ، وراعَ الأَسماعَ مَخْرجها[2] ، إنَّها لقبيحةُ المفتَّش ، سيِّئةُ المُعرَّى .

ولعمرى أنْ لو كانت اليهود تقرُّ لكم بإحياءِ الأَربعة الذين تَزْعمون[3] ، وإقامةِ المُقعَد الذى تدَّعون ، وإطعامِ الجَمْع الكثير من الأَرغفة اليسيرة ، وتصييرِ الماءِ جَمَداً[4] ، والمشيِ على الماءِ ، ثم أنكرَتِ الكلامَ فى المهد من بين جميع آياته وبَرَاهينه[5] لكان لكم فى ذلك مقال ، وإلى الطَّعن سبيل . فأمَّا وهم يَجحدون ذلِك أجمع ، فمرّةً يضحكون ، ومرّةً يغتاظون ويقولون : إنَّه صاحبُ رُقىً ونِيرَجَات[6] ، ومُداوِى

(١) أنجح : صار ذا نجح وظفر . ويقال أيضاً نجح ، إذا أصاب طلبته . ط فقط : « نجحتم » وأثبت ما فى ب ، م .

(٢) ب فقط : « لخرجها » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « يزعمون » . وهؤلاء الأربعة فيما يذكر المفسرون هم : « عازر » ، وكان صديقاً له ، أحياه بعد ثلاثة أيام فقام من قبره يقطر ودكه وبقى إلى أن ولد له . والثانى : ابن العجوز أحياه وهو على سرير الموت ، فنزل عن أعناق الرجال وحمل سريره ، وبقى إلى أن ولد له . والثالث : بنت العشار ، وقد متعت بولدها بعد ما حييت . والرابع : سام بن نوح عليه السلام . سألوه أن يحييه ليخبرهم عن حال السفينة . فخرج من قبره . هذا ما ذكره أبو حيان فى تفسيره ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الجمد ، بالتحريك ، وكذا بالفتح : الماء الجامد . وقيل : هو بالتحريك يكون جمعاً لجامد ، مثل خادم وخدم . ب فقط : « جامداً » .

(٥) ب ، م : « وبرهانه » ، صوابه فى ط .

(٦) كذا فى ب والحيوان ٤ : ٣٧٠ . فى م ، ط : « نيرنجات » ، وهما لغتان فى التعريب قال صاحب القاموس : « والنيرنج ، بالكسر : أخذ كالسحر وليس به . وعقب عليه الزبيدى بقوله : « هكذا فى سائر النسخ . والمنقول عن نص كلام الليث : النيرج ، بإسقاط النون الثانية . وجاء فى كتاب المعارف لابن قتيبة ١٧٨ : « وكان صاحب نيرنجات » . وأقول : هو بالفارسية « نيرنك » .

مجانينَ ، ومتطبِّبٌ ، وصاحب حِيَلٍ وتربُّصٍ خُدَعٍ [١] ، وقراءةِ كتب ، وكان لسناً مسكيناً [٢] ، ومقتولًا مرحوماً ، ولقد كان قبل ذلك صيَّادَ سمكٍ ، وصاحبَ شبك ، وكذلك أصحابه . وأنَّه خرجَ على مواطأةٍ منهم له ، وأنَّه لم يكن لِرشدة [٣] .

وأحسنهم قولًا ، وأَلينُهم مذهباً مَن زعم أنَّه ابنُ يوسفَ النَّجَّار [٤] .

وأنَّه قد كان واطَأَ ذلك المُقعدَ قَبل إقامته بسِنينَ ، حتَّى إذَا شَهَره بالقِعْدة [٥] ، وعُرِف موضُعه فى الزَّمْنَى ، مرّ به فى جمعٍ من الناس كأنَّه لا يريده ، فشكا إليه الزَّمانَةَ وقلَّةَ الحيلة ، وشِدَّة الحاجة ، فقال : ناوِلْنى يدك . فناوله يَده ، فاجتذبَه فأَقامه ، فكان تجمَّع [٦] لطول القُعود ، حتَّى استمرَّ بعد ذلك .

وأنَّه لم يُحيِ [٧] ميّتاً قطُّ ، وإنَّما كان داوَى رجلًا يقال له « لا عازَر [٨] » إذْ [٩] أُغمِىَ عليه يوماً وليلة ، وكانت أُمُّه [١٠] ضعيفةَ العقل ، قليلَة المعرفة ، فمرَّ بها [١١] ، فإذا هى تصرُخ وتبكى ، فدخل إليها

(١) التربص : المكث والانتظار . ب ، م : « وترمض » . وفى ط : « وصاحب » وأرى الوجه فيما أثبت .

(٢) ب ، م : « سكيتا » ، وأثبت مافى ط .

(٣) يقال هو لرشدة بالكسر وقد يفتح : نقيض قولهم : لزنية أو لغير رشدة . والرشدة : النكاح الصحيح . ط : « لم يكن له شدة » ، تحريف .

(٤) ط : « وأخسهم قولا وألأمهم مذهباً » ، تحريف .

(٥) القعدة ، بالكسر : ضرب من القعود .

(٦) ط فقط : « تجمد » .

(٧) ب ، م : « لم يحيى » ، تحريف .

(٨) فى جميع الأصول : « لاعار » ، وإنما هو « لعازر » المذكور فى إنجيل يوحنا ١١ : ٤٣

(٩) ب فقط : « إذا » .

(١٠) فى إنجيل يوحنا ١١ : ٥ أنها أخته وأسمها «مرثا».وفيه ايضاً أن يسوع كان يحب مرثا وأختها ولعازر . ويفهم من هذا أيضاً أن له أختين .

(١١) ط فقط : « بهما » .

لِيُسْكِتَها ويُعَزِّيَها ، وجَسَّ عِرقَه فرأَى فيه علامةَ الحياة ، فداواه حتى أَقامَه ، فكانت لِقلَّة معرفتها[(١)] لا تشكُّ أَنَّه قد مات ، ولفرحها بحياته تُثْنِي عليه بذلك ، وتتحدَّث به .

فكيف تستشهدون قوماً هذا قولُهم فى صاحبكم ، حين قالوا : كيف يجوز أَنْ يتكلَّم صبىٌّ فى المهد مولوداً[(٢)] ، فيجهله[(٣)] الأَولياءُ والأَعداءُ .

ولو كانت المجوسُ تقِرُّ لعيسى بعلامةٍ واحدة ، وبأَدنَى أُعجوبةٍ ، لكان لكم أَن تنكِرُوا علينا بهم[(٤)] ، وتستعينوا بإنكارهم . فأَمَّا وحالُ عيسى فى جميع أَمرِهِ عند المجوس كحال زَرَادُشتَ فى جميع أَمرِه عند النصارى فما اعتلالُهم بهم ، وتعلُّقهم فى إنكارهم ؟

وأَمَّا قولكم : وكيف لم تعرف الهندُ والخَزَر والتُّرك ذلك ؟ فمتى أَقرّت الهند لموسَى بأُعجوبةٍ واحدة ، فَضْلًا عن عيسى ؟ ومتى أَقرَّت لنبىٍّ بآية ، أَو روَتْ له سيرة ، حتى تستشهدوا[(٥)] الهندَ على كلام عيسى فى المهد ؟

ومتى كانت التُّركُ والدَّيلم والخَزرُ والبَبْر[(٦)] والطَّيلسَانُ[(٧)] مذكورةً فى شيءٍ من هذا الجنس ، محتجًّا بها على هذا الضرب ؟

---

(١) ب ، م : « بقلة معرفتها » .

(٢) ب ، م : « مولود » .

(٣) ب فقط : « فيجعله » .

(٤) ب ، م : « تتكبروا علينا بهم .

(٥) ب ، م « حتى يستشهدوا » .

(٦) الببر ، بباءين : أمة قديمة يبدو أنها من أمم الترك ، وتقرن بالطيلسان ، كما فى البيان ١ : ١٣٧ . وجاء فى الطبرى ٤ : ٢٤٦ : « فبعث عبد الله بن شبيل بن عوف الأحمسى فى أربعة آلاف . فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان » ، ب : « والسرو » م « والسر » ط : « والتتر » ، صوابهما جميعاً ما أثبت . ولم ترد « التتر » فى أثر من آثار الجاحظ ، كما أن معرفة العرب بالتتر جاءت متأخرة ، إذ لم يرد ذكرهم فى الكامل لابن الأثير قبل سنة ٣٤٥ .

(٧) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحى الديلم والخزر ، افتتحه الوليد بن عقبة فى سنة ٣٤ . معجم البلدان . وانظر الحاشية السابقة .

فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرفُ ذلك ولم يبلُغْنا عن أحدٍ بَتَّة ؟ أجبناهم بعد إسقاط نكيرهم(١) وتشنيعِهم ، وتزويرِ شُهودهم .

وجوابنا(٢) : أنَّهم إنَّما قَبِلُوا دينَهم(٣) عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريِّين بِزعْمهم(٤) : يُوحنَّا ، ومَتَّى . واثنان من المستجيبة(٥) وهما : مارقُش ولُوقَش(٦) ، وهؤلاءِ الأربعة لا يُؤمَن عليهم الغلطُ ولا النِّسيان ، ولا تعمُّدُ الكذب ، ولا التواطؤُ(٧) على الأُمور ، والاصطلاحُ على اقتسام الرِّياسة(٨) ، وتسليم كلٍّ واحدٍ منهم لصاحبه حِصَّته التى شرطها له .

فإنْ قالوا : إنَّهم كانوا أَفضَلَ من أَن يتعمَّدوا كذباً ، وأَحفَظُ من أَن ينسَوْا شيئاً ، وأَعلى(٩) من أَن يغلطوا فى دينِ الله تعالى ، أَو يُضِيعوا عَهْدا .

قلنا : إنَّ اختلاف رواياتهم فى الإنجيل ، وتضادَّها فى كتبهم(١٠) ، واختلافَهم فى نفْس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليلٌ على صحَّة قولنا فيهم(١١) ، وغفلتكم عنهم .

---

(١) فى الأصول : « تكثيرهم » .
(٢) ط فقط : « فجوابنا » .
(٣) قبلوا دينهم : أخذوه وتلقوه ، كما يقبل الرجل الدلو من المستقى والقابلة الولد من الوالدة .
(٤) ب فقط : « يزعمهم » ، تحريف .
(٥) ب فقط : « من المسيحية » ، تحريف .
(٦) هما مرقس ولوقا .
(٧) ب ، م : « ولا التواطى » ، صوابها فى ط .
(٨) ب ، م : « والاصلاح على أقسام الرياسة » ، صوابه فى ط .
(٩) ب ، م : « وأعنى » ، تحريف مافى ط .
(١٠) ب ، م : « وتضاد معانى كتبهم » .
(١١) الكلام بعده إلى نهاية هذه الرسالة بجميع فصولها ، ساقط من ط .

وما يُنكَر من مثل لُوقَش أَنْ يقول باطلًا ، وليس من الحواريِّين ، وقد كان يهوديًّا قبلَ ذلك بأيّامٍ يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريِّين خيرٌ من لوقش عند المسيح فى ظاهر الحكم بالطَّهارة ، والطباعِ الشَّريفة ، وبراءة السَّاحة .

٥ – فصـــل منه[1]

وسألتم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتَّخذ عبداً من عبادِه خليلًا ، فهل يجوز أن يتَّخذ عبداً من عباده ولداً ، يريد بذلك إظهار رحمته له ، ومحبَّتِه إياه ، وحُسْنَ تربيتِه وتأْديبه له ، ولُطْفِ منزلتِه منه ، كما سمَّى عبداً من عباده خليلًا ، وهو يريد تشريفَه وتعظيمه ، والدَّلالةَ على خاصِّ حالِهِ عنده .

وقد رأيتَ من المتكلِّمين من يُجيز ذلك ولا يُنكره ، إذا كان ذلك على التبنِّى والتَّربية والإبانة له بلُطْف المنزلة ، والاختصاص له بالمرْحمة والمحبَّة ، لا على جهة الوِلادة ، واتِّخاذ الصاحبة . ويَقول[2] : ليس فى القياس فرقٌ بين اتِّخاذ الولد على التبنِّى والتَّربية وبين اتِّخاذ الخليل على الولاية والمحبَّة .

وزَعَم أَنَّ الله تعالى يحكم فى الأَسماءِ بما أَحَبَّ ، كما أَنَّ له أَن يحكم فى المعانى بما أَحبَّ .

وكان يجوِّزُ دعوى أَهلِ الكتاب على التَّوراة والإنجيل والزَّبور ، وكتبِ الأَنبياءِ صلواتُ الله عليهم فى قولهم : إنَّ الله قال : « إسرائيل

(١) هذا الفصل ومايليه من الفصول إلى نهاية هذه الرسالة ساقط من ط كما سبق التنبيه .
(٢) ب : « ونقول » م : « وتقول » ، صوابهما ما أثبت .

بِكْرى[١] » أى هو أَوّلُ من تَبَنّيْتُ من خَلْقى . وأَنَّه قال : « إسرائيل بكرى ، وبنوه أَولادى » . وأَنَّه قال لداود : « سيُولد لك غلام ، ويُسمَّى لىَ ابناً ، وأُسمَّى له أَباً[٢] » . وأَنَّ المسيح قال فى الإِنجيل : « أَنا أَذهبُ إِلى أَبى وأَبيكم ، وإلهى وإلهكم[٣] » ، وأَنَّ المسيح أَمر الحواريِّين أَنْ يقولوا فى صلواتهم : « يا أَبانا فى السَّماءِ ، تقدَّس اسمُك[٤] » . فى أُمورٍ عجيبةٍ ، ومذاهبَ شنيعة[٥] ، يدلُّ على سوءِ عبادة اليهود[٦] ، وسوءِ تأْويل أَصحاب الكتب ، وجهلِهم مجازاتِ الكلام ، وتصاريف اللُّغات ، ونَقْلِ لغةٍ إلى لغة ، وما يجوز على الله ، وما لا يجوز . وسببُ هذا التأْويل كلِّه الغَىُّ والتقليد ، واعتقادُ التشبيه .

وكان يقول: إِنَّما وُضعَت الأَسماءُ على أَقدار المصلحة ، وعلى قَدْر ما يقابل من طبائع الأُمم . فربَّما كان أَصلحَ الأُمور وأَمتَنَها[٧] أَن يتبنَّاه الله أَو يتَّخذَه خليلًا ، أَو يُخاطبه بلا تَرجُمان ، أَو يَخلُقَه من غير ذَكَر ، أَو يُخرِجَه من بين عاقر وعقيم . وربَّما كانت المصلحةُ غيرَ ذلك

(١) فى سفر الخروج ٤ : ٢٢ : « فتقول لفرعون : هكذا يقول الرب ، إسرائيل ابنى البكر » . وفى سفر هوشع ١١ : ١ : « لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابنى » . وفى رسالة بولس إلى أهل رومية ٩ : ٤ : « الذين هم إسرائيليون ، ولهم التبنى والمجد » .

(٢) فى صموئيل الثانى ٧ : ١٢ — ١٤ : « متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكه . هو يبنى بيتاً لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد . أنا أكون له أباً وهو يكون لى ابناً » .

(٣) جاء فى إنجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ فى مخاطبة عيسى عليه السلام لمريم المجدلية : « قال لها يسوع : لاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى . ولكن اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » .

(٤) فى إنجيل متى ٦ : ٩ : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك » . وانظر أيضاً إنجيل لوقا ١١ : ٢

(٥) ب : « شيعة » م : « شنعة » ، والوجه ما أثبت ، وإن كانت « شنعة » صحيحة أيضاً .

(٦) ب : « عبارة » ، وأثبت ما فى م .

(٧) ب : « وأمته » م : « وأمنه » ، ولعل وجهه ما أثبت .

كلِّه . وكما تعبَّدنا أَنْ نسمِّيه جَواداً ونَهانا أَن نسمِّيه سَخِيًّا أَو سريًّا[١] وأَمرنا أَن نسمِّيه مؤمناً ونهانا أَن نسمِّيه مسلماً ، وأَمرَنا أَن نسمِّيه رحيماً ونهانا أَن نسمِّيه رفيقاً .

وقياس هذا كلِّه واحد ، وإِنَّما يتَّسع ويَسهُل على قدر العادة وكثرتِها. ولعلَّ ذلك كلَّه قد كان شائعاً فى دين هودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وإِسماعيلَ ، إِذْ كان[٢] شائعاً فى كلام العرب فى إِثبات ذلك وإِنكاره .

وأَمَّا نحن — رحمك الله — فإِنَّا لا نُجيزُ أَن يكون لله ولد ، لا من جهة الوِلادة ، ولا من جهة التَّبَنِّى ، ونرى أَنَّ تجويز ذلك جهلٌ عظيم ، وإِثمٌ كبير ؛ لأَنَّه لو جاز أَن يكون أَباً ليعقوب لجاز أَن يكون جدًّا ليوسف ، ولو جاز أَن يكون جدًّا وأَباً ، وكان ذلك لا يُوجِب نَسَبا ، ولا يُوهِمُ مُشاكلةً فى بعض الوُجوه ، ولا ينقُص من عِظَم ، ولا يَحُطُّ من بَهَاء ، لجاز أَيضاً أَن يكون عمًّا وخالًا ؛ لأَنَّه إِن جاز أَن يسمِّيه[٣] من أَجل المرحَمة والمحبَّةِ والتَّأْديب — أَباً ، جاز أَن يسمِّيه آخَر من جهة التَّعظيم والتفضيل والتسويد أَخاً[٤] ، ولجاز أَن يجد له صاحباً وصديقاً ، وهذا ما لا يجوِّزه إِلَّا من لا يعرف عظمة الله ، وصِغَر قدْر الإِنسان.

وليس بحكيمٍ من ابتذَلَ نفسه فى توقير عبْدِه ، ووضَعَ من قَدْره فى التوقُّرِ على غيره . وليس من الحكمة أَن تُحسِنَ إِلى عبدك بأَن تسىءَ إِلى

(١) فى النسختين : « سرنا » ، والصواب ماأثبت . والسرى : وصف من سرو كشرف ودعا ورضى ، سراوة وسروا وسرا وسراء ، وهى المروءة فى شرف .
(٢) م : « إذا كان » .
(٣) الكلام بعده إلى « يسميه » التالية ساقط من م .
(٤) فى النسختين : « والتفضيل أخا والتسويد أخا » ، و« أخا » الأولى مقحمة .

نفسك ، وتأْتى من الفضل ما لا يجبُ بتضييع ما يجب . وكثيرُ الحمد لا يقوم بقليل الذَّمّ(١) ، ولم يحمدِ اللهَ ولم يعرف إلهيَّته من جوَّز عليه صفاتِ البشر ، ومُناسبةَ الخَلْق ، ومُقاربةَ العِباد .

وبعدُ ، فلا يخلو المولى فى رفع عبدِه وإكرامه من أَحد أَمرين :

إِمَّا أَن يكون لا يقدر على كرامته إِلَّا بِهوانِ نفسِه ، ويكون على ذلك قادراً ، مع وَفَارةِ العظَمة ، وتمام البهاء .

وإن كان لا يقدر على رفع قَدْرِ غيره إِلَّا بأَن ينقص(٢) من قدر نفسه فهذا هو العجز ، وضِيق الذَّرع(٣) .

وإن كان على ذلك قادراً فآثر ابتذالَ نَفْسه والحَطَّ من شرفه فهذا هو الجهلُ الذى لا يحتمل(٤) .

والوجهان عن الله جلّ جلالُه منفيَّان .

ووجهٌ آخر يعرفون به صحَّة قولى ، وصوابَ مذهبى ، وذلك أَنَّ الله تبارك وتعالى لو علِم أَنَّه قد كان فيما أَنزَل من كتبه على بنى إسرائيل : إنَّ أَباكم كان بكرى وابنى ، وإنَّكم أَبنَاءُ بِكْرى – لما كان تغَضَّب عليهم(٥) إِذْ قالوا : نحن أَبناءُ الله ، فكيف لا يكون ابنُ ابنِ الله ابنَه(٦) ،

---

(١) فى النسختين : « مالا يقول بقليل الذم » ، والصواب حذف « ما » . لا يقوم به : لايعادله .

(٢) ب : « ينقض » ، صوابه فى م .

(٣) الذرع : الطاقة ، وهوأيضاً : بسط اليد . والمراد ضيق الخلق ، على المثل . م : « الزرع » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « لايحمل » ، والوجه ما أثبت .

(٥) التغضب : الغضب ، واستعار الراعى التغضب لشدة غليان القدر فى قوله :

إذا أحمشوها بالوقود تغضبت على اللحم حتى تترك اللحم باديا

وفى النسختين : «تعصب» بالعين المهملة، صوابه ما أثبت . وانظر الآية ١٨ من سورة المائدة .

(٦) ب : « لايكون ابن ابنه » م : « لايكون ابن الله ابنه » . والصواب ما أثبت .

وهذا من تمام الإكرام ، وكمال المحبَّة ، ولا سيَّما إن كان قال فى التوراة : بنو إسرائيل أبناء بكرى .

وأنت تعلم أنَّ العربَ حين زعمت أنَّ الملائكة بناتُ الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبَرَه ، وغَضِب على أهلِه ، وإنْ كان يعلم أنَّ العرب لم تجعل الملائكةَ بناتِه على الولادة واتِّخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يُخبِر عبادَه قبل ذلك بأنَّ يعقوبَ ابنُه ، وأنَّ سليمانَ ابنُه ، وأن عُزَيراً ابنُه ، وأنَّ عيسى ابنُه[١] ؟ .

فالله تعالى أعظمُ من أن يكون له أُبوَّةٌ من صفاته ، والإنسان أحقر من أن يكون بنوَّةُ الله من أنسابه .

والقول بأنَّ الله يكون أباً وجدًّا[٢] وأخاً وعَمًّا ، للنَّصارى ألزم ، وإن كان للآخَرِين لازماً ، لأنَّ النصارى تزعم أنَّ الله هو المسيحُ بنُ مريم ، وأنَّ المسيحَ قال للحواريِّين : « إخوتى » . فلو كان للحواريِّين أولادٌ لجاز أن يكون الله عمَّهم !

بل قد يزعمون أنَّ مَرْقُش هو ابن شَمْعُون الصَّفَا[٣] ، وأن زوزرى ابنته ، وأنَّ النَّصارى تُقِرّ أنَّ فى إنجيل مرقُش[٤] : « ما زاذ[٥] أُمُّك وإخوتُك على الباب » وتفسيرها : ما زاذ[٦] : معلِّم . فهم لا يمتنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أباً وجَدًّا وعمًّا .

---

(١) وأن عزيرا ابنه ، ساقط من ب .
(٢) ب : « أباً واحداً » ، صوابه فى م .
(٣) فى الفصل لابن حزم ٢ : ٢ أن مارقش هو تلميذ شمعون الصفا بن توما .
(٤) فى النسختين : « فى الإنجيل مرقش » صوابه ما أثبت . وانظر إنجيل مرقس ٣ : ٣٢ .
(٥) ب : « ماذاذ » بذالين معجمتين . والذى فى الإنجيل : « هو ذا » .
(٦) ب : « ماذاذ » بذالين معجمتين .

ولولا[١] أنَّ الله قد حكى عن اليهود أنَّهم قالوا : إنَّ « عزيراً ابنُ الله[٢] » ، ﴿ ويدُ الله مغلولة[٣] ﴾ ، و﴿ إن الله فَقيرٌ ونَحْنُ أغنياءُ[٤] ﴾ وحكى عن النَّصارى أنَّهم قالوا : « المسيح ابنُ الله » وقال : ﴿ قالت النَّصارى المسيحُ ابنُ الله[٥] ﴾ . وقال : ﴿ لقد كَفَر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثَلاثةٍ[٦] ﴾ ـ لكنتُ لَأَنْ أَخِرَّ من السَّماء أَحبُّ إلىّ من أن أَلفِظَ بحرفٍ مِمَّا يقولون . ولكنِّى لا أَصِلُ إلى إظهار جميعِ مخازيهم ، وما يُسِرُّون من فضائحهم ، إلَّا بالإخبار عنهم ، والحكاية منهم .

فإنْ قالوا : خبِّرونا عن الله ، وعن التوراة ، أليست حقًّا[٧] ؟ قلنا : نعم . قالوا : فإنَّ فيها « إسرائيلُ بِكرى[٨] » وجميعُ ما ذكرتم عنا معروفٌ فى الكُتب .

قلنا : إنَّ القومَ إنَّما أُتُوا من قلَّة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سُوء التَّرجمة ، مع الحكم بما يَسبِقُ إلى القلوب . ولَعمرى أنْ لو كانت لهم عقولُ المسلمينَ ومعرفتُهم بما يجوز فى كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فَصاحتهم بالعِبرانيَّة ، لوجَدوا لذلك الكلامِ تأْويلًا حسناً ، ومَخرجاً سَهْلًا ، ووجهاً قريباً . ولو كانوا أيضاً لم يُعطِّلوا فى سائرِ ما تَرْجموا لكان لقائلٍ مقالٌ ، ولطاعنٍ مَدخلٌ ، ولكنَّهم يخبرون أنَّ

(١) ب : « ولو » .
(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : « وقالت اليهود عزير ابن الله » ، وهى الآية ٣٠ من التوبة .
(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .
(٤) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٣٠ من سورة التوبة . والاقتباس هنا بطرح الواو ، فإن نص الآية : «وقالت النصارى » . وهو أمر جائز كما أشرت إلى ذلك فى كتابى تحقيق النصوص ص ٥١ .
(٦) الآية ٧٣ من سورة المائدة .
(٧) فى النسختين : « حق » ، صوابه ما أثبت .
(٨) انظر ما مضى فى حواشى ص ٣٣٢ .

الله تبارك وتعالى قال فى العَشْر الآيات[١] التى كتبتها أصابعُ الله : « إنِّى أنا اللهُ الشَّديد ، وإنِّى أنا الله الثَّقْف[٢] ، وأنا النار التى تأكل النيران[٣] ، آخذُ الأبناءَ بحَوْبِ الآباءِ ، القرن الأوَّل والثانى والثالث إلى السابع[٤] » . وأنَّ داود قال فى الزبور : « وافتح عينَك ياربِّ » و « قُمْ ياربّ » ، و « أَصغِ إلىَّ سَمْعَك ياربّ[٥] » . وأنَّ داود خبّر أيضاً فى مكانٍ آخر عن الله تعالى : « وانتبَه الله كما يَنْتبِهُ السَّكرانُ الذى قد شَرِبَ الخمر[٦] » . وأنَّ موسى قال فى التوراة : « خلق الله الأشياءَ بكلمته ، وبرُوح نَفْسه » . وأن الله قال فى التوراة لبنى إسرائيل : « بذراعى الشَّديدة أخرجْتُكُمْ من أهل مِصْر[٧] » . وأنَّه قال فى كتاب إشَعْياءَ : « احمدِ اللهَ حمداً جديداً ، احمدْهُ فى أقاصى الأرض ، يملأ الجزائر وسُكَّانَها ، والبُحورَ والقفار وما فيها ، ويكون بنو قَيْدار فى القُصور ، وسُكَّانُ الجبال[٨] - يعنى قيدار بن إسماعيل - ليَصيحوا ويُصيِّروا لله الفخر والكرامة ، ويسبِّحوا بحمد الله فى الجزائر[٩] » .

(١) فى النسختين : « فى العشر آيات » ، والوجه ما أثبت .

(٢) الثقف : الفطن الذكى .

(٣) فى النسختين : « أكل النيران » .

(٤) فى سفر الخروج ٣٤ : ٧ : « مفتقد إثم الآباء فى الأبناء وفى أبناء الأبناء فى الجيل الثالث والرابع » .

(٥) انظر المزامير ١٧ : ١ و ٢٨ ؛ ٢ و ٦١ : ١

(٦) فى المزامير ٧٨ : ٦٥ : « فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر » . عيط الشارب : قال عيط عيط ، بكسر العين ، وقد عيط تعييطا .

(٧) انظر الخروج ١٣ : ٣ والتثنية ٤ : ٣٤ / ٥ : ١٥ والمزامير ١٣٦ : ١١ - ١٢ .

(٨) فى سفر إشعياء ٤٢ : ١٠ ، ١١ : « غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال » .

(٩) فى سفر إشعياء ٤٢ : ١١ - ١٢ : « ليهتفوا . ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » . وفى الأصل هنا : « يصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويلبسون بحمد الله فى الجزائر » . وقد أصلحت العبارة فى ضوء مافى السفر .

وأنَّه قال على إثر ذلك : « ويخرج الربُّ(١) كالجبَّار ، وكالرَّجل الشُّجاع المجرِّب(٢) ، ويَزجُر ويصرخ ، ويهيِّج الحربَ والحميّة ، ويقتُل أعداءه(٣) ، يُفرح السماءَ والأَرض » .

وأَنَّ الله قال أَيضاً فى كتاب إشَعياء : « سكَتُّ . قال : هو متى أسْكت ، مثل المرأة التى قد أَخذها الطَّلْق للولادة أَتلهَّف(٤) ، وإن ترانى أُريد أَحرث الجِبال والشُّعَب(٥) ، وآخُذ بالعربِ فى طريقٍ لا يعرفونه(٦) » .

وكلُّهم على هذا اللفظ العربىِّ مُجْمِع . ومعنى هذا لا يجوِّزه أحدٌ من أهل العلم ، ومثل هذا كثيرٌ تركتُه لمعرفتكم به .

وأَنت تعلم أَنَّ اليهود لو أَخذوا القرآنَ فترجموه بالعِبْرانيَّة لأَخرجوه من معانيه ، ولحوَّلوه عَن وجوهه ، وما ظنُّك بهم إذا تَرجَموا : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونا انتقَمْنا منهم(٧) ﴾ ، و ﴿ لتُصْنعَ على عَيْنِى(٨) ﴾ ، و ﴿ السَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينه(٩) ﴾ ، و ﴿ على العَرْشِ اسْتَوَى(١٠) ﴾ ، و ﴿ ناضرةٌ . إلى ربِّها ناظرة(١١) ﴾ ، وقوله : ﴿ فلَمَّا تجلَّى ربُّه للجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا(١٢) ﴾ ،

(١) فى النسختين : « ويجى الرب » وفى سفر إشعياء : « الرب كالجبار يخرج » .
(٢) فى سفر إشعياء : « كرجل حروب ينهض غيرته »
(٣) فى سفر إشعياء : « يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه » .
(٤) لاريب أن فى العبارة تحريفاً . والذى فى سفر إشعياء ٤٢ : ١٤ : « قد صمت منذ الدهر ، سكت تجلدت . كالوالدة أصيح أنفخ وأنخر معاً » . سكت وتجلدت بتاء المتكلم فيهما .
(٥) فى سفر إشعياء : « أخرب الجبال والآكام وأجفف كل عشبها وأجعل الأنهار يبساً وأنشف الآجام » .
(٦) كذا . والذى فى السفر : « وأسير العمى فى طريق لم يعرفوها » . أسير من التسيير ، والعمى : جمع أعمى
(٧) الآية ٥٥ من سورة الزخرف . (٨) الآية ٣٩ من سورة طه .
(٩) الآية ٦٧ من سورة الزمر .
(١٠) الآية ٥ من سورة طه .
(١١) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .
(١٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

و ﴿ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى تكليماً[١] ﴾ ، و ﴿ جَاءَ ربُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[٢] ﴾ .

وقد يُعلم أنَّ مفسِّرى كتابِنا وأصحابَ التأويل مِنَّا أحسَنُ معرفةً ، وأعْلَمُ بوجوهِ الكلام من اليهود ، ومتأوِّلى الكتب ، ونحن قد نجد فى تفسيرهم ما لا يجوز على الله فى صفتِهِ ، ولا عند المتكلِّمين فى مقاييسهم[٣] ، ولا عند النحويين فى عربيَّتهم . فما ظنُّك باليهود مع غَباوتِهم وغَيِّهم ، وقلَّة نظرِهم وتقليدهم ؟

وهذا بابٌ قد غَلِطت فيه العربُ أنفُسها ، وفصحاءُ أهل اللُّغة إذا غَلِطت قلوبها ، وأَخْطأَتْ عقولها ، فكيف بغيرهم مِمَّن لا يعلم كعلمها ؟

سمع بعضُ العرب قولَ جميع العرب : « القلوبُ بيد الله » ، وقولهم فى الدُّعاءِ : « نواصِينا بيد الله » وقوله جل ذكره : ﴿بل يَدَاهُ مَبسوطَتانِ[٤]﴾ ، وقولهم : « هذا من أَيادى اللهِ ونِعَمِهِ عندنا » وقد كان من لغتهم أنَّ الكفَّ أيضاً يدٌ[٥] ، كما أَنَّ النِّعمة يد ، والقُدرة يد ، فغلط الشَّاعر[٦] فقال :

هَــوِّن عليكَ فإنَّ الأُمــورَ   بكفِّ الإلَه مَقاديرُهــا[٧]

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

(٣) فى النسختين : « مقايسهم » .

(٤) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٥) فى النسختين : « الكفر أيضاً يد » ، والوجه ما أثبت . وهو تمهيد للاستشهاد بالبيت التالى ، الذى أثبت للإله كفاً ، وذلك من سوء أدب الشاعر ، وإنما يعبر باليد فى ذات الله لمعنى النعمة والقدرة .

(٦) هو محمد بن حازم الباهلى كما فى العقد ٣ : ٢٠٦ . وسماه « ابن أبى حازم »، تحريف . وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهلى . كان من ساكنى بغداد ، ومولده ومنشؤه بالبصرة . وهو من شعراء الدولة العباسية . شاعر مطبوع ، إلا أنه كان كثير الهجاء للناس . ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون . كان يقول المقطعات الصغيرة فيحسن . وهو صاحب البيت المشهور :

يا راقد الليل مسروراً بأوله   إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

وقد عاتبه يحيى بن أكثم على اختصاره للشعر ، فأجابه بأشعار حسان .

انظر الأغانى ١٢ : ١٥١ – ١٦٠ والمرزبانى ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٧) فى العقد : * فلا تحرصن فإن الأمور *

وقد كان إبراهيمُ بن سيَّارٍ النَّظامُ يجيب بجوابٍ ، وأنا ذاكِرُه إن شاءَ الله . وعليه كانت علماءُ المعتزِلة ، ولا أُراه مقنعاً ولا شافياً .

وذلك أنَّه كان يجعل الخليلَ مثل الحبيب، مثل الولىِّ ، وكان يقول : خليلُ الرحمن مثل حبيبه ووليِّه وناصره . وكانت الخُلَّة والوِلاية والمحبَّة سواءً .

قالوا : ولمَّا كانت كلُّها عنده سواءً جاز أن يسمِّىَ عبداً له ولداً ، لمكان التربية التى ليست بحَضَانة ، ولمكان الرَّحمة التى لا تُشتَقُّ من الرحِم[1] ، لأنَّ إنساناً لو رحم جَرْوَ كلبٍ فربَّاه لم يَجُزْ أن يسمِّيَه ولداً ويسمِّىَ نفسه أباً . ولو التقط صبيًّا فربَّاه جاز أنْ يسمِّيَه ولداً ويسمِّىَ نفسَه له أباً ، لأنَّه شبيهُ ولدِه ، وقد يُولَد لمثلِه مثلُه . وليس بين الكلاب والبشر أَرحام ، فإذا كان شَبَهُ[2] الإنسان أبعدَ من الله تعالى من شَبه الجِرْو بالإنسان ، كان الله أحقَّ بألاَّ يجعله ولده ، وينسبَه إلى نفسه .

قلنا لإبراهيم النَّظامِ عند جوابِهِ هذا وقياسِهِ[3] الذى قاس عليه ، فى المعارضةِ والموازنةِ بين قياسِنا وقياسه : أرأيت كلباً أَلِفَ كَلَّابه[4] ، وحامَى وأَحمى دُونَه ، هل يجوز أن يتَّخذه بذلك كلِّه خليلًا ، مع بُعد التَّشابُه والتَّناسب ؟

فإذا قال : لا . قلنا : فالعبدُ الصالح أَبعَدُ شبهاً من الله من ذلك الكلْبِ المحسِنِ إلى كَلَّابه ، فكيف جازَ فى قياسك أن يكون الله خليلَ

(١) فى النسختين : « لايشتق » ، تحريف .
(٢) ب : « شبيه » .
(٣) ب : « وإن قياسه » .
(٤) الكلاب : صاحب الكلاب ، كما أن المكلب صاحبها الذى يعلمها أخذ الصيد ويصطاد بها . ب : « أرأيت كلابا » ، صوابه فى م .

من لا يشاكله لمكان إحسانه ، ولا يجوز للكلَّاب أَنْ يسمِّيَ كلبه خليلًا أَو ولداً لمكان حُسْن تربيته له ، وتـأْديبه إِيَّاه ، ولمكان حُسْن الكلب وكَسْبه عليه ، وقيامِه مقام الولدِ الكاسب والأَخِ ، وَالبَارّ .

والعبدُ الصَّالح لا يُشبِه الله فى وجهٍ من الوجوه ، والكلبُ قد يشبه كَلَّابه لوجوهٍ كثيرة ، بل ما أَشْبَهَه به مِمَّا خالفه فيه ، وإِن كانت العِلّةُ التى منَعَتْ من تسمية الكلب خليلًا وولداً بُعْدَ شبهِه من الإِنسان .

فلو قلتم[1] : فما الجواب الذى أَجبتَ فيه ، والوجهُ الذى أَرتضيتَه ؟

قلنا : إِنَّ إِبراهيم صلواتُ الله عليه ، وإِن كان خليلًا ، فلم يكن خليلَه بخُلَّةٍ كانت بينه وبين الله تعالى ، لأَنَّ الخُلَّة والإِخاء والصَّداقةَ والتَّصافىَ والخُلْطةَ وأَشباهَ ذلك منفيَّةٌ عن الله تعالى عزّ ذكره ، فيما بينه وبين عباده ، على أَنَّ الإِخاءَ والصَّداقة داخلتان فى الخُلَّة ، والخُلَّة أَعمُّ الاسمين ، وأَخصُّ الحالَيْن . ويجوز أَنْ يكون إِبراهيم خليلًا بالخَلَّة[2] التى أَدخلها الله على نفسه وماله ، وبين أَن يكون خليلًا [بالخَلَّة وأَن يكون خليلًا[3]] بخُلَّةٍ بينه وبين ربِّه — فرق ظاهر ، وبونٌ واضح . وذلك أَنَّ إِبراهيم عليه السلام اختلّ فى الله تعالى اختلالًا لم يختِلْه أَحدٌ قبله . لقَذْفِهم إِيَّاه فى النار ، وذبحِه ابنَه ، وحَمْله على مالِهِ فى الضِّيافة والمواساة والأَثَرة ، وبعداوةِ قومه ، والبراءة من أَبويه فى حياتهما ، وبعد موتهما ، وتركِ وطنه ، والهجرةِ إِلى غير داره ومَسْقطِ رأْسِه . فصار لهذه الشدائد مختلاًّ فى الله ، وخليلًا فى الله . والخَليل والمختلُّ[4] سواءٌ فى كلام

(١) فى النسختين : فلم قلتم » ، والوجه ما أثبت .
(٢) الخلة ، بالفتح : الحاجة والفقر .
(٣) تكملة يفتقر إليها الكلام .
(٤) فى النسختين: « مخول » ، تحريف . وفى اللسان : « ورجل مخل ومختل وخليل وأخل : معدم فقير » .

العرب . والدليل على أَنْ يكون الخليل من الخَلَّة كما يكون من الخُلَّة قولُ زهيرِ بن أَبى سُلْمَى ، وهو يمدح هَرِماً :

وإنْ أَتاهُ خليلٌ يومَ مَسْغبـــــةٍ يقـول لا عاجـزٌ مالى ولا حَرِمُ[١]

وقال آخر :

وإنِّى إلَى أَن تسعــفانى بحاجـةٍ إلى آل ليلَى مرَّةً لخليـلُ

وهو لا يمدحه بأَنَّ خليله وصديقَه يكون فقيراً سائلًا ، يأْتى يوم المسأَلة ويبسط يده للصَّدقة والعطية ، وإنَّما الخليل فى هذا الموضع من الخَلَّة والاختلال ، لا من الخُلة والخِلال .

وكأَنَّ إبراهيمَ عليه السلام حين صار فى الله مختلاً أَضافه اللهِ إلى نفسه ، وأَبانَهُ بذلك عن سائر أَوليائه ، فسَّماه خليلَ الله من بين الأَنبياء ، كما سمَّى الكعبة : بيتَ الله مِن بين جميع البيوت ، وأَهل مكَّة : أَهلَ الله من بَينِ جميع البلدان . وسمَّى ناقة صالح عليه السلام : ناقةَ الله من بين جميع النُّوق . وهكذا كلُّ شىءٍ عظَّمه الله تعالى ، من خيرٍ وشر ، وثوابٍ وعقاب . كما قالوا : دَعْه فى لعنة الله ، وفى نار الله وفى حرْقِه . وكما قال للقرآن : كتاب الله ، وللمحرَّم : شهر الله . و [على هذا المثال قيل لحمزة رحمة الله ورضوانه عزّ ذكره عليه : أَسدُ الله ، و[٢]] لخالد رحمةُ الله عليه : سيف الله تعالى .

وفى قياسنا هذا لا يجوز : أَنَّ الله خليل إبراهيم ، كما يقال : إن إبراهيم خليل الله .

---

(١) ديوان زهير ١٥٣ والعينى ٤ : ٤٢٩ .
(٢) هذه التكملة من م وإن كانت عبارة الدعاء هذه ليست من أسلوب الجاحظ .

فإن قال قائل : فكيف لم يقدِّموه على جميع الأَنبياءِ ، إذ كان الله قدَّمه بهذا الاسم الذى ليس لأَحدٍ مثلُه ؟

قلنا : إنَّ هذا الاسم اشتُقَّ له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه السلام : كليم الله ، وقيل لعيسى : روح الله ، ولم يُقَلْ ذلك لإبراهيم ، ولا لمحمد صلواتِ الله عليهما ، وإنْ كان محمد صلى الله عليه وسلم أَرفعَ درجةً منهم ، لأَنَّ الله تعالى كلَّم الأَنبياءَ عليهم السلام على أَلسنةِ الملائكة ، وكلَّم موسى كما كلَّم الملائكة ، فلهذه العِّلةِ قيل : كليم الله . وخلق فى نُطَف الرجال أَنَّ قذْفَهَا[1] فى أَرحام النساءِ على ما أَجرى عليه تركيب العالم ، وطباعَ الدنيا ، وخَلَق فى رحم مريم رُوحاً وجسداً ، على غير مجرى العادة ، وما عليه المناكحة . فلهذه الخاصَّة قيل له : روح الله .

وقد يجوز أَن يكون فى نبيٍّ من الأَنبياءِ خصلةٌ شريفة ، ولا تكون تلك الخَصْلة بعينها فى نبيٍّ أَرفعَ درجة منه ، ويكون فى ذلك النبى خصالٌ شريفة ليست فى الآخَر . وكذلك جميع الناس ، كالرجل يكون له أَبوانِ ، فيُحسن برَّهما وتعاهُدَهما ، والصَّبْرَ عليهما ، وهو أَعرجُ لا يقدر على الجهاد ، وفقيرٌ لا يقدر على الإِنفاق . ويكون آخر لا أَبَ له ولا أُمَّ له ، وهو ذو مالٍ كثير ، وخَلْقٍ سوىٍّ ، وجَلَد ظاهر ، فأَطاع هذا بالجِهاد والإِنفاق ، وأَطاع ذلك ببرِّ والديه والصَّبرِ عليهما .

والكلام إذا حرِّك تشعَّب ، وإذا ثبت أَصلُه كثرت فنُونه ، واتَّسعت طرقه . ولولا ملالة القارىء ، ومداراة المستمع لكان بَسطُ القولِ فى جميع ما يعرض أَتمَّ للدَّليلِ ، وأَجمعَ للكتاب ، ولكنَّا إنَّما ابتدأْنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانيَّة فقط .

(١) فى النسختين : « إذ قذفها » ، ووجهت العبارة بما ترى .

٦ — فصل منه

قلنا فى جواب آخر : إن كان المسيح إنَّما صار ابنَ الله لأَنَّ الله خلقه من غير ذكر ، فآدم وحواءُ[١] إذْ كانا[٢] من غير ذكر وأُنثى أَحقُّ بذلك ، إنْ كانت العلَّة فى اتخاذه ولداً أَنَّه خلقه من غير ذكر . وإن كان ذلك لمكان التربية فهل ربَّاه إلَّا كما ربَّى موسى[٣] ، وداود ، وجميع الأَنبياءِ . وهل تأْويل : « ربَّاه » إلَّا غَذَاه ، ورزقه ، وأَطعمه ، وسقاه ، فقد فعل ذلك[٤] بجميع الناس . ولَمَ سمَّيتم سَقْيَه لهمْ وإطعامَه إيَّاهم تربية ؟ ولِمَ ربَّاهُ وأَنتم لا تريدون إلَّا غَذَاه ورَزَقه ، وهو لمْ يَحْضُنْه ، ولم يباشر تقليبَه ، ولم يتولَّ بنفسه سقْيَهُ وإطعامَه ، فيكونَ ذلك سبباً له دون غيره ، وإنَّما سقاه لبَن أُمِّه فى صِغَره ، وغَذَاه بالحُبوب والماءِ فى كبره .

٧ — فصل منه

والأُعجوبة فى آدمَ عليه السّلام أَبْدعُ ، وتربيتُه أَكرم ، ومُنقَلَبه أَعلى وأَشرف ، إذْ كانت السماءُ دارَه ، والجنَّةُ منزلَه ، والملائِكةُ خُدَّامَه . بل هو المقدَّم بالسُّجُود ، والسُّجُود أَشدُّ الخضوع . وإن كان بِحُسْنِ التعليم والتَّثقيف[٥] ؛ فمَن كان الله تعالى يخاطبه ، ويتولى مناجاتَهُ دون أَن يُرْسل إليه ملائِكته ويبعث إليه رسُله ، أَقرَبُ منزلةً ، وأَشرفُ مرتبةً ، وأَحقُّ بشرَف التَّأْديب وفضيلةِ التعليم .

---

(١) رسمت فى النسختين : « حوى » .

(٢) ب : « إذا كان » م : « إذا كان » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى النسختين « إلا حماد بن موسى » ، صوابه ما أثبت ، وهو من دقيق التحريف ، حرفت « كما » إلى « حماد » و « ربى » إلى « د بن » .

(٤) ب : « فهل فعل ذلك » ، صوابه فى م .

(٥) أى « وإن كان تقديمه بحسن التعليم » ، وكلمة « التثقيف » ساقطة من م . وفى النسختين : « وإن كان بحسن التعليم » ، والوجه ما أثبت .

وكان الله تعالى يكلِّم آدمَ كما كان يكلِّم ملائكته ، ثم علَّمه الأَسْماءَ كلَّها ؛ ولم يكن ليعلِّمَه الأَسْماءَ كلَّها إلَّا بالمعانى كلِّها ، فإذا [كان[1]] ذلكَ كذلك فقد علَّمه[2] جميعَ مصالحه ومصالحِ ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميِّين ، ومَبْلغ قُوى المخلوقين .

٨ — فصل منه

فأمّا قولهمْ إنّا نقول على الناس ما لا يعرفونه[3] ، ولا يجوز أن يدينوا به ، وهو قولنا إنَّ اليَهود قالت : إنَّ الله تعالى فقيرٌ ونحنُ أَغنياءُ . وأَنَّها قالت : إنَّ يد الله مغلولة ، وإنَّها قالت : إنَّ عزيراً ابنُ الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ، ينكرون ذلك ويأْبَوْنَه أَشدَّ الإباءَ .

قلنا لهم : إنَّ اليهودَ لعنهم الله تعالى كانت تَطعن على القرآن ، وتَلتمس نَقْضَه ، وتطلُب عَيْبَه ، وتخطِّئُ فيه صاحبه ، وتأْتيه من كلِّ وجه ، وتَرصُده بكلِّ حِيلة ، ليلتبسَ على الضُّعفاء ، وتستميل قُلوبَ الأَغبِياءِ[4] .

فلمّا سمعَت قولَ الله تعالى لعباده الذين أَعطاهم ، قَرْضاً ، وسأَلهم قَرْضاً على التضعيف ، فقال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ مَنْ ذا الذِى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فيُضاعِفَه له[5] ﴾ . قالت اليهود[6] على وجْه الطَّعن والعيْب والتَّخطئة والتعنُّت : تَزعُم أَنَّ الله يَستقرِضُ مِنَّا ، ومَا استقرَضَ منَّا

---

(١) تكملة يفتقر إليها الكلام .

(٢) ب : فهل علمه » ، صوابه فى م .

(٣) سقطت كلمة « لا » من النسختين ، ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) ب : « الأغنياء » ، صوابه فى م . وفى النسختين : « ويستميل » ، تحريف .

(٥) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة . وقراءة نصب «فيضاعف» هى لعاصم وابن عامر ويعقوب. وقراءة الجمهور « فيضاعفه » بالرفع على الاستئناف . إتحاف فضلاء البشر ١٥٩ .

(٦) ب : « قالت » فقط .

إلَّا لفقره وغِنانا ! فكفرَتْ بذلك القولِ إذْ كان(١) على وجْه التَّكْذيب والتَّخطئة ، لا على وجهِ أَنَّ دينها كان فى الأَصل أَنَّ الله فقيرٌ ، وأَنَّ عباده أَغنياءَ . وكيف يعتقد إنسانٌ أَنَّ الله عاجزٌ عما يَقدِر عليه ، مع إقراره(٢) بأَنَّه الذى خلقَهُ ورزقَه ، وإن شاءَ حرَمَه ، وإن شاءَ عذَّبه ، وإن شاءَ عفَا عنه . وقدرتُه على جميعِ ذلك كقدرته على واحد .

ومجاز الآية فى اللُّغة واضح ، وتأْويلُها بيِّن ؟ وذلك أَنَّ الرجل منْهم كانَ يُقرض صَاحبَه لإرفاقه(٣) ، ليعود إليه مع أَصْل مالِه اليسيرُ من رِبْحه ، ثم هو مخاطرٌ به إلى أَن يعود فى مِلكه . فقال لهم ــ بحُسْن عادتِه ومِنَّته : آسُوا فقراءَكم(٤) ، وأَعْطُوا فى الحقِّ أَقرباءَكم ، من المال الذى أَعطيتكم ، والنِّعمةِ التى خوَّلتكم ، بأَمرى إيَّاكم وضَمانى لكم ، فأَعتدَّه منكم قرضاً وإنْ كنت أَوْلى به منكم ، فأَنا مُوفيكم حُقوقكم إلى مالا ترتقى إليه هِمَّة ولا تبلُغه أُمنيَّة . على أَنَّكم قد أَمِنْتم من الخِطار ، وسلمتم من التَّغْرير .

والرَّجُل يقول لعبْدِه(٥) : أَسْلِفْنى دِرهماً ، عند الحاجةِ تَعْرِضُ له(٦) ، وهو يعلم أَنَّ عبدَه ومالَهُ له . وإنَّما هذا كلامٌ وفَعَالٌ يدلُّ على حُسْن المِلْكة ، والتَّفَضُّلِ على العبْد والأَمَة ، وإخبارٌ منه لعبْده أَنَّه سيُعيد عليهِ ما كانت سخَتْ به نفسه .

---

(١) ب : « إذا كان » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « مع قراره » .

(٣) الإرفاق : النفع . وفى م : « لإرفائه » .

(٤) المؤاساة : مصدر آساه بماله : أناله منه وجعله فيه أسوة ، فهى المشاركة . وفى الحديث « ما أحد عندى أعظم يداً من أبى بكر ، آسانى بنفسه وماله » . وفى ب : « واسوا » على التخفيف ، وإن ذكر صاحب اللسان أنها لغة ضعيفة ، ففى حديث الحديبية : « إن المشركين واسونا الصلح » .

(٥) ب : « لعبد » ، صوابه فى م .

(٦) فى النسختين : « تقرض له » ، تحريف ما أثبت .

وهذا ليس بغلطٍ فى الكلام ولا بِضيقٍ فيه[(١)] ولكن المتعنِّت يتعلَّق بكلِّ سبب ، ويتشَبَّث بكلِّ ما وجَد .

وأمَّا إخباره عن اليهود أنَّها قالت : ﴿ يدُ اللهِ مَغْلولةٌ[(٢)] ﴾ ، فلمْ يذهبْ إلى أنَّ اليهود ترى أنَّ[(٣)] ساعدَه مشدودةٌ إلى عنقه بغُلّ . وكيف يذهب إلى هذا ذاهبٌ ، ويَدِينُ به دائن ؟ ! لأنه لابدَّ أن يكون يذهب إلى أنَّه غَلَّ نفسه أو غَلَّه غيره . وأيُّهما كان ، فإنَّه منفىٌّ عن وهمِ كلِّ بالغ يحتمل التكليف ، وعاقلٍ يحتمل التَّثقيف ، ولكنَّ اليهودَ قَومٌ جَبْرية ، والجبريَّة[(٤)] تُبخِّل الله مرّةً ، وتظلِّمُه مرة[(٥)] ، وإن لم تُقرَّ بلسانها ، وتُشهِدْ على إقرارها ، بقولهم : ﴿ يدُ اللهِ مَغْلولة ﴾ يَعنُون بِرَّهُ وإحسَانه[(٦)] . وقولُهم : مَغْلولةٌ ، لا[يَعني[(٧)]] أنَّ غَيْره حَبَسه ومَنَعه ، ولكن إذا كان عندهم أنَّه الذى منع أياديَه ، وحَبَس نِعمَه ؛ فهى مَحبوسَةٌ بحبْسه ، وممنوعةٌ بمنعه .

والذى يدلُّ على أنَّهمْ أرادوا باليَدينِ النِّعمة والإفضال ، دونَ

---

(١) فى الأصلين : « وهذا ليس يغلط فى الكلام ولايضيق فيه » .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة . (٣) فى النسختين : « بأن » تحريف .

(٤) فى اللسان : « الجبرية : الذى يقولون : أجبر الله العباد على الذنوب ، أى أكرههم عليه » . والمعروف عند المتكلمين أن الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب تعالى . والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة هى التى لاتثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا . والجبرية المتوسطة التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما فى الفعل وسمى ذلك كسباً فليس بجبرى . والمعتزلة يسمعون من لم يثبت للقدرة الحادثة فى الإبداع والإحداث استقلالا — جبرياً . الملل والنحل ١ : ١٠٨ .

(٥) فى اللسان (ظلم ٢٦٧) : « وظلمه (بالتشديد) : أنبأه أنه ظالم ، أونسبه إلى الظلم » وأنشد :

أمست تظالمنى ولست بظالم وتنبهنى نبهاً ولست بنائم

وفى ب : « وتعظمه » ، صوابه ما أثبت من م .

(٦) بره ، ساقطة من ب . وهى فى م : « يده » ، ووجه هذه ما أثبت .

(٧) تكملة يفتقر إلى مثلها الكلام .

السَّاعدِ والذراع ، جَوابُ كلامِهِمْ حينَ قال : ﴿ بَلْ يَداهُ مَبْسُوطتان يُنفِقُ كَيْفَ يشاءُ[١] ﴾ . دليلًا على ما قلنَا ، وشاهداً على ما وَصَفْنا .

فإن قالوا : فكيف لم نقل إنَّ اليهود بَخَّلت الله وجَحَدت إحسانه ، دون أَن يقال إنَّ يد الله مغلولة ؟

قلنا : إنْ أَراد الله الإخبارَ عن كُفْر قومٍ[٢] وسَخِط عليْهم ، فليْس لهمْ عليه أَنْ يعبِّر عن دينهم وعيوبهم بأَحْسنِ المخارج ، ويجلِّيها[٣] بأَحْسن الألفاظ . وكيف وهو يريد التَّنفير عن قولهم ، وأَن يبغِّضَهُمْ إلى مَنْ سمعَ ذلك عنهم .

ولو أَراد الله تعالى تليينَ الأَمر وتصغيرَه وتسهيلَه ، لقال قولًا غيْرَ هذا . وكلٌّ[٤] صدقٌ جائزٌ فى الكلام . فهَذَا مجاز مسْأَلتهم فى اللُّغة ، وهو معروفٌ عند أَهل البيان والفصاحة .

وأَمَّا قولهم : إنَّ اليهود لا تقول إنَّ عزيراً ابنُ الله . فإنَّ اليهود فى ذلك على قولين : أَحدهما خاصٌّ ، والآخر عامٌّ فى جماعتهم .

فأَمَّا الخاصُّ ، فإنَّ ناساً منهم لمَّا رأَوا عُزَيْراً أَعَاد عليْهم التَّوراةَ من تلقاءِ نَفْسِهِ ، بعد دُرُوسهَا وشَتَاتِ أَمرها غَلَوْا فيه ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور[٥] من أَمرهمْ . وإنَّ فريقاً من بقاياهم لباليمن والشَّامِ وداخلِ بلادِ الرُّوم . وهؤلاءِ بأَعيانهم يقولون : إنَّ إسرائيل اللهِ ابنُه[٦] ، وإذا كان ذلك على خلافِ تناسُب الناس ، وصار[٧] ذلك الاسم لعُزَير

(١) من الآية ٦٤ فى سورة المائدة .
(٢) ب : « على كفر قوم » ، صوابه فى م .
(٣) م : « ويجلبها » .
(٤) فى النسختين : « وحل » ، ووجهه ما أثبت . (٥) ب : « مشهود » .
(٦) انظر ماسبق فى ص ٣٣١ – ٣٣٢ . وهو ترجمة لكلمتى « إسرا » و « إيل » . وفى تفسير أبى حيان ١ : ١٧١ أن « إسرا » بمعنى العبد ، فى العبرانية .
(٧) ب : « وسار » بالسين .

بالطّاعة والعلامة ، والمرتبة لأنّه[١] من ولد إسرائيل .

والقول الذى هو عامٌّ فيهم ، أن كلّ يهودىٌّ[٢] ولدَهُ إسرائيل ، فهو ابنُ الله ، إذْ لم يجدوا ابنَ ابنٍ قطُّ إلّا وهو ابن .

٩ — فصل منه

فإنْ قالوا : ليس المسيحُ روحَ الله وكلمتَه ، كما قال عزّ ذكره : ﴿ وكلمتُه ألقاها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منه[٣] ﴾ أَوَ ليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر أُمّه أنّه نفخ فيها من رُوحه ؟ أَوَ ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها[٤] ؟ أَوَ ليْس مع ذلك قد أخبر أنّه لا أبَ له ، وأنّه[٥] كان خالقاً ، إذْ كان يَخْلُق من الطِّين كهيئة الطير ، فيكون حيًّا طائِراً ؟ فأَىُّ شىءٍ بَقِىَ[٦] من الدَّلالات على مخالفته لمشاكلةِ[٧] جميعِ الخلق ، ومباينةِ جميعِ البَشَر ؟

قلنا لهم : إنّكم إنّما سألتمونا عن كتابنا ، وما يجوزُ فى لغتنا وكلامِنا ، ولم تَسْأَلونا عمَّا يجوز فى لغتكم وكلامكم . ولو أنّنا جوّزنا ما فى لغتنا مالا يجوز ، وقلنا على الله تعالى مالا نعرِف ، كنَّا بذلك عند الله والسَّامعينَ فى حدِّ المكاثرين ، وأسوأَ حالًا من المنْقطعين ، وكنَّا قد أعطيناكم أكثرَ مما سألتم ، وجُزنا بكم فوق أُمنيَّتكم .

---

(١) ب : « لا لأنه » . و « لا » مقحمة تفسد الكلام .

(٢) فى النسختين : « أن يكون يهودى » .

(٣) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٤) فى الأصل : « أوليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ، أخبر أنه نفخ فيها من روحه » وفى هذا تكرار لاوجه له .

(٥) ب : « وأن » ، صوابه فى م .

(٦) فى النسختين : « نفى » ، تحريف .

(٧) فى النسختين : « بمشاكلة » . والمقصود نفى المشاكلة .

ولو كنَّا إذا قُلنا : عيسى رُوح الله وكلمتُه ، وجبَ علينا[١] فى لغتنا أَن يجعله الله ولداً ، ونَجْعلَه[٢] مع الله تعالى إلـهاً ، ونقول[٣] : إنَّ روحاً كانت فى الله فانفصلَتْ منه إلى بدنِ عيسى وبَطْنِ مريم . فكنَّا إذا قلنا : إنَّ الله سمَّى جبريلَ رُوحَ الله ورُوحَ القُدس ، وجب علينا أَن نقول فيه ما يقولون فى عيسى . وقد علمتم أَنَّ ذلك ليس من ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجهٍ من الوجوه عندنا ، فكيف نُظهر للناس قولًا لا نقولُه ، وديناً لا نرتضيه .

ولو كان قوله جلَّ ذكره[٤] : ﴿ فنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنا[٥] ﴾ يُوجبُ نفخاً كنَفْخ الزِّقِّ ، أَو كنفخ الصَّائغ فى المِنفاخ ، وأَنَّ بعض الرُّوح التى كانت فيه انفصلت فاصلةً إلى بطنه وبطن أُمِّه[٦] ، لكان قولُه فى آدم يوجب له ذلك ؛ لأَنه قال : ﴿ وبَدَأَ خَلْقَ الإنْسانِ من طينٍ . ثم جَعَلَ نَسْله[٧] ﴾ . . إلى قوله : ﴿ ونَفَخ فيه من رُوحِه[٨] ﴾ وكذلك قوله : ﴿ فإذا سَوَّيتَه ونَفَختُ فِيهِ مِنْ روحِى فقَعُوا لَهُ ساجِدِين[٩] ﴾ .

والنفخ يكون من وجوه ، والرُّوح يكون من وجوه :

فمنها ما أَضافه إلى نفسه ، ومنها ما لم يُضِفْه إلى نفسه . وإنَّما

---

(١) ب : « وجبب علينا » ، تحريف ، ما فى م .
(٢) فى النسختين : « ويجعله » ، محرف .
(٣) فى النسختين : « ويقول » .
(٤) فى النسختين : « ولو قال جل ذكره » . فينقطع الكلام عما بعده .
(٥) من الآية ٩١ من الأنبياء و ١٢ من التحريم .
(٦) فى النسختين : « بعض روح » .
(٧) فى النسختين : « بطنها وبطن أمها » .
(٨) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة السجدة .
(٩) الآية ٩ من سورة السجدة .
(١٠) الآية ٢٩ من الحجر و ٧٢ من ص .

يكون ذلك على قَدْر ما عَظُم من الأُمور ، فممَّا سمَّى رُوحاً وأَضافَه إلى نفسه ، جِبْريل الرُّوح الأَمين ، وعيسى بنُ مريم . والتوفيق كقول موسى حين قال : إنَّ بنى فلان أَجابوا فلاناً النبيَّ ولم يُجيبوك . فقال له[1] : « إنَّ روح الله مع كلِّ أَحد »[2] .

وأَمَّا القرآنُ فإنَّ الله سمَّاه روحاً ، وجعلَه يُقيم للنَّاس مصالحَهم فى دنياهم وأَبدانِهم ، فلما اشتبها من هذا الوجه أَلزمهما اسْمَهما فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وكذلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا[3] ﴾ وقال : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ[4] ﴾ .

١٠ — فصل منه

قد جعلنا فى جواباتهم وقدَّمنا مسائلهم[5] ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأَنفسهم ، ليكون الدَّليلُ تامًّا ، والجوابُ جامعاً ؛ وليعلمَ من قرأَ هذا الكتابَ ، وتدبَّر هذا الجوابَ ، أَنَّا لم نَغتنِمْ عَجْزَهم ، ولم ننتهزْ غِرَّتَهم ، وأَنَّ الإدلال بالحجَّة ، والثِّقة بالفَلْج والنُّصرة ، هو الذى دعانا إلى أَن نُخْبِر عنهم بما ليس عندهم ، وأَلَّا نقول فى مسأَلتهم بمعنىً لم ينتبهْ له مُنتبِه ، أَو يُشِرْ إليه مشير[6] ، وأَلَّا يُوردوا فيما يستقبلون ، على

(١) ب : « فقالوا له » ، تحريف .

(٢) إشارة إلى ماجاء فى سفر العدد ١١ : ٢٧ — ٢٩ : « فركض غلام وأخبر موسى وقال : ألداد وميداد يتنبآن فى المحلة . فأجاب يشوع بن نون خادم موسى من حداثته وقال : ياسيدى موسى ، اردعهما . فقال له موسى : هل تغار أنت لى ، ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم » .

(٣) الآية ٥٢ من الشورى .

(٤) الآية ٤ من المعارج .

(٥) م : « وقومنا مسائلهم » .

(٦) فى النسختين : « أو يشير » ، وإنما هو عطف على : « لم ينتبه » .

ضُعفائِنا ومَن قَصُر نظره مِنَّا ، شيئاً إلَّا والجواب قد سَلَف فيه ، وَأَلْسنَتهُمُ قد مَذِلت به (١) .

وسنسألهم إن شاءَ الله ، ونجيب عنهم ، ونستقصى لهم فى جواباتهم ، كما سأَلنا لهم أَنفُسَنا(٢) ، واستقصَيْنا لهم فى مسائلهم

فيقال لهم : هل يَخْلو المسيحُ أَن يكون إنساناً بلا إِلّه ، أَو إِلّهاً بلا إنسان ؟ أَو أَن يكون إِلّهاً وإنساناً ؟

فإنْ زعموا أَنَّه كان إِلّهاً بلا إنسان ، قلنا لهم : فهو الذى كان صغيراً فشَبَّ والتحَى(٣) ، والذى كان يأْكل ويشرب ، ويَنجُو ويبول ، وقُتِل بزَعمكم وصُلِب ، وولدَتْه مريمُ وأَرضعته ، أَمْ غَيرُه هو الذى كان يأْكلُ ويشرب على ما وصفنا ؟ فأَىُّ شيءٍ معْنى الإِنسانِ إلَّا ما وصَفْنا وعَدَّدنا ؟

وكيف يكون إِلّهاً بلا إنسان ، وهو الموصوفُ بجميعِ صفات الإنسان . وليس القولُ فى غيره مِمّن صفتُه كصفته إلَّا كالقول فيه كاشتِمالها على غيره ؟

وإنْ زعَمُوا أَنَّه لم ينقلبْ عن الإِنسانيَّة ولم يتحوَّل عن جوهر البَشَرِيَّة ، ولكن لما كان اللَّاهوت فيه ، صار خالقاً وسُمِّى إِلّهاً . قلنا لهم : خبِّرونا عن اللَّاهوت . أَكان فيه وفى غيره(٤)، أَم كان فيه دونَ غيره ؟

---

(١) مذلت به : أذاعته وأفشته ، وأصل المذل إشاعة السر . قال قيس بن الخطيم :

فــلا تمـــذل بسرك كل سر إذا ما جاوز الاثنين فاشى

ب : « قد دلت به » م : « قد زلت به » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « كما سألنا هم أنفسنا » ، صوابه فى م .

(٣) التحى : ظهرت لحيته . ب : « والتجى » بالجيم ، تحريف .

(٤) ب : « أكان فيه وفى غيره » فقط ، وبقية العبارة من م مع سقوط كلمة « فيه » الثانية ، وقد أثبتها تكملة للقول .

فإنْ زعموا أَنَّه كان فيه وفى غيره ، فليس هو أَولى بأَن يكون خالقاً ويتسمَّى إلَهاً من غيره . وإن كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوتُ جسمًا .

وسنقول فى الكسْر عليهم إذا صِرْنا إلى القَول فى التشبيه ، وهو قولُ مُعْظمهم[1] ، والذى كان عليه جماعتهم ، إلَّا من خالفهم من متكلِّميهم ومتفلسفيهم ، فإنَّهم يقولون بالتَّشبيه[2] والتجسيم ، فِراراً من كثرة الشَّناعة ، وعجزاً عن الجوابْ . وكفى بالتَّشبيه قُبحاً ، وهو قولٌ يعمُّ اليهودَ وإخوانَهم من الرَّافضة ، وشياطينَهم من المشبِّهة والحَشْويّة[3] والنَّابتة[4] ، وهو بعد متفرِّق فى الناس . والله تعالى المستعان .

(١) ب : « قول منع لهم » م : « منعلهم » ، وأثبت مارأيته الصواب .
(٢) فى النسختين : « فى التشبيه » .
(٣) انظر ما سبق من الكلام على الحشوية فى ص ٢٨٨
(٤) فى النسختين : « النابتة » ، وأثبت واواً قبلها لأن هؤلاء غير هؤلاء . وانظر للنابتة رسائل الجاحظ ٢ : ٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

فهرس الكتب والرسائل

صفحة